أسئلة اللغة
أسئلة اللسانيات

حصيلة نصف قرن من اللسانيات
في الثقافة العربية

إعداد وتقديم:

الدكتور حافظ إسماعيلي علوي

الدكتور وليد أحمد العنـاتي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار الأمان
الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-724-2

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية – الرباط – مقابل وزارة العدل

الهاتف: 37.72.32.76 (212) – الفاكس: 37.20.00.55 (212)

البريد الالكتروني: darelamane@menatra.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
هاتف/ فاكس: 676179 21 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهـداء

إلى آية وليد أحمد العناتي

ومحمد أمين وآدم حافظ إسماعيلي

جيل عربي يحلم بغد أفضل

المحتويات

محاور الكتاب

أسئلة اللسانيات

- أهمية اللسانيات
- علمية اللسانيات
- مكانة اللسانيات
- واقع البحث اللساني في الثقافة العربية
- عوائق البحث اللساني في الثقافة العربية
- المصطلح اللساني
- التعريب
- اللسانيات والتراث اللغوي العربي
- اللسانيات وتعليم وتعلم اللغة العربية
- اتجاهات لسانية جديدة
- الترجمة اللسانية في الثقافة العربية
- اللسانيات الحاسوبية
- البحث اللساني في بعض الأقطار العربية: محاولات للتقويم
- نصائح للسانيين الشباب

أسئلة اللغة

+ اللغة العربية والتحديات المعاصرة
+ اللغة العربية وتحديات عصر العولمة
+ اللغة العربية والمحيط السوسيوثقافي
+ اللغة العربية والتنمية البشرية
+ وسائل ترقية اللغة العربية

+ اللغة العربية والحاسوب

+ الثنائية اللغوية

+ اللغة العربية والاقتصاد

+ المجامع اللغوية وقضايا اللغة العربية

تقديم

-1-

يشبه الحوار أن يكون سمة وعلامة فارقة في ثقافة الأمم المتحضرة؛ ذلك أنه نقيض مباشر للتسلط والاستبداد بالرأي، وهو عدو صريح للتزمت ومحاولة التفرد برأي يفرضه طرف على آخر. ثم إن الحوار غالباً ما ينتهي إلى تقريب وجهات نظر المتخصصين في موضوع واحد، أو الناس الذين يعيشون في مجتمع واحد متعدد الثقافات والأديان والانتماءات؛ فبالحوار تذلل الفروقات ويوصَل إلى التفاهم.

ولا شك أن تعدد الرؤى والأفكار دليل صحة عقلية واجتماعية في أي مجتمع كان؛ فهو يسمح للآخرين بالتعبير عن آرائهم بحرية ودون خوف أو وجل، ويسمح للناس بالتفكير تفكيراً حراً منطلقاً غير مقيد أو مكبَّل بقيود يصطنعها متسلط أو مستبد.

وليس ثمة شك في أن أي حقل علمي يبقى منفتحاً على تعدد الرؤى والاجتهاد في الرأي، والسعي إلى التأويل المستند إلى حجة العقل، ومقارعة الحجة بالحجة.

ويبدو أن ثقافة الحوارات المتخصصة، ولاسيما الأكاديمية منها، في العالم كله ما تزال ثقافة هامشية أو ملحقة؛ وإنما نقصد بذلك أن هذه المحاورات إنما تجيء في صحيفة يومية أو أسبوعية، أو تجيء في مجلة ثقافية عامة لا ترقى إلى مستوى المجلة العلمية المحكمة ذائعة الرواج، فلا تدخل الحوارات في سياق البحث العلمي الخالص. ولم يسلم من هذا الأمر كبار العلماء في شتى ميادين المعرفة.

على أن هذه الصورة قد بدأت تتغير وتصير إلى التحسن؛ إذ صار ممكنا اليوم أن تجد حوارات مطولة في كتاب كامل أو في جزء من كتاب، فهذان مؤلفان يضمنان تحريرهما لبعض مقالات شومسكي (**في الطبيعة واللغة**)[1] حواراً طويلاً حول «**البرنامج الأدنوي**» في اللسانيات التوليدية، وهو حوار يكاد يستغرق ثلث الكتاب. وصنع مازن الوعر صنيعهما في كتابه (**دراسات لسانية تطبيقية**) فترجم مقابلة أجراها مع شومسكي وأخرى مع اللساني الفرنسي أندريه مارتينيه. وهذا

(1) عنوان الكتاب بالإنجليزية هو: *On Nature and Language, 2002*.

محمد شـاهين[1] يجمع عدداً من الحـوارات التي أجريت مع إدوارد سـعيد، فيحرر بعضهـا، ويترجم بعضها الآخر، ثم يقدمها في كتاب متميز يمثل إضافة نوعية لِمُنْجَزِ إدوارد سعيد في النظرية النقدية والثقافية...

ولا تختلف حوارات اللسـانيات عن حوارات السياسة أو الدين أو الثقافة؛ بل إن حوارات اللسـانيات تحتل أهميـة تَفْضُلُ غيرها من الحوارات؛ وهي إنما تسـتمد فضلها من فضل اللسانيات، فاللسـانيات اليوم هي محور أي نشاط علمي على هذه الأرض، وحـوار اللسـانيات لا يمكن فصلـه عن حوار السياسـة أو حـوار الدين أو حوار التقنية!

لم تعد اللسانيات علمَ اللسانيين المتخصصين حسب. إنها علم السياسي الذي يريـد أن يصل إلى سـدة الحكم، وليس له ذلـك إلا بامتـلاك أدوات الإقناع اللغوي ومهارات المحاجة والتواصل السليم. وليس يخلو أي مشروع سياسي من مشروع لغوي مصرَّح به أو مخبَّأ. ولعل مـا صرح به الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) يوماً من ضرورة تحسـين المهـارات اللغوية لغايات الأمن القومـي الأمريكي يصلح أن يكون مثالاً ناصعاً على ذلك: **علينا أن نتعلم لغة هؤلاء «الإرهابيين» لنصل إليهم في بلادهـم.... وعلينا أن نقنع هذه الشـعوب بأننـا نتعلم لغتهم وثقافتهـم لأننا نهتم بهم ونكترث لأمرهم!**

ولعـل أظهر الأدلـة على منزلـة اللسـانيات ووجاهة شـأنها ومركزيتهـا قدرتها علـى «محاورة» العلوم الأخـرى محاورة متكافئة بـل متفوقة؛ فـكان أن انتهى العلم اللساني الآن إلى حقول بينية متفوقة: **اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات الحاسوبية، واللسـانيات العصبيـة، واللسـانيات البيولوجيـة، واللسـانيات التربويـة، واللسـانيات الأدبية... إنه زمن اللسانيات بلا منازع!**

ولا يحتـاج الباحـث إلـى عنـاء طويـل لإيجاد بعـض الحـوارات اللسـانية في الصحف أو المجلات الثقافية العربية المختلفة؛ ولكنها في سـياق عام، وليسـت في سياق لساني خاص.

(1) إدوارد سـعيد، مقـالات وحـوارات، تقديـم وتحريـر محمد شـاهين، ط1، 2004، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- 2 -

وهكذا فـإن حواراتنا هنا تجيء في سـياق لسـاني خالص، وليس سـياقاً ثقافياً عاماً أو هامشياً؛ فقد قُصِدَ منها أن تكون لسانياتٍ في لسانياتٍ وباللسانيات. على أن هذا التخصيـص لا يعني بأي حال من الأحوال انصرافنا عما يتعالق باللسـانيات من علوم؛ فإن معطيات النظرية اللسانية الحديثة متعددة المشارب ومتنوعتها، فهذا إنذار صريح بأن ثمة أسئلة في لسانيات السياسة، ولسانيات الإعلام، ولسانيات العولمة... هذا كله وغيره كثير!

-3-

وإذا كانت الثقافة العربية قد انفتحت على اللسـانيات منذ أزيد من نصف قرن، فـإن اللسـانيات في ثقافتنا تكرر الأسـئلة نفسـها، وتطـرح القضايا نفسـها، ومازالت بعض أبجديات هذا العلم مغلوطة أو شـبه مجهولة في سـوق التداول، وهذا يجعل الحصيلـة ضعيفـة مقارنة بمـا ينجز فـي الغـرب. إنها ما تـزال في طور الاسـتهلاك الثقافـي والمعرفـي، وما يزال الإنشـاء والإنتاج اللسـاني لا يغادر منزلـة «المقدمات والكتـب التمهيديـة»، والنتيجـة؟ النتيجـة الطبيعيـة لهـذه المقدمات أن تعانـي اللغة العربية معاناة شـديدة؛ ذلك أن «**لسـانيات العربية**» لم تنجح في تطوير حلول ناجعة لأهم مشـكلات المجتمع العربي اللغوية: **التعددية اللغوية، والازدواجية، والتعريب، وحوسـبة العربية**... وليس هذا سياق تفصيل مشكلات اللسـانيات العربية؛ فإنها في المكان المعلوم من البحث الأكاديمي[1].

وفي الوقت الذي تتعاظم فيه منزلة اللسـانيات في عصر العولمة من حيث إنها العلم القادر علـى تجاوز المشـكلات الاجتماعية التي تجرُّ خلفها مشـكلات لغوية فإن الوضع يزداد قتامة للعربية ولسانياتها.

(1) انظر مثلاً: تقدم اللسـانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة جِهَوِيَّة، الرباط 1987، ط1، دار الغرب الإسـلامي، 1991. وعشـاري أحمـد محمـود، أزمـة اللسـانيات في العالـم العربي، المجلـة العربية للدراسـات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، المجلد السـادس، العددان الأول والثاني، 1988 وحافظ إسـماعيلي علوي، اللسـانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسـة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2009م.

وهكذا فإن هـذه الحوارات تجيء جهـداً متفرداً يقصد إلى الإجابة عن أسـئلةِ العربيـة المعاصرة، أسـئلةِ اللسـانيات النظرية والتطبيقيـة؛ وإنما يكون هذا الإسـهام بجمع حصيلة البحث اللسـاني العربي منذ انطلاقاته الأولـى وما انتهى إليه حاضِرُهُ، وانتهاءً بتشوّف صورته في المستقبل القريب أو البعيد؟

إنه جِمـاعُ ما تفرق من رؤى نخبة مـن العلماء اللسـانيين المتميزين في الثقافة العربيـة ممـن خبروا اللسـانيات في بلادها، وعايشـوا مرارتها ونكسـاتها فـي الثقافة العربيـة؛ فمن أقدر منهم على رسـم صورة اللسـانيات فـي الثقافـة العربية؟ وهؤلاء اللسـانيون يمثلون «جيـل الريادة» فـي هذا العلـم منذ دخولـه الثقافـة العربية مطلع النصف الثاني من القرن العشرين المنصرم.

-4-

وإنما حفزنا على إنجاز هذه الحوارات غاية شريفةٌ مفادها أن نجمع ما لـم يكن ممكنا جمعه يوماً ما من اللسـانيين ورؤاهم في مشـهد علمي واحد؛ إذ كان متعسراً على الدوام أن يلتقـي المحاوَرونَ هنا يوماً في ملتقـى أو مؤتمر علمي، وهل يمكن أن تتفق ظروف الناس وأحوالهم جميعاً؟

أما وقد بدأنا الحوارات فقد اسـتطعنا أن نبلغ من هذه الغاية جُلَّها؛ فلم نتمكن من تحصيل حوارات الجميع، وسيأتي بيان ذلك في هذه المقدمة.

ورغـم أننا تحركنا بحافز واحد محدد إلا أننا سـرعان ما بدأنا نستشـرف فوائد هذه الحوارات...

ولعل أظهر ما حصَّلناه أن كثيراً مـن المحاوَرين كانوا لا يصرحون برؤاهم في قضايـا معينة، فـكان أنْ جرَّ عليهم ذلك سـوء الفهـم والتأويل، بل تعداه إلى الشـتم والتشـنيع والتنكيـل، فكانت الأسـئلة المباشـرة أداة صالحة لتحصيـل إجابة محددة ومطلوبة، لعل هذا يصحح كثيراً من التأويلات والأفهام الخاطئة.

وإذا كان بعـض اللسـانيين العـرب قـد عُرِفـوا باتجاههـم معرفـة صريحة فإن مِـنْ هؤلاء النـاس مَنْ لم يصرحوا بانتمائهم إلى مدرسـة أو اتجـاه معين، فلعل هذه الحوارات تكشف لنا عن مذهبهم اللساني أو رؤيتهم لقضية ما، بل لعلها تكشف لنا أشياء جديدة لم نعرفها أو نتوصل إليها.

إن هـذه الحوارات حوارات بين اللسـانيين أنفسـهم ودون قصـد منهم، ودون ترتيب منا، فإنك واجدٌ أن إجاباتهم تمثل سجالاً مستمراً بينهم، ولعلها تفتح بوابات جديدة للحوار.

-5-

ولا يظنَّـن ظانّ أننـا نحابي أحـداً أو نجور على أحد؛ فقد كان مسـعانا توسـيع دائرة الحوارات لتشمل عددا أكبر من المشتغلين باللسانيات، سواء أكانواً من اللسانيين الخُلَّـص أم مـن المنفتحيـن على اللسـانيات من زاويـة تخصصهم كالفلسـفة أو علم الاجتماع أو علم النفس... وتحقيقاً لذلك سعينا، ما وسعتنا الحيلة، للتواصل المباشر أو غيـر المباشـر مع القـوم، فمنهم مـن اسـتجاب والتزم، ومنهـم من اعتذر لأسـبابه الخاصة، ومنهم من فضل الصمت، ومنهم من لم نهتد إلى طريقة للتواصل معهم رغم محاولاتنا المتكررة، وإنما نتحفظ على ذكر أسـماء من اعتـذروا أو تأخروا أو صمتوا رغبـة في جعل البـاب مفتوحا علـى مصراعيه لمن أراد الإسـهام في طبعـة ثانية لهذا الكتاب بحول الله.

-6-

أما بنية الحوارات فقد جعلناها في ما يشبه أن يكون قسمين:

- أما الأول فيشـبه أن يكون استطلاعاً لـِ «**قدر مشـترك**» من المعرفة اللسانية التي لا يتميز بها الواحد من سواه؛
- وأمـا الثانـي فيمثل ما يشـبه أن يكـون «**مجال تفـرُّد أو اختصـاص**» للعالم المحاوَر؛ أي ما عُرِف به واشتهر بين الناس.

فهي أسئلة عامة مشتركة، وأسئلة خاصة متخصصة.

-7-

ولـم يكن لنـا أي تدخل في متـنِ إجابـات المحاوَريـن؛ أمانـةً وحرصاً على التثبت العلمـي. وإنما تدخلنا فيما فرطَ من أيدي الطابعين من أخطاء طباعية وفنية أخرى.

-8-

ثـم إن الحوارات رتبـت ترتيبا هجائياً، تفاديا لأي سـوء فهم، إلا حوارَ حسـن خميـس الملـخ، الـذي آثـر أن يجعـل إجاباتـه فـي مقـال مترابـط، يراعي الأسـئلة المطروحـة، ويجيب عنها بشـكل متسلسـل. وقد وجدنـا في ما كتبه الدكتور حسـن حصيلة تقييمية للمقالات كلها، دون أن يطلع عليها، فأغنانا بذلك عن وضع مبحث تقييمي يلخص ما جاء في الحوارات. فكان من المفروض أن يكون مسك الختام.

وختاما نقول:

إن الهـدف من هذه الحوارات الخروج بحصيلة تقييمية لواقع البحث اللسـاني في الثقافة العربية، وطرح الأسـئلة الكبرى التي مازالت تؤرق الباحث اللساني، كما نتطلـع أن يكون الكتاب خلاصة ما راكمته تجربة أزيد من نصف قرن من الاشـتغال بالبحث اللسـاني، وأن يكون منطلقا لتجاوز الأسـئلة المعادة المكرورة التي مازالت الثقافة العربية تئن تحت وطئتها إلى اليوم.

ولا يفوتنـا فـي آخر هذا التقديم أن نجزل الشـكر لكل الأسـاتذة المشـاركين لما بذلوه مـن جهد مخلص، وتعاون بناء ينم عن وعيهـم بأهمية القضايا المطروحة للنقاش، وإحساسهم العميق بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، فإلى كل هؤلاء جزيل الشكر والعرفان.

الدكتور حافظ إسماعيل إسماعيلي علوي:

أستاذ اللسانيات المشارك في جامعة ابن زهر/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية- أكادير/ المغرب

من مؤلفاته:

- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة:دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2009م.
- قضايا إبسـتمولوجية في اللسـانيات، الدار العربية للعلـوم، ودار الاختلاف، لبنان، 2009م.

البريد الإلكتروني:*hafidsmaili@yahoo.fr*

الدكتور وليد أحمد العنـاتي:

أستاذ اللسانيات المشارك جامعة البترا الخاصة/ الأردن

من مؤلفاته:

- اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية
- اللغة العربية وأسئلة العصر
- التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية

البريد الإلكتروني: *anati_waleed@hotmail.com*

الدكتور أحمد العلوي

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلــود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضــل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقــق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيــات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: يجب تحديد معنى العلميـة أولا. هل يقـوم العلم بالمفاهيـم أو هل يقوم بالمقاديـر؟ اللسـانيات والأنتربولوجيـا الستراوسـية (نسـبة إلـى ليفـي سـتراوس) والسـيمياء البروبية (نسـبة إلى بروب) والغريماسـية (نسـبة إلى غريماس) وما شابه ذلـك منذ قيـام أول تحليل بنيـوي للرأسـمالية، كل ذلك يقـوم علـى المفاهيم التي تتبـدل لا على اكتشـاف المقاديـر. كلام سـتراوس ليس نبـوءة وإنما هـو كهانة. إنه يتكهن بكون اللسـانيات تصبح جسـرا تعبـره كل العلوم الإنسـانية إن هي أرادت أن تحقـق نصيبا من العلم. يقصد الإمكانيات التصنيفية وسـهولة التمثيل المفاهيمي في الوصف اللغوي بالنسـبة لصعوبة ذلك في العلوم الإنسـانية الأخرى. هو نفسـه قدم عن الخرافات التي درسـها نموذجـا للتمثيل مفاهيمي قريب مـن جهات من التمثيل المفاهيمي التركيبي أو الصوتي في اللسانيات المحضة. هذا كله لا يوصف بالعلمية إلا إذا قلَّصنـا معنـى العلميـة ليتعلق بالمفاهيم وحدهـا. ما القول أمـام من يزعم أن اللغة طاقة مادية جسـدية وأن على العالم باللغة أن يكتشـف إن كان قادرا الوسـائل التي تمكنـه من قيـاس مقاديرها وأشـكالها؟ اللسـانيات تنطلق من القول بـأن اللغة نص كما هـو الحال في البنيويـة أو تنطلق من القـول بأنها كفاءة عقليـة كالحال في التوليدية بمدارسـها. تجنبت اللسانيات من العهود القديمة النظر إلى الحياة والجسد الحي المصاحبين للممارسة اللغوية. لماذا؟ لأنها تحب أن تنطلق من قضية أولى لا برهان عليها هي أن اللغة شـيء منفصل عن الحياة والجسـد الحي وطاقته وأنها أمر كلي لا طاقي. كيف نزعم مع سـتراوس أن العلوم الإنسـانية تكتسـب العلمية باتباع خطى اللسـانيات المفاهيميـة وأول كتاب في العلوم الدقيقة ممـا يدرس في الثانوي

يعلمنا أن المعلوم فيها مقادير وكميات ومعـادلات وما يتصل اتصالا بالقوة والطاقة والفعل؟ إن اللسانيات والعلوم الإنسانية لن تتطور إلى كائن جديد إلا بعد أن تشتغل بالإنسـان الحي الحامل للطاقة اللغوية لا بالإنسان المتصور صاحب الكفاءة العقلية المرتبـط بالكليـات الميتة أي بالإنسـان المتخيل الوهمي الـذي لا يحيى ولا يموت وليس مقدارا من الحوادث.

س: **في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟**

ج: أولا لا يصـح وضع فاصل معرفي بيـن العمل اللسـاني القديم والحديث. **البحث اللسـاني الحديث هو امتداد للبحث القديـم، يتعامل معه ويتحاور وإياه.** حقا يمكن أن يقـال أن النصف الثاني من القرن العشـرين عرف اشـتغالا متميزا بالقضية اللغويـة يتفوق حجما ونوعـا على ما كان عرف قبله. ومن الحـق أن يقال أن لغويي النصـف الثاني مـن ذلك القرن تميـزوا بوعي أوسـع مما عرف عنـد لغويي النصف الأول. كان اطلاعهـم علـى تجـارب الغيـر منظمـا وواضحا ولـم يعد مجـرد أخبار متفرقة. وإذا صح أن نعد أسـماء اللغويين في النصف الثانـي من القرن فإننا لا نكاد نجـد فـي النصف الأول من يسـتحق أن يرتـب في اللائحـة ما عدا الأب أنسـتاس ماري الكرملي.

أمـا في المغرب فقد خلت البـلاد من البحث اللغوي النظري والمسـتورد قبل سنة 70 ونسي قبل ذلك اسم آخر اللغويين المغاربة التادلي الذي مازالت مخطوطاته قابعة في قسم المخطوطات بالرباط. وانتقل المغاربة متعجلين إلى المذاهب الغربية فـي اللغويات الغربية ولـم يكن مضى عليهم زمن كاف في اللغويات العربية إلا على الذين قدموا من القرويين أو ما شـابهها من تعليم قديم وعبروا البنيوية بمذاهبها إلى التوليديـة بفروعها واسـتولى عليهم هـوس المتابعـة الصحافية ونقلـوا النماذج ولـم يمارسـوا بأنفسـهم الحفر والحرث والـدرس والحصاد وبـدا لهم أنهـم وحدان في الباب وفاتهـم أن بعض علمهم مذاهـب متروكة عند أهلهـا وأن البحث اللغوي في الغرب هو ثمرة حـوار قائم عندهم كالحوار السياسـي. وانتقل الحال إلى مصر عند قيام دولة السادات فاسـتورد المصريون البضاعات اللسانية وانعدم إمكان قيام حوار

محلي كما انعدم إمكانه من قبل في المغرب. وإذا نظرت إلى اللغويات المستوردة منذ عهد السعران وجدت أن كل بضاعة لسانية تستورد تتحول إلى مانع يمنع قيام الحوار المحلي وليس ذلك عيبا في البضاعة ولكنه عيب في تجار الفكر. ويلاحظ أن ممارسة تقليد الماركات اللسانية اشتدت في مرحلة متأخرة ولم تكن عادة عند اللغويين الأولين من أهل النصف الثاني من القرن العشرين. تمام حسان وعبد الرحمن أيوب ومحمد المبارك وسعيد الأفغاني وغيرهم كانوا أكبر من أن يدرجوا بين جماعة المقلدين الجدد. وشخصيا قاومت تجارة الماركات اللسانية وخصوصا في مقال طويل بعنوان (لسانيات هبل) نشر في أعداد متتابعة من العلم الثقافي في زمن كان فيه ملحق تلك الجريدة ذا شأن ثقافي مرموق، كما كنت أقاومها في الممارسة الجامعية بصحبة الأستاذ المرحوم أحمد الإدريسي وآخرين ممن انضموا إلى اتحاد اللسانيين المغاربة.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم اللساني لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك -بحسب بحث قمنا به في هذا المجال- غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية... إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها.

ج: لا يستطيع أحد أن يمكّن لخطاب إن لم يستطع أن يحول لغته إلى صورة مقبولة من الجماعة المخاطبة. لا يستطيع أحد أن ينكر أن اللسانيات المعاصرة تحمل في خلاياها وثناياها خصائص الممارسة اللغوية الأوربية ومصطلحاتها ولذلك فإن إمكان نشرها في الأوساط الأوربية أسهل من إمكانه في الأوساط العربية. يضاف إلى ذلك أن اللغويين العرب ليسوا مشاركين في الحوار اللغوي الأوربي الأمريكي وإنما هم متبضعون. ولذلك فإن من العسير نقل اللعبة اللغوية، لأن ذلك يستوجب أن يكون الناقل عارفا بأصولها وهذا يستوجب أن يكون مشاركا فيها. انظر إلى سيبويه الذي كان مشاركا في الحوار اللساني لعصره وقارنه بالمبرد

الـذي كان أسـتاذا كبيرا ولكنه لـم يكن مشـاركا بدرجة سـيبويه فلتجـدن حينئذ في خطاب سـيبويه وضوحا وانتظاما لا تجده في كتابات المبرد. إن اللسـانيات في قدر كبير منها مجرد إنشاء للغة واصفة. هذه اللغة الواصفة شأنها أن تكون مرتبطة بخيال المتلقي وذلك سـبيلها إلى أن تتمكن في وعيه. أما إذا كانـت اللغة الواصفة مرتبطة بخيال أجنبي فإنه يتعسر ويتعذر توطينها.

سـس: **واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائـدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟**

ج: واقـع البحـث اللسـاني العربـي النظـري والعملـي ليـس هزيلا كمـا يظن. الجامعات ودور النشـر تصدر أعمالا متتابعة إن قورنـت بالحالة في أول القرن تبين أنهـا تؤثث الواقع الحالي بصورة جيدة. قد نتفق وقـد لا نتفق ولكن الإنتاج اللغوي حاضـر وهو أوسـع مما عرفـه العـرب فـي القرنيـن أو القـرون الثلاثـة الماضية أو الخمسـة. وما قلناه عن تجارة الماركات اللسـانية لا ينقص من قدر الجهد المبذول فإن تلك التجارة قد تكون مقدمة لما هو خير.

س: **يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصـه المعادلة: النحو $\neq$ اللسانيات، التراث اللغوي العربي $\neq$ اللسانيات؟**

ج: هذه المعادلة تنحل إذا علمنا أن الأسـماء ثلاثة أنواع على الأقل: الأسـماء الإداريـة والأسـماء العلمية والأسـماء التجاريـة. قد يكون للشـيء هـذا أو ذاك من الأسـماء ولكنه فـي الختام لا يعرف اسـمه الحقيقي إلا الذي يعرف اسـمه العلمي. لاحظ أن شومسكي زعيم اللسانيين في عهدنا كان يسمى أبحاثه بالنحويات.

الحقيقة أن الاسم المناسب للمباحث اللسانية وكل المباحث المتصلة بالإنسان الداخلة تحت اسم العلوم الإنسـانية هو علوم الإنسان المجرد. ما الإنسان المجرد؟ هو الإنسـان المجرد من زمانيتـه ومكانيته وشـخصه وقصته. هو إنسـان متوهم. هو إنسـان مجرد مـن كل ما يدل على مخلوقيته. الإنسـان الذي تدرسـه اللسـانيات هو هذا الإنسان الكلي المستخرج من كل البشر المتجسدين الذي شغله الشاغل الكلام والـذي لا قصـة له ولا يخضع للزمان والمكان. إنه الإنسـان المسـتفرغ من أجسـاد

البشر. ليس جسدا كآحاد الناس لأنه لو كان جسدا لصار كآحادهم خاضعا لما تخضع له الأجساد. إنه إنسان لا يموت ولا يحيى. الإنسان الطبيعي الذي لا تدرسه العلوم الإنسانية هو المتصف بدلائل المخلوقية والمملوكية والمربوبية البارزة في سيطرة قوانين الجسد عليه، قوانين الجسد الزمنية والمكانية والقصصية. هو الذي يحيى وينتظر الموت وينتظر العودة إلى الحياة بعد الموت ويخضع للزمان والمكان أي يخضع لقوانين ذلك أي يخضع لجسديته ويوقع أفعاله اللغوية وغير اللغوية في الزمن وتكون أفعاله لذلك مزمنة وتكون كلها في الختام جزءا من قصته التي كتبها ربه. العلوم الإنسانية تدرس الإنسان المجرد من جسده الذي هو دليل المخلوقية والمملوكية والمربوبية. ماذا يتلبث في أيدي تلك العلوم بعد التجريد؟ يتلبث فيها ما يتلبث من الإنسان إن نزعنا منه جسده. لاشيء.

هل موضوع العلوم الإنسانية هو اللاشيء؟ إن العلوم الإنسانية تصنع موضوعها وذلك ما يدعى بالبناء النظري للموضوع. هل هناك شيء اسمه اللغة الفرنسية؟ لا. الذي هو موجود هو المتكلمون بالفرنسية. أما اللغة الفرنسية فكيان يتخيله اللغوي ويصنع حدوده ويستدل عليه من قلب النظر اللغوي. لكن هذا المبني النظري الذي يصنعه اللساني أو النحوي أو اللغوي يظل في حكم اللاشيء بالإضافة إلى الكائن الطبيعي الذي هو الإنسان المخلوق المملوك المربوب المقصوص.

س: **تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟**

ج: العربية تحارب في بلدانها من جهة أهلها. إن مشكلة العربية مع العرب ليست تقوم في تأخرهم التكنولوجي والعلمي ولكنها تتمثل في فقدانهم لهويتهم النوعية ومحاولتهم المتكررة ترجمة هويتهم إلى هويات الآخرين النوعية. كثير من الشعوب تعرف من التأخر ما يعرفه العرب ولكنها غير مصابة بوباء فقدان الهوية القومية. اتجه شمالا ويمينا بل وانظر إلى المغرب نفسه تجد العرب فيه في حالة بينة من فقدان الانتماء إلى الذات. إن فقدان الهوية العربية عند العرب هو سبب فقدانهم

للهوية اللغوية. ما السبب؟ منذ أن طرد العرب في بداية القرن الثالث الهجري من الإمرة السياسية والاجتماعية والعسكرية بمؤامرة عربية عباسية معتصمية ومنذ أن حوصروا في الوظائف الدينية والتجارية ومنذ أن أصيبوا بالاستعمار التركي الأول على عهد خلفاء المعتصم ثم بالاستعمار البويهي ثم بالاستعمار السلجوقي ثم بالاستعمار المملوكي والمغولي ثم العثماني ومنذ أن أصيبوا في الغرب بالاستعمار القبلي الذي مثله الفاطميون والمرابطون والموحدون والمرينيون، باختصار منذ أن وقع العرب تحت أحكام استعمارية محلية وأجنبية مغلفة باسم الإسلام السني أو الإسماعيلي فقدوا هويتهم بأثر ذلك وبسبب تماهيهم المتصل مع العدو الذي استعمرهم. التماهي مع العدو هو السبب. إذن، لا تقوم للعربية قائمة إلا بعد قيام العرب وقيام هويتهم وشفائهم من وباء التماهي مع عدوهم. لا يعنى هذا كراهية لأنواع البشر الآخرين. لا. إن الحفاظ على الهوية العربية واللغة العربية ليس إلا تعلقا بالهوية البشرية ومن العار أن نعترف بكل الهويات إلا بالهوية العربية البارزة في لغتنا العربية الفصحى وفي عربيتنا الدارجة أيضا.

س: **ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟**

ج: ليست هناك لغات متقدمة معلوماتيا ولكن هناك مهندسو معلوميات لا يشتغلون بحوسبة العربية. لا صلة للسانيات بهذا إلا الصلة التي بين المستشار التقني ومهندس المعلوميات. من جهة أخرى لو فرضنا أن الأموال وجهت إلى تعريب جزء كبير من مواقع الانترنيت ولو تحول الاقتصاد العربي إلى اقتصاد مستقل غير تابع، حينئذ لن يتكلم أحد عن الفجوة. انظر إلى الهاتف المحمول في المغرب. حين اتجهت الأموال والهوية والقرار إلى ضرورة حوسبة الأمازيغية فيه حوسبت وألحقت في هذا الباب بالانجليزية. الاستقلال السياسي والاقتصادي والحفاظ على الهوية كل ذلك يؤدي إلى إقبار الفجوة التي يشار إليها في هذا السؤال.

س: **لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟**

ج: هذا ليس صحيحا فالعربية هي موضوع نظر لغوي في كل الأوقات في المشرق والمغرب. ولا ينبغي استقلال الجهود المبذولة سواء قبلناها أم رفضناها معرفيا ومنهجيا.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: سبل المعالجة الآلية شغل مهندسي المعلوميات لا شغل اللساني. اللساني شغله كما تقدم هو الإشارة التقنية وتسهيل البرمجة. ما يقال عن المعالجة الآلية كان يقوله القائلون عن تعليم العلوم بالعربية.كيف؟ كانوا يزعمون أن اللغات الأجنبية ضرورية لتعليم العلوم وكانوا يلصقون العجز بالعربية والآن يلصقون العجز في المعالجة الآلية العربية باللغة العربية. الحقيقة أن العاجزين في قضية العلوم هم أساتذة العلوم في البلدان العربية وأن العاجزين في المعالجة الآلية هم مهندسو المعلوميات. انظر إلى ما فعله أساتذة اللسانيات في العالم العربي وفيهم من كان لا يدرس إلا اللسانيات الغربية. لم يقولوا إن العربية عاجزة عن نقل العلوم اللسانية الحديثة ولكنهم بذلوا الجهد المطلوب وحولوا إلى العربية العلم اللساني الغربي ومازالوا يفعلون ذلك إلى وقتنا هذا. وفعل مثلهم أساتذة السوسيولوجيا وعلم النفس فلم يلصق أحد منهم عجزه بالعربية. ومن المؤسف أن أساتذة العلوم في الوطن العربي كان تصرفهم مخجلا في هذا الباب ومن المحزن أن يضطر القائل إلى أن يصرح هنا بأن جيل العلوميين العرب في القرن العشرين لم يبلغ إلى درجة النضج الفكري الذي أبان عنه أصحاب العلوم الإنسانية في باب الصدق عن الذات المتصل بالعلوم واللغة العربية. كان هؤلاء العلوميون أحد رجلين فإما أنهم كانوا عارفين بعلومهم مجردين من موهبة التبليغ وإما أنهم كانوا جاهلين بالعلوم التي كانوا يحملون شهاداتها. وفي كل الأحوال كانوا مثلا سيئا للمشتغل بالعلوم.

لا يختلف أمر مهندسي المعلوميات عن العلوميين فإما أن يسلكوا سلوكهم فلا يقوم مستقبل للمعالجة الآلية للعربية وإما أن يسلكوا سلوك أهل اللسانيات والسوسيولوجيا والبسيكولوجيا فيمارسوا مثل ما مارس هؤلاء فيستطيعون تحقيق المعالجة الآلية كما استطاع أولئك تحقيق الخطاب العربي في تلك العلوم. أقول

هذا مع حفظ الخلاف في موضوع العلوم الإنسانية من الناحية المعرفية المحضة.

س: **ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟**

ج: المجامع اللغوية دورها أن تمثل سلطة نحوية ومعجمية بالنسبة لإدارات الدولة ولا شأن لها بتقدم العلوم ولا بتوجيه البحث اللساني أو غيره.

س: **لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر في الغرب قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن، وأن الكثير من تلك السمات كان له تأثير مباشر في الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري (حداثي)، واتجاه تراثي (تقليدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا في الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي في غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟**

ج: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ أولا الفكر العربي كان يعني أشياء مختلفة خلال القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الشمسي. في أغلب الأحوال كان يعني الاشتغال بالدولة والاديولوجية السياسية وباختصار كان يعني العلوم السياسية والاجتماعية. في أوقات أخرى قصد به البحث الفلسفي، الآن اتسع معناه ليشمل البحث اللغوي. الحقيقة أن ذلك المصطلح أوسع من ذلك بكثير. طيب ليكن المعنى ما هو حاصل الآن. ما موقع ذاك في ذاك؟ أولا لا ينبغي أن ننسى أن الفكر هو ثمرة حوار قائم في الجماعة وأن من شروطه الانسجام بين المتحاورين واعترافهم بشروط الحوار وبدهياته ومسلماته. الجماعة الأوربية ذات حوار قديم انقطع في العصور الوسطى ثم قام في عهد النهضة. انقطع بدخول محاورين أجانب هم حملة الفكر اليسوعي البولسي{نسبة إلى يسوع وبولس}. هؤلاء المحاورون الأجانب لا علم لهم بشروط الحوار القائم أو هم خصومه. اختلط الحابل بالنابل في

الحوار الأوربي وأنتج الفكر الوسطوي بفلاسفته وآبائه وكنائسه ثم تخلص الغرب من هذه العثرة وعاد إلى حوار يحكم الباقي من الطبيعة البشرية بعد المحنة التي أصابتها في القرون الخالية. في المجال العربي عرف الفكر ضربة مشابهة عطلت القدرات الفكرية العربية. هذه الضربة هي ترجمة الآثار اليونانية التي كانت تحمل من الخرافة والنظريات الفاسدة أكثر مما كانت تحمل من خير. انظر إلى كتابات أرسطو وغيره عن الفلك والطبيعة. كلها تبعد عن التجربة والمشاهدة وتوقع في دهاليز دلالية. لم تكن التجربة الفكرية اليونانية بالمرتبة التي تجعلها موئلا لناشدي الخلاص من الجهل، والدليل أن الغربيين ما تقدموا إلا بإبطال مقدمات الفكر اليوناني. دع عنك ما يقولون عن الأصول اليونانية للحضارة الغربية فذلك مما يخاطب به الساسة العامة فإن الحضارة الغربية من القرن 16 هي انقلاب على الفكر اليوناني والفكر اليسوعي أجمعين. الآن بعد تبدل الأحوال وارتفاع قدر اليهود في الغرب صاروا يتحدثون عن الأصول اليهودية-المسيحية للحضارة الأوربية ونسوا الأصول اليونانية الرومانية التي كانوا يرفعون عقيرتهم بها قبل الحرب العالمية الثانية. إذن دخول اليونان في الحوار العربي الفكري أفسد جزئيا ذلك الحوار من جهة كونه زلزل المسلمات الحوارية القائمة وفرض على المتحاورين العارفين بأصول الحوار ومنازله التراجع والتحول إلى مؤولين وأحيانا الخروج من الحوار أصلا. انظر مثلا إلى الطب، هل كان المجتمع العربي خاليا من المعرفة الطبية قبل ترجمة جالينوس؟ بل هل يخلو مجتمع من المعرفة الطبية ولو كان متأخرا كمجتمع الاستراليين البدائيين؟ لا. فهل قدم اليونان بطبهم النظري البعيد عن التجربة القائم على نظرية الأخلاط جديدا للطب العربي الذي لم يسجل والذي نجد آثارا منه في كتب الأدب؟ لا نظن. الطب الاختباري الشعبي الذي تعرفه كل الشعوب هو في رأيي الأب الطبيعي للطب الحديث لا الطب النظري اليوناني.

من أسباب تقدم الفكر اللغوي العربي القديم أن الحوار اللغوي العربي أغلق على العناصر الأجنبية وظل حوارا محليا. نشأ الحوار اللغوي عند العرب وتطور عندهم ولم يجد حملة الفكر اليوناني سبيلا إلى الدخول فيه لأسباب ليس أهونها كون هؤلاء الحملة لا يتوافرون في جعبتهم على عناصر قادرة على الدخول في

الحـوار. لم يجـدوا عند اليونان شـيئا يشقشـقون به فيكفـى اللغويون العرب مشـقة تـرك الحوار المحلي والاسـتماع إلـى وافدين من مجـال حواري آخـر. ليس في ما آتـي به هنـا أي كزينوفوبيـا فكرية. لا. المـراد هو احتـرام الحدود الحواريـة القائمة لكيلا يفسـد حوار حوارا. إن كثيرا مـن الذين لا يعترفون بهذه الحـدود لا يعرفونها وكلهم يعتقدون أن الفكر كائن لا تاريخي وأنه يمكن استنباته في أرض دون أن يمر بالفصول الضرورية من شتاء وربيع وصيف وخريف. لا. **الفكر كائن تاريخي وثمرة لحوار قائم في التاريخ والفكر اللغوي العربي لا يخرج عن هذه القاعدة.**

ما مكاننـا من الفكـر اللغوي الإنسـاني؟ الجواب بسـيط. مكاننا ليـس خارجا عن الترتيب ومكان الفكر اللغوي الإنسـاني لم يبلغ حد المعجز. الاجترار والجديد ليس خاصة من خواص الفكر العربي. تخرج المطابع الأوربية كل سـنة تسـعين في المائـة من الاجتراريـات العالمية. حظنا إذن مـن المجتر قليل. الاجتـرار صفة عامة لنـا ولغيرنـا. حقا لا ينبغـي أن يغيب عـن بالنـا أمـران: الأول أن اللغـة العربية تتفه كل كلام يكتـب بهـا ولا يعظم في عين القـارئ بها إلا القرآن العظيـم ولو ترجمت الآثـار الأجنبية إلـى العربيـة وقرأها الناس لذهـب كل بريقهـا أو جلـه بانتقالها إلى هذه اللغة الشـريفة وليس في هذا احتقار للغات الأخـرى فهي أيضا لغات من خلق الله خلقهـا الله ولكن لم ترتبط بـكلام الخالق في التاريخ ولو كان القرآن مكشـوفا بالفرنسية أصلا لا ترجمة لتتفه كل كلام وكل فكر يعرب عنه بها. والثاني الاندهاش مـن الدخيل الذي يسـتوجب جهدا مـن المتحاورين. ودليل ذلـك أن الجماعات لا تخلـو من حـوار في كل أحوالهـا وذلك ما هو حاصـل في المغرب والبـلاد العربية الأخـرى فإذا دخل في الحـوار عناصر فكر صـادر عن جماعة أخـرى يحمله حملة كالذيـن حملـوا الفكـر اليوناني إلى الحـوار العربي القديـم تزلزل الحـوار واندهش الناس واحتاجوا إلى جهد جديد وداخلهم الخيال واستبد بهم حامله الشيطان وخيل لهـم أن عناصر حوارهم لا قيمة لها بجنب ما عنـد الحملة، ثم زين لهم أن يحتقروا نفوسـهم وأن يعظموا الفكر المحمول وأوهمهم أنه فكر لم يصدر عن حوار خاضع لنسبية المكان والزمان والأشـخاص وأنه حق مطلق. والنتيجة في الختام هي تحول المتحاورين مـن متناظرين ناطقين متأمليـن إلى حفاظ يحفظـون عناصر من الحوار

المنقـول وتصبح حالهم كحال المنتقل من كتابة الروايـة ابتداعا إلى كتابتها نقلا عن شريط تلفزيوني.

س: نجد اليــوم شبه إجماع على ضعف العربية فــي مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: حيـن تـدرس فـي أسـلاك التعليـم الابتدائـي والثانـوي نصـوص كتاب لا يسـتولون من العربية معجما وصرفا ونحوا إلا على أقل من واحد في المائة فحينئذ لا عجـب من انحطـاط معرفة الطلاب والتلاميذ بها. وأتذكر هنا أن الأسـتاذ شـارل بلا كلفني وأنا طالب بالسـوربون القديمة بالحضور في لجنة تسـيير قسم الدراسات العربية والعبرية والهندية وكان الوقت وقت إصلاح للتعليم بعد ثورة 1968م بفرنسا. لـم أندهش وأنا أحضر أعمال تلك اللجنة حين سمعت ممثل الدراسات العبرية يبين للحاضريـن أن إجازة العبرية شـرطها إحاطة الطالـب بتوراتهم العبريـة. حين يكون شـرط الباكالوريـا الإحاطة بشـيء من عربيـة الكتـاب العزيز ثم بعد ذلـك الاطلاع على غيرها من عربيات كبار الكتاب يكون أمر العربية في المؤسسـات التعليمية إلى ازدهار. نعم إن شاء واضعو البرامج مجاملة أصدقائهم من الكتاب فلهم ذلك بشرط أن يجعلـوا ذلك تحت اسـم العربية الوسـطى. يضاف إلى ذلـك أن العربية يزاحمها في التعليم الابتدائي لغة أخرى هي الفرنسية والآن أضافوا إليها اللهجات الأمازيغية وغـدا يضيفون اللهجات الدارجـة العربية وذلك كله مأخوذ مـن نصيب العربية لغير فائدة.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: الذكر والإهمال أمران متصلان بعوامل كثيرة. من يذكر أنبياء القرآن؟ قليل مـن الناس. والقرآن هل ذكـر هؤلاء الذين تدبج عنهم الكتب والمقالات؟ أرسـطو، أفلاطون، كونفوشـيوس، بودا، هيجل، ماركس، ابن خلدون الخ. لم يذكر أحدا من هؤلاء بالاسم وإن كان تحدث عن الأنواع. ذكر آخرين.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: المصطلح والتعريب له اتصال بما قلته من قبل عن الفكر والحوار. حين يقوم الحوار تقوم المصطلحات. أما التعريب فهو وسيلة لتطعيم الحوار بعناصر جديدة. من الأفضل أن تشارك في حوار آخر بلغته ثم أن تأتي إلى حوارك الأصلي لتحاور فيه بلغته أيضا. لاحظ أن لغة الحوار لا يقصد بها لغة التداول من عربية أو فرنسية وإنما يقصد بها القضايا المحكوم لها بالصحة والبداهة في حوار بعينه. إن تلك القضايا تمثل اللغة السائدة في ذلك الحوار وحين تعرب نتائج حوار آخر فإنك تأتي إلى حوارك بقضايا مسلمة في ذلك الحوار أو في موضع الشك وليست كذلك بالضرورة في حوارك. هذا يؤدي إلى إلغاء حوارك أو إلى زلزلته أو إلى تحويله إلى حوار تابع. ما يقال عن التبعية السياسية والاقتصادية يقال عن التبعية الفكرية. ليس الأمر في الفكر أمر تكنولوجيا يتفق على منفعتها. لا. الأمر أمر مصالح حوارية. المصالح الحوارية تعني حماية الحوار القائم في الجماعة لما في تلك الحماية من ضمان لإنسانية المتحاورين ولما في مقاومة المطلقية الفكرية الواردة من دفاع عن القول بنسبية الظن الذي هو أساس كل فكر مشارك في حوار في الشرق أو الغرب.

س: ماذا تقترحون بهذا الخصوص، من الناحية المنهجية تحديدا؟

ج: لابد من مقاومة المطلقية الفكرية التي يشقشق بها تجار الفكر الذين لا يعترفون بنسبيته وظنيته، ولابد من تمكين شروط الحوار ومقاومة كل العناصر التي تنذر بتعطيله. الحوار الفكري كالحوار السياسي. حرية التعبير أصل يرفضه الاستبداديون بالقوة الأمنية والجيشية والحوار الفكري كيان يرفضه المطلقيون بقوة المتاجرة الفكرية وقوة المؤسسات. ليس لأحد أن يدعي المطلقية. الله وحده يقول الحق وهو يهدى السبيل.

س: ما هي السبل الكفيلة في نظركم بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن

هي أرادت مسايرة الركب والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: لا ينبغي الاندهاش أمام ضخامة الإنتاج اللغوي الغربي فالكثير منه أدنى قيمة من كثير مما ينتج في البلاد العربية. القليل الأساسي هو الحقيق بالعناية. انظر إلى أعمال اللغوي الأمريكي هاريس أب التحويلية. يمكن الاستغناء عنها كلها ولا يتأثر علمنا بفقدانها وكذلك أعمال آخرين. في اللغويات الغربية أعمال أساسية قد نوافقها وقد نخالفها، ولكن تظل مع ذلك أعمالا تثير التساؤل وتستوجب التأمل. هذه الأعمال قليلة وهي التي ينبغي أن تترجم لتزول عن أعين الدارسين غشاوة الإكبار المفرط. إن إدراج هذه الأعمال في الحوار اللغوي المحلي بطريقة معقولة لا تزلزل أسسه يستوجب ترجمتها إلى العربية. وأما إذا بقي الحديث عن اللغويات الغربية قائما دون أن تترجم الأعمال الأساسية فالنتيجة تكون تلغيم الحوار المحلي.

هناك ملاحظة أخرى هي أن الاشتغال بالقضية اللغوية من الناحية النظرية قد استغرق وقتا طويلا. أقصد أن الدراسات اللغوية المحضة من تركيب وصرف وصوت في الاتجاهات المختلفة قد استغرق الجهد في السنوات الماضية وما كتبه المغاربة من الجيل الأول الذي درس في الجامعة بعد سنة 1967م وما كتبته الأجيال بعد ذلك في خصوص اللغويات المحضة قدم الدليل على الألفة الحاصلة بين المغاربة وبين الأدوات الشكلية المتخذة في تلك الدراسات. على هؤلاء اللغويين الآن استخدام تلك المعارف في دراسة واقعهم اللغوي. لا أقصد هنا اللهجات وإنما أقصد مثلا اللغة والقانون أو النظام اللغوي القانوني. في كل مجتمع فرائض لغوية يقررها القانون بمختلف فروعه بل إن القانون في حقيقة أمره ليس إلا فرضا لنظام لغوي. نرى ذلك في قانون الأحوال الشخصية وفي الدستور وفي القانون الجنائي والمدني وغير ذلك. إن التقدم بالدراسات اللغوية لن يتم بغير هذا الطريق الذي يمكن من اكتشاف التفاعلات المجتمعية القائمة في حضن الممارسة اللغوية. إن هذا يمكن أيضا من الانتقال من دراسة اللغة المتصورة نظريا إلى اللغة الممارسة بالفعل. ولا معنى للبحث في اللغة إن لم يكن مجال تدريب يمكن من الإجادة في رصد أنماط الممارسة اللغوية الفعلية.

س: وصفتم منذ سنوات ما يكتب في مجال اللسانيات في الثقافة العربية

«بالخطـاب اللساني الهزيل»، هل تغير موقفكم بهـذا الخصوص بعد هذه المدة الطويلة؟

ج: إن كنت قلت ذلك من قبل فلشيوع الصحافة اللسانية بين اللغويين.كان الرجل منهم يراقب ما يحدث من لغوي غربي ثم يأتي في المحافل اللغوية ويلقي بنتائج مراقبته متدللا بذلك وجاهلا أن اللغويات كالشطرنج، ليست الحكمة فيهما في حفظ طروح الأبطال ولكن الحكمة في إتقان اللعب. إن لم أحسن الغلبة في الطرح كما يحسنها البطل الفلاني فلا أقل من معرفة اللعبة وإجراء اللعب بها دون أن يكون لعبي في كل مراحله إعادة لطرح أحفظه.

س: **تعيش الجامعة المغربية اليوم على إيقاع الإصلاح. ما هو تقويمكم لهذه التجربة بعد مرور ثلاث سنوات على تطبيقها؟**

ج: هذا الإصلاح يناسب دولة لها من الإمكانيات المالية ما يؤهلها لاتخاذه. الذين وضعوا نظام المقروء في المغرب وفي فرنسا لم يكونوا جاهلين بصورة نظام الوحدات المقررة لكنهم كانوا يعلمون أن نظام الوحدات المقررة يستوجب جيشا من الأطر والوسائل وكتائب من البنايات والحجرات وأموالا. الحقيقة أن الأساتذة والجهاز الإداري قدموا جهودا عظيمة لإنجاح الإصلاح والانقلاب إلى النظام الجديد وأنا أقول ذلك عن مباشرة واطلاع والدولة أيضا لا تقصر. يعلم ذلك المطلع على الميزانيات المرصودة ولكن ذلك لا يكفي لمن يريد القرب من الكمال أما الكمال فلا يبلغ إليه أحد إلا الله فهو الكامل وحده.

س: **عرف تعريب التعليم العالي نجاحا كبيرا في بعض الأقطار العربية، ما الذي يجعل هذه التجربة لا تعمم في باقي الأقطار العربية الأخرى؟**

ج: التعريب وعدمه قضية سياسية وتعليمية. سياسية لأن الأنظمة الحاكمة لا تريد أن تعرب لأسباب لا داعي إلى الإطالة بذكرها هنا. والأسباب السياسية وإن كانت مهمة فهي لا ترقى إلى الأسباب التعليمية لأنها في الحقيقة تابعة لها. أثر الأسباب التعليمية أشد وأفعل.

تعليمية لأن القائمين على التعليم في التعليم العالي يقدمون بالعجز عن التعريب في معاهدهم الدليل على عجزهم العلمي. إن الذي يزعم أنه حجة في

العلم والعلم الفلاني ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يكون عالما بالضروري من العربية الذي يمكنه من الترجمة ليقدم الدليل على كذبه في ما يدعيه. الضروري من العربية هو في كل الأحوال أسهل منالا من ذلك العلم العسير الذي يزعم أنه يحيط به. ويحضرني في هذا الباب مثال اللغويين من الجامعيين فإن منهم من كان متخصصا في اللغويات الغربية وحين قدر له أن يدرسها في الجامعة بالعربية بذل جهدا وترجمها وعلم الناس مفاصلها بالعربية ولم يقل كما قال بعض العلوميين الذين تعللوا بكون المراجع في علومهم باللغة الأجنبية فأرغموا السياسيين على الحفاظ على تلك اللغة الأجنبية. والحقيقة أن هؤلاء العلوميين إنما أرادوا بالنهي عن درب التعريب التسهيل على أنفسهم في التدريس وما أسهل أن تنقل من كتاب. ذلك أيسر من النظر فيه وتعريبه وإن كان ذلك ممكنا للعالم الحقيقي.

س: **سلكتم في أبحاثكم مسلكا خاصا يعتمد القرآن أصلا معرفيا، لماذا هذا الاختيار؟**

ج: القرآن المجيد أصل معرفي لأنه يقدم نفسه كذلك. ليس القرآن كتابا جزئيا في السياسة أو القانون أو الإيديولوجيا. إنه كتاب المعرفة الأول ولمن شاء أن يتأكد من ذلك عليه أن ينظر فيه. لكن ينبغي أن ينظر فيه على مكث لا بالسرعة التي يقرأ بها في المحافل. لقد حان وقت انتزاعه من يد الظلاميين والخرافيين والساسة الكذابين. هل يجوز أن نترك هذا الكتاب العظيم بين أيدي هؤلاء المجرمين وأن نزهد فيه لمجرد أنهم كتبوا عنه أو افتروا عليه أو ادعوا الحق المطلق في الحديث باسمه؟ قبل سنة 1985م كنت من الداعين لهذا أو ذاك من الطرق المعرفية ثم عنَّ لي أن أقرأ القرآن وكنت فارقته فلم أكن عدت إليه على سبيل التأمل والمساءلة فلما عدت إليه على ذلك النهج أعظمت الفرق بين قراءتي وأنا مراهق أو شاب وبين قراءتي وأنا في لجة الخمسين وبدا لي أني أخطأت إذ قرأت غيره وفارقته ثم بدا لي أنه من العار أن ينخدع أهل المعرفة بالحصار الذي يضربه حوله الجهلة وأن يزهدوا فيه وأن يتركوه لهم ترك العاجز عن استخلاص الضوء من قبضة الظلام.

س: **ما هي أهم مشاريعكم العلمية المستقبلية؟**

ج: العلم لله. أبحث عن السفينة، عن سبيل النجاة المعرفية، عن شيء يشبه

سـفينة نوح. أبحث عن ذلك فـي القرآن العظيـم. مازلت أتابع ما شـرعت فيه حين كتبت (الطبيعة والتمثال).

س: **ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟**

ج: النصائـح لا تنفـع إلا القليـل مـن الناس وما تقـدم كله فـي حقيقته نصائح تجربة لي ماضية.

الدكتور أحمد المتوكل

س: تشتغلون أستاذنـــا، منذ سنوات على المنحى الوظيفي، وهو أحد مناحي الدرس اللساني الحديث، نريد منكم بداية تقريب القارئ العربي من هذا المنحى، وعلاقته بـالاتجاهات اللسانية الأخرى؟

ج: بخصوص الشـق الثاني من السـؤال، لا يخفى على المشتغل بابستمولوجيا الفكر اللسـاني وبتاريخ هذا الفكر واتجاهاته أن يميز بين تيّارين أساسيين اثنين: تيار «**صوري**» يقف في مقاربته للغات الطبيعية عند بنيتها لا يكاد يتعداها، وتيار «**وظيفي**» يحاول وصف بنية اللغات الطبيعيـة بربطها بما تؤدّيه هذه اللغات من وظائف داخل المجتمعـات البشـرية. ويمكـن أيضا للمشـتغل بذلـك، إذا مـا هو أعمـل الفكر في التراث اللغوي البشـري، أن يتبين أن لكلّ من هذين التياريـن أصوله وامتداداته وأن التقابـل بين مفهومي «الصوريـة» و«الوظيفية» ليس مقصوراً على النظريات اللسـانية الحديثة وإن كان له في هذه النظريات من الوضع المنهجي ومن وضوحه ما ليس له في الدرس اللغوي القديم.

ومن هذا المنطلق يسعى لسانيو المنحى الوظيفي في إنجاز مشروع ذي شقين: إضاءة نسـق اللغـة العربية صرفا وتركيبـا واسـتعمالها فُصحـى ودوارج في مختلف القطاعـات الاقتصادية-الاجتماعية من منظور مبدإ تبعيـة البنية لوظيفة التواصل ومد الجسـور لوصل البحث اللساني الوظيفي بالتنظير العربي التراثي للدلالة منظوراً إليه في مُجمله نحواً وبلاغة وفقه لغة وأصول فقه وتفسيراً.

س: لا شك أن هنـاك مبـادئ أساسية للنحو الوظيفي تشكل مرتكزا للبحث؟

ج: أجل، ترتكـز المقاربة الوظيفية، شـأنها في ذلك شـأن كل النظريات، على مبـادئ عامة، بقطع النظر عن الإطـار الذي يتبناها قديما كان أم حديثا، وسـنبين هنا أهمها، وعلى من يريد أن يسـتزيد فـي هذا الموضوع الرجوع إلى كتاب لنا سـيظهر قريبـا (المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي) وسـيجد تفصيلا وتمثيلا للقضايا التي سنعرضها.

1 - أداتية اللغة: من المعلـوم **أن** المقاربة الصورية تعدّ اللغة موضوعاً مجرداً؛

أي مجموعـة من الجمل تربـط بين مكوناتها علاقـات صرفية-تركيبيـة ودلالية. في هذا المنحى، تقارب اللغة على أسـاس أنها بنية مجـردّة يمكن أن تُدرس خصائصها في حدّ ذاتها، أي بقطع النظر عمّا يمكن أن تُستعمل من أجله. أما المقاربة الوظيفية فتعتبـر اللغـة أداة تُسـخّر لتحقيـق التواصـل داخـل المجتمعـات البشـرية. مـن هذا المنظـور، تعد العبـارات اللغوية، مفـردات كانت أم جملاً، وسـائل تسـتخدم لتأدية أغراض تواصلية معينة وتُقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس.

2 - وظيفـة اللغة الأداة: إذا نحن سـلمنا بـأن اللغة أداة، فما هـي وظيفتها؟ يسـخّر مسـتعملو اللغـة هـذه الأداة لتحقيق أغـراض متعـددة كالتعبير عـن الفكر والأحاسـيس والمعتقدات والتأثيـر في الغير بإقناعه أو ترغيبـه أو ترهيبه أو مجرّد إخباره بواقعة ما.

إلاّ أن هذه الأغراض وإن تعددت واختلفت من حيث طبيعتها آوية إلى وظيفة واحدة هي تحقيق التواصل بين أفراد مجتمع ما. فمن المعلوم أن التواصل يمكن أن يتم عبر قنوات أخرى كالإشـارة والصورة إلاّ أن التواصل عبر هذه القنوات لا يرقى قوّة ودقة إلى التواصل المتوسّل فيه باللغة.

ومن المعلـوم أيضـاً أن أدوات التواصل غيـر اللغوية قد تتضافر مـع اللغة في أنساق تواصلية «مركبة» كالشريط السينمائي مثلاً.

3 - اللغة والاسـتعمال: يرتبط نسـق اللغة ارتباطا وثيقاً بنسق استعمالها. ويُقصد بنسق الاستعمال مجموعة القواعد والأعراف التي تحكم التعامل داخل مجتمع معين.

نسقا اللغة والاسـتعمال نسـقان مختلفان من حيث طبيعتهما لكنهما مترابطان. ويتجلى هذا الترابط في كون نسـق الاسـتعمال يحدّد في حالات كثيرة قواعد النسق اللغـوي المعجميـة والدلاليـة والصرفية-التركيبيـة والصوتيـة وهـو ما يُعنـي به فرع اللسانيات المسمّى «اللغويات الاجتماعية».

مـن أبسـط الأمثلة فـي هـذا المضمـار اختـلاف خصائـص العبـارات اللغوية باختلاف الوسـائط الاجتماعية كجنس المخاطب وسنّه وطبقته المجتمعية والمنطقة الجغرافيـة التـي ينتمـي إليهـا. فالمتكلم لا يسـتعمل النمط نفسـه من العبـارات في مخاطبة أشخاص ذوي أوضاع مجتمعية مختلفة.

4 - سياق الاستعمال: يقتضي التواصل «الناجح» أن تطابق العبارة المنتقاة سياق استعمالها. وسياق الاستعمال سياقان: سياق مقالي وسياق مقامي.

5 - اللغة والمستعمِل: يشكل حمولةَ العبارة اللغوية ثلاثةُ عناصر أساسية: **أولاً**، فحواها القضوي، **وثانياً**: القصد من إنتاجها (إخبار أو استفهام أو أمر أو غير ذلك) **وثالثاً**:-وهو ما يهمنا هنا- موقف المتكلم من الفحوى القضوي.

6 - القدرة اللغوية: ما يُقصَد عامة بالقدرة اللغوية (في مقابل الإنجاز) المعرفة التي يختزنها المتكلم-السامع عن طريق الاكتساب والتي تمكّنه من إنتاج وتأويل عدد غير متناهٍ من العبارات السليمة.

يمكن القول إن الاتفاق شبه حاصل على أمرين هامّين اثنين: لزوم التمييز بين قدرة المتكلم المجرّدة وبين إنجاز هذه القدرة الفعلي أثناء الإنتاج أو الفهم وأن ما يجب أن يكون موضوعاً للوصف اللغوي هو القدرة دون الإنجاز.

إلى جانب الاتفاق حول هذين المبدأين، يوجد اختلاف ملحوظ بين التيار الصوري والتيار الوظيفي حين يتعلق الأمر بالمقصود بقدرة المتكلم-السامع وفحواها يمكن تلخيصه كما يلي:

(أ) تنحصر القدرة لدى منظري التيار الصوري في المعرفة اللغوية الصّرف، في مجموعة القواعد الصرفية-التركيبية والدلالية والصوتية.
وقد تضاف إلى هذه المعرفة اللغوية معرفة عامة فيُتحدّث عن قدرتين، «قدرة نحوية» و»قدرة تداولية» على أساس أن القدرة الثانية مفصولة فصلاً تاماً عن القدرة الأولى وعلى أساس أن القدرة الأولى وحدها يمكن أن تتخذ موضوعاً للدرس اللغوي.

(ب) أمّا في التيار الوظيفي فلا تمييز بين قدرة نحوية وقدرة تداولية وإنما هي قدرة تواصلية واحدة تضم إضافة إلى معرفة النسق اللغوي في حدّ ذاته معارف أخرى سبق أن أشرنا في فقرة سابقة إلى طبيعتها وهي المعارف السياقية الآنية والمعارف السياقية العامة.

في هذا المنظور، يستحضر المتكلم-السامع أثناء إنتاج عبارات لغته أو فهمها كل هذه المعارف وإن كان استحضارها يتفاوت باختلاف موقف التواصل وملابساته

ونمـط الخطاب المنتج، وإن كانـت المعرفة النحوية الصرف تقـوم بالدور المركزي في حالات التخاطب العادية.

7 – **الأداتية وبنية اللغة**: لكل المبادئ السـتة التي عرضنا لها سابقا أهميتها في تعريـف المنحى الوظيفـي في الدّرس اللغـوي وفرزه عن المنحى الصـوري. إلاّ أن أهم مبادئ المنحى الوظيفي على الإطلاق هو ما له صلة بعلاقة أداتية اللغة وبنيتها، بعلاقة وظيفة التواصل بالنسق اللغوي.

8 – **الأداتية وتطور اللغة**: إذا ثبت لدينا أن وظيفة التواصل تتحكم بقسـط وافر في بنيـة اللغة تزامنيا فإنه يُصبح من المنطقي أن نتوقع أنها تسـهم أيضا في تطورها. وقـد بينّا في مكان آخر (المتـوكل 2005 ب) أن بنية اللغات تنزع إلى الشـفافية وأن هذا النزوع هو الأصل، لأنه يخدم التواصل ونجاحه.

وتكمن الشفافية في الفصل الصرفي–التركيبي بين المجال العلاقي (التداولي) والمجال التمثيلي (الدّلالي).

قد يطرأ على بنيـة اللغة عبر تطورها ما يفقدها شـفافية بنيتها أو بعضاً من هذه الشـفافية فينمحي الفصل بين المسـتويين العلاقي والتمثيلي إلا أنها سـرعان ما تبدأ في السعي في استعادة شفافيتها المفقودة تحاشياً للتعتم المخل بالتواصل.

9- **الأداتيـة والكليـات اللغويـة**: لكل نمـط من اللغـات خصائصه التـي ينفرد بهـا وتميزه عن غيـره من الأنماط وتتطلـب أن يوضع لكل نمط نحـوه الخاص. إلاّ أن للسـان الطبيعي خصائص عامة تتقاسـمها اللغات على اختـلاف أنماطها وهو ما يسمى «الكليات اللغوية».

إذا كانت الكليات اللغوية في النظريات اللسانية ذات المنحى الصوري كليات صرفية–تركيبيـة ودلاليـة فإنهـا تجمع في النظريـات اللسـانية الوظيفية بيـن الوظيفة والصـورة، بيـن بنيات معينة وما تسـخر هـذه البنيـات لتأديته من أغـراض تواصلية. بتعبيـر أدق، يمكن القـول إن ما يجمـع بين اللغـات مجموعة مـن الوظائف تأتلف اللغات أو تختلف في التراكيب التي يُتوسَّل بها في تحقيق هذه الوظائف.

مثال ذلك أن تصحيح المعلومات الذي مرّ بنا وظيفة من الوظائف الكلية تتحقق حسـب أنماط اللغـات إمّا عن طريـق الرتبة أو عـن طريق صُرفات معينة أو بواسـطة

تراكيب مخصوصة («الفصل» أو «شبه الفصل» مثلاً).

10- الأداتية واكتساب اللغة: يُفطر الطفل باعتباره كائنا بشريّا على مجموعة من المبادئ العامة-هي ما أسميناه الكليات اللغوية- تمكّنه بمعونة محيطه من اكتساب لغة معينة، لغة العشيرة اللغوية التي ينمو فيها.

س: دأب المشتغلون بتاريخ الدرس اللغوي على التمييز بين المرحلة القديمة؛ مرحلة الدراسات النحوية، والمرحلة الحديثة، مرحلة اللسانيات. هل تتفقون على هذا التمييز؟

ج: إذا كان الاتفاق حاصلاً على التمييز بين هاتين المرحلتين الكبريين فإنه حاصل كذلك على جعل نشأة اللسانيات مطابقة لظهور كتاب دي سوسير الشهير إلاّ أن قلة من مؤرّخي اللسانيات تدرج في المرحلة الثانية الدراسات اللغوية التاريخية- المقارنة التي ازدهرت في القرن التاسع عشر.

الفرق بين الدراسات اللغوية القديمة والدرس اللساني الحديث فرق هام ومن الوضوح مالا يدع مجالاً لمجادل. والقفز على هذا الفرق البين والحديث عن المرحلتين كأنهما شيء واحد لا يمكن أن يكون إلاّ خطأً إبستمولوجيا فادحاً.

س: إلام ترجعون إذن، الفرق بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللساني الحديث؟

ج: من الممكن أن نُرجع الفرق بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللساني الحديث إلى أربعة محاط: ظروف الإنتاج والموضوع والهدف والمنهج.

(أ) من حيث ظروف الإنتاج، توافر للسانيات من المحيط العلمي ومن الاستفادة من مختلف العلوم ما لم يتح للدرس اللغوي القديم وإن كان له أيضاً محيطه الفكري والثقافي الخاص به. ممّا أفادت منه اللسانيات كما هو معلوم الفلسفة والمنطق والرياضيات الحديثة وعلم النفس والاكتشافات التكنولوجية كالحاسوبيات.

(ب) من حيث موضوع الدراسة لم يجاوز الفكر اللغوي القديم حدود اللغة الواحدة والتقعيد لهذه اللغة الواحدة (الهندية أو العربية أو الفرنسية مثلاً) في حين أن موضوع اللسانيات هو اللغات على اختلاف أنماطها أو

بالأحرى الملكة اللسانية التي تتميز بها الكائنات البشرية.

(ج) كان الهدف الأساسي من الدراسات اللغوية في القديم تعليم اللغة والحفاظ عليها من أن يشوبها لحن أهلها أو الواردين عليها. في مقابل هذا، تسعى اللسانيات، عبر دراسة مختلف أنماط اللغات، إلى إقامة «نحو كلي» يضطلع برصد خصائص اللسان الطبيعية بوجه عام.

(د) يقوم النحو القديم على أوصاف متفرقة لأبواب مختلفة في الغالب الأعم. هذا لا يعني بحال أن روح التنظير غير موجودة عند قدماء اللغويين إنما يعني أن منهج اللسانيات منهج مغاير يقوم على بناء نماذج خاضعة لقواعد الاستنباط وقوانين الصورنة العلمية وقابلة لأن تُرَازَ حاسوبيّاً.

بيّنّا ودافعنا في مكان آخر (المتوكل 1982م) عن موقفنا من الفكر اللغوي القديم وتصوّرنا لما يمكن أن يقوم بينه وبين اللسانيات الحديثة من علاقة وهو التصور الذي يمكن أن نلخصه كالتالي: ما رصدناه وما يمكن أن يُرصد من فروق بين هذين الفكرين لا يعني أن هذه الفروق، مهما بلغ عمقها، لا تفصل اللسانيات عما سبقها فصل قطيعة.

س: يقف المقومون للدرس اللغوي القديم عامة (عربيّا كان أم غير عربي) موقفين. منهم من يؤمن بألّا فرق يوجد بين القديم والحديث وأن القديم يُنَادُّ الحديث إن لم يكن يفضُله ولكنه يرفض إخضاع القديم لمعايير تقويم الحديث. ومنهم من يقوّم القديم على أساس ما يشترط في الحديث فيرفض القديم جملة وتفصيلا اعتباراً لقصوره العلمي. ما هو الموقف الذي سلكتم في بحوثكم إذن؟

ج: لا مراء أن للدرس اللغوي القديم سماته وخصائصه التي هي ناتج سياقه التاريخي ومحيطه المعرفي. لذلك، تلافيا للإسقاط وللحيف معاً، يجب أن نحكِّم في تقويمنا لهذا النتاج ما نحكّمه في تقويم النظريات اللسانية الحديثة خاصة معايير علوم العصر وتقنياته. إلاّ أن هذا التباين، بلغ ما بلغ، لا يرفع فيما يخصّنا، وجود مفاهيم ومقاربات وظيفية في الدرس اللغوي القديم وإن سميت بمصطلحات معارف ذلك العهد.

س: ماذا تقترحون بهذا الخصوص من الناحية المنهجية تحديدا؟

ج: المنطلق في المنهجية التي نقترحها لقراءة التراث اللغوي العربي هو أن

المفاهيم المعتمدة في «علوم اللغة العربية» تنزع إلى التوحّد وإن تعدّدت هذه العلوم وإلى تشكيل إطار نظري يخلف الدراسات النحوية والبلاغية والأصولية والتفسيرية على حدّ سواء. وتطمح هذه المنهجية إلى تمكين قارئ التراث من تلافي منزلقين: منزلق «القطيعة» ومنزلق «الإسقاط».

يَصدُق مفهوم «القطيعة» على الفصل المعرفي التام بين فكرين ما من حيث المنطلقات والأهداف والمنهج. من أمثلة ذلك ما نجده حاصلا بين الفكر العلمي من جهة والفكر السحري أو الأسطوري من جهة ثانية.

فيما يخص الحقل اللغوي راجت في بعض الوقت في أدبيات اللسانيات البنيوية خاصة فكرة أن اللسانيات الحديثة علم جديد يباين مباينة القطيعة المعرفية ما سبقه من دراسات نحوية تقليدية من ضمنها الفكر اللغوي العربي القديم. وساعد في رواج هذه الفكرة أمران متلازمان:

(أ) إحساس لساني تلك الحقبة بأنهم آتون، تبعاً لدي سوسير، بالجديد الجابّ لما قبله؛

(ب)رد «هجمة» أنصار القديم النافين لجدة اللسانيات واعتبارها لا تعدو أن تكون «بديلا مصطلحيا» للدرس اللغوي القديم ذي الكفاية الثابتة على مدى العصور.

لكن فكرة القطيعة هذه لم تلبث أن فنذتها دراسات ابستمولوجية لسانية (شومسكي (1966)، وكورودا (1972) وسيميائية (غريماس (1966) بينت بالملموس أن اللسانيات الحديثة ليست إلا حقبة من حقب تطور فكر لغوي واحد بدأ حين بدأ الإنسان يفكر في اللغة وسيمتد امتداد التفكير في اللغة.

اعتماداً لأطروحة التطور (في مقابل أطروحة القطيعة) وفي ظلها اقترحنا (المتوكل (1982)) قراءة للفكر اللغوي العربي القديم في مراحل ثلاث:

(أ) **أولا**: استخلصنا من مختلف «علوم اللغة العربية» أهم مقومات التنظير العربي القديم للدلالة؛

(ب)**ثانيا**: حددنا معالم منهجية عامة لمقارنة النظرية الدلالية العربية القديمة بالنظريات اللسانية الحديثة خاصة منها النظريات الموجهة تداولياً مثل

«نظريـة الأفعـال اللغوية» في ما يسـمى «فلسـفة اللغـة العاديـة» ونموذج «الفرضيـة الإنجازية» في النظريـة التوليدية التحويليـة ومختلف النظريات الوظيفية بالتركيز على نظرية النحو الوظيفي؛

(ج) **ثالثا**: حاولنا استكشـاف إمكانـات عقد حوار معرفي بيـن النظرية الدلالية العربية المستخلصة والنظريات التي قورنت بها حيث بينا على الخصوص مدى الاسـتثمار المتاح للنتـاج اللغوي العربي القديم في التنظير اللسـاني الحديث بوجه عام.

أما الإسـقاط، بحسـب فهمنا له في حقـل اللغويـات، فهو قـراءة نظرية ما من خلال نظرية أخرى. ويمكن تصنيف الإسقاط بالنظر إلى ثلاثة وسائط أساسية: نوعه ودرجاته واتجاهه.

(أ) الإسقاط من حيث نوعه إسقاطان: «إسقاط وجود» و»إسقاط تقويم»:

(1) يمكن أن تُنسبَ إلى نظرية ما مفاهيم أو إواليات أو سمات منهجية منعدمة فيهـا موجودة في نظرية غيرها. ومن أمثلة ذلـك أن يقال إن «التحويلات» بالمفهوم التوليدي التحويلي موجودة بنفس الخصائص الصورية في النحو العربـي القديم. ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يقـال إن البنية الصرفية-التركيبية فـي النظريـات الحديثة هـي بالحذافير مـا كان يسـميه الجرجانـي «نظرية النظـم». ومـن إسـقاط الوجود كذلـك أن يقابـل مفهـوم «البـؤرة» مقابلة مطابقة بمفهوم «العناية/ الاهتمام» الوارد عند اللغويين العرب القدماء.

(2) أما إسـقاط التقويم فـأن تُنتقد نظرية ما سـلباً أو إيجاباً انطلاقـاً من نظرية أخـرى. مثال ذلـك أن يُعـاب على نظريـة صورية أنهـا لا تعتمـد الدلالة والتـداول في رصد البنية الصرفية-التركيبيـة أو أن يعاب في المقابل على نظرية وظيفية الأخذ بهذين البعدين في وصف وتفسير خصائص العبارات اللغوية.

(ب) الإسـقاط درجات حيث منه ما يقف عنـد المصطلح حين يُتحدث عـن نظرية مـا بمصطلحات نظريـة أخرى حديثـة أو قديمة ومنـه ما يجاوز ذلك إلى المفاهيم ذاتها.

ويمكـن القول إن الإسـقاط الحاصـل بين نظريتيـن منزامنتيـن وإن اختلفتا أهـون مـن الإسـقاط الـذي يحصـل بيـن نظريتيـن منتميتيـن إلـى حقبتين تاريخيتين متباعدتين.

(ج) أغلب أنماط الإسـقاط وأشـهرها إسـقاط نظرية حديثة على الفكر التراثي إسقاط وجود كما سبق أن بيّنا أو إسـقاط تقويم كأن يعاب على هذا الفكر نهجه في التبويب أو خلوّه من أدوات الصورنة المنطقية-الرياضية مثلاً.

إلاّ أنـه من غير النـادر أن يحصـل العكس فيُسـقط الفكر التراثـي على إحدى النظريات اللسـانية الحديثة. المثـال المعروف لهذا النمط من الإسـقاط ما نجده في القراءات المتعصبة للتراث التي تسـعى إلـى نفي الدرس اللسـاني الحديث باعتباره مجرّد بديل مصطلحي للنحو والبلاغة القديمين.

سـ: **كيف يمكـن إذن، أن نقرأ النظريات اللغوية وأن نقـارن بينها بعيداً عن منزلق الإسقاط**؟

ج: أنجع السـبل في رأينا إلى تلافي الإسـقاط (أو إسـقاطه) سبيلان متكاملان هما:

أولا: تحاشي الانطلاق من نظرية بعينها حديثة كانت أم قديمة؛

ثانيـاً: وضـع «ميتانظريـة» تعلـو جميـع النظريـات وتشـكل المرجـع والحكم الوحيدين في القراءة والمقارنة معاً.

ولعـل من البنـاءات النظرية التـي تقترب من الميتانظرية المنشـودة ما أسـميناه «النظريـة الوظيفية المثلى» التي شـغلناها لتقويـم النظريات الوظيفيـة الحديثة والتي نزعم أنه بالإمكان تشغيلها في قراءة الجانب الدلالي من التراث اللغوي العربي.

للاعتبـارت السـابقة يمكن أن نقـول إن «**التراث مـاض ممتد**»، وتأسيسـا على هذا فإن السـؤال الهاجس بالنسـبة إلى اللسـاني الوظيفي العربي هو الآتي: ما الذي نسـتطيع أن نفعله بهذا الإنتاج اللغـوي الضخم العظيم إلى جانـب اعتزازنا به كفكر إنساني يستحق فعلاً أن نعتز به؟

يمكـن أن يأخذ التنظيـر التراثـي للدلالة كما عرضنـا له في المباحث السـابقة أوضاعاً ثلاثة:

أولا: يمكن أن يعد تاريخاً للفكر اللساني الوظيفي؛
ثانيا: يمكن أن يُعتمَدَ مرجعاً حين البرهنة والحجاج؛
ثالثا: يمكن أن يكون مصدراً يُمتَح منه كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

س: ماذا تقصدون بذلك تحديدا؟

بخصوص قولنا «**التراث تاريخ**»، لا ندري إذا كان للدرس اللساني الوظيفي الحديث نشأة وتطوراً صلة بالتراث اللغوي العربي. لا ندري، بتعبير آخر، إذا كانت لهذا الدرس جذور عربية، إلا أنه من الممكن في جميع الأحوال أن ننظر إلى التراث، بحكم مفاهيمه ومنطلقاته وأهدافه، على أنه حقبة هامة من تطور الفكر اللغوي الإنساني في توجّهه الوظيفي. فيما يخص البحث اللساني الوظيفي العربي، نعلم جميعاً أن التراث اللغوي يشغل حيزاً معيّنا من معرفة كل لساني عربي بل كل مثقف عربي. هذا المخزون يحصل التعامل معه في اتجاهين:

(أ) إمّا أن يكون حاضراً في تحصيل المعارف اللسانية الحديثة؛
(ب)أو أن يُرجع إليه على سبيل تأصيل ما اكتُسب من هذه المعارف.

إن صلة التراث اللغوي بالنسبة للوظيفيين العرب، إذن، صلة مباشرة سواء أكانت أصلا أم نتيجة تأصيل.

أما قولنا «**التراث مرجع**» فمعلوم أنه يُميّز في الاحتجاج لنظرية لسانية معينة أو لمقاربة تقترحها، بين نمطين من الحُجج: «الحجة الداخلية» و«الحجّة الخارجية».

(أ) تُستقى الحجة الداخلية من النظرية نفسها طبقاً لمبادئها ومنهجها وطرائق الاستدلال المعتمدة فيها.
فحين نقارب تصدير مكون ما في إطار نظرية النحو الوظيفي، مثلا، على أنه مكون مبأر فإن حجتنا في ذلك أن الوظائف التداولية في هذه النظرية هي التي تحدّد ترتيب المكونات داخل الجملة في اللغات المُعربة؛ أي في اللغات التي تعبّر عن الوظائف النحوية بواسطة الإعراب.

(ب) تدعو الحاجة أحيانا إلى دعم الحجة الداخلية بحجة خارجية تُستمدّ من نظرية لسانية أخرى يُستحسن أن تكون من الفصيلة نفسها.

مثال ذلك أن يُؤتى لدعم تحليل ما لظاهرة ما في إطار نظرية النحو الوظيفي

بتحليل للظاهرة نفسها تقترحه نظرية وظيفية أخرى كنظرية «النسقية» أو «نظرية «التركيبيات الوظيفية» أو غيرهما.

ولا يمتنع أن تُستمدَّ الحجةُ الخارجية من نظرية لغوية قديمة. في هذا الاتجاه، يمكن أن نسوق لدعم تحليلنا لظاهرة التصدير آراء بلاغيينا في باب التقديم والتأخير. ويمكن ألا نقف عند حد الاحتجاج لمقاربة وظيفية حديثة لإحدى ظواهر اللغة العربية بمقاربة تراثية للظاهرة نفسها حيث نستطيع أن نقدّم حجة لورود المنحى الوظيفي عامة كونه غير آت من عدم، بل له جذوره الضاربة في تاريخ الفكر اللغوي تسنده وتبرّر تبنيه.

وأما اعتبار «**التراث مصدراً**»، فإننا نعني به أن اتخاذ التراث مرجعاً في البحث الوظيفي العربي الحديث يعد مرحلة أولى في «تفعيله» ويمكن أن تتلوها مرحلة أقوى هي مرحلة توظيفه واستثماره بالأخذ منه كلما دعت الضرورة إلى ذلك. وقد ذهب فعلا في هذا الاتجاه عدد من اللسانيين لدراسة اللغة العربية.

للاعتبارت السالفة لم نتوقف، منذ تشغيلنا لنظرية النحو الوظيفي في دراسة اللغة العربية، عن إقامة حوار مثمر بينها وبين تراثنا اللغوي، حوار يُسوّغه وييسره التآسر بينهما من حيث المفاهيم والمنطلقات المنهجية. ولهذا الحوار أمثلة كثيرة في ما كتبناه وفي ما كتبه زملاؤنا ورفاقنا في مسيرة وضع نحو وظيفي للغة العربية.

س: طيب نبدأ من حيث انتهيتم لنسألكم: ما هي أهم مجالات استفادة اللغة العربية من نظرية النحو الوظيفي؟

ج: ما كانت العلاقة بين اللغة العربية ونظرية النحو الوظيفي مجرد تطبيق إطار نظري معين في دراسة متن لغوي معين بل كانت علاقة إفادة متبادلة، سواء على مستوى «الكفاية اللغوية»، أو على مستوى «الكفاية الإجرائية».

على المستوى الأول، فبفضل اعتماد نظرية النحو الوظيفي تسنى وضع نحو وظيفي متكامل للغة العربية أنار جوانب جديدة عدة من هذه اللغة لم يكن من المتاح الكشف عنها باعتماد أنحاء أخرى (قديمة أو حديثة). في المقابل، جاوزت الدراسات الوظيفية للغة العربية مستوى التطبيق المحض إلى الإسهام في التنظير الوظيفي العام كانت له بصماته الواضحة في الدفع بالنظرية نحو إحراز الكفاية

اللغوية والكفاية الإجرائية على السواء. ونحيل القارئ الكريم على مؤلفاتنا.

على مستوى الكفاية اللغوية، دائما، اصطلحنا، كما هو معلوم، على إطلاق تسمية «الكفاية اللغوية» على مزاعم نظرية النحو الوظيفي الثلاثة: الكفاية التداولية والكفاية النفسية والكفاية النمطية.

ما نريد قوله هنا هو أن المنحنى الوظيفي العربي أسهم في إغناء وتطوير كل من هذه الكفايات الثلاث طيلة العقود الثلاثة الأخيرة، وقد كشفنا عن ذلك بوضوح في كتابنا (المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي).

وبالنسبة إلى «الكفاية الإجرائية»، فإنه كان من هواجس نظرية النحو الوظيفي، منذ بداياتها، ولوج حقول أخرى عبر التنظير اللساني وتطبيق نتائجه في وصف لغات متباينة الأنماط كحقلي الحاسوبيات والترجمة (سيمون ديك (1992)). إلاّ أن «الكفاية الإجرائية» كما حددناها هنا مفهوماً وما صدقا وأرهصنا لها في كتابات سابقة (المتوكل (2003) و(2005ج) لم تظهر إلا في الخطاب الوظيفي المغربي حيث انبرى باحثون جامعيون في تدريسهم وفي رسائلهم لتمحيص انطباقية نحو الطبقات القالبي خاصة في قطاعات اجتماعية- اقتصادية كالترجمة وتعليم اللغات والاضطرابات اللغوية وأنساق التواصل غير اللغوي... ورغم ما توصّل إليه فإن البحث الوظيفي في القطاعات الاجتماعية-الاقتصادية يبقى في بداياته ويرجى من الدراسات المقبلة أن تدفع به نحو تحقيق هدفين أساسيين: طرقُ

حقول أخرى غير الحقول الأربعة المبحوث فيها من جهة وتوظيف نموذج «نحو الخطاب الوظيفي» الذي ما يزال إلى حد الآن حبيس الحقل اللغوي المحض من جهة ثانية.

س: ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في المغرب؟

ج: المغرب متميز في محيطه في مجال اللسانيات بدون شك؛ فقد اتخذ البحث اللساني في بلادنا مناحي متعددة رادها وأسهم في إغنائها وتطويرها باحثون من مستوى رفيع لم يكتفوا بتطبيق النظريات اللسانية الحديثة على المعطى اللغوي المحلي بمختلف مكوناته، بل اجتهدوا في تطوير تلك النظريات نفسها انتقادا وتعديلاً وإغناء.

من أبرز هذه المناحي المنحى البنيوي والمنحى التوليدي- التحويلي والمنحى الوظيفي. وتضاف إلى هذه الاتجاهات اللسانية الصّرف أبحاث كثيرة في مجالات قريبة من اللسانيات أو مثأثرة بمناهجها كالسيميائيات وتحليل الخطاب والشعرية والنقد الأدبي ذي التوجه اللغوي.

س: كيف أسهمت نظرية النحــو الوظيفي في هذا التمين، سواء في المغرب أم في غيره من الدول العربية الأخرى؟

ج: إن أهم النظريات الوظيفية التي أطرت البحث اللساني العربي، فيما نعلم، ثلاث نظريات: النظرية الفيرثية (نسبة إلى فيرث) والنظرية النسقية ونظرية النحو الوظيفي.

فيما يخص النظرية الثالثة، نعلم أنها نشأت بجامعة امستردام في أواخر السنوات السبعين على يد مجموعة من الباحثين يرأسها الباحث اللساني الهلندي سيمون ديك.

كان منطلق النشأة الاقتناع بأن مقاربة خصائص العبارات اللغوية، خاصة منها ما يتضمن وصلاً (بين المفردات أو بين الجمل)، على أساس العلاقات أو الوظائف (الدلالية والتركيبية والتداولية) تفضل مقاربتها على أساس المقولات الشجرية كالمركب الاسمي أو المركب الفعلي الذي لا ورود له إلا في بعض اللغات.

في هذه المقاربة أصبح التمثيل التحتي للعبارات اللغوية بنية وظيفية لا ترتيب فيها تتخذ دخلا لمجموعة من القواعد (تختلف باختلاف اللغات) تنقلها إلى بنية سطحية مرتبة.

بفضل تطعيمها بمفاهيم تداولية أخرى (كالقوة الإنجازية وغيرها) وبفضل تطبيقها على لغات متباينة النمط، شجرية وغير شجرية، انتقلت هذه المقاربة العلاقية إلى نظرية وظيفية قائمة الذات.

وقد واكب هذا الاغتناء النظري توسع جغرافي حيث انتقلت نظرية النحو الوظيفي من مسقط رأسها امستردام إلى أقطار أخرى فتكونّت مجموعات بحث وظيفية في أنتويرب (بلجيكا) ومدريد والرباط ولندن والدانمارك. وبموازاة ذلك دُعي الباحثون الوظيفيون للمشاركة في محافل دولية أوروبية وأمريكية إلى جانب

باحثين من مشارب أخرى توليدية-تحولية وعلاقية وحاسوبية وغيرها للمقارنة بين مقاربات مختلفة لظواهر لغوية مركزية.

في هذا السياق، دُعي المغرب للإسهام بمدخل عن «النحو الوظيفي واللغة العربية» في إعداد الجزء الثاني من (وسوعة اللغة العربية واللسانيات العربية).

وظلت نظرية النحو الوظيفي تكتسب المزيد من الانتشار إلى جانب المزيد من الاغتناء المعرفي بفضل الندوات الدولية.

دعنا نركز الآن بعض الشيء على انتقال نظرية النحو الوظيفي إلى البلاد العربية.

دخلت هذه النظرية العالم العربي أوّل ما دخلت عبر جامعة محمد الخامس بالرباط حيث شُكّلت «مجموعة البحث في التداوليات واللسانيات الوظيفية». وبفضل جهود الباحثين المغاربة المنتمين إلى هذه المجموعة، تسنّى للمنحى الوظيفي أن يأخذ محله في البحث اللساني المغربي إلى جانب مكوناته الأخرى. وقد تم ذلك عن أربع طرق رئيسية هي التدريس والبحث الأكاديمي والنشر وعقد ندوات دولية داخل المغرب نفسه.

(أ) شُرع في تدريس النحو الوظيفي في مستهل السنوات الثمانين بجامعة محمد الخامس بالرباط وبالتحديد في شعبتي اللغة الفرنسية واللغة العربية معاً ثم توسع تدريسه، بفضل الأساتذة اللسانين المتخرجين من هذه الجامعة، ليشمل جامعات أخرى كجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء والمحمدّية وجامعة مولاي إسماعيل بمكناس وجامعة شعيب الدكالي بالجديدة وجامعة القاضي عياض بمراكش وجامعة ابن زهر بمدينة أكادير وجامعة القاضي عياض بمدينة بني ملال وجامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

وفي السياق نفسه، عمل الأساتذة مفتشو التعليم الثانوي على إدخال النحو الوظيفي إلى هذا القطاع التعليمي الهام عن طريق الكتاب المدرسي إلى جانب النحو العربي القديم والنحو التوليدي-التحويلي.

(ب)أخذت نظرية النحو الوظيفي قسطاً هامّاً من البحث الجامعي بالمغرب حيث هيئت رسائل إجازة وأطروحات دكتوراه لا يستهان بعددها وقيمتها

العلميـة بجامعة محمد الخامـس بالرباط وغيرها مـن الجامعات المغربية استهدفت وضـع أنحـاء وظيفية (أو أقسـاط أنحـاء وظيفية) للغـة العربية الفصحى أساسـاً ولدوارجها (المغربية وغير المغربية) وللغات الأمازيغية المغربية وكذلك للغة الفرنسية.

(ج) بمـوازاة البحـث الأكاديمـي الصّرف، قـام لسـانيو «مجموعـة البحث في التداوليات واللسـانيات الوظيفية» بأعمال نشـرت بالعربية وبلغات أجنبية داخل المغرب.

(د) شـارك عدد من اللسـانيات الوظيفيين في ندوات النحـو الوظيفي الدولية خارج المغرب (الندوات الآنفة الإشارة إليها).

وإلى جانب ذلك عقدت مجموعة البحث في التداوليات واللسانيات الوظيفية ثـلاث نـدوات وطنية حضرهـا باحثـون وظيفيـون أجانب بجامعـة المحمّديـة وبني مـلال وأكادير، وكان الهدف من تنظيم هذه الندوات هدفين أساسـيين: **أولا**، تمكين الأسـاتذة والطلبة المغاربـة من الاطـلاع على آخر تطـورات نظرية النحـو الوظيفي **وثانيا**، مناقشـة مدى اسـتثمار هذه التطورات في مقاربة المعطـى المحلّي عربياً كان أم غير عربي.

كان المغرب جسـراً لعبـور النحو الوظيفي إلـى أقطار عربية أخـرى حيث منه وبفضـل المؤلفـات والبحـوث المغربية دخـل الجزائر وتونـس وموريتانيـا والعراق وسورية بدرجات متفاوتة في التبنّي ورقعة الانتشار.

ولنختـم هذا التذكيـر الوجيـز بالقـول إن المنحـى الوظيفي اسـتطاع أن يحتل موقعـه داخل البحـث اللسـاني المغربي الزاخـر وأن يعايـش باقي مكوناتـه القديمة والحديثة في سـلام نسـبي. وأعانـه على ذلك، في رأينـا، ثلاثة أمور أساسـية: **أولا**: اجتهاد الباحثين اللذين تبنّوه المستمر، **وثانيا**: انتهاجه نهجاً مغايراً في البحث **وثالثا**: أنه لم يسـتهدف قـط إقصاء المقاربات الأخـرى بل، على عكس ذلك، ظل يسـتفيد منها رُؤى ونتائج كلما دعت الحاجة واسـتطاع إلى ذلك سـبيلا مؤمنا أشـدّ الإيمان بوحدة البحث اللساني ونسبيته وإمكان التحاور الممنهج بين مذاهبه حتى وإن فصل بينها مرور الزمن.

الدكتور تمام حسان

س: : لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس إلى أن اللسانيات، بفضل توجهها العلمي، ستصبح جسرًا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى، إن هي أرادت أن تحقق نصيبًا من العلم. ولا أحد يستطيع اليوم أن يشكك في تحقق هذه النبوءة. فما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: : ربما صلُح قول شتراوس: «بفضل توجهها العلمي» أن يكون إجابة عن هذا السؤال.

س: – في ظل هذا (المعطى) أو المعطيات: ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: استطاع الباحث اللساني في هذه الفترة أن يتعرف على الأمور التالية:

- أن قضية العامل الإعرابى في النحو موضع اعتراض؛
- أن المعاني النحوية تتسم بالتعدد والاحتمال ولا تتضح إلا بواسطة القرائن؛
- أن تفسير النصوص لا يكون بواسطة النظر في المفردات في حال انعزال كما نصادف في قول الشارح: «قال رحمه الله تعالى + لفظ مفرد». وأنه لا بد من الاعتراف بمبدأ التناص في البحث عن المعنى ...إلخ . ويصدق ذلك حتى على جهد مفسري القرآن الكريم. انظر مثلاً إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضا﴾ (النور:36)، ثم تأمل التركيب الإضافي (دعاء الرسول) لترى ما إذا كان الرسول داعيًا أو مدعوا. يقول القرطبي: يريد: يصيح من بعيد: يا أبا القاسم!بل عظموه كما قال في الحجرات:«إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ»(الحجرات:3)، فما الخطأ في هذا؟ الجواب أن الخطأ ليس في رعاية مبدأ التناص، بل في خطأ استعماله، لأن هناك آيات

أخـرى أولى بهذا التناص وهـي التي تدل على أن الداعي هـو النبي عليه الصلاة والسـلام. تلك الآيات هي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّـهَ وَرَسُـولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْـهُ وَأَنتُمْ تَسْـمَعُونَ﴾ (الأنفـال: 02) وقوله جلّ شأنه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْـتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:42)، وقوله سبحانه:﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الحديد: 8).

فلا شـك أن اهتمام الرسـول بالدعوة إلى الإسـلام أهم عند الله والرسول من ترك ندائه باسمه إلى ندائه بلقبه.

سـ: هناك أسباب موضوعية، ولا شك، تفسر هذا الوضع، وتحول دون استثمار منجزات الدرسـ اللساني في الثقافـة العربية بالشكل المطلـوب. فما هي هذه الأسباب؟

ج: لاشك أن البحث اللساني العربي ثري بالإنجازات والإبداع العقلي، ولكن المنجـزات العربية في كثير من الحقول لم تعن بالكشـف عن العلاقات بين الأفكار الأصلية والمنهجيـة المجردة، كون هذه العقول وقفت عنـد بيان الوحدات في حال الانعزال، ومن ثم لا نرى تناولاً لنظام أصول العلاقات إلا في أصول النحو وأصول الفقه.

س: التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد. وهو تنافس لا نجد له مثيلاً إلا في ثقافتنا. هل المشكل مشكل مناهج حقًا؟

ج: التنافـس بيـن المناهج اللسـانية قائم عندنـا وعند غيرنا، وهـو دليل صحة لا تعـاب به ثقافة مـا، فما يكون العيب فـي الإطار العقلي لبعـض المناهج الضحلة المتنافسة، إن وجدت .

س: من مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين بعض اللسانيين وبعضهم؟ فـلا أحد منهم يهتـم بما يكتبه الآخر. وهذا ما يجعل أمـر اللسانيات في ثقافتنا متروكًا للاجتهادات الفردية التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية.

ج: التنافس إيجابي والقطيعة سلبية، وهي دليل هروب من المنافسة .

س: يتخذ هذا الصراع مظهرًا تلخصه المعادلة التالية: النحو لا يساوي اللسانيات، والتراث العربي لا يساوي اللسانيات

ج: هذا الصراع يأتي من خارج مجتمع اللسانيين، وهو صراع بين الجهل والمعرفة .

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعًا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانية؟ الآن العربية عربيات: عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنًا.

ج: لعل إنشاء مؤتمر سنوي عربي عام لأساتذة اللسانيات ويصدر صحيفة علمية تعنى بغايات المؤتمر وآرائه وسياساته يعين على الوصول إلى هذا الهدف.

س: ما هو دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: كان يمكن أن يكون هناك دور للمجامع اللغوية لو تحقق لذلك شرطان:

الأول: أن تتحد المجامع اللغوية في مجمع واحد تابع للجامعة العربية.

الثاني: أن يكون لهذا المجمع وسيلة لتوصيل قراراته إلى الجهات الثقافية القائمة على نشر هذه القرارات واستعمال ما تقرره.

س. نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف النواحي، وهو وضع ينذر بالكارثة في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسًا تمامًا. بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: يرجع ضعف العربية في مؤسسات التعليم إلى سوء التخطيط والإدارة. وإذا استمر ذلك على حاله كان الخطر داهمًا على العربية. وأسوأ ما في التخطيط والإدارة الحاضرة هو السماح بإنشاء جامعات أجنبية في بلادنا تهمل العناية باللغة العربية.

س: كنتم من أوائل اللسانيين العرب الذين نقلوا اللسانيات الغربية إلى العربية. كيف تقارن تلقي اللغويين العرب، وجلهم يومذاك من المحافظين والتقليديين، للسانيات في أوائل القرن الماضي وتلقيهم الآن؟

ج: اتسم موقف المشتغلين بالدراسات اللسانيةأول الأمر بعدم الاهتمام بما

رأوه مـن المحاولات الأولـى للتعريـف بالمناهج الجديـدة. ولعل السـبب في هذا التجاهـل أن المحـاولات الأولـى لـم تكن مفهومـة. ثم لم يـزل أصحـاب الأفكار الحديثة يعملون على تعريب أفكارهم حتى وصلوا إلى المرحلة الحاضرة.

ســ: كيف تلقى اللغويــون العرب نظراتك في كتاب (اللغــة العربية معناها ومبناها) قديمًا؟ وكيف اختلف الأمر الآن؟

ج: تلقـى اللسـانيون العـرب أفـكار هـذا الكتـاب بشـيء مـن الصمـت أولاً علـى الرغم مـن أني دعوت فـي مقدمة الكتاب من شـاء منهم إلى إبـداء آرائهم في الموضوع. وبقـي هذا الصمت عددًا من السـنين قبل أن يبدأ المـدح والقدح. وكان مـن أثر المـدح أن تنبه طلاب الدراسـات اللغوية الذيـن يحضرون الرسـائل إلى ما اشتمل عليه الكتاب من أفكار جديدة تستحق الدرس، فكان ذلك خيرًا وبركة. ومن ثـم فهِم قرَّاء الكتاب أن هـذا الكتاب يجيب مطالب البحـث ولا يجيب، في الوقت الحاضر على الأقل، مطالب التعليم العام.

ســ: هل ترى أن حركة ترجمة اللسانيات إلى العربية كافية لتأسيس معرفة لسانية متقدمة في العربية؟ وما هي أهم مشكلات الترجمة اللسانية العربية؟

ج: لـو توحـدت المصطلحـات اللسـانية لـكان من الممكـن لظاهـرة الترجمة أن تكـون كافية لإيجـاد معرفة لسـانية متقدمة فـي العربية، والأمر كذلـك لو أن كل المترجمين كانوا على علم باللغات التي ينقلون عنها.

س: كيف يمكن استثمار النظريات اللسانية ومستخلصاتها ووجوهها التطبيقية في حل مشكلات العربية: كتعليمها لأبنائها، وللناطقين بغيرها، والتعدد اللغوي، والضعف اللغوي في العربية، وحوسبة العربية؟

ج: لـو أننا عدنا إلـى قراءة الإجابة عن السـؤال الثاني لوجدنا الإشـارة إلى أن جدوى الدراسـات الحديثـة تتضح في مجـال البحث أكثـر مما تتضح فـي التعليم، وذلك لسببين :

- أن طريقة المتون القديمة راسـخة القدم في تاريـخ التعليم، ويصعب إحلال غيرها محلها فترة زمنية محدودة.
- أن القائميـن على تعليم العربية يختلفون فـي أفكارهم وأعمالهم عن طلاب

البحث وكل من الفريقين حريص على طريقته. ولاشك أن كثرة المعلمين وقلة الباحثين ذات أثر في الموقف .

س. ما هي السبل التي تراها كفيلة بترقية اللغة العربية وتهيئتها أبناء مجتمع المعرفة العربي المنشودة؟

ج. إذا أريد للغة العربية أن تبلغ درجة الرقي المأمولة، وأن تكون وسيلة للنهضة الاجتماعية الشاملة فمن الضروري أن تتعدد طرق بحثها بأن يتجاوز الاهتمام بها مجال القواعد انطلاقًا إلى تعدد ميادين الاستعمال.

س. كيف ترى الحركة اللسانية في مصر؟

ج: أعتقد أن مصر وتونس والمغرب ثلاثة مراكز مهمة لخدمة اللسانيات .

س. ما هو تقويمك للحركة اللسانية في العالم العربي؟ وما هي أهم عقبات البحث اللساني العربي؟

ج: إن الحركة اللسانية في العالم العربي أمامها مستقبل طيب لو أن أقسام الدراسات اللغوية في الجامعات العربية اتجهت إلى العمل بما ورد ذكره في الإجابات السابقة .

س. هل لديك نصائح خاصة للسانيين الشبان؟

ج: أرجو أن يحافظ اللسانيون الشبان على طلب المنشورات الأجنبية المعنية باللسانيات وإن أحسنوا قراءتها والعمل على الانتفاع بما يقرأون.

والله ولي التوفيق،،،

الدكتور حمزة بن قبلان المزيني

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلـود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضـل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقـق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيـات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: سبق أن أجاب عدد من الباحثين عن هذا السؤال. وكان شومسكي من أبرز هؤلاء. وليس بالإمكان تكرار ما قاله شومسكي فهو موجود في عدد من كتاباته.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: مـن المؤسـف أن البحـث اللسـاني فـي الثقافة العربيـة المعاصـرة لا يزال محصورا في عـدد قليل من الجامعات العربية وفي عدد أقـل من الباحثين الجادين؛ وأذكـر على وجه التخصيص مـا يُنجز من بحث جاد في الجامعات المغربية وأشـير إلى بعض الباحثين البارزين المغاربة ويأتي في مقدمتهم الأستاذ الدكتور عبد القادر الفاسـي الفهري الـذي فاز بجائـزة الملك فيصـل العالمية فـي العـام 2006م تقديرا لإنجازاته تلك.

أمـا ما يقام به من «بحث» فـي معظم الجامعات العربية فـلا يزيد عن كونه إما تكرارا لما قيل من قبل، أو شذرات لا تنتمي إلى أي إطار ناظم.

س: هناك أسبـاب موضوعية ولا شك تفسر هذا الوضـع، وتحول دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب ما هي هذه الأسباب؟

ج: من أهم الأسـباب الموضوعية التـي تحول دون اسـتثمار منجزات الدرس اللسـاني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب أن كثيرا من»المتخصصين« تعلموا في الجامعات العربية نفسـها ولم يتح لهم التواصل مع ما يُنجز في خارج العالم العربي بسـبب أن كثيـرا منهم لا يحسـن اللغـات الأجنبية، خاصـة الإنجليزيـة، التي تكتب

بهـا الأبحاث اللسـانية الحديثة. وهناك سـبب لا يقـل أهمية وهـو أن معظم الكتب والأبحاث التـي يتتلمذ عليها أكثـر المتخصصين الآن كتبها رواد الدراسـة اللسـانية المصريـون الذين عادوا مـن البعثة إلى بريطانيا في أواسـط الخمسـينيات الميلادية. وكان هؤلاء العائـدون قد تدربوا على الدرس اللسـاني في إطار المدرسـة الوصفية التي كانت مزدهرة في تلك الفترة. وبعد أن عادوا كتبوا كتبهم الأولى مسـتندين إلى خبرتهـم التي اكتسـبوها هناك. ولـم يطوروا من أنفسـهم؛ بل بقوا إلـى الآن على ما تعلمـوه في الخمسـينيات. ومن الأدلـة على هذا أنـك تجد بعض الكتـب التي يُعاد نشـرها في 2005م أو 2006م لكنها فـي الواقع هي الكتب نفسـها، ومن غير تعديل، التي صدرت في سنة 1955م!

ومن الأسباب الأخرى أن هؤلاء الأساتذة الرواد الذين جمدوا على ما تعلموه في الخمسـينيات أشـرفوا على طلاب من مختلف الدول العربية ونقلوا إليهم أفكار المدرسـة الوصفية وحجبوهم عن الاسـتفادة مـن التطورات المتسـارعة في البحث اللسـاني. وزاد الأمر سـوءا أن أولئك الرواد نقلوا أفكارهم إلـى كثير من الجامعات العربية حين انتقلوا إليها للتدريس.

ومن هنا فإن تخلف البحث اللساني سببه عدم مواكبة أولئك الرواد للتطورات الحثيثـة التـي بـدأت فـي منتصـف الخمسـينيات الميلادية بقيـادة نعوم شومسـكي. والمتحقـق أن أكثر الرواد لـم يتعرف على ما يقوله شومسـكي وتياره، بـل إننا نجد عـداء مبطنـا وأحيانا صريحا للمدرسـة التوليدية فـي الأبحاث الجديـدة القليلة التي ينتجها هؤلاء الرواد.

سـ: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم (اللسانيات)، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم (للسانيات) لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك(بحسب بحث قمنا به في هذا المجال): غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية...إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها؟

ج: من الطبيعي أن هذه الأسباب التي ذكرتَها ناتجة عن «حجب» هؤلاء الرواد للمعرفة اللسانية الحديثة بكتبهم التي ألفوها في إطار المدرسة الوصفية، بل إن تلك الكتب وأولئك الرواد كانوا حاجزا منيعا ضد انتشار اللسانيات بمفهومها الحديث في أقسام اللغة العربية خاصة.

س: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: ومما يجعلها أكثر استعصاء على الفهم أن كثيرا من «الباحثين» اللسانيين لم يتورعوا عن الادعاء بأن النحو التوليدي الذي نظَّر له نعوم شومسكي «مأخوذ» بصورة مباشرة من النحو العربي. وحاول هؤلاء أن يزعموا أنه لم يكن لشومسكي أن يبتدع النحو التوليدي لو لم يدرس النحو العربي! واستدلوا على ذلك بدراسته للغة العربية في جامعة بنسلفانيا وتتلمذه على بعض المستشرقين المعروفين وببعض التشابهات الظاهرية بين منهج شومسكي منهج الدراسات اللغوية العربية المبكرة.

ومن الأسباب الأخرى أن هناك وهْما بالتفوق العربي في دراسة اللغة؛ وهو ما يؤدي إلى وهم آخر يتمثل في أنه لا يمكن لأحد أن يتجاوز ما أنجزه العلماء العرب الأقدمون في دراسة النظام النحوي للغة العربية.

وهناك سبب آخر وهو أن أكثر المتخصصين في اللغة لا يُعنون بأية لغة أخرى غير العربية. وهذا ما نتج عنه فقر معرفي كبير في مسألة طبيعة اللغة الإنسانية التي قادت المدارس اللسانية المعاصرة إلى كثير من أوجه الإنجاز في البحث اللساني.

س: التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنافس لا نجد له مثيلا إلا في ثقافتنا، هل المشكل مشكل مناهج حقا؟

ج: عدم وجود هذا التنافس الضروري سببه غياب البحث اللساني الجاد في أي تقليد من التقاليد «البحثية اللسانية» في الإطار العربي.

س: من مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين اللسانيين، فلا أحد منهم يهتم بما يكتبه الآخر، وهذا ما يجعل أمر اللسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟

ج: ليســت هذه القطيعة المعرفية مقصورة على اللســانيين، بل هي الطابع العام في التخصصات كافة. وهو ما أثر ســلبا على مستوى الجد في البحث العلمي. وقد نتج عن هذه القطيعة ما يشبه العداء بين التوجهات البحثية في اللسانيات وفي غيرها. وهو ما مثَّل عقبة كأداء في سبيل تطوير هذه الأبحاث.

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصــه المعادلة: النحو $\neq$ اللسانيات، التراث اللغوي العربي $\neq$ اللسانيات؟

ج: هذا مظهر واحــد من مظاهر هذا الصراع؛ وهنــاك مظاهر أخرى ربما تصل حد «الشوفينية» القطرية.

ســـس: تواجه اللغـــة العربية مجموعة من التحديات فـــي سياق دولي عولمي غير مسبـــوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيـــا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم فـــي هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: هناك ما يشــبه الوعي بهذه المشــكلات. لكــن يبدو أنه ليــس هناك جد في معالجتها. فهناك شــكوى في كل بلد عربي من انحدار المســتوى اللغوي في التعليم العام والجامعي، وفي اســتخدام اللغة في وســائل الاتصال الحديثــة. أما علاج هذه المشكلات فعسير جدا بســبب غياب التخطيط اللغوي الموحَّد والموحِّد. ويبدو أن الدول العربية لا تواجه هذه المشكلة بشــكل جماعي، بل الأمر متروك لكل منها أن «تعبث» باقتراح الخطط اللغوية التي لم ينتج عنها أي مردود واضح. ومما يدعو إلى الأســى أن المجامع اللغوية كلها تخضع للأفــكار التقليدية عن اللغة وهو ما يجعلها تضيع الأوقات والأموال الكثيرة في غير ما طائل.

ســـس: تواجه اللغـــة العربية مجموعة من التحديات فـــي سياق دولي عولمي غير مسبـــوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيـــا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم فـــي هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: يتوقف كل هذا علــى ما يمكن أن يُنجزه الباحثون الجادون في اللســانيات

العربية الحوسبية. وهناك جهود قليلة في هذا المجال إلى الآن.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: أظن أن المشكل الذي تنبع منه المشكلات كلها أنه ليس هناك تخطيط قومي موحد لمواجهة مشكل اللغة. وربما يعود ذلك إلى جهل السياسيين المتنفذين أنفسهم باللغة.

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: هناك المشكل الأول الذي يتمثل في أن اللغة العربية بحاجة ماسة إلى النزول إلى مستوى اللغة اليومية بدلا من بقائها على المستوى الأدبي الذي لا يصلح لكثير من الوظائف اللغوية اليومية أو العلمية في البحث العلمي. ويتوقف إنجاز هذا المستوى على نضج الدراسات اللسانية الجادة التي يمكن أن تغير المواقف التقليدية من المشكل اللغوي وهي المواقف المسيطرة الآن ولا تسمح لأي من المواقف العلمية الجديدة بمزاحمتها.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: أظن أن مشكلاتنا كلها ليست فكرية بل سياسية. ويعني هذا أن الإصلاح السياسي ضروري لحل كثير من المشكلات التي أشرت إليها.

س: ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: سبق في جوابي عن السؤال الثامن الإشارة إلى دور المجامع اللغوية العربية الضعيف في معالجة المشكل اللغوي العربي للأسباب التي أشرت إلى بعضها هناك.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في

مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: ينتج هذا في معظمه عن النظرة التقليدية للغة العربية. وهي نظرة لا تزال مسيطرة في البلاد العربية كلها عند المتنفذين والمسؤولين عن التعليم.

س: **ما دمنا بصدد الحديث عن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا من قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغوي، الأمراض اللغوية...ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟**

ج: من الواضح أن تخلف البحث اللساني في اللغة العربية خاصة هو الذي يخلق هذه المشكلات ويجعل من حلها أمرا صعبا.

س: **يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟**

ج: هذه المشكلات تنبع من تخلف البحث اللساني أيضا. أما التعلل بمشكل المصطلحات والتعريب فوسيلة للهروب من مواجهة المشكلات.

س: **ماذا تقترحون بهذا الخصوص (من الناحية المنهجية تحديدا)؟**

ج: الاقتراح الوحيد الذي أظن أنه لازم هو تطوير البحث اللساني الجاد.

س: **يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟**

ج: هذا نابع أيضا من تأخر البحث اللساني عندنا. وهو أمر غير طبيعي ذلك أننا نجد إشارات كثيرة إلى أبحاث عن كثير من اللغات تكتب بغير اللغة الإنجليزية.

س: في نظركم ما هي السبل التي ترونها كفيلة بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: دعنا أولا نبدأ بالانفلات من شرنقة التقليد ونفتح أبصارنا على المنجزات العلمية المعاصرة في دراسة اللغة.

س: ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟

ج: أنصحهم ألا يستمعوا إلى نصائح الكبار، وأن يختطوا طريقا علميا مختلفا عن الطرق غير المجدية التي نسير فيها نحن الآن.

س: انصب اهتمامكم بشكل خاص على اللسانيات التوليدية، لماذا هذا الاهتمام تحديدا؟

ج: السبب البسيط الأوحد أنني درست في الولايات المتحدة في جامعة تكساس التي تهتم بهذه المنهج.

س: ركزتم بشكل خاص على ترجمة بعض المؤلفات اللسانية المهمة: يمكن أن نشير على سبيل التمثيل لا الحصر إلى ترجمة بعض كتب اللساني الأمريكي نعوم شومسكي، وكتاب اللساني الأمريكي ستيفن بنكر، وكتاب ديفيد جستس... لم كل هذا الاهتمام بالترجمة بدل التأليف؟ وما هي الصعوبات التي واجهتكم؟

ج: أشكرك أولا على لطفك؛ ثم إن لدي قناعة بأن الترجمة الدقيقة أسهل السبل في تعريف القارئ العربي عموما والمتخصص في اللسانيات على وجه أخص باللسانيات على طبيعتها الصحيحة بعيدا عن الابتسار والتشويه الذي ينتج عن التأليف في أكثر الأحيان. أما عن الصعوبات فلم أجد صعوبات تذكر في استعمال اللغة العربية في التعبير عن الأفكار والمفاهيم اللسانية وصوغ المصطلحات المناسبة لها، هذا مع أن كثيرا من الفضل في سك هذه المصطلحات وسبك الجمل العربية بشكل مؤد يعود إلى الزملاء الذين قرأوا ترجماتي قبل نشرها.

أما الصعوبات التي عانيت كثيرا منها فهي تمنُّع أكثر دور النشر التي عرضت عليها تلك الترجمات عن نشرها تعللا بأن سوقها كاسد. وأنا أعذر تلك الدور؛ لأن هذا هو الواقع.

س: ترجمتكم الرائقة لهذه الأعمال يجعل الإشكالات المطروحة على هذا المستوى قابلة للاحتواء؟

ج: أكثر الإشكالات إشكالا هي تعلل كثير من الناس بأن اللغة العربية ليست قادرة على التعبير عن الأفكار والمفاهيم العلمية الدقيقة في اللسانيات. وربما صح لي الزعم بأن ترجماتي تشهد بأن المشكل ليس في اللغة العربية بل في عدم قدرة بعض المترجمين على التعبير بها.

س: الأعمال المترجمة في اللسانيات العربية كثيرة، وإن كانت غير كافية، لكن أغلبها غير معتمد، ما هو مصدر الخلل في نظركم؟

ج: أظن أن مصدر الخلل أن كثيرا من المترجمين ليسوا متخصصين في اللغة العربية فأكثرهم متخصص أساسا في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. ومن هنا فإن المشكل يتمثل في عدم تمرس بعض هؤلاء المترجمين بالأساليب العربية وهو ما ينشأ عنه استغلاق تلك الترجمات وعجمتها التي تحتاج إلى ترجمة!

س: كيف يمكن أن تسهم الترجمة في تقدم البحث اللساني العربي؟ وهل فكرتم في قلب المعادلة ومحاولة تعريف القارئ الأجنبي بإسهامات اللغويين العرب في مجال الدراسات اللسانية؟

ج: لاشك أن للترجمة دورا مهما في تبيئة المفاهيم اللسانية في المجال الثقافي العربي. وربما تكون الخطوة الأولى والأهم في استحداث النهضة العلمية. وربما جاز لي التذكير بأن ترجمة كتاب دي سوسور إلى اللغة الإنجليزية سنة 1959م كانت حدثا مهما وهي لا تزال الترجمة الوحيدة المعتمدة لذلك الكتاب. وهي الترجمة التي عرَّفت متكلم الإنجليزية بأفكار دي سوسور وجعلتها نقطة انطلاق لنشاط علمي معروف، خاصة في مجال النقد الأدبي.

أما تعريف القارئ الأجنبي بإسهامات اللغويين العرب فتدخل -كما أظن- في باب الترف في هذه الفترة من تاريخنا. ذلك أن حاجتنا الأولى أن نستفيد من المنجزات العلمية المعاصرة أولا أما التفاخر بما لدينا فيأتي بعد أن ننجح في تأصيل هذه العلوم لدينا والكتابة عنها باللغة العربية.

س: إلى جانب الترجمة، تركز اهتمامكم على مراجعة (نقد) بعض ما يكتب في

الثقافة العربية، وهذا عمل أصيل تحتاج إليه كل ثقافة تنشد تحقيق الأفضل. كيف يمكن للثقافة العربية أن تصل إلى إبستمولوجيا لسانية عربية تخرج اللسانيات العربية من حالة الصمت؟

ج: يأتي اهتمامي بنقد بعض ما يكتب عن اللسانيات باللغة العربية مدفوعا بما ألاحظه، ويلاحظه غيري، من شيوع الادعاء والزيف والضعف في كثير مما يُكتب باللغة العربية في هذا التخصص أو يترجم إليها. فهناك قدر هائل من الغثاء الذي يحجب الرؤية ولا يتورع كثير من العابثين عن زيادته. ومن هنا فهي مسؤولية يجب حملها لحماية هذا التخصص من سوء الفهم ولحماية المستهلكين من الغش!

ومن المؤكد أن هذا النشاط الذي أرجو أن يهتم به المتخصصون يدخل في باب التأريخ لهذا التخصص ويدخل في رسم المنطلقات الفلسفية والعلمية التي يمكن أن يقوم عليها البحث اللساني العربي الجاد.

س: **ما هي أهم أعمالكم المستقبلية في التأليف والترجمة؟**

ج: لدي بعض الأعمال التي تحتاج إلى إنجاز وأرجو أن أتمكن عن قريب من الانتهاء من بعضها تأليفا وترجمة.

س: **ما هو تقويمكم لواقع اللسانيات في المملكة العربية السعودية؟**

ج: لا يختلف واقع اللسانيات في المملكة العربية السعودية عن واقعها في الأقطار العربية الأخرى-باستثناء المغرب. فهناك ما يشبه الغياب لأي نشاط جاد في هذا المنحى.

الدكتور داوود عبده

س: يخلط كثير من الناس بين تعليم العربية لأبنائها وتعليمها للناطقين بغيرها، فلا يقيمون أيّ فرق بينهما. فما وجه الافتراق بين هذين المجالين من حيث المادة التعليمية وطرق التدريس؟

ج: هناك فرق هامّ يتطلب اختلافاً في الأمرين السابقين؛ فابن اللغة يعرف بحكم إتقانه للهجته الأمّ كثيراً من مفردات العربية الفصحى وقواعد تركيب الكلمة (الصرف) وتركيب الجملة، لأنّ كثيراً من المفردات لا تكاد تختلف عن مفردات اللهجات المحكية، ومعظم قواعد تركيب الكلمة وتركيب الجملة لا تختلف عن هذه القواعد في الفصحى. فالصفة، على سبيل المثال، تلي الموصوف وتتفق معه في العدد والجنس والتعريف والتنكير في اللهجات كما هي في الفصحى، وتركيب الإضافة، وهو معقّد جداً، كما يعرف أيّ طالب أجنبي تعلّم اللغة العربية لا يختلف كذلك. فأداة التعريف، مثلا، لا تتصل بالمضافات مهما كان عددها في التركيب (وكذلك التنوين)، وصفة أيّ مضاف لا تليه مباشرة، بل تلي آخر مضاف إليه في التركيب، وإذا كان تركيب الإضافة معرفة فإنّ الصفة تسبقها أداة التعريف رغم أنّ موصوف تلك الصفة مجرّد منها (كتابُ البنتِ الجديدُ ...؛ سيارةُ المدرّسِ الجديدةُ...)، ونون «الوقاية» تلي الأفعال (وبعض أخوات إنّ) ولا تلي الأسماء (صديقي دعاني) إلخ.

فالمادّة التعليمية: (للمبتدئين، مثلا،) تأخذ بعين الاعتبار، إذا كانت موضوعة لتدريس الناطقين بغير العربية، أموراً أهمّها:

أ- شيوع المفردات وقواعد تركيب الكلمة وقواعد تركيب الجملة. يُبدأ بالشائع ويُؤخَّر غير الشائع.

ب- التدرّج في إدخال ما سبق بحيث تكون محدودة في كلّ درس.

ج: تكرار كلّ كلمة وكلّ تركيب عدداً كافياً من المرّات في الدرس الذي تدخل فيه وفي الدّروس اللاحقة.

أما في طرق التدريس (النحو، مثلا): فيُهتمّ في تدريس أبناء العربية بما هو

مختلف عن قواعد تركيب الجملة في لهجته اهتماماً خاصاً ويُعرَض ما هو مشترك بين اللهجة والفصحى عرضاً سريعاً. أمّا الناطق بغير العربية فيُهتمّ في تدريسه بكلّ القواعد لأنّها جميعاً غير معروفة، ويُدرَّب عليها تدريباً تطبيقياً مكثّفاً. مثلا، نون «الوقاية» تُهمل في تدريس العربيّ، فليس هناك طفل عربيّ يقول «كتابني» بدل «كتابي» أو «ضربي» بدل «ضربني». وفي قواعد العدد يحتاج الطالب العربي وغير العربي على السواء إلى تدريب على القاعدة الخاصة بتأنيث العدد وتذكيره (عشَرة طلاب وعشْر طالبات؛ خمسةَ عشَرَ طالباً وخمسَ عشْرة َطالبة)، وتحتاج الفئتان إلى معرفة أنّ **عشرة** تكون بفتح الشين للمذكر وبسكونها للمؤنث. كما تحتاج الفئتان إلى معرفة أنّ المعدود يكون مجروراً في المثال الأوّل والمثال الثاني ومنصوبا في المثالين الأخيرين. أمّا متى يكون المعدود جمعاً ومتى يكون مفردا فالعربيّ يعرف ذلك منذ طفولته من قواعد لهجته المحكيّة، في حين أنّ غير العربيّ بحاجة إلى تدريب مكثّف على هذه القاعدة، وبخاصة لأنّ فيها تعارض مع قاعدة المعدود في لغته الأمّ، فهو يتوقّع أن يكون المعدود بعد خمسة عشر أو عشرين أو مئة جمعا لا مفردا. أمّا «الإعراب» فيجب أن يُدرَّس للفئتين بطريقة وظيفية (انظر الفصل الثاني في كتاب: من (**قضايا اللغة العربية**).

س: اقترحتَ تدريس اللغة العربية بطريقة وظيفية للتغلب على ضعف تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات في اللغة العربية، فما المنحى الوظيفي؟

ج: المنحى الوظيفي في تدريس العربيّة هو تدريسها بطريقة تؤدّي إلى إتقان المهارات اللغوية الأربع: فهم اللغة مسموعة وفهمها مقروءة والتعبير الشفوي (وهو يشمل ما يُسمّى بالقراءة الجهرية) والتعبير الكتابي، فوظيفة اللغة، أيّة لغة، هي القدرة على الفهم والإفهام. ولإتقان هذه المهارات الأربع لا بدّ من اعتبار قواعد اللغة (قواعد تركيب الكلمة وقواعد تركيب الجملة وقواعد الكتابة) وسائلَ لإتقان المهارات الأربع السابقة لا غاياتٍ في حدّ ذاتها، وبالتالي يُقتصَر في تدريسها على ما يحتاج إليه الطالب لإتقان المهارات الأربع: فهم اللغة بشقّيه فهماً عميقاً دقيقاً انظر الفصل الثالث في كتاب من (**قضايا اللغة العربية**)، والتعبير الخالي من الخطأ بشقيه. وهذا يُلغي معظم الإعراب التقليدي تلقائيا ويُحِلّ محلّه الإعراب الوظيفي، وقد ناقشتُ هذه

القضيّة بشيء من التفصيل في الفصل الثاني من كتاب (**قضايا اللغة العربية**).

وأودّ أن أشير إلى أنني وزملائي في قسم اللغة العربية في جامعة فيلادلفيا وقبل ذلك في جامعة الإسراء طبّقنا المنحى الوظيفي وكانت النتائج مُرْضية. غير أنّ هذا المنحى الوظيفي يجب أن يُطَبَّق في جميع مراحل الدراسة ابتداءً من الصفّ الأوّل الابتدائي، لا في الجامعة فحسب، لتظهر ثماره بشكل صحيح.

س: **نَشِر لك بعض البحوث في الترجمة الآلية القائمة على التطبيق العملي. ما أهمّ الصعوبات التي تواجهها الترجمة الآلية؟**

ج: الجمل التي تُرجمت آليا من الإنجليزية إلى العربية أظهرت أنّ برامج الترجمة الآلية التي استعملت في ترجمتها تواجه صعوباتٍ كثيرةً، صعوبات لا يواجهها المترجم الإنسان، أهمّها:

أ- عدم قدرتها على اكتشاف معنى الكلمة من السياق، وخاصّة إذا كان المعنى لا يتضح إلاّ من جملة سابقة أو جملة لاحقة، وهو أمر يكتشفه الإنسان دون صعوبة. قارن بين ترجمة الآلة وترجمة الإنسان التي تليها بين قوسين:

Your car is better than mine.

س: **ارتك أفضل من المنجم. (سيارتك أفضل من سيارتي)**

ب- عدم القدرة على تطبيق قواعد المطابقة بين كلمة وأخرى، مثلا:

The student I taught was your friend>s daughter.

أنا الطالب علّم كان ابنة صديقك. (الطالبة التي علّمتها كانت ابنة صديقك)

ج - عدم القدرة على اكتشاف بعض الاختلافات بين قواعد اللغتين في جواز حذف بعض الكلمات في إحدى اللغتين دون الأخرى، أي عدم القدرة على الوصول إلى البنية العميقة للجمل، كحذف اسم الموصول في الإنجليزية في الجملة السابقة، وحذف بعض الكلمات في المثالين التاليين، وعدم حذف كلمة في الترجمة العربية توجب قواعد العربية حذفها كما في المثال الثالث:

I will go if you will.

أنا سأذهب إذا أنت س. (سأذهب إذا ذهبتَ)

He is a student but I am not.

هو طالب لكنني ليس. (هو طالب لكنني لست طالباً)

I read a book which I bought yesterday.

قرأت كتابا **الذي** اشتريت أمس. (قرأتُ كتابا اشتريته أمس)

د – عدم القدرة على ترجمة الجمل التي يختلف معناها عن المعنى الحرفي لمفرداتها ترجمة صحيحة، مثلا:

This took place in broad day light.

هذا أخذ مكانا في الضوء النهاري الواسع. (حدث هذا في وضح النهار)

س: كنتَ من اللسانيين الأوائل في العالم العربي، وقد أتيتَ برؤى جديدة تخالف ما استقرّ عند من سبقوك من اللغويين المعاصرين. كيف تقبّل الناس هذه الرؤى؟

ج: لعلّ أهمّ ما خالفتُ فيه اللغويين المعاصرين الذين سبقوني، ومن أبرزهم إبراهيم أنيس وكمال بشر وعبد الرحمن أيوب وأنيس فريحة، أنني كنت **أدافع عن آراء المدرسة التوليدية التحويلية،** فقد كان أولئك اللغويون يدافعون بشدة عن المدرسة الوصفية، فمهمة اللغويّ فيما يرون هي وصف الظواهر اللغوية لا تفسيرها. وكان بعض أتباع المدرسة الوصفية يسخرون من آراء اللغويين العرب القدماء في «تقدير» أصل (بنية عميقة) تخالف ظاهر اللفظ (البنية السطحية)، فرددتُ عليهم مؤيّدا ضرورة تقدير بنية عميقة في بعض الأحيان تختلف عن ظاهر اللفظ لتفسير ظواهر لغوية لا يمكن تفسيرها دون ذلك التقدير.

يقولون، مثلا، لماذا نقول إنّ أصل **قال قَوَلَ** وأصل **باع بَيَعَ** وأصل **دعا دَعَوَ** وأصل **رمى** رَمَيَ وأصل **مَدَّ** مَدَدَ ما دام أبناء العربية لا يقولون **هو قَوَلَ وبَيَعَ ودَعَوَ ورَمَيَ ومَدَدَ،** وفاتهم أنّ اللغويين القدماء كانوا حريصين على تفسير ظواهر لغوية لها علاقة بالأفعال السابقة، فكيف نفسّر وجود الواو في مضارع **(قال ودعا)** ومصدريهما ووجود الياء في مضارع **(باع ورمى)** ومصدريهما؟ ولماذا نقول **دَعَوْتُ** ولا نقول **دَعاتُ** (دعا+تُ)، ونقول **مَدَدْتُ** ولا نقول **مَدَّتُ** (مدَّ+تُ). وقد ضربتُ أمثلة

كثيـرة تؤيّد الحاجة إلى تقدير بنية عميقة تخالف ظاهـر اللفظ في كثير من الكلمات والجمل لتفسـير ظواهر لغوية تتصل بتلك الكلمات والجمل (انظر فصل «اللغويون العرب بين الوصف والتفسـير في (دراسـات في علم أصـوات العربية ج1)، وفصل «الدراسات الصوتية في العربية بين الوصف والتفسير في (دراسات في علم أصوات العربية ج2)، وفصل «التقدير وظاهر اللفظ» في (أبحاث في الكلمة والجملة).

والحقّ أنني لم أطّلع على أيّ ردّ من أتباع المدرسة الوصفية على ما خالفتهم فيه، وبالتالي لا أدري كيف تلقّوْا آرائي. أمّا النحويون فقد لمسُـت من بعضهم تقبُّلا حسـنا لدفاعي عـن بعـض آراء اللغويين القدمـاء، رغم أنني لـم أتّفق مـع اللغويين القدماء في كثير من آرائهم.

س: لو طُلِب إليك أن تعيد النظر في خطط أقسام العربية في الوطن العربيّ، ما الذي تقترح تعديله على الخطط الحالية؟

ج: أقترح التعديلات التالية في خطط أقسام العربية (والإنجليزية أيضا):

1- إلغـاء جميع مسـاقات (مـوادّ) النحـو، وتدريس النحـو بالطريقـة الوظيفية التـي اقترحتها من خلال النصوص، وهي تشـمل إلغاء الإعـراب التقليدي والاكتفاء بالإعراب الوظيفي. انظر الفصل الثاني من كتاب (**من قضايا اللغة العربية**).

2- تخصيص موادّ لكل مهارة من مهارات اللغة: فهم المسموع وفهم المقروء والتعبير الشفوي والتعبير الكتابي يُهتَمّ في كلّ منها بأهداف تلك المهارة، وبالوسائل التي تحقّـق تلك الأهداف (قواعـد تركيب الكلمـة وقواعد تركيـب الجملة وقواعد الكتابة). ولمّا كان الفصل بين هذه المهارات فصلاً تامّا أمراً مستحيلاً، فسيكون في تدريس كلّ مادّة اهتمام جزئيّ بالمهارات الأخرى.

3- إلغـاء موادّ علم اللغة (اللسـانيات) باسـتثناء مـادّة واحـدة (مقدّمة في علم اللغة) تعطي فكرة عامّة، على أن يقتصر تدريس علم اللغة على الدراسات العليا.

4- الاهتمـام بتدريس مـوادّ الأدب بإتقان المهـارات اللغوية ووسـائل تحقيق أهدافها، لا بالمعلومات الأدبية فحسب.

5- بما أنّ معظم خرّيجي أقسـام اللغة العربية لا يتقنون التحدّث باللغة العربية الفصحـى بطلاقة دون أخطاء ولا يتقنون الكتابة دون أخطـاء، بل لا يفهمون ما يُقرأ

ويُسمع فهماً عميقاً دقيقاً (انظر الفصل الثالث في كتاب (**من قضايا اللغة العربية**))، فإنّني أرى أنّ الاقتراحات السابقة التي تهتمّ اهتماماً خاصّاً بهذه المهارات الأربع ووسائل تحقيقها هي الحلّ لتخريج طلاب يتقنون العربية. وما قلته عن أقسام اللغة العربية ينطبق أيضاً على أقسام اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات؛ ذلك أنّ الحكْم بأنّ شخصاً ما يتقن لغة ما يُبنى عن إتقان المهارات اللغوية الأربع في تلك اللغة.

س: لك دراسات في لغة الطفل، وهي دراسات نادرة في اللسانيات النفسية العربية، فما أهمّ ما توصّلتَ إليه؟

ج: أهمّ ما توصّلت إليه أنّ المدرسة السلوكيّة في علم النفس لا تستطيع تفسير اكتساب اللغة عند الطفل وأنّ المدرسة الإدراكيّة قادرة على ذلك، فنموّ الطفل اللغوي يعتمد اعتماداً وثيقاً على نموّه الإدراكيّ، سواء أكان ذلك في المفردات أو الجمل. (انظر كتاب (**في لغة الطفل ج 1: المفردات وج2: الجملة**)، والفصل الثالث «نموّ الطفل اللغوي وعلاقته بنموّه الإدراكي» في كتاب (**دراسات في علم اللغة النفسي**)، وفيما يلي أمثلة من اكتساب المفردات:

يكتسب الطفل مفردات محسوسة مثل **كرة وباب وقلم** في أواخر السنة الأولى وأوائل السنة الثانية من عمره بعد أن يسمعها عدداً قليلاً من المرّات، ولكنه لا يكتسب المفردات المجرّدة *abstract* إلاّ في مراحل متأخّرة. فالألوان (أحمر، أصفر، أبيض ...) لا تُكتَسب في جميع اللغات قبل نهاية السنة الثانية أو منتصف الثالثة، لأنّ الطفل لا يستطيع تجريد لون الشيء من الشيء ذاته، فإذا قلت له «أصفر» مشيراً إلى قلم أو كتاب فقد لا يجد صعوبة في لفظ الكلمة (مع تغيير في بعض أصواتها) ولكنّه سيظن أنّ «أصفر» تعني الشيء المشار إليه لا لونه. كذلك يكتسب الكلمات المتعلّقة بالمكان، مثل **هنا وهناك وأين؟** قبل نظيراتها المتعلّقة بالزمان مثل **الآن وأمس وغدا**، فمعظم الأطفال لا يكتسبون الكلمتين «أمس» و«غدا»، مثلا، قبل سنّ الثالثة أو الثالثة والنصف، رغم أن لفظ كلمة «بُكْرة»، مثلا، أسهل من لفظ كلمة «طاولة» التي يكتسبها (إذا سمعها) في أوائل سنته الثانية. ويكتسب كلمة «جُبْن» (طعام) قبل عدّة سنوات من اكتسابه «جُبْن»(عكس «شجاعة») لأنّ المشكلة ليست صعوبة اللفظ بل صعوبة المفهوم والمعنى، وهما مرتبطان بمستوى القدرة

الإدراكيّـة. وحتى الكلمـات المنتمية لفئة واحـدة مثل «طويل» و»قصيـر»، أو»بعيد» و»قريب» إلخ. تُكتسَـب إحداها قبل الأخرى لأسـباب تتعلّق بالإدراك، فالطبيعي أن تُكتسَب «طويل» قبل «قصير» و»بعيد» قبل «قريب». ذلك أنّ القِصَر نوع من الطول، والقرب نـوع من البعد، فنحن نقول «هـذا طويل. طوله متران» و»هـذا قصير. **طوله** (وليـس **قِصَره**) نصف متر» و»هذا المكان بعيد. يبعد عشـرة كيلو مترات» و»المكان الآخر قريب. **يبعد** (وليس **يقرب**) نصف كيلو متر».

وفي الجمل يسـمع الطفل بعـض الكلمات مثـل أداة التعريف وحـروف الجرّ مئات المرّات دون أن يكتسبها. يسمع، مثلا، «الماما في المطبخ»، ولكنه في مرحلة الجملة المسـمّاه «جملـة الكلمتين» يحذف أداة التعريف وحـرف الجرّ ويقول «ماما مطبخ» (بصرف النظر عن لفظه لكلمة «مطبخ»).

وجدير بالذكر أننا أحيانا نسـمع طفلا يستعمل كلمة ما فنظنّ أنه يعرف معناها، ثمّ نكتشـف أنّ المعنى المرتبط بها في ذهنه ليس المعنى الصحيح. وسـأكتفي بذكر مثال واحد من كلام ابنتي ديمة: سـمعتُ كلمة «نُصّ» (نصف) في قولها «نُصّ إلي ونُصّ لمروان» فظننت أنها تعرف معنـى «نُصّ» إلى أن قالت يوما: «نُصّ إلي ونصّ لمروان ونُصّ إلَك» فأدركت أنّ أحد شرطَيْ معنى «نُصّ» وهو أنه جزء من اثنين لم يكن معروفاً لديها. ثمّ قالت بعد ذلك: «نُصّ مروان أكبر من نُصّي» فتبيّن أنّ الشرط الثاني لمعنى «نُصّ» وهو أنّ الجزأين متساويان لا تعرفه كذلك. أي أنّ معنى «نصّ» عندها هو «جزء» دون قيود.

ولعـلّ أطرف مـا كنـتُ أسـمعه من بعـض الآبـاء والأمهـات حين أسـأل عن الحصيلة اللغوية لطفل في أوائل السنة الثانية من عمره قولهم «بِعرف كلّ شي»**!**

الدكتور الطيب البكوش

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلـود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضـل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقـق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيـات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: السبب الذي جعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية خلال القرن العشرين بالخصوص هو أنّ تطوّرها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تميّز بتوجّه علمي قرّبها من العلوم الصحيحة وإن بقيت رغم ذلك من العلوم الإنسانية باعتبارها مؤسسة بشرية اجتماعية.

وفي هذه المرحلة الحاسمة من تطوّرها -ونقصد المنهج المقارن واللسانيات التاريخية ثمّ ظهور المنهج السوسوري والبنيوية وما تلاها- استفادت اللسانيات كثيرا من العلوم الاجتماعية الأخرى مثل التاريخ وعلم الاجتماع، ثم توصلت إلى بلورة مناهج أكثر دقة وعلمية، تجاوزت العلوم الأخرى وأثّرت فيها وخاصة مع البنيوية.

لكن ما سهّل ذلك هو التركيز على البعد الصوتي والشكلي في اللّغة دون البعد الدلالي الذي بقي عصيّا على الشكلنة.

أمّا اليوم فيمكن الحديث عن تفاعل بين اللسانيات والعلوم الأخرى إلى حدّ بروز مباحث جديدة تقع في مساحة التلاقي والتداخل مثل اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات الإعلامية والترجمية وغيرها.

وقد تولّد عن هذا التفاعل الثري اهتمام متزايد بالدلالة وبضرورة السّعي إلى شكلنتها وأخذ الدّلالة بعين الاعتبار في دراسة المعجم ولاسيما بتطبيق منهج «أقسام الأشياء» الذي يهدف إلى جعل اللسانيات في خدمة الترجمة الآلية.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: البحث اللساني في الثقافة العربية حديثا يمكن تصنيفه إلى ضربين:

البحث الفردي الذي يقوم به في الغالب مدرّسون جامعيون أو طلبة المراحل العليا في شكل رسائل دكتوراه، وهو يتّسم غالبا بالتشتّت رغم أهمية عديد الأبحاث. والبحث المؤسسي الذي ينجز في إطار بعض المجامع اللّغوية أو الألكسو. وهذا النوع من الأعمال تغلب عليه النزعة المحافظة عموما. فضلا عن البيرقراطية وأحيانا الاعتبارات السياسية. لذلك لو قارنا بين التكلفة والنتائج لكانت الأعمال المؤسّسية دون الأعمال الفردية إذا اعتبرناها مجملة.

كما أنّ ما يلاحظ في الأعمال المؤسسية أنّها تكاد تنحصر في قضايا المعجم، والمصطلحات التي كثيرا ما تترجم معزولة عن سياقها ودون تعريب النصوص المؤسِّسة التي وردت فيها.

ورغم التركيز على المعجم والمصطلحات فإنّ الثقافة العربية الحديثة مازالت تفتقر إلى معجم عربي تاريخي أو تأثيلي، وهو مشروع يمكن للمجامع والجامعات العربية أن تجمّع طاقاتها البشرية والماديّة وأنّ تنجزه في آجال معقولة لو توفّرت الإرادة والنظرة الاستراتيجية في مؤسسات مثلها ومثل الألكسو، ولو تغلبت الاعتبارات العلمية والحضارية على الاعتبارات السياسية الضيقة.

فما تقوم به البلاد العربية بأجمعها تجاه لغتها رغم مواردها الهامّة وطاقاتها المادية والبشرية دون ما يقوم به بلد أوروبي واحد ودون ما تقوم به إسرائيل وحدها. وهو مظهر من مظاهر تدنّي التنمية في البلاد العربية.

س: هناك أسباب موضوعية ولا شك تفسر هذا الوضع، وتحول دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب ما هي هذه الأسباب؟

ج: بالإضافة إلى ما ذكرت توجد أسباب أخرى هامّة:

منها أنّ تقديس التراث عند البعض يجعلهم يعتبرون أنّ ما أتى به الأوائل كاف شاف ولسنا في حاجة إلى إعادة القراءة من منظور أحدث يستفيد من النظريات والاكتشافات الحديثة.

يذكّرني هذا بتعليق أحد الزعماء العرب المرموقين -رحمه الله- كان يرأس

جلسة قدّمتُ فيها عرضا عن القضايا الصوتية في كتاب سيبويه في مؤتمر دعتني إليه جامعة شيراز سنة 1974م بمناسبة مرور اثني عشر قرنا على وفاته فتساءل عن الفائدة من إعادة قراءة كتاب سيبويه بطريقة حديثة والحال أنّ محتواه واضح كما شرحه النحاة القدامى.

من نتائج هذا التقديس أو من مظاهره، استهجان المستويات الدارجة من العربية والترفّع عن دراستها، ممّا يجعل طلبة الاختصاص يجتنبونها لأنّها لا تشجّع على الانتداب والترقية في الجامعات العربية. هذا النقص الفادح وما تركه من فراغ قد جعل جلّ المختصّين أو المهتمين باللهجات العربية من اليهود العاملين في إسرائيل أو في الجامعات الغربية.

ولعلّ من أسباب الحذر من هذه الدراسات هو اهتمام المستشرقين بها ولاسيما أنّ بعضهم كان يدعو إلى استخدام اللهجات بدل الفصحى. وهو موقف خاطئ حتى من الناحية العلمية، تماما مثلما يخطئ من يعادي الدراسات اللّهجية لأنّ في ذلك خطرا على الفصحى ذاتها نظرا للتكامل بين المستويات الفصيحة والمستويات الدارجة.

ومن نتائج هذه النظرة الدونية غياب الأطالس اللسانية العربية الفصحى والدارجة معًا. وما نجده منها في بعض البلدان القليلة قام به أجانب، إذا استثنينا ما أنجزه فريق الأطلس اللساني التونسي في السنوات الأخيرة والذي نشرت بعض نتائجه بالعربية وبعضها بالفرنسية.

بالإضافة إلى هذا يوجد نقص فادح في تعريب الأبحاث اللسانية الحديثة التأسيسية وذات القيمة التنظيرية ولاسيما منها ما يتعلق بالدلالة.

وفي هذا المجال يوجدُ تقصير كبير من الألكسو ومن المجامع العربية إلا أنّ ما بدأت تقوم به في المدة الأخيرة المنظمة العربية للترجمة انطلاقا من بيروت، يسدّ بعض الثغرات.

يمكن بالطبع أن نعدّد الأسباب والعوائق وهي كثيرة لكني أعتبر أنّ ما هو إيديولوجي أو سياسي قد يكون أهمّ وأعمق أثرا.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو

وضع نعتبره نتيجـــة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيـــل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم(اللسانيات)، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم (للسانيات) لم تتحقق، أعني الشروط الضروريـــة لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك (بحسب بحث قمنا به في هذا المجال): غيـــاب كتابة لسانية تمهيديـــة (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلـــى القارئ المبتدئ بالشـــكل الصحيح، وعدم القدرة علـــى مواكبة المستجـــدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية...إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها؟

ج: سـؤالكم هذا يتضمّن الجواب أو جزءا هامّا منه ويرتبط مباشـرة بما سـبق ذكره. ويمكن تلخيص التشخيص بصفة تأليفية في ما يلي:

- غياب النظرة الاسـتراتيجية وعدم أخذ البعد التنموي للدراسـات اللسانية بعين الاعتبار في مستويات القرار المحلي والإقليمي.
- نقص الترجمة الجيّدة التي تمكّن من مواكبة التطوّر العلمي.
- ضعف الجانب التنظيري الذي يسهم في التأسيس العلمي والمعرفي.
- غيـاب المشـغل اللّسـاني ضمـن المشـاغل السياسـية العامّة وفـي صُلب المخطّطات الإنمائية.

ســ: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائـــدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: صحيح أنّنا نلاحظ مفارقة كبرى في هذا المجال. فالنخبة العربية الإسلامية قديمـا تركت لنـا تراثا هامّا زاخـرا فعلا، وهو ذو قيمـة عالمية وقابـل للمقارنة دون مركّبات نقص مع التراث الهندي أو اليوناني قبل الميلاد وبُعيده.

وقد شـمل جميع الميادين تقريبا مـع التركيز على المعجـم والنحو والصرف، وهو إنتاج من داخل المنظومة، أي إنّه يصف العربية ويقنّنها من داخل نظامها.

لكنّنـا نجد بصفـة موازية تقريبـا إنتاجا آخـر فيه تأثر بالفلسـفة اليونانيـة وبآراء أرسـطو في اللغة. وهو واضـح جليّ عند ابن رشـد مثلا. ويمكن القـول إن التنظير اللساني متوفّر قديما عند المفكّرين من أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن خلدون أكثر ممّا عند النحاة إذا اسـتثنينا منهم الذين لهم ثقافة فلسـفية مثل ابن

جني وغيره.

ومن المفيد أن نشير إلى أنّ القدامى لم يهملوا اللهجات خصوصا أنّهم كانوا مقتنعين بنزول القرآن بسبعة أحرف. إلاّ أنّ المادة اللهجية توجد مبثوثة في مباحثهم، تجميعها وتحليلها هام جدّا لتقويم تطوّر العربية المتواصل.

فجهود المحدثين على أهميتها، أراها شخصيا دون جهود القدامى وأضيق أفقا إذا أخذنا بعين الاعتبار اختلاف الظروف من جميع النواحي ولاسيما أنّ الفترة القديمة فترة تأسيس وتوسّع ومدّ حضاري والفترة الحديثة فترة امتداد لفترات الانكماش والتخلّف الحضاري.

س: **التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنافس لا نجد له مثيلا إلا في ثقافتنا، هل المشكل مشكل مناهج حقا؟**

ج: المناهج جزء من المشكل وليس كل المشكل... لكن لا أفهم لماذا نحصر التنافس في ثقافتنا. فهو موجود في جميع الثقافات. وحتى عندما نفكر في التنافس الذي كان موجودا بين مدرستي البصرة والكوفة منذ بدايات البحث اللساني العربي، لا يمكن أن لا يُذكِّرَنا ذلك بالتنافس الأسبق بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة برغام في الثقافة اليونانية. ونجد التنافس ذاته اليوم بين بعض المدارس اللسانية الغربية كما حدث في الستينيات بين الوظيفية والتوليدية.

س: **من مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين اللسانيين، فلا أحد منهم يهتم بما يكتبه الآخر، وهذا ما يجعل أمر اللسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟**

ج: هذا مشكل آخر، لا أسميه تنافسا بل ضعفا في الوعي العلمي ونقصا في الأخلاق العلمية. يذكّرني ذلك بحادثة معبّرة عن هذا، فقد كنت في لجنة مناقشة لترقية جامعية عالية، ولاحظت للمترشح أنّ أحد بحوثه الرئيسية في اختصاص لساني محدّد لا ذِكرَ في مراجعه لبحث هامّ هو الوحيد من نوعه ممّا نشرته الجامعة ذاتُها. فكان جوابه غريبا وهو أنّه سمع بالبحث ولكن لم يصادف أن اطّلع عليه. فقلت في نفسي حتى لا أحرجه أكثر «رب عذر أقبح من ذنب». هذه العقلية المرضية موجودة بكثرة في النخبة العربية ويمكن أن أسميها بظاهرة حجاب الجوار، وهي تبدو لي

أوضح في تونس.

أمّـا إذا وضعنـا الظاهـرة في المسـتوى الإقليمـي فإنّ الأمـر يصبـح أعقد لأنّ الحدود الجغرافية زادت كثافة في السـنين الأخيرة رغم العولمة ورغم تطوّر وسائل الاتّصال. لكن الأسباب هنا يغلب عليها الطابع السياسي الضيّق.

في جميع الأحوال هذه الظواهر تندرج ضمن التخلّف لا التنافس في رأيي.

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصـــه المعادلة: النحو ≠ اللسانيات، التراث اللغوي العربي ≠ اللسانيات؟

ج: هـذا المظهـر موجـود فعلا ولكـن المشـكلة لا تنحصـر فيه كما أسـلفت. صحيح أنّ اللسـانيات نُظِرَ إليها بكثير من الريبة حتى في الأوساط الجامعية لأنّ كلّ جديد يُحترز منه في البداية، بالإضافة إلى أنّه يضايق البعض ويحملهم على التحرّك والتجدّد ويُقلق راحتهم فيما اسـتقرّوا عليه واطمأنوا إليه دون شـك أو تساؤل. وقد حـاول البعض أن لا يرى في اللسـانيات إلاّ اهتماما باللهجات مـع كلّ ما يثيره هذا الاهتمام من مخاوف وشكوك واحترازات.

ولكن ما كان حاسـما في الأمر هو إقبال الطلبة على اللسـانيات وتعبيرهم عن الرغبـة في تطوّر الدراسـات النحوية وقد وصلت أعداد منهم إلـى الجامعة فتعززت بهم اللسانيات. وإذا أخذت الجامعة التونسـية مثالا، يمكن القول إنّ مفهوم الصراع لا ينطبـق بالمعنـى الذي يشـير إليه السـؤال. وحدث نـوع من الإجماع علـى أهمية إعادة قراءة التراث بآليات بحث لسـاني حديثة بشكل يثري اللسانيات العامّة ويطوّر المعرفـة اللغويـة التقليدية. لكنّني لا أسـتبعد أن يوجـد مثل هذا الصـراع في بعض الجامعات العربية الأخرى.

ســن: تواجه اللغـــة العربية مجموعة من التحديات فـــي سياق دولي عولمي غير مسبـــوق ينذر بـالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيـــا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم فـــي هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟/ ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: التحديات ليسـت جديـدة وإنّما هي متجدّدة. فقد تجـاوزت العربية تحدي

الدارجات الذي أثاره بعض دعاة الاستعاضة عن الفصحى بالدارجة، وإن كان في الحقيقة تحدّيا ضعيفا وقع تضخيمه إيديولوجيا ولم يكن يمثل خطرا فعليا على أرض الواقع؛ لأنّ التكامل بين المستويين أقوى من التنافس. واتجاه التطوّر خلال القرن الماضي يؤكد ذلك بوضوح.

أمّا تأثير العولمة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات فهي تمثل تحديا لجميع الألسن مقابل الانكليزية.

لكن لا أتصوّر أنّ الأمر يبلغ حدّ الابتلاع لأيّ لسان. يكفي أن نرى كيف يُعالج الاتحاد الأوروبي تعدّد لغاته لنتبيّن أنّ التعدّد اللساني سيبقي القاعدة وأنّ الترجمة ستزيد ازدهارا والاستثمار في الترجمة الآلية سيتوسّع أكثر فأكثر.

أمّا القضية الجوهرية في نظري فهي هل تبقى العربية في خانة التخلف أم إنّها مقبلة على الارتقاء إلى مصاف اللغات العالمية المتقدّمة؟ هذا هو التحدّي الحقيقي.

ويجب التأكيد هنا أنّ الأمر لا يتعلّق باللّسان العربي في ذاته وإنّما بمستوى مستعمليه من جهة وبالسياسة اللسانية من جهة أخرى.

فمستوى المستعملين عموما لا يحتاج إلى تدليل إضافي، فهو مستوى متخلف. وما يحصل من تقدّم نسبي نسقُه دون نسق التطوّر العالمي، ممّا يزيد الفجوة اتّساعا وعمقا. ويكفي في هذا الصدد الرجوع إلى دراسات تقرير التنمية البشرية العالمي أو الخاص بالبلاد العربية لتصوّر مدى التخلّف في جميع الميادين ولاسيما المعرفية منها، إنتاجا وحتى نقلا وترجمة.

أمّا السياسة اللسانية وما تقتضيه من تشخيص للواقع وضبط الأهداف واتخاذ القرارات للتنفيذ والمتابعة والتقويم فهي على حدّ علمي لا تكاد توجد في أيّ مكان، وهي غائبة كذلك إقليميا.

ولا توجد وصفة سحرية للخروج من هذا الوضع وإنّما يقتضي الأمر التحوّل من موقع المستهلك إلى موقع المنتج للمعرفة وثمار المعرفة.

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟

عربيـــة قديمة تراثية، وعربيـــة مقدسة، وعربية وسطى هـــي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: لا أظـّن أنّـه توجـد علاقـة بيـن تعـدّد العربيـات أو مسـتويات العربية وما تفترضونه من غياب المجموعات العلمية التي تتخذها موضوعا لنظرها. بل بالعكس التعدّد عامل إثراء وحافز على البحث والنظر.

لكن هل هـي غائبة فعلا. أميل إلى الظنّ بأنها دون المطلوب ولكنّها موجودة، وهي من ثلاثة أصناف:

صنف محلي من نوع فريق البحث اللساني الذي نشط منذ الستينيات في مركز البحوث والدّراسـات الاقتصادية والاجتماعية (سـيراس) بتونس وكان ينشّطه الفقيد صالح القرمادي، ومن نوع فريق الأطلس اللسـاني التونسـي الذي بعثناه في السـنين الأخيرة ومازال يعمل. هذا فضلا عن فرق أخرى تعمل في الكليات المختلفة.

وصنـف عربي إقليمي مـن نوع «الرصيد اللغـوي العربي» الذي شـمل البلدان المغاربية الثلاثة (تونس والجزائر والمغرب) بين الستينيات والسبعينيات.

وصنـف أحدث قائم على الشـراكة العربيـة الأوروبية وهو إمّـا بتمويل مزدوج أو تمويـل أجنبي صرف. ونجد هـذا النوع من مجموعات البحـث التابعة لجامعات متعـدّدة مـن الشـمال والجنـوب فـي مشـاريع الشـبكات مثـل شـبكة المعجميـة والمصطلحية والترجمة وإحدى الشـبكات الفرنكوفونية. وهذه المجموعات تشتغل عموما على جميع مستويات العربية وعلى التعدّد اللساني.

سـ: ما هي الإشكالات التي يمكن أن تطرحهـــا العربية بوصفها لغة الإنتاج الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب، لا لغة التداول اليومي؟

ج: لا يوجد إشـكال جوهـري إلاّ عند الذين يريدون إقامـة حواجز فاصلة بين الفصحى ودارجاتها. لكن المتأمل في المشهد اللغوي العربي حاليا، يلاحظ إجمالا تداخلا ثريـا بين المسـتويات بفضل وجود مسـتويات بينيّـة متعدّدة متدرّجة تسـمح بالحديث عن استرسال لغوي يتأكد أكثر فأكثر.

ومن الطبيعـي أن يختصّ كلّ مسـتوى من المسـتويات بمجـالات معيّنة. فلغة التدريس ليست لغة التعامل في الأسـواق ولغة القصة ليست بالضرورة لغة المسرح

الشعبي. ومن الطبيعي أن يوجد فرق بين لغة الكتابة ولغة التخاطب اليومي. لكن المهم هو أن نعمل من أجل التقريب بين المستويات لا من أجل توسيع الفجوة بينها.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: لا يوجد مفتاح سحري.جوهر القضية يكمن في التحوّل كما قلت من قبل من موقع الاستهلاك إلى موقع الإنتاج العلمي والمعرفي، بتجميع الطاقات العربية البشرية والمادية. فالمنتج يستعمل لغته ويطبق على لغته ويعالج المشاكل انطلاقا من خصوصيات لغته.

أمّا المستهلك فيضطرّ إلى استعمال الألسن الأخرى ويبقى لاهثا وراء نسق التقدّم الذي يحقّقه المبتكِرُ المصنِّعُ والمنتج. وهنا بالذات يكمن مشكل المعالجة الآلية العربية التي لا ترقى إلى المستوى العالمي رغم الجهود المبذولة.

س: ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: بالإضافة إذا ما ذكرت سابقا، أرى أنّ المجامع الحالية تبقى أقرب إلى المشاغل المحلية ولا يمكن لمجمع تُقَرِّرُ إحداثَه دولةٌ واحدة أن يستجيب للمتطلبات الإقليمية.

وأعتقد أنّ طبيعة المنطقة العربية بلهجاتها وحتى فُصحَيَاتِها من بعض الجوانب، وخاصة الجانبَ المعجمي-تتطلّب مَجمعا إقليميا ضخمًا يتأسس بقرار سياسي إقليمي وميزانية قارّة مستقلّة ويخضع لاعتبارات علمية لا دخل فيها للمزايدات السياسية ويتولى التخطيط والإنجاز لسياسة لغوية عربية شاملة وهو مشروع كان من المفروض أن يؤسّس مع الجامعة العربية.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: هذا الضعف هو النتيجة الطبيعية لما ذكرته سابقا. فهو ليس ظاهرة معزولة

وإنّمـا يوجد ترابط بين الظواهر. توجد جامعات عربيـة تُلقَى فيها الدروس بالدارجة المطعّمة بشـيء من الفصحى، بدل أن يكون العكـس. وهذا الضعف ينقله جيل عن جيل. وتوجد اختصاصـات تقدّم فيها دروس بعربية متوسـطة مخلوطة بعبارات غير عربية وذلك في عديد المؤسسـات فـي البلاد العربية. وما يوجـد في الجامعات هو تواصل لما يوجد في مراحل التعليم السـابقة. وهي ظاهـرة تحتاج إلى وصف دقيق وإلى المعالجة العلمية.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر، في الغرب، قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن. وأن الكثيـــر من تلك السمـــات كان له تأثير مباشر فـــي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـــه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري (حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـــدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـــي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي فـــي غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: الوضع الـذي عرفته أوروبا مثلا يختلف كثيرا عن الوضع العربي من حيث تطوّر الفكر اللسـاني. فأوروبا حـدث فيها في عصر النهضة التـي دامت قرونا تطوّر في الفكر اللساني لا يمكن عزله عن ظاهرة بالغة الأهمية وهي نشأة اللغات الوطنية بعد التخلـي عن اللاّتينية الرسـمية التـي أصبحت بذلك لغـة ميتة اجتماعيـا ولكنّها مصدر ثـراء للغات الوطنية التي ارتقت من مسـتوى اللهجات الدارجة إلى مسـتوى اللغات الرسمية.

وكان هـذا من العوامـل التي تدعّمت باكتشـاف التـراث السنسـكريتي الهندي والتي آلت في القرن التاسع عشـر إلى ظهور المنهج المقارن واللسانيات التاريخية. وهي مرحلة حاسمة سابقة لظهور اللسانيات العامة الحديثة في القرن العشرين.

أمّـا العربية فقد أضفى عليها الكتاب المقدس –القرآن– صبغة مقدّسـة جعلت

بعـض مسـتعمليها يقاومـون كلّ تطـوّر فيها إلـى أن فرضت طبيعـة الحيـاة والتطوّر العلمـي والاجتماعـي مظاهر عدّة من التطـوّر. ولولا هذا التطوّر الـذي بدأ فعلا مع عصر النهضة وخاصة خلال القرن العشـرين لبقيت العربية الفصحى متقادمة جدّا لا تفي بالحاجة.

فالظروف اللسـانية بين عصر النهضة الأوروبية وعصر النهضـة العربية مختلفة جدّا. هـذا من جهة، ومن جهـة أخرى فإنّ التقدّم شـامل ولا يكون فـي مجال دون آخـر لترابط المجالات المعرفية، فمن تقدّم في سـائر العلوم يتقـدّم أيضا في العلوم اللسانية.

س: ما دمنا بصدد الحديث عـن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعـات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا مـن قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغوي، الأمراض اللغوية.ما هي أسبـاب هذا التقوقـع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبـره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟

ج: إلـى حدّ ما هو صحيـح. فاللغويون القدامى يبدون لي أكثـر جرأة إجمالا. فقـد اهتمـوا باللهجات وبالدخيـل وبآفات النطـق أو عيوبه كما كانـوا يقولون. لكن هذه الجرأة نجدها عند غير اللغويين أكثر من أمثال الجاحظ وابن حزم وابن خلدون وغيرهـم، رغم أنهم في الغالـب يبرّرون هذا الاهتمـام بضرورة التمييـز بن الفصيح وغير الفصيح ونجد هذا الحذر ذاته في العصر الحديث كما في معجم تيمور.

لكن التخطيـط لا يقوم به أفـراد وإنّما مؤسسـات ذات إمكانيـات ولها هامش من حرية القرار. لكن الوعي بأهمية البحث اللسـاني وقيمته الاستراتيجية في التنمية البشرية مازال منقوصا.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلـت تؤرق البحـث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلـك المرتبطة بالمصطلح

والتعريب؟

ج: لا أظنّ أنه يمثل إشكالا في ذاته فالإشكال في غياب السياسة والاستراتيجيا. عندما قرّر المأمون أن يتجاوز الاجتهاد الفردي في النقل عن اليونان فإنّه أحدث المؤسسة اللاّزمة ومنحها من المال ما يكفي، فتمّ ذلك في بيت الحكمة. طبعا المقارنة لا تستقيم من ناحية الكمّ والتنوّع، وإنّما تكمن أهميتها في الرمز. فما تقرّر نقله في تلك الحقبة كان تراثا منتهيا مغلقا. أمّا اليوم فهو إنتاج هائل منفتح متزايد بنسق أسرع بكثير من نسق الترجمة. وهنا تكمن قيمة التخطيط الاستراتيجي حسب الميادين والاختصاصات واختيار الإنتاج المؤسّسي الذي لا غنى عنه وتوجيه الجهود والإمكانيات في اتجاه التكامل والتراكم في حين أن ما يجري الآن عموما لا يعدو اجتهاد الأفراد أو المجموعات القليلة، ذات الإمكانيات المحدودة.

أمّا قضية المصطلح فإنّها لا تحلّ إلاّ بارتباط بالترجمة لا بصفة معزولة. فإذا كانت الترجمة مخططة، كان توفير المصطلح الضروري أيضا مخططا. فعلى سبيل المثال التجربة التي خضناها في إطار المؤسسة العربية للترجمة المنشأة في السنين الأخيرة تُبيّن أنّ حلّ قضية المصطلح هيّن إذا حُلت قضية التعريب.

س: **ماذا تقترحون بهذا الخصوص (من الناحية المنهجية تحديدا)**؟

ج: لا أرى مخرجا جديّا إلاّ بتجميع الطاقات العربية الكفأة في إطار مؤسسة من نوع المؤسسة العربية للترجمة تسهم جميع الدول العربية في تمويلها وتوسيعها. إلى جانب مجمع لغوي إقليمي يموّل بالشكل ذاته يتولى الإشراف على ضبط خطة استراتيجية لسانية عربية وعلى تنفيذها. ويمكن أن تضع من أهدافها الأولية ما يلي:

- ترقيم الإنتاج العربي حتى يستغلّ في تطوير المعجم العربي وتحديثه.
- إنجاز أطالس لسانية عربية.
- وصف المستويات اللسانية العربية جميعا، فصحى ودارجة وما بينهما.
- إنجاز المعجم العربي التاريخي.

وهذه المشاريع العربية الضخمة لا غنى عنها لمن رام النهوض باللسان العربي باعتباره خير معبّر عن الثقافة والحضارة العربيتين. وبدون مشاريع بهذه الأهمية، فمن العسير جدّا الخروج من التخلّف في هذا المجال.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: أكيد ليس وضعا طبيعيا. ولكن يمكن تشخيص الوضع من خلال التجربة الشخصية لأنها معبّرة في نظري. بداية كتابتي في اللسانيات كانت بالفرنسية منذ أربعين عاما تقريبا وأنا طالب بالجامعة. ذلك أنّ رسائل المرحلة الثالثة إلى دكتوراه الدولة في السربون كانت بالضرورة بهذه اللغة. في مرحلة ثانية أسهمت في تدريس اللسانيات العامة والعربية في الجامعة التونسية بالعربية وهو ما اقتضى جهدا في التعريب وتوفير المصطلح اللازم.

وفي فترة ثالثة عدت إلى تغليب الكتابة بالفرنسية لسببين: أولهما أنّ المؤتمرات اللسانية الدولية التي تجرى بألسن متعددة أرقى علميا من التي تجرى بالعربية وحدها، ثمّ إنّ الحضور العربي فيها محدود مقارنة بغيرهم. فإلى من نتوجه عندما نحاضر في المؤتمرات الدولية؟

ثانيهما أنّ العرب لا يقرؤون كثيرا، بينما الأجانب يهتمون أكثر حتى عندما نكتب عن العربية، فتجد عندهم صدى لما تكتب أكثر ممّا تجد عند العرب. وقد سبق أن ذكرت عينات من ذلك تنم عن عُقد لا تليق بالعلم.

س: في نظركم ما هي السبل التي ترونها كفيلة بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: أظنّ أن ما ذكرته في جوابي عن سؤال سابق ينطبق على هذا السؤال أيضا.

س: ما هو تقويمكم لواقع البحث اللساني في تونس بصفة خاصة والمغرب العربي بصفة عامة؟

ج: أعتقد أنّ حركة البحث اللساني في تونس والمغرب من أهمّ التجارب نسبيا في البلاد العربية كمّا وكيفا. ويوجد جيل جديد من اللسانيين ذوي التكوين الجيّد.

لكـن ما ذكرته في أجوبتي السـابقة ينطبـق على جميع البـلاد العربية بدرجات متفاوتة لأنّ التقويم إجمالي لا يدخل في التفاصيل.

س: ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟

ج: نصائحي إلى اللسانيين الشبّان:

- إتقان أكثر ما يمكن من الألسن مع إتقان العربية طبعا.
- عدم الاكتفاء بمدرسـة واحدة أو منهج محدّد وإنّما الاستفادة من الجميع لأنّ الحقيقة دائما نسبية ولا توجد في منهج واحد بالضرورة.
- الترفع عن العقد وعن إخضاع العلاقات العلمية للعلاقات الذاتية.
- الاقتناع بأنّ اللسانيات العامّة أشمل من اللسانيات العربية وأنّ التمكّن من أعنّتها يخدم الدراسات العربية.
- اعتبار جميع الظواهر اللسانية جديرة بالتأمّل والدرس لأنّها جميعًا ظواهر اجتماعية حيّة تجاهُلها لا ينمّ عن حسّ علمي.
- اعتبـار الدراسـات اللسـانية عامـلا مـن عوامـل التنمية الشـاملة وليسـت اختصاصا معزولا عن مجالات المعرفة الأخرى.
- المشاركة في الحركة العلمية العالمية بالترجمة والتأليف بالعربية وغيرها- فاتجـاه التعريب يثري المعارف العربية واتجـاه النقل من العربية والتأليف بغيـر العربيـة يُعـرّف بالقضايـا العربية دوليا ويسـهم فـي الحركـة العلمية العالمية.

الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلــود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضــل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقــق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: هـذا رأي للفـي سـتراوس وبعـض أتباعـه فـي ذلك. وقـد ظهر مثـل هذا الإعجاب فيما يخص اللسـانيات التاريخية في القرن التاسـع عشـر الميلادي إلا أنه كان إعجابـا عظيمـا وشـاملا إلى ما بعد سوسـور. ولا يمكـن أن نعتدّ بمـا قيل عن اللسـانيات في زماننـا إلا إذا كثر عدد الذين يقولون ذلك بحيث يجعلنا نتسـاءل عن حقيقة الأمر.

س: من السؤال الثاني إلى السؤال الثامن:

ج: السؤال الثاني سيتكرر بأشكال أو من جوانب مختلفة ويدل ذلك في نظري علـى تعجب كل من يسـأل مثل هذا السـؤال على عدم انتشـار هذا العلـم والبحث العلمي فيه وتلقينه في الجامعات العربية بعد أكثر من نصف قرن على تعرف العرب عليه. ويمكن أن نقول في ذلك بأنه:

1 – لا ينتشر العلم من العلوم الجديدة إلا بمرور زمان طويل وخاصة إذا سبقه في احتـلال المكان (الذي يريـد أن يحتله) علم آخـر. بمنظور آخر مثل اللسـانيات التاريخيـة والوصفيـة بعدهـا (فمعهد اللسـانيات فـي باريس لـم يسـمح أن تدخلها اللسانيات البنوية إلا بعد سنة 1945م بمجيء مارتيني أستاذا فيها).

2 – ولا يفرض العلم الجديد نفسـه إلا إذا ظهر العديـد من الاختصاصين فيه واشتهروا بتآليف ذات القيمة الكبيرة فيقتنع المثقفون عندئذ بما جاء فيها ولا يحصل ذلك إلا إذا جاء هؤلاء بأدلة أو حجج مقنعة لتماسكها مع جدتها.

3 – ولا يمكـن أن يحصـل ذلك في بلد آخـر إلا بنفس الكيفيـة: أن يظهر من أهل الاختصـاص من يسـتطيع أن يقنع جمهـور المثقفين أن العلم الـذي يدعو إلى

الخوض فيه وإدماجه في التعليم والبحث جدير بذلك وهذا يتطلب:

وقتا طويلا وعددا كافيا من اللسانيين المتميزين في كل بلد.

وفوق كل شيء أن يكون التميّز بأصالة التفكير وجدة الأفكار ولا يكون فقط بمجرد نقل وتقليد.

أما فيما يخص التنافي: النحو≠ اللسانيات والتراث اللغوي العربي≠ اللسانيات فشكله بسيط جدا. فالنحو التقليدي كله تعليمي فليس هو اللسانيات. أما النحو في التراث اللغوي المتأخر كشروح الألفية فليس هو اللسانيات.

أما النحو العلمي وصفيا كان أم توليديا فهو الجزء الأهم من اللسانيات وأما في التراث العربي فلا نحو علمي إلا عند الخليل ابن أحمد وأتباعه وبعض العباقرة بعده. فهذا النحو لا يعرفه على حقيقته -فيما أعلم- لا المثقفون ولا اللسانيون العرب إلا القليل بل لا يعرفه الأولون إلا بإسقاطهم مفاهيم ابن مالك عليه والآخرون إلا بإسقاطهم البنوية الغربية عليه أو اختباره بمقاييس مذهب من مذاهب اللسانيات فإذا تفطنوا إلى عدم وجود الأفكار الغربية فيه انتقصوه واستهزؤوا به ورفضوه رفضا.كيف لا وهم يفسرون القياس النحوي إما بما قاله الأصوليون وإما بما قاله أرسطو (فكل شيء عند النحاة الأولين مستعار عند أكثر زملائنا ولم يبدعوا، في زعمهم، شيئا وهيهات أن يكون الأمر هكذا).

ويجدر بنا أن نقول بأن اللسانيات التي يفضل أن يسميها الكثير في الوقت الراهن بعلوم اللسان خصوصية وهذا صحيح فمن ثم أهميتها وهي أنها تعالج الظواهر اللسانية من عدة جوانب وأكثرها علمية محضة فمن لم يلم بالرياضيات الحديثة والمنطق الرياضي كيف يمكن أن ينظر ويبحث في قسمة التراكيب الخاصة باللغة (*Combinatoire*)؟ ومن لم يدخل قط في مخبر صوتي فكيف يجوز له أن يقول شيئا عن أقوال الخليل؟ بل كيف يمكن لأي باحث في اللغة أن يكشف عن أسرار اللغات من حيث بنيتها ومجاريها وقد يجهل الكثير من النظريات الحديثة في أحدث صورها؟ (مثل اللسانيات الحاسوبية وهندسة اللغة وغيرها) وقد يحتاج اللساني أيا كان إلى الإلمام بالكثير جدا من الميادين التي تشارك اللسانيات في علاجها للغة في جانب من جوانبها.

أمـا **القـول بغيـاب كتابـة لسـانية تمهيديـة** فبالعكـس فقـد كثرت في المشـرق والمغرب المؤلفـات التي موضوعها التعريف باللسـانيات إلا أن أكثرها وخاصة في المشـرق تعتمد على مدرسـة واحدة ولا تهتم بغيرها من المـدارس وتكتفي بالتالي بعـرض المذهـب الـذي اختارتـه دون أي نقـد (يتجاهلون حتـى ما قدمـه الغربيون أنفسهم من نقد وما يزالون يقدمونه).

والحق أن العرب وأكثر البلدان النامية هم في طور الاطلاع والتحسّس بالنسبة للنظريات الخاصة بالعلوم الإنسانية لأن أكثرها آراء ومذاهب خاصة في اللسانيات.

ثـم إن العلـم لا يزدهر فـي بلد ما لـم يأت فيه أهـل الاختصاص فيـه في ذاك البلـد بأفكار أصيلـة (لا يدين بها إلى غيـره) ومن ذلك إتيانه بنقـد موضوعي أصيل للنظريات الحالية ويكون أكثر تأثيرًا على غيره إذا أتى بالبديل.

س: تواجه اللغــة العربية مجموعة من التحديات فــي سياق دولي عولمي غير مسبــوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيـــا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم فــي هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: ألقيـت محاضـرة فـي موضـوع قريب من هـذا ونشـرت كمقالة فـي مجلة المجمع الجزائري للغة العربية (العـدد2-2005-ص9-27) وعنوانها: (**اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر**).

فاللغـات والثقافـات حظها هو حظ الشـعوب الناطقـة بها ولا ينبغـي أن ينظر إليهـا بمعزل عنها فليسـت اللغـة العربية هي وحدهـا المهدّدة بالانـزواء والزوال بل كل اللغـات التي لا يسـتطيع أن ينافس أصحابها الذين يمتـازون بالتفوّق الكامل في الاقتصـاد والصناعة والعلوم والتكنولوجيا وبعبارة أخرى فإنه لا ينبغي أن تتهم اللغة بالقصـور والضعف فـي أصحابها في جميع الميادين. ولن تحمى اللّغـة العربية أية محاولـة إن لم تكـن في جملة مـن المحاولات الراميـة إلى ترقية أصحابها شـاملة. فترقية اللغة جزء لا يتجزأ من المجموع.

أمـا ما يخـصّ نوعية الترقيـة اللغوية فـي ذاتها فهـذا يدخل في ميـدان البحث اللغـوي بمراعاة مـا طرأ مـن جديد من الـرؤى وطرائـق البحث في أحـدث صورة

(أنظر المحاضرة السابقة الذكر). أماَ ماَ هو جاَرٍ من الأعمال في الوطن العربي من أجل هذه الترقية فأحسن مثال لذلك هو المشروع القومي المسمى بالذخيرة العربية ومشاريع أخرى يقوم بإنجازها الباحثون العرب على أساس التعاون بين المهندسين واللغويين. وهذا التعاون يحتاج إلى تعميم التكوين المتعدد التخصصات في المستوى العالي وذلك كإعداد ماجستير متعدد التخصصات في علوم اللسان الذي يوجد الآن في الجزائر وموضوعه الظواهر اللّغوية والتطبيقات اللغوية.

س: **ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟**

ج: ستتقلص هذه الفجوة:

أولا: بتعميم استعمال الحاسوب (حاسوب لكل عائلة في كل البلدان العربية) وتعميم ذلك على جميع أوساط النشاط العلمي والتكويني وغيرهما، ثم تنسيق هذا التعميم في الوطن العربي.

ثانيا: انتقاء المتميزين من التلاميذ والطلاب وتخصيص تكوين لهم على حدة في الحاسوبيات وتعميم ذلك وتنسيقه على مستوى الوطن العربي.

س: **لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟**

ج: مسألة تنوّع العربية المستعملة اليوم هي أمر طبيعي. فإن لكل اللغات التي لها كتابة ولأصحابها إنتاج كتابي، مستويين من التعبير: المنقبض منه وهو مستوى الخطب وإلقاء المحاضرات وكل خطاب في مقام حرمة، والمسترسل وهو الذي يكون في حالة أنس وتراخ كالخطاب مع الأقرباء والأصدقاء. أما العربية في زماننا فتتصف بوجود فجوة كبيرة فيها بين المستويين بخلاف ما هو حاصل في الفرنسية. وهذا سببه في نظري انتشار الأمية منذ زمان الانحطاط ولاسيما في عهد الاستعمار. فبطول الزمان تغلب المستوى المسترسل-وهو بالضرورة شفاهي كله (وليس كل شفاهي مسترسلا). أما القول بوجود لغة عربية قديمة وتراثية وعربية وسطى فهي أقوال الوصفيين من اللسانيين الذين يميلون إلى تصنيف كل لغة على مستويات

التعبيـر. فصحيح أن الفجوة إذا اتسـعت إلى حد الاختـلاف الكامل-مثل ما صارت إليه اللاتينية-فالمستويان يصبحان لغتين مختلفتين إلا أن ما يسمونه بالعربية الوسطى هو تنوع للفصحى وهي الفصحى «الدارجـة» لا العامية (عن الإدراج وهو الاقتصاد فـي الأداء) والإدراج ليس هو اللحن[1] وإن كان اللحـن موجودا بكثرة فيها إلى حد ما.

والفـرق بين العربية التراثية والفرنسـية القديمـة هو أن هذه العربيـة القديمة ما يـزال نظامهـا الصرفـي النحوي فـي جوهـره وأشـهر مفرداتها موجـودا فـي العربية المعاصرة بخلاف الفرنسية القديمة بالنسبة إلى المعاصرة منها.

فالعربية القديمة تنّوع للعربية هو أيضا لكن عبر الزمان.

وينبغـي أن ننظر إلـى هذه الظواهـر بموضوعية ولا نعتمد في ذلـك على نظرة المستشرقين والبنويين من اللسـانين الذين يرون في كل تنوع للغة من اللغات نظاما منفردا فيجمدون موضوع بحثهم مع أنه حراكي الطبع فهذه التنوعات اللغوية ليست ذواتا وأشـياء تعالـج وتحلّل كأنها أجهـزة ودواليب ملموسـة أو كأنهـا أنظمة كاملة (وهذه نزعة الوظيفيين مثل أندري مارتيني وأتباعه).

ســس: **ما هي الإشكالات التي يمكن أن تطرحهــا العربية بوصفها لغة الإنتاج الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب، لا لغة التداول اليومي**؟

ج: سـبق أن قلنـا بـأن لجميـع لغات البشـر مسـتويين مـن التعبير المسترسـل والمنقبـض وقد يبتعدان كثيـرا أحدهما عن الآخر بأسـباب تاريخيـة (تأثير لغة على أخرى باختـلاط الناطقين بها). فيكـون ردّ الفعل لأصحابها غالباً بإقصاء المسـتوى المسترسـل عـن التكويـن والاسـتعمال الكتابـي وذلـك بنفـي صفـة الإدراج مـن التعليـم وإزالـة صفة الاقتصـاد الذي يتصـف به التخاطـب اليومي فتفقـد بذلك لغة الثقافة بالنسـبة إلـى العربية، عفويتها. وقد بـدأ ذلك في أداء النـص القرآني (وتقليد الأعـراب في زمان الجاحظ والتشـدّق الذي حاربه). فأصبـح المعلمون يبالغون في مـدّ الحركات الإعرابيـة أكثر من اللازم فـي تلقينهم إياها لتلاميذهـم. ولكي تقترب

(1) وأكبـر وَهـم ظـل طيلـة قـرون عالقا بأذهان النـاس هو الاعتقاد بأن علامات الإعـراب كان ينطق بها فصحـاء العـرب (الذيـن سـمع منهـم اللغويون)كما ينطق بهـا معلم العربيـة الآن و هذا غير صحيح فالادراج -غير اللحن- هو حقيقة تاريخية تكاد تكون مجهولة الآن تماما.

الفصحى مـن لغة التخاطب فـي عصرنا هذا يجـب أن لا نكتفي بتفصيـح الملحون العفـوي بـل أن نعيد لـلأداء الـذي يسـتلزمه التخاطب العفـوي صفاتـه العفوية كما وصفها العلمـاء الذين شـافهوا فصحاء العرب. وهـذا يحتاج إلى إقناع المسـؤولين على التعليم وعلى تعليم العربية في المدارس الآن ألاّ يقتصروا على تعليم المستوى المنقبض وحده في المدارس. فقد تم إهمال المستوى المسترسل من الفصحى منذ زمان بعيد وهو لا يقل أهمية في عصر المشـافهة الذي نحن فيـه فالفصحى العفوية وهي عربيـة قد وصفها النحـاة الأولون ويقـرأ بها القرآن (ويسـمى بالحَـدْر ويقابله الترتيـل) ويتصف خاصة باختلاس الحـركات وكثرة الإدغام (بين آخـر كلمة وبداية أخرى مثلا) والتسـكين حيثما جاز وقصر المدّ وغير ذلك مما تمتاز به لغة المشافهة (أنظر البحث الذي يتطرق إلى هذا الموضوع:-نشـرناه في كتابنا (بحوث ودراسات في اللسانيات العربية: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير)[1].

وعلى هذا فسـتقترح علـى الهيئة العليا المشـرفة على مشـروع الذخيرة العربية مشـروعا فرعيا لتهيئة الظروف لإدماج المستوى المسترسل في تعليم العربية (إعداد كتاب خاص في الأداء بتمارين شفاهية وإعداد كتاب خاص بالمعلم في هذا الإطار وإدخـال ذلك قبل كل شـيء في مـدارس تكوين المعلميـن والمذيعين فـي الإذاعة والتلفزة).

س: **كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟**

ج: الجـواب عـن كيفية جعـل العربية فاعلة فـي محيطها قد مضـى جانب من الإجابة عـن ذلك، فهذا متوقـف بالدرجة الأولى علـى القرار السياسـي. إن اللجوء الشـامل إلى اللغات الأجنبية في الميادين ذات الأهمية كالاقتصاد والإدارة والتعليم العالـي والإعـلام وإن كان أحيانـا ضروريـا إلا أنـه إن تُركـت اللغـات الأجنبية هي السـائدة إلى درجة الغياب التام للعربية وقيام اللغات الأخـرى مقامها في كل ميدان فهذا خطير جدا وذو عواقب جدّ وخيمة: فإن ذلك يسبب انزواء العربية في الميادين

(1) المقصود هو أن يعلّم التلميذ الصغير الأداء الاسترسالي للفصحى (غير الملحون) كما نطق به العرب وله قواعد ينبغي أن تحيا من جديد.

غيـر الحيوية وغيـر الطلائعية وهذا يـؤدى إلى احتقـار الناطقين بهـا للغتهم وتخرج بذلك من جملة اللغات الحية.

ولتفـادى ذلـك فإنه يجـب أن تكـون العربيـة موجـودة ومسـتعملة بالفعل في جميع القطاعات التي ذكرناها حتى فـي التعليم العالي الخاص بالعلوم ولتكنولوجيا والبحث العلمي. فـإن كان اللجوء إلى اللغات الأجنبية فيهـا ضرورة لا مناص منها فإن الغياب التام للعربية هو من أخطر الأمور إذ يُمهّد ذلك لاندماجنا تماما في ثقافة أخرى والمحو التام لهويتنا(1). واللغة في كل ذلك بريئة لا ذنب لها.

وفيمـا يخص دور المجامع اللغويـة في النهوض بالعربية فهـو دور عظيم جدا ويمكن أن نقول بأنها قد تعمل منذ أن أُنشئت بجد وحماس وأسهمت إسهاما كبيرة في وضع المصطلحات العلمية وتحقيق التراث ونشره ونخص بالذكر مجمعي دمشق والقاهرة. ونفتخـر بما قام به العلماء في هذه الفترة المليئة بالنشـاط العلمي المفيد. وذلك كان مناسـبا لزمانه. وواصلت المجامع وإن كانت أعمالها طيبة ومفيدة إلا أن الزمان تغيّر وعلوم اللسان والتكنولوجيا تطوّرت ولم تحاول المجامع أن تتكيف إلا في الأيـام الأخيرة فضاع في ذلك وقـت طويل ثم أكبر عيب-فـي نظرنا- يمكن أن نلاحظه في أعمالها هو عدم الاهتمام بما ستصير إليه هذه المصطلحات التي تضعها -وأما نشرها مطبوعة وتوزيعها فلا يكفي أبداً- وقد أُنشئت هيئة دولية تسمى باتحاد المجامـع لتوحيـد المصطلحـات خاصـة وفي نفـس الوقت لترويـج الموحّـد منها، والملاحظ أن هذا العمل الهام لم يتم بل لم يفكر فيه الاتحاد أبدا. فقد حان الوقت أن يقوم الاتحاد بما أُنشـئ من أجله. وإلا فما فائدته؟ وقد قرر أعضاؤه أخيرًا إنجاز مشروع المعجم التاريخي ولم يفكروا أن هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا جُمعت مدونة كبيرة جدا من النصوص من الجاهلية إلى زماننا وتحوسب ليسهل التتبّع للاستعمال الحقيقي للغة العربية عبر العصور. فعلى أي شـيء سيعتمد المحررون لهذا المعجم إن لم يكن لديهم وتحت تصرفهم المعطيات اللغوية؛ أي الاسـتعمال الحقيقي للغة العربية وتتمثل في النصوص الحقيقية التي ظهرت عبر العصور.

هـذا ولماذا يبقـى عمـل المجامع اللغويـة محصـورًا في وضـع المصطلحات

(1) لم أفهم العلاقة بين هذا السؤال وما قيل في آخره (من المعالجات الآلية للغة العربية)

وتحقيق التراث مع أنها هي المسؤولة الأولى عن ترقية اللغة العربية؟ فما بالها لا تراقب تطور البحوث الخاصة بها -وفي اللسانيات العربية والتطبيقية منها خاصة؟ ولماذا لا تتتبع إلى ماذا صار مردود تعليم اللغة العربية في التعليم العام والخاص وتحاول أن تتخذ جميع الإجراءات العلمية والعملية لترقيته بالتعاون مع جميع القطاعات المعنية وبصفة خاصة مراكز البحث والأقسام المتخصصة في الجامعات. وأن تشرف على كل ما يخص اللغات الأجنبية حتى تستأنس العربية بما يجرى من بحوث في غيرها من اللغات.

س: **يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟ وماذا تقترحون بهذا الخصوص (من الناحية المنهجية تحديدا)؟ وماذا عن إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية؟**

ج: الذي عندي هو أن المستوى الثقافي للمجتمعات العربية ضعيف جدًا بالنسبة إلى المجتمعات الغربية وما دامت البلدان الغربية الكبرى هي التي تنال كل جوائز نوبل تقريباً فلماذا نتساءل عن الفكر اللساني العربي المعاصر كأنه يتميّز عن الفكر العربي في العلوم الأخرى بطفرة وبنوعية خاصة لا نجدها في غيره؟ هذا ولا ينبغي أن نعتبر ما يظهر من دراسات بالعربية في اللسانيات كشيء مبتدع وأصيل ما لم يأت فيها أصحابها بشيء لم يُسبق إليه من أفكار وما لم يخرج أحد من البنوية أو التوليدية أو التداولية ليظهر نقائصها بنقد علمي واقتراح البديل. والذي أراه وهو خاص بي فهو أن اللسانيين العرب في عصرنا متأثرون بالمذاهب الغربية وهذا لا مفر منه إلا أنني لا أعلم أحدًا منهم -والله أعلم- حاول أن يكتشف عند النحاة الأولين مثل الخليل وسيبويه مقاصدهم الحقيقية في تحليلاتهم والأفكار النظرية الأساسية التي بنوا عليها مفاهيمهم النحوية مثل بناء الكلمة (وزنها) وهو مفهوم تجهله تماما اللسانيات الغربية (ومعرفة بعضهم له يرجع إلى أنه درس النحو العربي) وهناك مفاهيم علمية دقيقة كثيرة لا نجدها إلا عند النحاة الأولين وخاصة عند الخليل وسيبويه ولا نجدها في اللسانيات الغربية الحديثة. ولم يتفطن لها الباحثون

العرب في زماننا. منها مفهوم «اللفظة»[1] وهي غير الكلمة وغير التركيب -لعمومه- وشـيء قريب من ذلك نجده لأول مرة فيما كتبه *J.Gagnepain*...(الأسـتاذ السابق في *Rennes* 2). ولمفهـوم العامل[2] أيضا أهمية كبيرة ثـم إن أكبر حجة على صحة ما ندعيـه هو أن أجـود تحليل للغة وأصحـه وأقربه إلـى الحقيقة هو الـذي يقوم به اللغـوي العبقري بالنسـبة إلى لغته التي نشـأ عليها والعبقري بالنسـبة إلى العربية هو الخليل وكان له حـظ عظيم في أن ورثه وخلفه عبقري مثله وهو سـيبويه. وقد مهّد لهما الجيل السـابق من العلماء وأضف إلى ذلك أن أكثر مـا ورد من المصطلحات في كتاب سـيبويه لم يتناوله المحدثون بالنظر العلمـي الموضوعي ويدخل في ذلك المصطلحات التي ما تزال رائجة إلى الآن وقـد أعطاها المتأخرون من النحاة معنى آخر أو تصـوراً آخر في منظور عام غيـر الأول. كما فيها ما يبـدو كأنه غير مصطلح مثل كلمة بَاب[3] مع أنها تتضمن معنى علمياً متطوراً وغير ذلك كثير.

فالقضيـة لا تنحصر فـي الاتجاه الحداثـي أو التقليدي بل في النظرة الشـاملة التـي لا تُقصـي لا القديم ولا الحديث ولا تتـرك أية نظرية إلا وتنظـر فيها وتنتقدها بـدون فكـرة سـابقة؛ فالقديم يجـب أن ينظر فيه مـن حيث هو هو لا مـن حيث هو قديم؛ لأننا لا نؤمن بالترقي العلمي على خط مسـتقيم على مذهب كونت الفرنسـي (مذهب ما يسـمى*Positivisme* نلقي نفس النظرة إلى كل جديد أي من حيث هو، أي في قيمتـه هو في ذاته. والتقليـد مهما كان هو أبغض ما يتخذه الباحث كسـلوك سواء كان تقليدا للقدماء أو للمحدثين. وقد أضرّ بعض الباحثين إلى التراث العلمي اللغوي العربي بهذا السـلوك بالذات. وذهبوا يهدمون مـا كان بنى علماؤنا الأولون، بالاعتماد على المذاهب الغربية وبمقاييسهم الخاصة بها التي ظهرت في بداية القرن العشـرين ومـا بعد ذلك إلـى الآن في اللسـانيات ونحن لا ننكر فضل هـذه الأفكار

(1) وهي الاسم المفرد وما يدخل عليه « فليس قطعة كلامية جامدة بل وحدة لها تصرّف لا في صيغتها الداخلية فقط بل بدخول زوائده وخروجها كأداة التصريف والمضاف إليه وعلامة الإعراب والتنوين والصفة» واقترحنا أن يسمى ***Lexie***.

(2) هـو ***Régissant*** وبالانجليزيـة ***Governor*** (ولا يطابـق العامـل عنـد شومسـكي العامـل الخليلـي بالتمام).

(3) وهو مفهوم رياضي: ***Ensembles structuré*** استعمله الخليل وأتباعه والخوارزمي وغيرهما وينطبق على المجموعة ذات بنية عامة ومنها مجموعة العمليات المرتبة التي تؤدي إلى نتيجة.

الجديدة والمناهج المرتبطة بها ولكن التقليد واحد سواء كان للقديم أو الحديث.

وقد سرنا في ذلك في مدرستنا الخليلية سيرة موضوعية إذ نحاول دائماً أن نتحقق من صحة قول يخص مثلا الصَوتيات العامة أو العربية خاصة فنرجع إلى الواقع وهو هنا المخبر الصوتي ونحاول أن نعرف ماذا كان يريد سيبويه من لفظ المجهور ومن لفظ بين بين وغير ذلك. والاختبار هو المقياس الوحيد للتصحيح وكذلك هو الأمر إلى الاختبار للنظريات والمناهج التحليلية ويكون ذلك بقبول النظرية للصياغة المنطقية الرياضية البعيدة المدى ولا يكتفي في ذلك بمفهوم المنوئيد هو مصطلح في الرياضيات الحديثة وهو: الـ*Monoïde* وهو بنية من بنى الجبر الحديث ينقصه التناظر الذي يتحقق في الزُّمرة *gaoupe*)) الذي تعتمد عليها الأنحاء الصورية(*grammaires formelles*) الحالية المنبثقة عن نظرية التوليدية الحالية المستعملة في العلاج الآلي للنصوص فالمسألة هي دائماً مسألة اختبار بما تسمح لنا التكنولوجيا الحديثة ودون إقصاء لأي قول قديم أو حديث.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: ما نلاحظه من ضعف المستوى في اللغة العربية لا تختص به العربية بل هو يعمّ عندنا في الجزائر كل اللغات وحتى المستوى العلمي. وقد يمتاز تعليم اللغة العربية بشيء من الضعف وهذا راجع للمستوى الضعيف لا للمعلم وحده بل حتى الأطر التي فوقه. والمشكل يعم كل البلدان العربية بحسب ما رأيته وسمعته والله أعلم.

س: ما هي السبل الكفيلة في نظركم بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: سبق أن قلت هنا أنه يجب أن لا نعطي للسانيات أكثر مما تستحقه من الأهمية فلماذا تريد أن يكون دورها أهم من أخواتها في العلوم الإنسانية ثم قد تكون اللسانيات الغربية عائقاً ونعني بذلك لا المناهج الحديثة التي تسير عليها فهي جيدة مادامت قابلة للتطور بل نعني النظريات الكثيرة والمتضاربة وتصبح مثل المذاهب

الدينية تبنى على الإيمان والاعتقاد أكثر مما تبنى على التجربة والاستدلال.

س: سلكتم في أبحاثكم مسلكا خاصا، من خلال إعادة قراءة التراث اللغوي العربي، وبصفة خاصة في نظريتكم الخليلية الجديدة، ما هي أهم الخلاصات التي انتهيتم إليها من خلال هذه القراءة؟

ج: فيما يخص نظريتنا الخليلية فنريد أن يكون نقدا بناء لكل ما ظهر إلى الآن من النظريات ومشروعا -لا مذهبًا- أساسه الاختبار بكل الوسائل العلمية والاختبار عندنا هو أكثره تطبيق فكلما نجحت فكرة في التحليل بأن شملت عددا كبيرا من الظواهر وأقبل عليها المهندسون من أهل العلاج الآلي للغة استبشرنا بها فإن لم يكن هذا معمولا به في جميع البلدان العربية فهو على كل حال جارٍ شيء منه عندنا في مدرستنا الخليلية الحديثة. وهو يوجد أيضا مثل هذه الروح في البحث في جهات كثيرة من الوطن العربي والحمد لله-دون أن تكون الأفكار هي هي فالذي أنتقده وأنفر منه هو التهجم الشديد على نحاتنا الأولين دون أن يجرى بحث دقيق في ذلك يدوم السنين كما أنفر من الاعتماد الكلي المطلق على مذهب واحد أو على نظرية واحدة ونبذ ما سواها نبذاً مطلقا.

وأنا متفائل مهما كان الأمر لأن الحقائق لا بد أن تتغلب على غيرها وخصوصاً إذا ارتفع المستوى العلمي للباحثين الشبان من الجيل الجديد. وأعتقد أن اللسانيات العربية التي سيتخصص بها هذا الجيل ومن سيأتي، ستسهم في وضع الحلول الناجعة لما يطرح علينا الآن من المشاكل اللغوية. إلا أنه لا بد من الإعداد لذلك بالعمل الجماعي؛ إذ ينبغي أن تسهم كل دولة عربية في تحقيق ما نصبو إليه وذلك بإنجاز مشاريع قومية كبرى مثل مشروع الذخيرة العربية وأعتقد أنه سيكون المشروع الرائد في ذلك وقد دخل الآن مجال التنفيذ.

الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: لا أحد يمكن أن يشكك اليوم في الدور الهام الذي تلعبه اللسانيات في ريادة مناهج البحث وإقامة أصول المعرفة، ليس في اللسانيات وحدها، بل في مجال ما أصبح يعرف بالعلوم المعرفية، وهذه الريادة أساسها الدقة والوضوح، وكذلك استعمال نماذج أكثر صورنة وذات أبعاد مفهومة على المستوى الرياضي والحاسوبي. إن أساس هذه المكانة هو تطوير النماذج الرياضية والحاسوبية والوضوح الابستمولوجي. اللسانيات اندمجت في عدد من العلوم البيولوجية أو النفسية أو الأنثروبولوجية... إلخ، في محاولة جادة لوضع خريطة ابستمولوجية تجعل اللسانيات تتفاعل مع العلوم الأخرى.

س: في ظل هذا المعطى أو المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: إن عناصر التقويم الأولى تدعونا إلى القول إن المجهودات الأولى التي حاولت إدخال اللسانيات إلى الثقافة العربية والمعرفة العربية انحصرت في التركيز على هضم الكثير من المعطيات النظرية والمنهجية والنمذجية التي اعتبرت غريبة على الفكر العربي. المشكل الأساسي كان هو طغيان الفكر التراثي، وعدم الخروج عن معطيات القدماء ومناهجهم، فالكثير من العناصر مازالت تحول دون تحقيق التجديد والثورة الضروريين. إن الأسباب الموضوعية التي تحول دون تحقيق نقلة نوعية يمكن أن نجملها في طغيان الفكر المحافظ في اللسانيات. إن التراث الغني بأفكاره وأدواته جعل من الصعب اقتراح بديل له على المستوى الإجرائي،

ومازلنا حبيسي معطيات القدماء ولم ندخل معطيات جديدة، ولم نلجأ إلى استعمال لسانيات المتون بطريقة عقلانية ومقبولة كما هو الحال في الثقافات الأخرى. نجد أيضا ما يمكن أن نسميه بتخلي اللغويين الحاسوبيين العرب عن اللسانيين. فهؤلاء يستعملون المعاجم القديمة ومعطيات النحو القديم في معالجاتهم. إن أصحاب الثورة الحاسوبية يلجأون إلى ما هو تراثي، ولا نجد عندهم توازنا بين البحث والصناعة كما هو الحال في الغرب، حيث يتم التركيز على ما هو حديث، وهذا على عكس ما نجده عندنا. فحتى أصحاب الثورة التكنولوجية لم يتخلوا عن الموروث، بحيث ظل ما هو حديث لصيق القديم. بالإضافة إلى هذا نجد تعثرا للبحث العلمي بصفة عامة، وعدم تكامل المعارف، زيادة على عوائق أخرى ترجع إلى كون البحث العلمي عندنا لا يساير الجديد. أضف إلى كل ما سبق عنصرا جديدا خاصا بالمغرب، ويتمثل فيما أصبح يعرف باللسانيات الاجتماعية، أو ما أفضل أن أسميه باللسانيات السياسية، لأن الهدف من توظيف اللسانيات في بعض القضايا المجتمعية هو التطلع إلى خدمة اللسانيات في مجال السياسة. بطبيعة الحال، تبقى هذه اللسانيات سطحية، لأنها تهدف إلى خدمة النضال السياسي وتغيير وضع اللغات، وهذا ما أثر على وضع اللسانيات كعلم مجرد عن الاختيارات السياسية والإيديولوجية.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم اللساني لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك -بحسب بحث قمنا به في هذا المجال- غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية، إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها.

ج: صحيح أن تشخيصا من هذا القبيل يغلب عليه الجانب الخارجي أو (العوائق الخارجية)، لكن هذا لا ينفي وجود جوانب أخرى (العوائق الداخلية)، ومنها ما أشرتم إليه في السؤال. ومن جملة هذا غياب مداخل مقنعة في اللسانيات

على غرار ما نجده في الثقافات الأخرى، ومداخل تتجدد باستمرار، وترصد وترسخ مفاهيـم التقـدم وتقنيات المعالجـة. إن أمـورا كهاته تـكاد تكون شـبه منعدمة، وقد حاولنا إيجـاد مثل هذه المداخل، لكن هذا الهدف لم يتحقق لمجموعة من العوامل العرضية التي تحكمت فيها حسابات شخصية بالدرجة الأولى، ومنها صعوبة مواكبة البحث. وأشير في هذا الصدد إلى أن من جملة العوائق التي تفسر هذا الضمور عدم وجـود طلب في المجتمع أو الجامعة على هـذه الأبحاث كما نجد في دول أخرى. وهذا يعني عدم وجود سياسـة للبحث العلمي رغم ما يروج له في هذا الخصوص. على مسـتوى المواكبة دائمـا، نجد أن مواكبة في المسـتوى المطلوب تفرض وجود جودة وامتياز لمن يواكـب كما هو الحال في الدول المتقدمـة، حيث نجد رياضيين وحاسـوبيين وعلمـاء نفس،...إلخ. وهنـاك جانب تكامـل المعـارف، بالإضافة إلى الجانب الشـخصي، ثم هناك مشـكل آخر يتمثل فـي عدم توافر الوثائـق، مما يطرح صعوبات جمة أمـام الباحث، وهذا مشـكل غير مطروح في ثقافـات أخرى، بحيث يمكن للباحث الحصول على ما يحتاجه بسـهولة نسبية. إن ما هو في متناول الناس هنـاك غير متوفر عندنا، ومـع ذلك هناك مجهودات محمـودة لكنها تبقى مجهودات فردية ومحدودة للغايـة مقارنة مع مخططات الدولة والمجتمـع والأفراد في ثقافات أخرى.

سـ: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائـدا، بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة.

ج: بطبيعـة الحال، الإرث العربي الزاخر قد يجعل المعادلة معقدة، لكن يجب أن نقـر أن مشـكل التراث والحاضـر العربي يرجع بالأسـاس إلى عـدم القدرة على إيجاد المراكمة، فالدول التي تستطيع أن تتقدم هي التي تستطيع أن تراكم، وهذه ثغرة في ثقافتنـا العربية. فالعناية بتراثنا داخل أوسـاطنا هي من قبيل الإطـراء والمجاملة، وليست هناك دراسات عميقة تحاول قراءة هذا التراث وتوظيفه التوظيف المطلوب، وهذه خصوصية ثقافية. هذا هو الواقـع، وكل ثقافة غير جادة تبقى ثقافة غير مواكبة وغير مراكمة. وقس على هذا ما يوجد فيما يسـمى بالأبحاث العلمية، وهي لا تقدّر المراكمة، لضمور الرؤية عند أصحابها.

س: يتخذ هذا الصراع أحيانا مظهـرا تلخصه المعادلة: النحو # اللسانيات، التراث اللغوي العربي # اللسانيات؟

ج: الصراع بين اللسانيات والتراث اللغوي العربي صراع زائف، وهو مظهر من مظاهـر تخلف ثقافتنا. ينبغي ألا يكون هناك صراع بين الاشـتغال على النحو القديم والاشـتغال في اللسانيات. مثل هذا الصراع يرجع بالأساس إلى أسباب واهية ترتبط بأسـباب سـطحية وإجرائية. فهناك أناس يتقنـون النحو القديم ولا يفقهون شـيئا في اللسـانيات الحديثة، وهناك أناس يتحدثون عن اللسـانيات بسـطحية وهذا ما يجعل العارفين بالقديم يتقوون، فيكون بذلك رفضهم مشروعا على الأقل شكليا، ثم هناك بالنسبة إلى التراث اللغوي واللسـانيات سؤال يطرح بحدة: بماذا نبدأ؟ لقد سبق لي أن بينت أن أسـئلة من هـذا القبيـل مغلوطة وزائفة. فالمشـكل ليس هو بمـاذا نبدأ، ولكن المهم هو كيف نؤسس لمعرفة لسانية قائمة على أسس علمية متينة. أو بعبارة أوضح، علينا أن نعي بدور المنهج، وكذلك القدرة على بناء المعرفة.

سـس: تواجه اللغــة العربية مجموعة من التحديات فــي سياق دولي عولمي غير مسبــوق ينذر بـالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيــا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم فــي هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: بصدد ما تواجه العربية من تحديات، أشـير إلـى أن العرب لم يعدوا الكثير لهـذه اللغة. صحيح أن هناك نوايـا طيبة، ولكن النوايا الطيبـة وحدها لا تكفي، لأن هناك من يقف في وجهها عن طريق ممارسـة ما يخالف هذه النوايا ويتعارض معها. لم يخطط لتجديد اللغة العربية وتجديد معاجمها ونصوصها وتدوين متونها، وإعادة النظـر في هذه المواد وتطويعها وتطويع اللغـة وقواعدها ومختلف أدواتها. لم يفعل النـاس هذا، لأن مثل هذه المشـاريع الكبرى في السياسـة أو الاقتصـاد لا توجد إلا على مسـتوى الكلام، أما على مسـتوى الممارسـة فغير موجودة، ولذلك تبقى لغتنا تعاني ما تعاني.

إن أول مدخـل أساسـي لتطوير اللغة فـي الوقت الحاضر هو تطوير حوسـبتها وإدخالها في النقاشات اللسـانية العامة كما نجد في كل اللغات التي تريد أن تتقدم.

بطبيعة الحال، هناك أيضا مجالات كالأنترنيت والترجمة الآلية والتعليم،... إلخ.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: تقليص الفجوة الرقمية أمر ممكن على مستوى المبدإ، ولكن اختيارات النخبة والمجتمع تجعل اللغة العربية تعاني من المشاكل التي ذكرت آنفا.

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانية؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: هذه الأشياء من المفروض أن تكون معالجة في أي برنامج من البرامج اللسانية يحاول أن يفرق بين سجلات اللغة، إن صح التعبير، أو مستوياتها أو تنوعاتها. مع الأسف، هذه الأشياء عندما تناقش يكون ذلك من وجهة نظر سياسية، إن لم نقل «سياسوية»، تهدف إلى تعويض اللغة الفصحى بعامية أو بغيرها، مما يجعل المشكل قائما باستمرار. لأن مشكل التنوع لم يطرح في عمقه ولكنه يطرح لحد الآن لأهداف قصيرة ومرحلية. يجب أن ننظر إلى هذه الأشياء على أنها نشاط عادي يتعلق إما بالدراسة التاريخية أو الدراسة التنوعية للغات ولا يتعلق بالجانب السياسي المحض. وجود لغات تعنى بالجانب الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب وليس بلغة التواصل اليومي، يجعل اللغة العربية فعلا تفقد بعض وظائفها تدريجيا، ولكن هذا ليس مشكلا إذا كانت اللغة بالفعل قائمة كلغة للإنتاج الإبداعي أو التواصل العلمي. ما يطرح مشكلا هو التشكيك في قدرة اللغة على القيام بوظائفها أو جوانب من هذه الوظائف.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: أقول باختصار شديد، لابد من ثورة وإرادة سياسية قوية وإرادة من النخبة ومن المجتمع.

س: ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير

والممارسة؟

ج: إلـى حد الآن يبقى هـذا الدور محـدودا بالنظر إلى مجموعة مـن العوائق، بعضهـا يرجـع بالأسـاس إلى كـون هـذه المجامع عندمـا قامت فـي الـدول العربية لـم يفكر في الوظيفة الأساسـية التـي يجب أن تنهـض بها. كما أن تأليـف المجامع جاء محاكيا لما يوجد في فرنسـا علـى وجه الخصوص، علما أن فرنسـا فيها مراكز مهمـة للبحث العلمي، وهذا لا يوجد ما يوازيه في الدول العربية. سـن المجمعيين، وكذلـك إمكانـات المجامـع، تمثـل عوائق أخـرى تحـول دون تقدم هـذه المجامع وقيامهـا بمخططاتها. كما أن هذه المخططات لم يتـم التركيز فيها على هدف محدد (لم يتم اسـتيفاء الهدف كما يقال). هناك مثلا عدم قيام معجم عربي حديث يواكب التطورات، كما هو الحال بالنسـبة إلى المعجم الوسيط الذي أنتجه المجمع العربي بالقاهـرة، لكن السـؤال الـذي يطرح هو: هـل هذا المعجـم يواكب ويسـد الثغرات فعلا؟ لا أريد أن أكرر هنا ما قلته في مناسبات أخرى. ولكن الجواب بالنفي.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر فـي الغرب قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن، وأن الكثيـر من تلك السمـات كان له تأثير مباشر فـي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري (حداثي)، واتجـاه تراثي (تقليدي)، واتجاه توفيقي. والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصـا، باجترار قضايا هي في غنى عنها. نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: يمكن أن أقول إن أسئلة النهضة حاضرة فعلا في الثقافة العربية إلى حد ما، ولكن ما يجب أن أشير إليه هو أن هناك أشياء أخرى مهمة جدا. إن ما أثر في الفكر اللسـاني في بعـض الأقطار العربية هو حضـور النزعة الفرنكفونية، وهذا أثر بشـكل سـلبي. ثم هناك جوانب في اللسانيات ربما لم تقنع أحدا وجعلت الكثير من الناس

يعزفون عن دراستها، هذا علاوة عن جوانب أخرى تتعلق بالعناصر الابستمولوجية والمعرفية التي لم تطرح في الفكر اللساني العربي بشكل أساسي وواضح، وهذا ما جعل اللسانيات العربية تتخلف، ثم هناك أيضا عدم وجود البيئة الملائمة لدراسة اللسانيات في العالم العربي. فجل الجامعات في الدول المتقدمة تتوفر فيها شعب للسانيات، وهذا لا نجده في الدول العربية. هناك شعب/ أقسام للغات والآداب، وفي المغرب كنا قد اقترحنا منذ الثمانينيات إنشاء شعبة اللسانيات، لكن بعض الزملاء حاولوا أن ينقلوا الصراع السياسي إلى الجامعة؛ لأن وجود شعب للسانيات يعني من حيث المبدأ جميع اللغات، وأن تقع المقارنة بين اللغات، ويكون هناك بحث لساني مجرد عن القضايا الإجرائية واليومية التي أراد البعض أن يغرقنا في تفاصيلها، دون النظر إلى ووصفي عام، لكنه أفيد.

س: **نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟**

ج: وضع اللغة العربية في التعليم راجع إلى السياسات اللغوية للدولة التي ترجع إلى ضغوطات بعض القوى الأجنبية والمصالح التجارية الأجنبية. فهذا شيء يمكن تغييره لو وجدت نخبة تعي بهذا الدور. هناك نخبة وجدت في المغرب في بداية الاستقلال وإلى حدود السبعينيات تدافع عن اللغة العربية وتتبناها كمشروع مطلق أحيانا، ولكن هذه النخبة تراجعت بشكل كبير عن مواقفها بين عشية وضحاها. والنخبة لا توظف مواقف عقلانية تبرر بها مواقفها، وهذا مستمر حتى الآن. النخبة تعيد وتكرر ما يقوله «السيد» كما يقال، وبالتالي فإننا نجد الكثير مما يروج الآن حول اللغة في المغرب واللغة العربية بصفة خاصة هو تكرار لمواقف السلطة الخفية منها، ونجد أشياء مضحكة/ مبكية في الوقت نفسه في مواقف المثقفين والمسؤولين حول قضايا اللغة. وهذا يترجم أزمة حقيقية. بالإمكان أخذ المبادرة من النخبة السياسية أو الثقافية في تدبير شؤونها والاستقلال النسبي في التيارات والمصالح. فضعف اللغة العربية باختصار يرجع بالأساس إلى ضعف النخبة السياسية والثقافية والعلمية، وغياب مشروع ثقافي/ حضاري فعلي.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: إن القول بأن اللسانيات لم تسهم في قضايا الأمة غير صحيح. بطبيعة الحال، هناك نقاش كبير في قضايا التخطيط وفي قضايا التعدد وفي قضايا أخرى أسهمت فيها اللسانيات، ولكن المشكل الأساس هو أن اللسانيات ليست جسما واحدا، بل هناك أجسام مختلفة دخلت اللسانيات وميعت الكثير من القضايا، ودخلتها أنانيات كثيرة جعلت اللسانيات لا تصل إلى ما نصبو إليه جميعا. وأما عمن كتبوا باللغات الأجنبية، فهذا أمر يكاد يكون طبيعيا. فالباحثون في اللسان لا يقرأون عموما إلا بلغة الإنجليز. وأما اللغات الأخرى، فهامشية في المرجعية.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة. أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: هذه قضايا تطبيقية، على من يشتغل في هذا الجانب أن يفتي فيها، ولكن الكثير من الأشياء في هذه القضايا طرحت بطريقة مغلوطة فكان من الطبيعي أن يكون الجواب مغلوطا. وأرجع هذا إلى نقص في التكوين عند من يطرحون هذه القضايا، لأن القضايا اليوم شائكة ويجب أن تطرح بعمق. هذا يدعونا مرة أخرى إلى أن نقيم لسانيات في المستوى المطلوب، لسانيات حقيقية. يجب كذلك أن تكون رغبة للدولة في توظيف نتائج هذه اللسانيات، لأن هناك الكثير من الأمور التي عولجت، رغم أنها جهود فردية ومحدودة، ومع ذلك فإن الدولة والمجتمع والنخبة أيضا لا تستهلك هذه النتائج.

س: ماذا تقترحون بهذا الخصوص، من الناحية المنهجية تحديدا؟

ج: من الناحية المنهجية، أقترح أن تكون هناك مبادرة وطنية للنهوض باللغة العربية وباللسانيات أيضا، مبادرة تجعلنا ننقذ وضعنا اللغوي من التدهور والتسيب الذي يعانيه، لأن هذا في مصلحة شعبنا وفي مصلحة متعلمينا وفي مصلحة البحث

العلمي الذي نعاني من ضموره ومن قصوره، ونعاني في جامعاتنا كذلك من ضعف الباحثين وضعف الجامعيين، وهذا شيء مخيف بالنسبة إلى مستقبل الأمة. ثم إن الطلبة الشباب لم يعودوا يمثلون الشعلة التي كانوا يمثلونها، في التحول والجديد والعناية بالقيم، إلخ. إلا من شذ منهم، وهو قليل. نريد «كتلا حرجة» من الجامعيين والطلبة يحملون المجتمع وينهضون به باستمرار.

س: **ما هو تقويمكم لواقع الترجمات اللسانية في الثقافة العربية؟ وكيف يمكن للترجمة أن تسهم في خلق إشعاع لساني في الثقافة العربية؟**

ج: أظن أن الترجمة لها دور مهم في اللسانيات، شأنها في ذلك شأن الترجمة في مجالات أخرى. طبعا، ينبغي أن تقترن بالجودة والدقة. فهي تمكن من توطين المعرفة، كما ذكرت، بل تمكن من خلق لغة جديدة داخل اللغة الهدف هي لغة-جسر، أو لغة ثالثة تتولد عن احتكاك اللغة المنقول إليها باللغة المنقول منها. ومعلوم أن الترجمة الجدية واكبت تاريخيا كل نهضة فكرية وثقافية؛ بل إن الترجمة أداة دائمة في كل الحضارات المتقدمة، ما عليك إلا أن تنظر إلى حجم الترجمة وتقرنه بمؤشرات التقدم. الدول الأكثر تقدما تترجم أكثر! تجارب اليابان والإسبان والأمريكان والفرنسيين وإسرائيل، إلخ، حاضرة أمامنا.

ترجمة أمهات الكتب والمداخل في اللسانيات أساسية لنشر المعرفة اللسانية في المستوى المطلوب، ولشيوع هذه الثقافة بأصولها المرجعية. ما نجده من ترجمات إلى حد الآن ضعيف كمّا ونوعا. وقد حاولت جاهدا مع المنظمة العربية للترجمة لتتمكن من ترجمة عناوين مهمة، ولم ترق، مع الأسف، الإنجازات إلى مستوى الطموحات. هناك بعض الزملاء المغاربة وطلبتنا القدماء الذين ترجموا كتبا في صيغ نالت استحساننا عموما، ووظفت مصطلحات مقبولة أو شائعة بيننا. هذه المجهودات الفردية بحاجة إلى دعم مؤسسي كبير وجدي، كمّا وكيفا.

مع ذلك، أشير إلى أن الترجمة، وإن كانت ضرورية، فهي غير كافية، كما يقول المناطقة. لابد من التأليف الذي يكتب بألفاظ «أحادية»، أي ألفاظ اللغة الواحدة التي نلغو بها، وننقل المعارف أو نمارسها من داخل اللغة، وإن كانت هذه اللغة تتوسع كل مرة لتولد مضامين جديدة، وألفاظها جديدة، دخيلة في غالب الأحيان

على الثقافة السائدة. فالتأليف يهضم المواد المترجمة باستمرار، ولكنه يمكن من استعمال عبارات طبيعية، وتركيب طبيعي، ودلالة طبيعية، بل وصور ومجازات طبيعية في اللغة التي يؤلف بها. المعرفة لا توطن بالمتعدد، بل بالأحادي. ولكن الأحادي ليس ساكنا، بل هو متجدد باستمرار، تجدده راجع إلى الأجنبي بالأساس، ولكن أيضا إلى جهاد مع النفس، حتى لا تنطوي.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل تعتبرون هذا الأمر طبيعيا ولماذا؟

ج: إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية ليست محدودة إذا تحدثنا عن الأسماء العالمية التي أسهم فيها أمثال مايك بريم *Mike Brame* وجون ماكارتي *John Mccarthy* في الفونولوجيا، وجون مالينغ *Joan Maling* في العروض، وشارل فرغسون *Charles Ferguson* في السوسيولسانيات، وبوهاس وفريستيغ في التراث العربي، وغيرهم كثير. ومن العرب أذكر محمد باكلا وحمزة المزيني وعبد الرحمن أيوب وإبراهيم أنيس إلخ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

س: ما هي السبل الكفيلة، في نظركم، بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: مشروع الإصلاح اللغوي العربي أجبت عنه سابقا. الإصلاح اللغوي يجب أن يمر عبر المشروع الثقافي للدولة وللنخبة وللمجتمع، وبدون هذا المشروع لا يمكن أن نتقدم، لأن العوائق ستظل قائمة، بدون مجتمع ودولة ونخبة وراء لغتها لا يمكن أن نغير شيئا. اللغات الآن في صراع. هناك لغات مهيمنة في كل ما هو علمي وتقني كاللغة الإنجليزية، وحتى يكون للغات الأخرى حضور لابد أن يكون متكلموها في وضع دفاع مستمر عنها. فالعرب والمغاربة ضيعوا قضايا كثيرة ولم يدافعوا عنها وهم مهددون في وجودهم لأن لغتهم مهددة.

س: وصفتم منذ سنوات ما يكتب في مجال اللسانيات في الثقافة العربية بـ«الخطاب اللساني الهزيل»، هل تغير موقفكم بهذا الخصوص بعد هذه المدة الطويلة؟

ج: عندما قلت إن ما يكتب في اللسانيات العربية هو من قبيل الخطاب اللساني الهزيل بطبيعة الحال كانت هناك مجهودات، ولكن هذا الحكم مازال قائما، بحيث لا نجد مواكبة في المستوى المطلوب لا في اللسانيات الحاسوبية ولا في اللسانيات التاريخية ولا في اللسانيات الوصفية ولا في لسانيات المتون. بدون قيام شعب للسانيات لا يمكن أن نتقدم في اللسانيات. أشرت سابقا إلى أننا قدمنا مقترحا خلال الثمانينيات إلى رئيس الجامعة، ثم أعدنا اقتراح ذلك بصفة رسمية بعد مبادرة الندوات الأولى في اللسانيات، لكن هذا المقترح لم يحظ بالقبول وهذا مؤشر في نظرنا على أن المسؤولين إلى يومنا هذا لم يستوعبوا بعد أهمية اللسانيات والبحث العلمي. فهم ينادون بالإصلاح والتجديد، لكن هذا الإصلاح والتجديد لا وجود له على أرض الواقع. اقترحنا كذلك كراسي للسانيات، ومنها كرسي للسانيات الحاسوبية العربية في اليونسكو، قبله أحد الوزراء ثم رفضه الوزير الذي جاء بعده، فهذه مقتضيات مأسسية ضرورية لا يمكن للسانيات في أقطارنا العربية أن تتقدم بدونها.

س: **تعيش الجامعة المغربية اليوم على إيقاع الإصلاح. ما هو تقويمكم لهذه التجربة بعد مرور ثلاث سنوات على تطبيقها؟**

ج: رغم أنني لا أحب أن أطلق الأحكام بسهولة، يجب أن نقر بأن الإصلاح فشل، وأن الأهداف المتوخاة منه لم تتحقق في جل أبعادها، إن لم نقل في كل أبعادها.

أحد المؤشرات الكبيرة بالنسبة إلي لتقويم نجاح هذا الإصلاح هي التقدم على مستوى البحث العلمي وعلى مستوى الموارد البشرية. فسواء على مستوى التعلم أو على مستوى البحث، أعتقد أن مغادرة مجموعة من الباحثين البارزين ومغادرة عدد من الأطر التربوية وفقدان كثير من الأطر الفاعلة مؤشر على ما أقول. هناك مؤشر آخر هو أنه لم يعد الآن الحماس والتطلع إلى البحث العلمي وطلب المعرفة، وانخفاض مؤشر القراءة والبحث العلمي، وغير ذلك. فهذه مؤشرات تفرض علينا الوقوف وقفة تأن ومراجعة لمحيطنا التعليمي بجميع أسلاكه.

س: **عرف تعريب التعليم العالي نجاحا كبيرا في بعض الأقطار العربية، ما**

الذي يجعل هذه التجربة لا تعمم في باقي الأقطار العربية الأخرى؟

ج: تعريب التعليم العالي في بعض الأقطار العربية نجح إلى حد ما، ولا أقول إنه نجح بكيفية مطلقة. ما ينقص هذه التجربة هو تقوية اللغات الأجنبية التي يحتاجها الطلبة المتخرجون. بالنسبة للمغرب، للأسف، ضيعت فرصة جعل التعليم العالي معربا. وباختبار الطلبة نجد أن التعليم الآن يعاني من أحادية منغلقة على الرغم من الشعارات. فالأحادية الفرنكفونية تضيق على هذا التعليم وستقتله. الفرنكفونية التي تنخرنا مشكل أساسي حقا. إنها تضيع الفرصة حتى على الفرنسيين أنفسهم.

س: **ما هي خلاصة تجربتكم في معهد التعريب؟**

ج: إنها تجربة صعبة، فعندما التحقت بالمعهد وجدت مجموعة من الأطر أغلبها غير مؤهل، لكن رغم الصعوبات والترسبات الكثيرة فقد استطعنا أن نخلق جوا آخر وأن نضع أسسا أخرى وهيكلة جديدة وأحدثنا منابر جديدة: مجلة علمية بثلاث لغات (**أبحاث لسانية**)، ونشرة «التعريب» الدورية، بالإضافة إلى مجموعة من الوقائع والمعاجم والأعمال الأخرى. بطبيعة الحال، هذه المؤسسة مر عليها وقت وكان من المفروض إقامة البديل المتمثل في أكاديمية محمد السادس للغة العربية، لكن الدولة مرة أخرى تخل بالتزاماتها وتعطل هذه التجربة كما حدث مع تجارب أخرى، وبالتالي فإن الدولة مستمرة في السياسة الأحادية المرجع، والتي تكون على حساب المرجعيات العربية والإسلامية.

س: **ما هي أهم مشاريعكم العلمية المستقبلية؟**

ج: المشاريع العلمية المستقبلية كثيرة، لا أعرف ماذا أذكر منها، هذه المشاريع ستكون بحسب ما يسمح به الوقت، وهي مشاريع ستستثمر في مجال التركيب والدلالة والمعجم. إقامة معجم عربي جديد، ووضع أسس جديدة للمعجمية العربية، وإقامة عناصر لنحو عربي جديد، ومؤلفات لسانية مختلفة. والهدف من كل ذلك إدماج اللغة العربية في المجتمع الدولي بصفة أكثر فعالية.

س: **كيف تقيمون وضع اللسانيات في المغرب اليوم؟**

ج: وضع اللسانيات في المغرب اليوم يحتاج إلى تأهيل على مستوى المأسسة؛

وتأهيل الباحثين الشباب بصفة مستمرة. إن الإنتاج المغربي النوعي قليل، لذلك نحتاج إلى تكوين جديد يأخذ بعين الاعتبار تكامل المعارف وتداخلها، كما نحتاج إلى إبعاد الصراعات الضيقة التي لا تخدم البحث العلمي في شيء.

س: ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟

ج: لابد للسانيين الشباب أن يتشبثوا بالمنهج العلمي والبحث العلمي وأن لا يخالجهم شك في أن هذه الثورة المعرفية والثورة العلمية هي المخرج الوحيد من التخلف والتدهور، وأن لهم مكانا في هذه الثورة. العولمة رغم عيوبها فرصة لجميع الشعوب لتسهم في الحضور على مستوى هاته القرية العالمية، وبالتالي يمكن لشبابنا وعلمائنا أن يلعبوا دورا هاما في هذه القاطرة التي يمكن أن تحول المجتمع من مجتمع جهل وتخلف وفقدان للقيم إلى مجتمع متشبث بهذه القيم.

الدكتور مازن الوعر[1]

س: تشغل اللسانيات اليوم، كما هو معروف، صدارة العلوم الإنسانية نود منكم بدايـــة تعريف القارئ العربي بهذا العلم وبموضوعه وأهميته، وبأهم فروعه ومدى ارتباطها بالظواهر الحضارية؟

ج: »اللسانيات« مصطلح أتى من «اللسان»، واللسان يعني اللغة، فأضفنا الياء والألف والتاء، فأصبح علما يبحث في اللسان أي في اللغة. فإذن، اللسانيات هـــي الدراسة العلمية للغات البشرية من خلال لغـــة كل قوم من الأقوام. وعندما نقول: «علمية»، فإننا نعني بها الملاحظة، ووضع الفرضيات وفحصها، والتجريب والدقة والشمولية والموضوعية. وهذه الخصائص هي التي تميز الدراسة اللغوية الحديثة عن الدراسة اللغوية القديمة.

لنأخذ مثالا على ذلك معيار التجريب، فهذا المعيار هو من الخصائص العلمية لدراسـة اللغات البشـرية. وبمعنـى آخر؛ عندما نريـد أن نفحص صوتـا من أصوات اللغـة فإننا نخضعه للآلة (الأوسـيلوجراف) على سـبيل المثال، من أجـل أن يعطينا وصفا لهذا الصوت وشـبحيته وذبذباته وموجاته، بدقة متناهية؛ ذلك لأنه يعطي آثارا كتابيـة تمثل السلاسـل المنطوقة التي نختبرهـا. هذه الآثار تتكون مـن عدد كبير من الذبذبـات الصغيرة والتي لا يتطابق اثنان منها كل التطابـق. فمن الصعوبة بمكان أن تجد أصواتا من سلسـلة منطوقة تظل فيها طبيعة الصوت، وشدته، ودرجته، وطوله، وقصره على شـكل واحـد. وهذا يختلـف عن الدراسـة اللغوية القديمـة التي كانت تعتمد على الحدس الإنساني فقط.

لنأخذ مثالا آخر: في القديم لم تكن هناك آلة تسمى الحاسوب، ولم تكن هناك دراسـة لغوية تتناول اللغات البشرية وتعالجها حاسوبيا، ولكن يوجد ما يسمى اليوم باللسـانيات الحاسـوبية المعلوماتية التي تدرس اللغات البشـرية دراسة علمية وتقنية

(1) آثر الدكتور مازن رحمة الله عليه أن يشارك في هذا الكتاب بمجموعة من الإجابات المقتبسة من حوارات أجريت معه ونشـرت في مجموعة من المنابر؛ لأنه وجد أسـئلتنا تتقاطع مع ما جاء فيها. فالشكر لكل من أسهم في إعداد تلك الحوارات وللمنابر التي نشرتها، والرحمة والمغفرة لأستاذنا الجليل الذي ستظل أفكاره النيرة تؤثث المشهد اللساني في الثقافة العربية.

من منظور الحاسـوب. فإذن، لابد من دراسـة اللغة البشـرية دراسة علمية موضوعية مضبوطة ودقيقة حتى تكون النتائج صحيحة.

لابـد مـن أجـل دراسـة اللغـة مـن هـذا المنظـور (الحاسـوب) أن نسـتعين بـالأدوات العلميـة الموجـودة فـي العلـوم الطبيعية لكي تصبـح جـزءا لا يتجزأ من المنهـج العلمي لدراسـة اللغة، ومن هذه الأدوات على سـبيل المثـال: الرياضيات، والهندسـة الإلكترونيـة والمعلوماتيـة، وهندسـة الحاسـوب. فلكي ندخـل اللغة في الحاسـوب لابد من دراسـتها رياضيا، وهندسـيا، ومعلوماتيا. وهـذا يعني أن ندرس اللغـة العربية ونسـتخرج قواعدها اسـتخراجا علميـا دقيقا على المسـتوى الصوتي، والنحوي، والدلالـي، والمعجمي، من أجـل أن نضع هذه القواعد فـي أطر رياضية تتناسب هندسة الحاسوب، من أجل أن يأخذها المعلوماتي (المبرمج) ويبرمجها في الحاسوب.

أما موضوع اللسـانيات فهو اللغات البشرية من خلال لغة كل قوم من الأقوام، أي أن نـدرس لغة كل قوم من الأقوام دراسـة صوتية، ونحويـة، ودلالية، ومعجمية، وصرفيـة، ثم دراسـة علاقة هذه اللغـات بالعلـوم المعرفية الأخرى التـي ترتبط بها، كعلـم الاجتماع، وعلم الأنثروبولوجيـا، وعلم النفس، وعلم البيولوجيا، والفلسـفة، والجغرافيا، والهندسة الحاسوبية، والرياضيات. فكل هذه العلوم لها علاقة باللغة.

لنأخذ مثالا بسيطا على علاقة اللغة بالبيولوجيا: اللسانيات تطرح اليوم إشكالية صعبـة تتمثل في هذا السـؤال: هل اللغة عضـو بيولوجي كبقية الأعضـاء البيولوجية الموجـودة عند الإنسـان، ينمو ويتطور عبـر الزمن كمـا يتطور الجهـاز البيولوجي؟ أم أنها شـيء خارجي عن الإنسـان يتلقفه الطفـل تلقفا من المجتمع؟ هذه إشـكالية عويصة حيرت الباحثين، ولكن أغلبهم توصل بعد إقامة تجارب علمية كثيرة إلى أن اللغة عضو بيولوجي يخلق مع الطفل وينمو ويتطور تطورا طبيعيا.

ومن الظواهر التي تبحثها اللسـانيات البيولوجية، العلاقة بين الأمراض اللغوية والجهـاز اللغـوي الموجـود فـي الدمـاغ البشـري. ما هـي البنيـة الإدراكيـة اللغوية الموجـودة فـي دمـاغ الإنسـان بالمقارنة مـع البنيـة الإدراكيـة الموجودة عنـد أذكى الحيوانات كالشنبانزي مثلا؟

لنأخـذ مثالا آخر علـى علاقة اللسـانيات بالعلوم الأخرى: ما هـي العلاقة بين اللغة والمجتمع؟ وكيف تكون اللغة منطوقة؟ وكيف يمثلها النظام الكتابي؟

كمـا هو معـروف، فإن اللغـة المنطوقـة ليس لها معيـار واحد علـى الإطلاق، لذلك كان هناك ما يسـمى باللهجات المختلفة، وكان هناك ما يسـمى بالشـعر الذي يكتب بمعيار معيـن، وكانت هناك اللغة العامية الشـعبية، واللغة المعيارية الموحدة، ولغات المهن المختلفة...إلخ.

أما أهمية علم اللسانيات فتكمن في كونه يقدم لنا دراسة علمية للغات البشرية كافة تخضع للضبط والتجريب والموضوعية، بهدف بناء صيغة علمية «بمفهوم العلم الفيزيائي» لدراسـة بنيـة اللغات البشـرية والتوصل إلى صيغ رياضيـة تجريدية قادرة على وصف هذه اللغات وشـرحها بدقة، بحيث يمكننا بعدها مباشـرة من الاستفادة التطبيقية لهذا العلم في مجالات حياتية كثيرة.

أما فيما يخص فروع هذا العلم وارتباطها بالظواهر الحضارية؛ فيظهر ذلك من خلال الحقول المتعددة للسانيات والتي يمكن ذكرها باختصار وفق ما يلي:

أولا: علم اللسانيات التطبيقي

ويبحـث في تقنيات تعلم اللغات البشـرية وتعليمها، سـواء أكانت هذه اللغات هـي اللغة المنطـوق بها أم أنهـا لغات أجنبيـة. إن الهدف مـن هذا العلـم هو إيجاد أفضل التقنيات والمناهج اللسـانية لتطوير العملية التعليميـة للغات المنطوق بها في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية.

ثانيا: علم اللسانيات البيولوجي

ويهتم بوصف وشرح العلائق الرياضية التجريدية القائمة بين الوظائف اللغوية وبيـن الوظائـف البيولوجية ثم الاسـتفادة مـن ذلك فـي معالجة الأمـراض اللغوية، ومعرفة بنية اللغـة البيولوجية، والوقوف عند التطورات اللغوية التجريدية العاملة في دماغ الطفل، وغيرها من النواحي اللسانية التطبيقية.

ثالثا: علم اللسانيات الاجتماعي

يدرس اللغات البشرية ضمن البوتقة الاجتماعية التي تؤثر على العملية اللغوية

والتي يستخدمها الناس في مجالات عديدة من الحياة الاجتماعية.

رابعا: علم اللسانيات النفسي

ينحصر موضوعه فـي العلاقات القائمة بين اللغة كموضـوع، وبين الفرد الذي يتعامل مع هذا الموضوع في كافة المستويات التطورية التي يمر بها الإنسان (طفولة، شباب، كهولة)، والاختلافات اللغوية بين الرجال والنساء.

خامسا: علم اللسانيات الأنثروبولوجي

أي تلـك العلاقة القائمة بين اللغة وبين الإنسـان الذي ينتج هـذه اللغة والذي هو حلقة معينة في تاريخ التطور الإنساني.

س: دسا: علم اللسانيات الرياضي

يهـدف إلى وضع اللغات البشـرية في صيغ وأطر رياضية تجريدية تسـتطيع أن تصف وتشـرح الظاهرة اللغوية الإنسـانية في مسـتوياتها كافة وصفا دقيقا ومضبوطا ثم موضوعيا.

س: بعا: علم اللسانيات الآلي «الحاسبات الإلكترونية»

يعمل على اسـتخدام اللغة كأداة طيعـة لمعالجتها في الحاسـبات الإلكترونية، ويتألـف من اللسـانيات العامة، ومن علم الحاسـبات الإلكترونية، ومـن علم الذكاء الاصطناعـي وعلم المنطـق ثم علم الرياضيات، حيث تتناسـق هـذه الفروع وتتآلف لتشكل مبادئ علم اللسانيات الآلي.

ثامنا: علم اللسانيات النظري «العام»

ويعني البحث في النظريات والمناهج اللسانية القديمة والحديثة، وذلك لكشف تطورها وتناولها للغات البشـرية من المستويات الصوتية والنحوية والدلالية، ويتخذ منها قاعدة أساسـية يمكن من خلالها أن نتوصل إلى نظرية لسانية بشرية تستطيع أن تصف وتشرح اللغات البشرية كافة في طريقة تجريدية ورياضية.

س: لا شك أن هذا الغنى وهذا التنوع قد ساعد على الانتفاع بالمعرفة اللسانية في الغرب؟

هذا أكيد. وأعود لأقول إن اللسانيات علم يتسم بسمتين اثنتين:

الأولى: هي العلمية، أي إن لهذا العلم -كما كان يقول علماؤنا وفلاسفتنا القدماء- حدا وموضوعا وغاية.

الثانية: هي الاستقلالية، أي إن هذا العلم مستقل عن بقية العلوم الأخرى، له مقاييسه، وموازينه، وقوانينه الخاصة به.

لقد استفاد الغرب المعاصر كثيرا من هذا العلم سواء أكان ذلك على مستوى العلوم الإنسانية، أم العلوم الطبيعية، فقد استفاد منه الغرب في المجال التربوي: كيف تعلم اللغة القومية لأبنائها تعليما صحيحا وسليما وبأنجع الطرق، وكيف تعلم هذه اللغة القومية لغير أبنائها على نحو سريع وناجع.

وقد استفاد الغرب من هذا العلم في الجانب الحاسوبي المعلوماتي، لذلك درسوا لغاتهم دراسات علمية ودقيقة، وحاولوا وضعها في أطر رياضية من أجل الترجمات الآلية، وما مشروع وضع لغات دول الاتحاد الأوروبي وبرمجتها في الحاسوب إلا دليل على هذا الذي نقوله، ففي كل دولة أوروبية يستطيع الإنسان أن يحول النص المكتوب بلغة من اللغات الأوروبية إلى لغته القومية، من خلال الحاسوبية الآلية.

كما استفاد الغرب من علم اللسانيات في الجانب الاجتماعي، فلذلك درسوا لغاتهم من منظار علم الاجتماع، ففرقوا بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، وأين تقف اللهجات من هاتين اللغتين.

كما أنهم وضعوا أطالس لغوية جغرافية لكل منطقة من المناطق التي يسكنها الناس، أضف إلى ذلك أنهم بدأوا يدرسون الفروق القائمة بين لغة النساء ولغة الرجال: ما هي البنية اللغوية لرواية من الروايات النسائية مثلا؟ وكيف تختلف هذه البنية اللغوية عن رواية من الروايات الذكورية؟ هذا طبعا يفيد المفهوم النقدي الحديث والمعبر عنه بـ»التناص».

ما هي بنية الأساليب اللغوية النسائية؟ وكيف تختلف عن بنية الأساليب الذكورية؟ كيف يتعلم الأطفال اللغة القومية؟ هل يتعلمونها منطوقة أم مكتوبة؟

وكذلك استفاد الغرب من علم اللسانيات في قضية مهمة جدا وهي دراسة اللغة في مجال القضاء. لأعطيك مثالا على ذلك:

لقد كلفت محكمة أمريكية اللساني الأمريكي روجر شاي بدراسة قضية شائكة لم يستطع المحلفون التوصل فيها إلى قرار، وبدأ بدراسة هذه القضية في المحاكم متناولا الجانب المنطوق والجانب المكتوب منها، وقد توصل إلى حقائق صوتية، ونحوية، ودلالية، واجتماعية، ونفسية، استطاع من خلالها المحلفون أن يتوصلوا إلى الحقيقة.

فإذن، الاستفادة موجودة في الغرب سواء على المستوى النظري أم على المستوى التطبيقي، ولا أريد أن أفصل في هذا المجال، فقد كتبت فيه في أماكن مختلفة.

س: هل وجوه الانتفاع هاته حاضرة في الوطن العربي؟

ج: اللسانيات في العالم العربي لها شأن مختلف تماما، ويتلخص فيما يلي:

- لم ينقل علم اللسانيات برمته من الغرب إلى العالم العربي نقلة علمية سليمة وصحيحة، وهذا له أسبابه. فالذين نقلوه إلى العالم العربي هم أصلا متخرجون من أقسام اللغات الأجنبية، لذلك فإن أغلبهم وضعه في إطار مهلهل، وضعيف، وغير علمي (شكلا ومضمونا)، الأمر الذي جعله إشكالية بالنسبة للقارئ العربي.
- وهذا الأمر شجع التراثيين لأن يكون لهم أنصار كثر من أجل النيل من هذا العلم ووصفه بأنه دسيسة أجنبية لا ينفع اللغة العربية على الإطلاق، ذلك لأنهم يعتقدون بأن الذي ينفع اللغة العربية هي النظرية اللغوية العربية التراثية وحدها دون العلم بأن هذه النظرية، على الرغم من إفادتها وشرعتيها، إلا أنها لا تستطيع أن تأخذ بالحسبان المعطيات الحديثة التي استحدثت في العصر الحديث (مثل الحاسوب، الجوانب التربوية، دراسة اللغة اجتماعيا، دراستها بيولوجيا، معالجة الأمراض اللغوية، دراسة اللغة عند الطفل العربي، معالجتها رياضيا...إلخ).

الحقيقة، ليس هناك حتى الآن فكر عربي فلسفي ناضج يستطيع أن يعيد هيكلة النظرية اللغوية العربية التراثية، ومن ثم يستطيع أن يضع النظرية اللسانية الغربية الحديثة في إطار عربي واضح ومفهوم للقارئ العربي، من أجل أن يمهد لفكر

عربي فلسفي حديث ونيِّر من أجل الخروج بنظرية لغوية حديثة تأخذ بالحسبان التراث اللغوي العربي، وتأخذ بالنظرية اللسانية الحديثة، وذلك لمعالجة المعطيات العربية المستجدة.

فلا النظرية اللغوية العربية التراثية قادرة على معالجة هذه المعطيات الحديثة، ولا النظرية اللسانية الجديدة قادرة على استيعاب ما كان قد فعله العرب القدماء، والنتيجة أن الدرس اللغوي العربي القديم والحديث يعاني من أزمة معرفية (ابستمولوجية) لا يمكن أن تعالج الواقع العربي الراهن.

هناك بعض المحاولات القليلة والنادرة جدا في الوطن العربي تحاول منفردة أن تملأ هذه الفجوة العلمية، وأذكر على سبيل المثال العالم المصري الدكتور سعد مصلوح، والعالم الجزائري الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح؛ فالباحث الحاج صالح يعد ظاهرة فريدة من نوعها في الوطن العربي، لأنه تتلمذ حتى مرحلة الدكتوراه في جامعة الأزهر، فهضم وفهم النظرية اللغوية التراثية القديمة، وبعدها ذهب إلى جامعة باريس فتتلمذ على أساتذتها في موضوع اللسانيات الحديثة، فهضمها وفهمها على نحو دقيق جدا، وبذلك استطاع أن يعالج بعض القضايا اللغوية العربية المعاصرة ذات الإشكاليات المعرفية.

والواقع أنه ينبغي أن نسعى إلى تحقيق نظرية لسانية عربية حديثة انطلاقا من الحقيقة السابقة. فإذا أردنا لهذه النظرية أن تكون في الواقع وتعالج المعطيات العربية الحديثة فلابد من العمل الجماعي، ولابد من المؤسسات الرسمية، ولابد من المعاهد المتخصصة في هذا الشأن، وأستطيع أن أقول دون مجاملة إن الخطوة الأولى التي تسير في الاتجاه السليم للوصول لهذا الهدف بدأت في المملكة العربية السعودية من خلال إنشاء ما يسمى «كلية الأمير سلطان الأهلية»، حيث تم إنشاء ثلاثة أقسام متجانسة:

الأول: يسمى بقسم اللسانيات التطبيقية (التربوية).

الثاني: يسمى بقسم اللسانيات الحاسوبية المعلوماتية (معالجة العربية ولغات أخرى حاسوبيا).

الثالث: يسمى قسم الترجمة (من العربية وإليها).

النتيجة: لكي نتوصل إلى هذا الهدف لابد من الدعم المادي السخي والدعم السياسي الحكومي.

س: نبقى دائما في إطار العوائق التي تحول دون استثمار البحث اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب، ونشير إلى أن القارئ العربي يحس ببعض الاغتراب أمام اللسانيات، خصوصا وهو بصدد قراءة بعض كتب النقد. ما هي أسباب هذا الاغتراب في نظركم؟

ج: اغتراب القارئ العربي أمام هذه الدراسات هو محصلة للتخبط الاصطلاحي، وهناك أسباب أخرى لذلك. فإن كنت تعني أن هذه الدراسات التي طبقت عليها اللسانيات هي دراسات أدبية، فهذا يدخل ضمن إطار ما يعرف بـ«اللسانيات الأدبية»، أي استفادة الدراسات الأدبية والنقدية من مبادئ اللسانيات، حتى إن حقلا معرفيا قد نتج عن العلاقة القائمة بين اللسانيات والأدب يعرف بـ«النقد اللساني»، وكما أن هناك نظريات كثيرة نقدية تنقد الأدب من زوايا مختلفة، كذلك هناك النقد اللساني الذي يتناول الأجناس الأدبية تناولا لسانيا. ولكن المشكلة هنا أن النقاد الذين يستخدمون هذا النقد ليسوا لسانيين بالمعنى الحقيقي للكلمة! وإنما هم مهتمون باللسانيات. لذلك تأتي هذه الدراسات النقدية اللسانية هشة على مستويات عدة، منها المستوى الاصطلاحي، والمستوى المنهجي... لذلك ينفر القارئ العربي من هذه الدراسات ويعتبرها غريبة وشاذة. وأصارحك القول أنه حتى اللسانيون المختصون يرون هذه الدراسات شاذة وغامضة، ذلك لأن كثيرا من هؤلاء الدارسين لا يهمهم سوى تلبيس الأجناس الأدبية ثوب اللسانيات من أجل أن تظهر دراساتهم حديثة. هذا بالنسبة للدراسات الأدبية والنقدية اللسانية. أما إذا كنت تقصد بسؤالك تطبيق اللسانيات على اللغة العربية فالمشكلة أفدح؛ ذلك أن اللسانيين الحقيقيين في الوطن العربي قليلون جدا يعدون على أصابع اليد، وحتى هؤلاء عندما يستفيدون أو يستثمرون اللسانيات في دراساتهم للغة العربية فإنهم يفترضون أن القارئ العربي يرتفع في سويته العلمية إلى مستوى معقول من هضم المعلومات الأساسية للسانيات العامة، وهذا غير متوافر غالبا؛ ذلك لأن هناك تخوفا من القارئ العربي تجاه دراسة اللسانيات نظرا إلى أن طبيعة هذه المادة هي طبيعة علمية، ثم إنها تحتاج إلى قراءات باللغة الأجنبية. وهذان الشرطان معدومان، غالبا،

عند القارئ العربي. إذن، هناك أسباب كثيرة لأن تكون اللسانيات غريبة في الثقافة العربية، منها ما يتعلق بالقارئ العربي، ومنها ما يتعلق بالدارس العربي، ومنها ما يتعلق بطبيعة هذه المادة نفسها. لذلك لابد من معالجة كل هذه الأسباب معالجة علمية دقيقة تستند إلى عوامل تتعلق بالمؤسسات الحكومية وبالإمكانات العلمية والمادية والتخطيطية.

س: ربما يسهم في هذا الوضع افتقاد مكتبتنا العربية إلى مصادر هذا العلم الجديد، فالمؤلفات العربية عنه قليلة جدا بحيث لا تكاد تذكر، وكتبه المترجمة أيضا قليلة؟

ج: أنا أوافق تماما، فهذا العلم ما يزال محض العقلية الغربية التي أنتجته ووضعت مبادئه وأصوله، ونحن العرب نتعرف عليه من خلال الترجمة التي لا تخضع للضوابط العلمية ولا تحكمها منهجية علمية أكاديمية، يضاف إلى ذلك أن الترجمات ليست متكاملة ومنسقة، فهي لا تعطي تعريفا لهذا العلم ولا لموضوعه، ولا الغاية المرجوة منه.

وهذا يقودنا بالتالي إلى القول بأن المصادر اللسانية الغربية الأساسية ليس لها وجود على الإطلاق في المكتبة العربية، وهذا يعني أن المشكلة اللسانية في الوطن العربي هي مشكلة تعريب علم اللسانيات كعلم قائم برأسه له أسسه ومناهجه التي يمكن أن تشرح وتنقل من الإنكَليزية والفرنسية إلى العربية. وهذا لن يتم ما لم يوجد تنسيق وتعاون بين علماء اللسانيات الغربية العرب وعلماء اللغة العربية.

إن اللسانيات كعلم مترجم لم يكتمل بعد، لا مصطلحات ولا مادة ولا منهجا؛ إذ إن كل باحث يترجم هذا العلم إلى العربية ترجمة شخصية، فمن المترجمين من لا يعرف التراث اللغوي العربي، لذلك تأتي مصطلحاته هشة وغير مقبولة أو لنقل «مترجمة»، خذ على سبيل المثال ترجمة المصطلح اللساني (*linguistics*) وهو ما يدل على علم اللسان في الغرب، أما في ثقافتنا العربية المعاصرة فهناك أكثر من ترجمة لهذا المصطلح؛ في لبنان يطلقون عليه «الألسنية»، في مصر يطلقون عليه «علم اللغة»، في المغرب وسورية يطلقون عليه اسم «اللسانيات»...

أضف إلى ذلك الفروع التي تنضوي تحت هذا العلم لها مصطلحاتها

المحددة، ولكن العرب يتخبطون في ترجمتها. إذن، **يمكن للمرء أن يستنتج أنه ليس في العالم العربي «لسـانيات» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لا على المسـتوى النظري ولا على المسـتوى التطبيقي. هناك دراسـات مشـتتة تنتمي إلـى موضوعات لسـانية مختلفة،** هذا على المسـتوى العلمي. أما على المسـتوى الإداري الجامعي- الأكاديمـي فالمشـكلة أعظم؛ إذ إن أغلـب الجامعات العربية ومنها السـورية، تعطي مادة اللسـانيات فصلا واحدا خلال أربع سـنوات، والأفدح من هذا أنها تدرس هذه المادة في السـنة الثالثة، وتدرس فقـه اللغة العربية في السـنة الرابعة، مع أن العكس هو الصحيـح؛ إذ ينبغـي أن يدرس الطالـب مباحث فقه اللغـة العربيـة وبعدها يأتي إلى دراسة ما هو أعم وأشـمل ليتعرف على القوانين والمبادئ اللغوية العالمية التي شـكلت ما يسـمى بـ»اللسـانيات». إذن، القضيـة لا تتعلق بالمصطلح اللسـاني بقدر مـا هي متعلقة بقضايـا أكاديمية-جامعية بحتة. وعلى كل حـال، إن عدم اكتمال هذا العلـم في دراسـاتنا العربية يعود إلى أسـباب كثيـرة كنت قد فصلت القـول فيها في العديد من كتبـي ومقالاتي، ولا مجال للحديث عنها جميعها في هذا الحوار.

س: **كيف تقيمون الإسهامات الجماعية والفردية والمؤسساتية في إطار توحيد المصطلح ولاسيما أنكم من المساهمين في ذلك؟**

ج: توحيد المصطلح اللساني قضية في غاية الأهمية. ذلك لأن كل علم جديد لابد له مـن مصطلحات محددة تطلق علـى مفاهيم دقيقـة، لأن كل علم من العلوم الطبيعية والإنسانية إنما يتحدد من خلال ثلاثة أبعاد:

الأول: هـو التعريـف بهـذا العلم وحـده. الثانـي: هـو الموضوع الـذي يبحثه هـذا العلـم. الثالث: هو الهدف الذي يسـعى إلـى تحقيقه ذلك العلم. فـإذا لم يكن للسـانيات كعلـم مصطلحاتـه الخاصـة بـه، التي تطلـق على مفاهيـم معينـة، فإنه لا يسـتطيع أن يندرج تحت هـذه الأبعاد الثلاثة. وهذا ما أدركـه الغرب المعاصر حول اللسانيات بالذات، كما أدركه العرب القدماء عند وصفهم وتوصيفهم لعلوم مختلفة. اللسـانيات في الغرب لها مصطلحاتها المحددة وعلـى كافة الأصعدة. فكل فرع من فروع اللسـانيات له مصطلحاته ومفاهيمه سـواء أكان ذلك في مستوى النحويات أو مستوى الصوتيات أو في غير ذلك. ومن هذا التحديد، مصطلحا ومفهوما، تم تطوير

هذا العلم حتى أصبح من العلوم المتقدمة في الغرب. أما عندنا -نحن العرب- فإن المسألة تختلف وذلك للعوامل الآتية: ليس هناك جهود جماعية لوضع المصطلح اللساني العربي وتحديد مفهوماته. وإذا كان هناك جهد جماعي فسببه العامل التجاري، وليس العامل العلمي. أضف إلى ذلك أن المؤسسات الثقافية العربية غير مهتمة بهذا الأمر. فعلى سبيل المثال لا الحصر، ليس هناك معجم لساني واحد صدر عن وزارات الثقافة في البلدان العربية، وليس هناك معاجم لسانية صادرة عن مجامع اللغة العربية في الوطن العربي. أما على المستوى الفردي، فهناك كثير من الأعمال الفردية المشكورة التي حاولت وضع معاجم لسانية مبسطة لكن المشكلة أن اللسانيين لا يتقيدون بها، لاختلاف نظرتهم إلى المفاهيم اللسانية، ولاختلاف منابع ثقافاتهم اللسانية من الغرب. ولكن على علات هذه الأعمال الفردية تبقى المصدر الأول لفهم اللسانيات في الوطن العربي.

س: ما المطلوب، في رأيكم، من المؤسسات الثقافية العربية تحديدا لحل هذه المعضلة؟

ج: المطلوب من المؤسسات الثقافية أولا وأخيرا الاهتمام بهذا العلم، ووضع الخطط اللازمة لمواكبة مصطلحاته ومفاهيمه، ويتم ذلك باختيار وجلب الكادر اللساني المختص في كل فرع من فروع اللسانيات، وبالدعم المادي لمثل هذا المشروع، وباستقلالية المؤسسة التي تتبنى هذا المشروع من ناحية القرار والطباعة والنشر.

وبذلك فإن المصطلح اللساني سيعطي كل المجالات اللسانية التي يدور في فلكها هذا العلم. ولابد في هذا المجال من التركيز على عامل الزمن؛ ذلك لأنه لا يكفي أن تصدر المؤسسة معجما لسانيا كل عشر سنوات، مثلا، كما حصل ذلك في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والتي أصدرت معجما لسانيا أسمته: «المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات» الذي صدر عام 1989م.

أختم حديثي حول هذه النقطة بالقول إننا نحتاج إلى نوعين اثنين من المعاجم اللسانية، الأول: معاجم لسانية عربية أجنبية (إنكَليزية-فرنسية)، أي تضع الكلمة اللسانية الأجنبية ومقابلتها العربية.

والنوع الثاني: معاجم لسانية عربية-عربية، أي تضع المصطلح اللساني العربي وتشرح ماذا يعني وعلام يدل. وهذا النوع من المعاجم مهم جدا لتشق اللسانيات طريقها في الثقافة العربية.

س: هل هناك علاقة بين اللسانيات الحديثة والركام المعرفي اللغوي التراثي العربي القديم؟

ج: بالطبع توجد هذه العلاقة، لا بين التراث اللغوي العربي واللسانيات الحديثة فحسب، وإنما بين كل التراثات العالمية واللسانيات الحديثة، لأنه لا يمكن للسانيات أن تكون علما قائما برأسه له استقلاليته وعلميته وشرعيته ما لم يستند إلى التراث اللغوي العربي، بله العالمي.

علماء اللسانيات الغربيين كانوا قد درسوا ما كتب قديما عن اللغات البشرية عند جميع الأمم السابقة، ومنها الأمة العربية الإسلامية، وقد استفادوا استفادات كثيرة من هذه الأمم، وبالأخص من التراث اللغوي العربي القديم؛ لأن هذا التراث يتميز بالدقة والشمولية والعالمية، فعندما عالج العلماء المسلمون اللغة العربية لم يكن في فكرهم الإنسان العربي المسلم فحسب، وإنما كان في ذهنهم مكانة اللغة العربية في هذا الكون الشامل الذي يضم «الإنسان»، فأرادوا دراسة الإنسان من خلال هذه اللغة العربية الشريفة، لذلك كانت نظرتهم إليها نظرة إنسانية لا قومية. من هنا نراهم يمنعون ترجمة القرآن من العربية إلى اللغات الأخرى في المراحل الأولى للترجمة، لأن كل إنسان كان يجب أن يتعلم اللغة العربية لكي يكون مسلما.

وقد اعترف بهذه الخصائص الدراسية للتراث اللغوي العربي علماء غربيون منصفون أمثال عالم اللسانيات الأمريكي نعوم شومسكي من خلال حوار كنت قد أجريته معه ونشر بالعربية، والإنجليزية، والفرنسية في مجلة «اللسانيات» الصادرة عن معهد الصوتيات واللسانيات التابع لجامعة الجزائر (المجلد رقم 6، لعام 1982م). وقد قال بالحرف الواحد إنه تأثر بالتراث العربي القديم عندما وضع نظريته في النحو التوليدي والتحويلي، ولاسيما في كتابه: (البنية المنطقية للنظرية اللسانية).

إذن، العلاقة بين العلم الحديث للظاهرة الفيزيائية والعلم القديم لنفس الظاهرة الفيزيائيـة حتميـة علمية لا يمكـن الاسـتغناء عنها في تاريـخ التطور العلمـي، وبناء الثـورات العلمية، كما يذهـب إلى ذلك المفكر الغربي توماس كـون في كتابه: (بنية الثورات العلمية)، وكذلك جي وودغر في كتابه: (بناء النظريات الفيزيائية).

س: تقصدون أن الحداثة لا تنقطع كلية عن التراث؟

ج: **أجـل**، هـذا صحيح ومعافـى عند العـرب، أما عندنـا فالحداثة هـي حداثة فوضوية لأنها نشأت من فراغ، ولـم تأخذ بالحسبان ما فعله العرب القدماء وما فعلته التراثات العالميـة الأخرى. من هنا يأتي الصراع الحاد بيـن الماضويين والحداثيين، فالماضويـون لا يتطلعون إلى الأمـام ولا يريدون أن يطوروا علمـا جديدا لمعطيات جديدة، والحداثيون لا يريدون أن يؤسسوا نظريات حديثة مبنية على تراثات قديمة، وهكذا فـإن خطيئة الأمـة المعرفيـة لا تأتي من الحداثيين فحسـب، وإنمـا تأتي من التراثيين أيضا.

وأحـب أن أضـع السـؤال فـي إطـار أشـمل وأوسـع ليكـون حديثنا أكثـر دقة وموضوعية؛ ذلك أنني أعتقد أن التـراث اللغوي العربي ليس ملكا للعرب وحدهم، ولكنه ملك حضارة الإنسان المعاصر، والإنسان دائما وأبدا خارج عن نطاق الجنس والعرق والتاريخ. ومن ثم يمكنني أن أجيب عن سؤالك في إطار ما يلي:

1- ماذا نعني بالتراث اللغوي العالمي؟

2- أين يقع التراث اللغوي العربي في خارطة التراث اللغوي العالمي؟

3- ماذا نعني باللسانيات الحديثة؟

4- أين تقع البحوث اللغوية العربية القديمة في خارطة اللسانيات الحديثة؟

5- وأخيـرا، هل هنـاك صلة بين ما فعلـه العرب في مجال الدراسـات اللغوية القديمة وبين هذا العلم الجديد المسـمى «اللسـانيات»؟ ثم ما طبيعة هذه العلاقة؟

1-التراث اللغوي العالمي

مـن يطلع علـى الكتـاب القيم الـذي كتبـه الباحث اللسـاني الإنكَليـزي روبنز (*Robins*) وعنوانه:(التاريخ الوجيز للسانيات) *A short History of Linguistics*،

سيكتشف بأن تاريخ الأمم السالفة حافل وغني بالدراسات اللغوية التي تبحث في الظاهرة اللغوية من الوجهة الصوتية والتركيبية والدلالية، ثم علاقة هذه المكونات اللغوية بالعالم الذي يحيط بالإنسان. فقد لفتت الظاهرة اللغوية انتباه الإنسان منذ قديم الأزل، وجعلته يطرح الأسئلة تلو الأسئلة حولها. وسواء أقاده حدسه الطبيعي إلى الجواب الصحيح أم تجاربه العلمية المتوافرة آنذاك، فإنه قد توصل إلى حقائق عدة حول اللغة بشكل عام. فالحضارة الهندية القديمة بحثت في الظاهرة اللغوية بحثا مستفيضا ولاسيما في وجهها الصوتي (*Phonetic*). والحق يقال: يعد الباحث الهندي الكبير بانيني (*Panini*) أبا الصوتيات في العالم. فمن رجع إلى بحوث هذا الرجل منذ حوالي أربعة آلاف سنة فإنه سيندهش من الدراسة الصوتية العميقة التي قام بها سواء أكانت هذه الدراسة مبنية على اللغات الهندية أم على لغات بشرية أخرى. وقد فعل اليونانيون في الحضارة الإغريقية الشيء نفسه، إذ استفادوا من البحوث اللغوية التي سبقتهم وبنوا على تلك الدراسات ثم طلعوا بنظرات جديدة حول الظاهرة اللغوية. وما البحوث اللغوية التي قدمها أفلاطون وأرسطو والمدرسة الرواقية إلا دليل واضح على اهتمام الحضارة الإغريقية بالظاهرة اللغوية. وإذا كانت الحضارة الرومانية قد تبنت كل الحقائق اللغوية التي أتت بها الحضارة الإغريقية فإنها قد أسهمت قليلا في تطوير الدراسات اللغوية ولاسيما في وجهها الدلالي-البلاغي. أضف إلى ذلك أن هناك دراسات لغوية قيمة ونافعة قامت بها الحضارات الشرقية القديمة وبالتحديد اليابان والصين وغيرهما، تلك الدراسات التي لم تصل إلينا -نحن العرب- لنتعرف عليها ونأخذ بها. ومن يطلع على كتاب الباحث اللساني هياكاوا *Hayakawa* وعنوانه: (اللسانيات الشرقية) (*Linguistics Oriental*) فإنه سيكتشف أن هناك حقائق كثيرة أتت بها الدراسات الشرقية حول الظاهرة اللغوية. والخلاصة، لا يمكن لظاهرة من الظواهر الإنسانية أو الفيزيائية أن تكون طفرة في تاريخ الجنس البشري وإنما هي تحول من ظاهرة أخرى متعاقبة. وهكذا فإن السابق هو نتاج اللاحق. اللغة ظاهرة فيزيولوجية-إنسانية لاحظها الإنسان منذ أن خلق على وجه الأرض، وقد حاول وما يزال يحاول سبرها. وهكذا فإن تاريخ الإنسان (بغض النظر عن جنسه وعرقه وأصله وفصله) مليء بالدراسات التي تناولت الظاهرة

اللغويـة. ولكن السـؤال الذي يطرح نفسـه هنا هو: مـا مدى صحة هذه الدراسـات اللغوية التراثية العالمية وشـرعيتها؟ الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى رواية ودراية لا تقل مدتها عن عشر سنوات من البحث والاستقصاء العلميين.

س: راهنتم فـي كتابكم: (نحو نظريـة لسانية عربية حديثـة) على نظرية لسانيـة عربية. كيف تقيمون تلك الأطروحة بعد مـرور أكثر من عقدين من الزمن على طرحها؟

ج: في كل نظرية لابد أن يكون هنا منهج كأنموذج لهذه النظرية، المنهج الذي اتبعتـه منذ عقديـن من الزمن أصبح قديمـا، ولكنني من جهة أخـرى لم أتوقف عند هـذا المنهج، فقد اسـتفدت مـن الملاحظات والأفـكار التي كان طلاب الدراسـات العليا يسـدونها إلي، لذلك كنـت أضمنها في المنهج القديم، حتـى إذا تفاعلت هذه الأفـكار كلهـا مجتمعة حاولت أن أضعها فـي منهج آخر كالذي كنـت قد قدمته من خـلال أنموذجيـن جديدين، يتجلى الأنمـوذج الأول في كتابي: (جملة الشـرط عند النحـاة والأصوليين العرب في ضـوء نظرية النحو العالمي لشومسـكي) الصادر عام (1999م)، والأنمـوذج الثانـي يتجلـى مـن خـلال كتابي: (دراسـات نحويـة ودلالية وفلسفية في ضوء اللسـانيات المعاصرة) الصادر عام 2001م، انطلاقا من أن النظرية لا ينبغـي أن تكتفـي بأنمـوذج واحـد وإلا فإنها سـتعلن إفلاسـها الفكـري، النماذج المتعـددة والمختلفة هـي التي تعطي النظريـة البقاء والحياة، وكما يقول الفيلسـوف اليونانـي هيرقليطـس: «إنـك لا تسـتطيع أن تسـتحم بماء النهـر مرتيـن» فلابد إذن، مـن الماء المتجـدد الصافي والنقـي من أجل اسـتمرار النوع الإنسـاني الذي يتجلى ويتمظهر بالفكر المتألق والمتجدد أبدا.

س: كثرت في الآونة الأخيـرة تطبيقات بعض مقـولات النظريات اللسانية الغربية، ولاسيمـا نظرية شومسكي على اللغة العربيـة، والملاحظ أن كثيرا من تلـك الدراسات اتسمت بضحالة المعرفة بالتـراث اللغوي العربي، والسؤال، الآن، ذو شقين:

الأول: ألا يؤثر ذلك في إساءة مثل تلك الدراسات إلى النظرية المطروحة، وإلى اللغة التي طبقت عليها؟ أم ترون ذلك خطوة على طريق تطور الدراسات اللسانية العربية؟

والثاني: مــا السبيل إلى تلافي ذلك الخلل المنهجــي بين ثنائيات «التراث والحداثة» و«العربي والغربي»؟

ج: بالنسـبة للشـق الأول من السـؤال، نسـتطيع أن نقـول إن تطبيـق النظريات الغربية على اللغة العربية على نحو اعتباطي وغير مسؤول هو إساءة للنظرية اللسانية المطبقـة، ثم هو إسـاءة للغة العربية نفسـها. والواقع أن الذي يحصـل هنا أن أغلب الباحثيـن اللسـانيين العـرب هم متخرجون من أقسـام اللغـات الأجنبيـة (الإنكَليزية والفرنسية...) واطلاعهم على اللسانيات الغربية هو اطلاع واسع وعميق... ولكنهم مـن جهة أخرى لا يعرفون لغتهم العربية نحوا، ودلالة، وصوتا، حق المعرفة، لذلك كانوا في الخمسـينات والسـتينات يطبقون النظريات اللسـانية الغربية على اللهجات التـي يتكلمونها، وبذلـك لم تفز اللغـة العربية الفصحـى من هذا بشـيء. ولكن في السبعينات والثمانينات والتسعينات بدأ هؤلاء اللسانيون يطبقون هذه النظريات على اللغة العربيـة الفصحى التي لا يعرفونها تمـام المعرفة. وبذلك فـإن نتاجاتهم كانت فوضوية وسـطحية؛ بل أسـتطيع أن أقول إن تطبيقاتهم أسـاءت إلى التـراث اللغوي العربي وإلى اللغة العربية، ولكن، على الرغم من ذلك، هناك بعض الباحثين العرب الذيـن اسـتطاعوا أن يؤسسـوا خلفية ثقافيـة متينة في التـراث اللغـوي العربي؛ ذلك لأن دراسـاتهم الجامعية كانت حول اللغة العربيـة وآدابها، وعندما ذهبوا إلى الغرب ليحصلـوا تعليمهم العالي في اللسـانيات الغربية اسـتطاعوا أن يمتلكوا ثقافة لسـانية حديثـة ومتينة. وهكذا بـدأ التمازج الثقافي بيـن التراث اللغوي العربي واللسـانيات الغربيـة الحديثة، لذلـك كانت دراسـاتهم للغة العربيـة. ومن هذه الدراسـات، على سـبيل المثـال لا الحصـر، دراسـات الباحـث الدكتور عبـد الرحمن الحـاج صالح، والدكتور عبد القادر الفاسـي الفهـري، والباحث الدكتور أحمـد المتوكل، والباحث الدكتور كمال بشر، والدكتور محمود فهمي حجازي، وغيرهم...

أما عن الشـق الثاني من السؤال المتعلق بالخلل المنهجي بين ثنائيات «التراث والحداثة» و«العربي والغربي»، فإنني أستطيع القول إن مثل هذه الثنائيات هي مفيدة ونافعـة وتكمـل بعضها بعضا إذا وضعت في سـياقها الصحيح، وذلـك أنه لا حداثة بلا تراث، والحداثة سـتصبح تراثا فـي يوم من الأيام. ثم إنه لابد مـن تنوع المعرفة

البشرية واختلاف النظريات بين الغرب والشرق. إذن، ليس هناك مشكلة في رأيي، ولكن المشكلة تكمن فينا نحن العرب المعاصرين، وهذا يدفعني لأن أشدد على قضية التخصص المعرفي، الذي سيؤدي إلى كشف ما لم يستطع الإنسان العادي كشفه. أضف إلى ذلك أنه لابد من نقل كل ما هو جديد ونافع لثقافتنا من الغرب؛ ذلك أن تلاقح النظريات الشرقية بالنظريات الغربية أو العكس سيطور المعرفة البشرية، وهذا يعني أن الإنسان مهما كانت جنسيته وفصله ولونه وثقافته يجب أن يكون منفتحا على ما كان يسميه الفلاسفة العرب المسلمون بـ«الكليات» وأن يبتعد عن التعصب القومي أو الديني أو الاجتماعي أو الثقافي الدوغمائي الذي لا يجلب للمعرفة البشرية إلا الانغلاق.

س: حبذا لو تقترحون منهجا للإفادة إذن؟

ج: الإفادات -كما قلت- من النظريات الغربية بشكل عام، والنظرية النحوية بشكل خاص، كثيرة، والإفادة عند التطبيق لا تتم باتجاه واحد، أي من النظرية النحوية لشومسكي إلى المادة اللغوية العربية، وإنما تتم أيضا بالاتجاه الآخر، أي من المادة اللغوية العربية إلى النظرية النحوية الغربية. إن الهدف من تطبيق نظرية شومسكي النحوية العالمية على جملة عربية كجملة الشرط، مثلا، هو أولا امتحان مدى شرعية هذه النظرية العلمية... وثانيا وصف وشرح الجملة الشرطية العربية بنوع من التقنية الحديثة ذات المعطيات الرياضية والحاسوبية والمعلوماتية. فالهدف من التطبيق هو هذا الجدل النفعي الذي يدور بين النظرية والمادة اللغوية جنسها ونوعها. وبعد ذلك يمكننا أن نتطلع إلى النتائج التي يمكن أن تكون متعلقة بالنظرية نفسها، كأن تكون ناقصة وبحاجة إلى تعديل. ويمكن أن تكون متعلقة بالمادة اللغوية المدروسة كأن تكتشف حقائق جديدة عن الجملة الشرطية العربية لم يلتفت إليها العرب القدماء. أما في حالة نقص النظرية النحوية العالمية لشومسكي فإنه يمكن أن نستفيد من نظريات العرب القدماء، النحاة والأصوليين، إلى جملة الشرط العربية من أجل أن نملأ الفجوات المنهجية الموجودة في نظرية شومسكي، وهذا بالضبط ما حصل في كتابنا: (جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب في ضوء نظرية النحو العالمي لشومسكي)، إذ إن كثيرا من الفجوات المنهجية في هذه النظرية التي

وجدت جوابا كافيا وشافيا عنها في أعمال الأصوليين العرب، عندما درسوا جملة الشرط العربية، فقد كان هدف الأصوليين هو التوصل إلى دلالة الجملة الشرطية من أجل التوصل إلى الحكم الشرعي الذي كان هدف دراساتهم، وهذا لم يضمنه شومسكي في نظريته؛ ذلك أن هدفه من دراسته للجملة، عموما، هو معرفة سر المعرفة اللغوية في الدماغ البشري للتوصل إلى شكل جوهري رياضي يمثل عمل تلك الجملة في عملية التطبيق..

إذن، ليست هناك خسارة، وإنما هناك ربح على صعيد النظرية، وعلى صعيد المادة اللغوية، وهذا ما عنيناه بالتطور الدائم والمستمر للظاهرة الفيزيائية التي ينبغي أن تمنح الحياة من خلال هذين البعدين: التطور والاستمرارية.

س: ربما هذا يطمئن من يعتقد أن النموذج اللساني هو بديل عن النموذج النقدي الأدبي، أو العكس.

ج: أبدا، لا يمكن للسانيات بحال من الأحوال أن «تنصب» نفسها لتحل محل علم آخر، كما أنه لا يمكن لأي علم أن يحل محل الآخر وإلا سيكون هناك نوع من «الميليشيات المسلحة» ضمن المعارف البشرية، الميليشيا الأكثر تسلحا وقوة ستحل محل الأخرى. في العلم، الأمر غير ذلك على الإطلاق... أهم صفة في العلم هي النسبية في استنباط الحقائق ثم الانفتاح على الكون والعالم... من أجل تطوير أفضل في مستوى الأدوات التي يعمل بها العلم ومستوى الظاهرة التي يدرسها العلم.

وهكذا لا يمكن بحال من الأحوال للنموذج اللساني أن يحل محل النموذج النقدي. ولكن اللسانيات يمكن أن ترفد النقد وتغنيه وتدفعه نحو «العلمنة» والدقة والتقنية... كما أن النقد نفسه يمكن أن يطور كثيرا في النظرية اللسانية من خلال نقد الأجناس الأدبية كافة المنطوقة منها (الدراما، المسرحية، التمثيلية... إلخ) والمكتوبة (القصة، الرواية، الشعر... إلخ).

ولكن لاحظ معي الآن هذه النقطة، يمكن لنموذج نقدي أدبي أن يحل محل نموذج نقدي أدبي آخر.. بمعنى أنه يمكن أن يبتلعه بعد هضمه وفهمه وتجاوزه لما هو أفضل وأحسن في العملية النقدية.. ويمكن لنموذج لساني أن يحل محل

نموذج لساني آخر بنفس المعنى.. وبكلمة دقيقة، النموذج الأسلوبي أو ما يسمى بـ«الأسلوبيات» حلت محل «البلاغة الغربية» ولكن بعد أن قتلتها فهما وهضما.. كما أن «علم تحليل الخطاب» المعاصر يحل يوما بعد يوم محل «الأسلوبيات». وهذا يعني أن علم تحليل الخطاب هو الأسلوبيات وما بعد الأسلوبيات. وهذه صفة للعلم يطلق عليها صفة تراكمية العلم. دائما القديم (من نفس المعرفة البشرية) يتضمن في الحديث، كما أن الحديث سيتضمن فيما هو أحدث منه.. وهكذا.

وهذا ما يفعله شومسكي في نظريته منذ ثلاثين سنة، نحو المواقع المحدودة متضمنا في نحو بنية العبارات.. والنحوان متضمنان في النحو التحويلي.. والنحو التحويلي متضمن فيما يسميه شومسكي الآن بـ«النحو العاملي-العائد» (*Government and Binding Grammar*).

إن نظرية شومسكي خير مثال على مبدإ «تراكمية العلم» وتطور أدواته من جهة، وتطور الظاهرة اللغوية العالمية من جهة أخرى...

س: من المغالطات الشائعة في ثقافتنا أن اللسانيات لا يمكن تطبيقها على اللغة العربية أو الاستفادة منها كمنهج لدراسة العربية، لأن العربية هي نسيج خاص لا مثيل له بين اللغات؟

ج: قبل الإجابة عن هذا السؤال أود أن أفرق بين شيئين مهمين، الأول يتعلق بالمادة أو العينات اللغوية التي ندرسها، وفي هذه الحالة فإن المواد اللغوية التي ندرسها هنا هي اللغة العربية.

والشيء الثاني هو المناهج والنظريات التي حاولت منذ قديم الزمن دراسة المواد اللغوية وتأسيس هذه المناهج والنظريات حولها.

معنى ذلك أن العرب القدماء عندما بادروا إلى المواد اللغوية العربية فإنهم وضعوا فرضيات ومناهج ثم نظريات لغوية معينة، مستخدمين مقاييس ومعايير هي نتيجة لواقعهم ولزمانهم.

والسؤال الآن هو هل يمكن لنا نحن العرب المعاصرين أن نأتي إلى هذه اللغة العربية وننظر إليها نظرة مختلفة؟ الذي أقوله أنا والذي يقوله العلم والتطور هو أن كل ظاهرة فيزيائية في هذا العالم ينظر إليها نظرات مختلفة...

وهذه النظرات المختلفة ينبغي ألا توضع في إطار السلبية وإطار النقيض وإطار النفـي وإنما ينبغي أن توضع في إطـار تطوري، أي أن المناهـج الحديثة والنظريات الحديثـة ينبغي أن تتطلـع إلى المناهـج والنظريـات القديمة لتعـرف مواطن ضعفها ومواطـن قوتهـا، وبالتالـي أن تصوغ مناهـج ونظريـات يمكن لها أن تصف وتفسـر الظاهرة اللغوية تفسيرا وشرحا أكثر وضوحا وقوة وأكثر ملاءمة للواقع وللزمن التي تعيش فيه هذه الظاهرة اللغوية.

إذن، في العلم، وحسب المفهوم العلمي الحديث، لا وجود لمقولة تقول: «**ما تـرك الأول للآخر شـيئا**»، ومقولة: «**ليـس بالإمكان أبدع ممـا كان**»، وذلك لأن مثل هـذه المقولات إنما هي مقـولات لا تخضع للعلـم ولا تخضع للتطـور، وهي ضد حركة التطور الإنساني في الحضارات الإنسانية.

ولكن الأمر المهم هنا هو أن هذه النظريات والمناهج الحديثة ينبغي أن تكون أكثر علمية في معالجتها لنفـس الظاهرة التي عالجها القدماء. من هنا فإنني أقول إن هناك فرقا كبيرا بين الدراسات اللغوية القديمة والدراسات اللغوية الحديثة. لن أفصل كثيرا في جميع الخصائص التي تتميز بها اللسانيات الحديثة ولكنني سأعرض بعض الخصائص التي ذكرها عالم اللسـانيات البريطاني جون ليونز في كتابه (شومسـكي) والذي ترجمه إلى العربية الدكتور محمد زياد كبه.

الميـزة الأولـى التي تجعل اللسـانيات متميزة عـن النحو التقليـدي هي الصفة العلمية التي تحملها اللسانيات، وهي نتيجة طبيعية لاستقلالية هذا العلم عن العلوم الأخرى. كما نعلم بأن النحو التقليدي كان قد ارتبط بالفلسفة والنقد الأدبي منذ بدء ظهوره في القرن الخامس قبل الميلاد.

وقد أسهمت الفلسـفة والنقد في تكوين المواقف والأسس التي تبناها العلماء في دراسة اللغة طيلة قرون عديدة.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذه المواقف والأسـس لا تزال واسـعة الانتشـار في ثقافتنا، حتى إن بعضها يعتبر من المسـلمات سـواء لدى علماء النحو المتمرسين أم الناس العاديين.

وعندما يطالب الباحث اللغوي باستقلال موضوعه فإنما يطلب السماح له بتبني

نظرة جديدة موضوعية عن اللغة، دون أي التزام مسبق بالأفكار التقليدية، ودون أن يتبنى وجهات نظر الفلاسفة أو النقاد أو علماء النفس أو من يمثلون العلوم الأخرى. وطبيعي ألا ينفي هذا قيام العلاقة بين اللسانيات وباقي العلوم التي تهتم باللغة.

والميزة الثانية التي تجعل اللسانيات كدراسة علمية مستقلة للغات البشرية مختلفة عن النحو التقليدي، هي أن النحو التقليدي ارتبط ارتباطا وثيقا بالأدب، وهكذا فقد ركز الباحثون جُل اهتماماتهم على اللغة المكتوبة وأهملوا الفوارق بين الكتابة والكلام.

كما اعتبر النحويون والتقليديون الكلام نسخة مشوهة عن الكتابة في الغالب مع أنهم لم يهملوه إهمالا كاملا. وعلى النقيض من المعياريين فإن علماء اللغة الحديثين يأخذون بالمسلمة القائلة إن الكلام يتبوأ المكانة الأولى، أما الكتابة فتحتل المكان الثاني لأنها مشتقة منه، ولم تكن اللغات المعروفة بادئ ذي بدء سوى كلام منطوق؛ بل إن آلافا من لغات العالم لم تعرف قط طريقها للتدوين أو أنها دونت منذ فترة قريبة جدا.

أضف إلى ذلك أن الأطفال يتقنون الكلام قبل تعلمهم الكتابة. ويجب أن نؤكد في الوقت نفسه أن تبني مبدأ أسبقية الكلام على الكتابة لا يعني بتاتا إهمال لغة الكتابة أو الإقلال من شأنها. ومما لا ريب فيه أن الشروط التي تتوافر عن استخدام لغة الكتابة تختلف عن تلك التي تحكم لغة النطق (الكلام). وليس هدفنا هنا التوسع في الفروق القائمة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، ذلك أنني ذكرت كل هذه التفاصيل في مقالة نشرتها في المعرفة، العدد 266، عام 1986م، بعنوان: (اللسانيات وموقفها من اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة) يمكن الرجوع إليها.

أما الميزة الثالثة التي تميزت بها اللسانيات عن الدراسات اللغوية القديمة، فهي أن غالبا ما يقال إنه ما من عضو من أعضاء الجهاز الصوتي عند الإنسان يقتصر في وظيفته على إصدار الأصوات، فالرئتان تستخدمان في التنفس، والأسنان في تقطيع الطعام.. وهكذا يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن القدرة على الكلام هي ميزة الإنسان، وهي أساسية بالنسبة له تماما مثل السير على القدمين، بل وحتى الطعام والشراب. ومهما كان مرد هذه الظاهرة وتاريخ تطور الإنسان عبر العصور

فإنه تبقى لدينا حقيقة جوهرية ينبغي تفسيرها وهي أن جميع بني البشر يستخدمون الجهاز الفيزيولوجي ذاته في النطق، ويبدو من المعقول القول إن الإنسان مؤهل وراثيا بمثل هذا النشاط.

وقد انحصر اهتمام النحويين التقليديين في دراسة اللغة الأدبية الكلاسية، وكانوا يحتقرون التعبيرات العامية باعتبارها غير صحيحة سواء في الكلام أم في الكتابة، فقد غرب عن أذهانهم أن ما يسمونه لغة أدبية هو من وجهة النظر التاريخية ليس إلا لهجة محلية أو اجتماعية معينة اكتسبت مكانة مرموقة ثم ارتبطت بالسياسة والثقافة والأدب، فالفرق بين اللهجة واللغة غالبا ما يُبنى على أسس سياسية.

ويبدو أن هذه النقطة جديرة بالتركيز، إذ يميل الناس إلى الاعتقاد بأن اللغة الكلاسية التي تدرس بالمدارس هي التي تشكل موضوع الوصف العلمي، أما من وجهة النظر اللغوية البحتة فإن جميع اللهجات جديرة بالدراسة والبحث على قدم المساواة، وهنا ينبغي أن أوضح هذه النقطة وهي أن هناك فرقا ما بين دراسة اللهجات العربية دراسة علمية موضوعية واستخدام نتائجها من أجل دفع عجلة اللغة العربية القومية من أجل أن تكون في وضع يؤهلها من أن تستوعب كل المستحدثات الحضارية الجديدة وبين أن ندرس اللهجات العربية ونستخدم نتائج هذه الدراسة من أجل التشتيت اللغوي القومي الذي يجعل منها في نهاية المطاف لغات مختلفة لها شخصيات.

فالمسألة ليست متعلقة بجوهر البحث العلمي الذي مقاييسه ومعاييره واحدة في كل «إيديولوجيات» الدنيا، إنما الاختلاف في استخدام هذا التطبيق لنضع كل إيديولوجية من هذه الإيديولوجيات المختلفة...

أما النقطة الأخيرة التي تختلف فيها الدارسات اللسانية الحديثة عن النحو التقليدي، فهي أن النحو التقليدي كان قد طُور وفق الأسس المبنية على العربية الفصحى وحدها دون الالتفات بشكل عميق إلى اللغات التي تختلف اختلافا شاسعا في بعض عناصرها، على الأقل عن بنية اللغة العربية.

لهذا فإن من أهداف اللسانيات الحديثة إيجاد نظرية أكثر شمولا من النظرية التقليدية بحيث تلائم وصف جميع اللغات الإنسانية دون انحياز لتلك اللغات التي

تشبه في تركيبها اللغة العربية. ويجب أن ننوه في هذا المجال بأن اللسانيات لا تؤيد من يعتقد بوجود اختلاف جوهري بيـن اللغات المتحضرة واللغات البدائية، غير أن مفردات كل لغة تعكس دون شـك مرافق الحياة لدى المجتمع الذي ينطق بها، فأي لغة مـن لغات العالم الرئيسـية كالعربية أو الإنكَليزية أو الفرنسـية أو الروسـية تضم عـددا كبيرا من الكلمات التي تدل على العلـوم والتكنولوجيا الحديثة دون أن يكون هناك الكثير من الكلمات في لغة شـعب متخلف، ولنقل قبيلة «الهوسـا والشونا في إفريقيـا» تصعب ترجمـة لغتها إلى العربيـة أو الإنكَليزية... إلخ، لأنهـا تتعلق بمواد أو أزهـار أو حيوانات أو عادات ليسـت مألوفة فـي تلك اللغـات. وهكذا لا يمكن الحكـم علـى أي لغة بأنهـا فقيـرة أو غنيـة بالمفـردات بالمقارنة مـع أي لغة أخرى بالمعنـى المطلـق، فلكل لغة ما يسـد حاجتهـا من التعبير عـن الأشـياء المتميزة في المجتمع الذي ينطق بها.

وتتضح هذه النقطة أكثر عند دراسة اللغات المتحضرة واللغات البدائية، إلا أن هذه الفوارق لا تزيد عما نلاحظه بين أي لغتين بدائيتين أو أي لغتين متحضرتين.

فاللغـات المسـماة بالبدائية لا تقل انتظامـا عن لغات الشـعوب المتقدمة، كما أن بنيتهـا لا تزيـد تعقيدا أو بسـاطة عن تلـك اللغات، فـكل المجتمعات الإنسـانية المعروفة تتكلم لغات ذات درجة واحدة من التعقيد نسبيا، أما الفوارق النحوية التي نجدها بين اللغات المنتشـرة في أنحـاء العالم، فلا يمكن ربطهـا بالتطور الحضاري للشعوب التي تتكلم بها، كما لا يمكن اعتبارها برهانا على وجود نظرية تطور اللغة الإنسانية؛ ذلك لأن اقتصار اللغة على النحو البشري وعدم وجود لغات أقل تحضرا من غيرها أو أقرب لوسائل التخاطب عند الحيوان يعد نقطة هامة أولاها شومسكي اهتماما خاصا في أعماله الأخيرة.

ألخـص فأقـول إن اللسـانيات عبـارة عـن مبـادئ وقوانيـن ومعاييـر مسـتنبطة من دراسـة اللغات البشـرية المتسـاوية، وهذه المبـادئ والقوانين إنما هـي أكثر دقة وشـمولية وعلمية من تلك القوانين التـي تخص كل لغة من لغات هـذا العالم، ولا يمكـن للعربيـة أن تكون طفـرة خارجة عن هـذا القانـون العلمي اللهـم إلا إذا أراد المرء تقديسها وعزلها عن حركة الحضارة الإنسانية.

س: نعود إلى إشكالية المصطلح اللساني وغير اللساني في الثقافة العربية. هل تملك اللغة العربية في نظركم ما يؤهلها لاستيعاب مصطلحات العلوم ومفاهيمها؟ وكيف يتم ذلك؟ وما الخطوات العملية في هذا الميدان؟ وهل يمكن تطوير اللغة دون تطوير العلم والثقافة تطويرا شاملا؟

ج: أحب أن أضع جوابي في إطار ما كانت قد توصلت إليه الدورة التدريبية في صناعة المعجم العربي التي عقدت في الرباط، المغرب من 31 آذار إلى 8 نيسان 1981. ثم في إطار ما كان قد توصل إليه الباحث اللساني العربي الدكتور علي القاسمي مدير التربية في منظمة «الإيسيسكو» ولاسيما في أبحاثه المنشورة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وكتابيه: (المعجمية وثنائية اللغة) و(اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى).

إن التقدم في المعرفة البشرية والتكنولوجيا يعتمد إلى حد كبير على تبادل المعلومات وتوثيقها، وتستخدم المفاهيم والمصطلحات التي ترمز إليها كأساس لتنظيم الأفكار العلمية وجميع المعلومات الأخرى.

غير أن التطور السريع في المعارف الإنسانية أدى إلى صعوبة إيجاد مصطلحات كافية شافية في اللغة العربية، ذلك أن عدد الجذور في العربية لا يتجاوز الآلاف في حين يبلغ عدد المفاهيم الملايين وهي في ازدياد مضطرد.

ولهذا تلجأ اللغات ومنها العربية للتعبير عن المفاهيم الجديدة بالنحت والتركيب والاشتراك اللفظي وغير ذلك من الوسائل الصرفية والدلالية.

وقد يقود ذلك إلى ارتباط واضطراب على المستويين القومي والدولي، ولهذا كان لابد من توحيد المبادئ التي تتحكم في إيجاد المفاهيم أو تغييرها وفي وضع المصطلحات المقابلة لها، ومن هنا نشأ علم المصطلحات الذي يتناول ثلاثة جوانب: الأول يبحث في العلاقات بين المفاهيم المتداخلة. والثاني يبحث في المصطلحات اللغوية والعلاقة القائمة بينها، ووسائل وضعها، وأنظمة تمثيلها في بنية علم من العلوم. والثالث يبحث في الطرق العامة المؤدية إلى خلق اللغة العلمية والتقنية بصرف النظر عن التطبيقات العلمية في لغة طبيعية بذاتها.

والواقع أن النظرية العامة لعلم المصطلحات تتناول المبادئ العامة التي تحكم وضع المصطلحات طبقا للعلاقات القائمة بين المفاهيم العلمية، وتعالج

المشـكلات المشـتركة بين جميع اللغات تقريبا وفي حقول المعرفـة كافة؛ في حين تقتصـر النظريات الخاصـة في علم المصطلحات على دراسـة المشـكلات المتعلقة بمصطلحات حقل واحد من حقول المعرفة كمصطلحات الكيمياء أو اللسانيات.

والحقيقـة، تعد المجامع العلمية واللغوية والجامعـات المكان الطبيعي لإجراء البحوث في النظرية العامة لعلم المصطلحات.

وفي النصف الأول من هذا القرن، كان للعلماء النمساويين، والتشيكوسلوفاكيين، والسوفييت، والفرنسيين، والكنديين، قصب السبق في هذا المضمار.

أما على مستوى الوطن العربي، فإن المجامع اللغوية في القاهرة، وبغداد، وعمان، ودمشق، تجري أبحاثا في أسس وضع المصطلحات العلمية والتقنية في العربية.

وفي عـام 1969م أناطت جامعة الـدول العربية مهمة تنسـيق المصطلحات في الوطن العربي بمكتب تنسيق التعريب بالرباط.

أمـا الجامعـات العربيـة، فليس هنـاك جامعة عربيـة واحدة تدرس هـذه المادة الجديدة بالرغم من ضرورتها وحيويتها.

وتقوم المنظمـة العالمية للتوحيـد المعياري في جنيف بعمل واسـع في ميدان أبحاث النظرية العامة لعلم المصطلحات، وينبغي أن يبادر العلماء العرب في جميع الاختصاصـات إلى طـرح الاقتراحات علـى هذه المنظمـة للخـروج بتوصيات تفي بحاجـات اللغة العربية العلمية والتقنية، مما يسـاعد على تيسـير التعاون العلمي بين العربية واللغات الأوروبية، وتسـهيل الاستفادة من النمو المضطرد في المصطلحات الموضوعة باللغات الأوروبية.

والواقع أن إعداد المصطلحات المعيارية يمر بثلاث مراحل هي:

1-دراسـة نظام المصطلحات المعمـول به حاليا في حقل معين، وهي دراسـة وصفية.

2- تطوير نظام المصطلحات: أي تحسـين الاسـتعمال الفعلي للمصطلحات، وهي عملية معيارية.

3- نشـر التوصيـات الخاصة بالمصطلحـات الموحدة المعياريـة التي وضعتها هيئة لها سلطة توحيدية وتعميم استعمالها.

والحقيقـة أن المفاهيـم وأنظمتها قد تختلـف من لغة إلى أخرى، فهي ليسـت بالضرورة متطابقة في جميع اللغات.

وهذه الظاهرة العلمية تشـكل إحدى الصعوبات الشائكة في عملية الاتصال أو تبادل المعلومات على الصعيدين القومي والعالمي.

ومـن هنا كان لابد مـن توحيد المصطلحـات توحيدا معياريـا، ويعني التوحيد المعياري، بصـورة عامة، تخصيـص مصطلح واحـد للمفهوم العلمـي الواحد، وقد سـاعدت أبحاث النظرية العامة لعلم المصطلحات على التوصل إلى مبادئ أساسية تحكم وضع المصطلحات.

ومن هـذه المبادئ مثلا: مبدأ الانطـلاق من المفاهيم والعلاقـات القائمة بينها بـدلا من الانطلاق مـن المصطلحـات للوصول إلـى المفاهيم، ومبـدأ الاقتصاد في اللغة، ومبدأ الأخذ بالاستعمال اللغوي وما جرى عليه العرف من المصطلحات.

وهناك وسائل لفظية حرفية ودلالية (كما هو الحال في العربية) تستخدمها اللغة لتوفيـر المصطلحات الجديدة، وهذه الوسـائل هي: الاشـتقاق، والمجاز، والنحت، والتعريب، والترجمة.

والعربية أقدر اللغات على وضع المصطلحات وتوليدها، واشـتقاقها، ونحتها، وتطويرها، وذلـك للعلاقة القائمة بين الصيـغ الصرفية العربيـة والمفاهيم العامة في الوجود.

ولكن هذه الوسائل ينبغي أن تكون في إطار من التوثيق، أي تجميع المعلومات المتعلقة بالمصطلحات وتسجيلها، ومعالجتها، ونشرها.

لقد اتسـعت هذه الوسـائل في عملية التوثيق المصطلحي-المعجمي، وحدث تطور هائل في المصطلحات العلمية، وانتشـر الحاسب الإلكتروني وأدى إلى إنشاء بنوك المصطلحات التي تعمل على استخدام الحاسب الآلي في خزن المصطلحات ومعالجتها، واسترجاعها.

وقد ظهرت عدة بنوك تخصص كل واحد منها في نوع معين من المصطلحات، وبنوك المصطلحات في العالم مازالت تعد على أصابع اليدين ولكن عددا آخر منها في طور الإعداد.

وبانتظار إنشاء بنك المصطلحات المركزي في الوطن العربي يقوم مكتب تنسيق التعريب بالرباط بخزن المصطلحات العربية في بنك المصطلحات التابع لشركة «سيمنز» في ميونيخ بألمانيا الغربية. كما يقوم معهد الأبحاث والدراسات للتعريب بالرباط بخزن المفردات العربية في بنك المعلومات التابع لوكالة الفضاء الأوروبية في فرسكاني بإيطاليا.

ماذا يعني هذا كله للغة العربية؟

نظرا إلى إقبال الجامعات العربية على تعريب التعليم العالي، الذي يتطلب وضع مصطلحات علمية وتقنية موحدة على صعيد الوطن العربي، لتكون لنا لغة علمية واحدة ضمانا لوحدتنا الثقافية والقومية، فإننا نوصي بما يلي:

أولا: قيام الجامعات العربية بتدريس مادة النظرية العامة لعلم المصطلحات، ومبادئ وضع المصطلحات العلمية والتقنية في اللغة العربية، لا في أقسام اللسانيات، بل في جميع الأقسام العلمية الأخرى.

ثانيا: الإسراع في إنشاء بنك المصطلحات المركزي في الوطن العربي، الذي يقوم مكتب تنسيق التعريب بالرباط بالتخطيط لإنشائه، وذلك للإسراع في عملية تنسيق المصطلحات وتوحيدها في الوطن العربي.

ثالثا: إقامة دورات تدريبية للعاملين في حقل المصطلحات وللذين يستخدمون المصطلحات في نشاطهم الفكري، لإطلاعهم على المبادئ المصطلحاتية والمعجمية التي توضع المصطلحات وفقا لها.

رابعا: تشجيع البحوث في النظرية العامة لعلم المصطلحات والنظريات الخاصة للمصطلحات، لدراسة أنظمة المفاهيم في حقول المعرفة المتخصصة، ليسهل وضع المصطلحات المقابلة لها بطريقة علمية منظمة.

خامسا: قيام الجامعات العربية بالتعاون مع مكتب تنسيق التعريب في المغرب العربي بالرباط ودعمه بالخبرات، والمشاركة في الندوات والمؤتمرات التي ينظمها من أجل وحدة الوطن العربي لغويا وعلميا.

س: في ضوء ما قدمتموه وما قدمه غيركم من دراسات لسانية، هل يمكن القول بوجود نظرية لسانية عربية حديثة؟

ج: أستطيع أن أقول وبكل ثقة: لا وجود لنظرية لسانية حديثة في العالم العربي. ما فعلته أنا هو جهد ضئيل جدا في نقل معرفة جزئية جدا تتعلق بالجانب التركيبي والجانب الدلالي عند العرب القدماء، وفي النظرية اللسانية الغربية، وعلى مستوى المناهج والمواد اللغوية عند كل طرف، ثم حاولت بناء نموذج لساني متواضع يمكنه أن يصف ويشرح التراكيب الأساسية في اللغة العربية.

وبكلمة دقيقة، لقد زاوجت بين نحو شومسكي ودلاليات كوك العالمين اللذين هما على نقيض تام... ثم وضعت هذه المزاوجة في مصطلحات ومفاهيم لغوية عربية قديمة مفهومة. لقد فرشت لهذه المزاوجة المنطلقات الفلسفية العربية القديمة من أجل أن تنطلق منها هذه المزاوجة نحو وصف أفضل وشرح أعمق للتراكيب العربية من أجل حوسبتها في النماذج المعلوماتية-البرمجية للحاسوب، ولا تنسى أن هذا هو غيض بسيط جدا من فيض كبير جدا في اللسانيات. هذا شيء، والشيء الآخر أنني لم أسم أو أطلق على هذا الجهد نظرية وإنما أطلقت عليه «نحو نظرية» والفرق كما ترى واضح، أي أنني أعتبر ما فعلته هو محاولة للانطلاق.. محاولة لنقل اللسانيات الجدية (ببعض مفاهيمها النحوية والدلالية) إلى اللغة العربية وذلك من خلال تجربتي ودراستي التخصصية في الولايات المتحدة لهذا العلم كما هو عند الغرب، ومن خلال تجربتي ودراستي التخصصية في جامعة دمشق لعلوم اللغة العربية. أتمنى من أعماق قلبي أن تتكرر التجربة عند كل الطلاب الذين يريدون التخصص في هذا العلم لتكون الإفادة أعظم وتكون نقلة اللسانيات إلى الثقافة العربية نقلة واعية وحذرة. وبمعنى آخر، إنني أناشد من هذا المنبر كل المسؤولين الأكاديميين من وزراء إلى رؤساء جامعات إلى عمداء كليات إلى رؤساء أقسام أن يوفدوا الطلاب المتفوقين في أقسام اللغة العربية إلى أوروبا أو أمريكا ليتعلموا اللغة الإنجليزية تعلما عميقا، ثم أن يلتحقوا بأقسام اللسانيات ليحصلوا هذا العلم باللغة الإنجليزية، ثم يعودوا إلى أقسام اللغة العربية لنقل ما عرفوه عن هذا العلم إلى اللغة العربية.

س: اللسانيات الحاسوبية وا للغة العربية. المنجز والمأمول؟

ج: تعتمد دراسة العلاقة بين الحاسوب واللغة العربية على جانبين: الجانب النظري، والجانب التطبيقي.

1. الجانب النظري

أ- من المعروف أن الحاسوب الذي ابتكره الغربيون قد صُمم طبقا للغاتهم الأجنبية ومتوائما مع مواصفاتها؛ لذلك تواجه العلاقة بينه وبين اللغات الأخرى، ومنها العربية، صعوبات ومشكلات مردها عدم ملاءمته لطبيعتها وخصائصها.

ومن هنا قامت الدراسات اللسانية العربية بمحاولات جادة لتطويع تقنيات هذا الحاسوب للغة العربية بما يتوافق مع شخصيتها ومحارفها ورسومها من جهة، ولمواءمة قواعد اللغة العربية وخصائصها للحاسوب من جهة أخرى، بادئة ببرمجة الحروف والنصوص العربية، بهدف تحسين الاتصال الآلي بين الإنسان والحاسوب.

ب- وقد تم في مرحلة إدخال اللغة إلى الحاسوب عن طريق الحروف والاستفادة من النتائج الطيبة للدراسات اللغوية التي أجراها العرب القدماء على توافر الحروف في القرنين الثاني والثالث الهجريين باختراع لوحة الملامس؛ حيث لا تأتي الحروف عليها عشوائيا، بل بشكل متواتر مدروس، فعند كتابة حرف الألف مثلا تستخدم السبابة اليمنى لورود هذا الحرف تحتها مباشرة، وهكذا.

ولم تكن هناك صعوبة في إدخال حروف العربية، من حيث عددها البالغ ثمانية وعشرين حرفا، قياسا مع لغة أخرى كالصينية مثلا، لضخامة عدد حروفها البالغ ثلاثة آلاف حرف.

لكن مشكلة العربية في الحروف كانت تكمن في كونها حروفا متصلة، وليست منفصلة كالحروف الإنكَليزية، إضافة إلى أنها تبدأ من اليمين إلى اليسار، عكس اللغات اللاتينية التي تبدأ من اليسار إلى اليمين. كما أن مشكلتها الأخرى تتعلق بالشكل، حيث إن الحركات القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) هي حروف في اللغات اللاتينية: كالفرنسية والإنكَليزية، تأخذ حيزا ومكانا كالحرف، بينما لا يوجد مكان للحركة في العربية. ثم إن الحرف الواحد يتعدد شكله عند إخراجه بالكتابة على شاشة الحاسوب، ففي أول الكلمة له شكل، وفي وسطها له شكل، وفي نهايتها أيضا له شكل، مثل العين، ففي أول الكلمة يتخذ شكل (عـ)، وفي وسطها (ـعـ)، وفي آخرها (ـع، ع).

ولحل مشكلة الشكل في الحروف العربية كان لابد من تبني بعض المبادئ التصميمية، أولها مشروع الباحث المغربي أحمد الأخضر غزال، رئيس معهد الدراسات والأبحاث للتعريب سابقا في الرباط، الذي وضع، من خلال تصميم أنجزه، الحركة بشكل منفصل عن الحرف. فكلمة «كتب» مثلا تكتب هكذا: (ك/ ت/ ب) (*Kataba*). كما صمم طريقة معينة لكتابة الحروف بتوحيد شكل الحرف في بداية الكلمة ووسطها ونهايتها، وإدخال ما يسمى «التعريقة» مع كل حرف من الثمانية والعشرين، فيكون شكل الحرف عنده هكذا: (عـ) حرفا، و(c c c) تعريقة، مع إلغاء الأشكال الأخرى مثل: (عـ ـعـ ع)، وقد اعتمد على ثلاث تعريقات:

L   ∠   C

ب - ت - ث   ع - ـع - ح

ومع تقدم الإلكترونيات أصبح هذا التصميم غير واقعي، فوضع بعض الباحثين تصميما آخر يعرف بـ»معالجة السياق» أي استنباط الحرف من سياق الحروف، وليس من سياق المعنى (*Contextual Analysis*). إلا أنه في الأجهزة الإلكترونية الحديثة أصبح الآن لكل حرف عربي رمز واحد، وهو الحل الجيد للتمثيل العربي عن طريق الدارة، حيث تقول لنا عندما نريد كتابة حرف: ما الحرف الذي قبلي وما الحرف الذي بعدي؟ وبحصولها على الإجابة تعطينا الحرف المطلوب. فمثلا عند كتابة الحرف (ع) تقول الدارة: الحرف الذي قبلي هو (س) والذي بعدي هو (ي)، فتعطينا العين على هذا الشكل: (سعـ) سعي. أما إذا جاء بعدها فراغ فتعطي العين: (ـع) أو (ع).

زرع   مع

ج: ونأتي إلى مرحلة إدخال اللغة إلى الآلة عن طريق الكلام فنجد أن الآلة قد بدأت بالتعرف على الكلام العربي، وفهم الكلام العربي (تركيب الكلام)، والتحدث بالكلام العربي. وقد تمت إنجازات كثيرة في مجال النصوص، لكنها مازالت بحاجة إلى دراسات لسانية تجرى على حروف العربية وتواترها وائتلافها وتنافرها، وعلى

أصواتها وتراكيبها ودلالاتها، مثل:

- أتمتة المكاتب.
- برامج كتابة الرسائل بشكل آلي واكتشاف الأخطاء الإملائية.
- البريد الإلكتروني، وهذا يحتاج إلى تعريب.
- إدخال المعطيات العربية في الحاسوب من لوحة الملامس.
- إخراج الحروف العربية على الشاشة أو الطابعة.
- موضوع الشكل، وقد حلّت مشكلته بإظهار الحروف بشكل يمثلها.
- الإدخال الآلي للحروف العربية، مثل إدخال ذاتية الطلاب.
- الترجمة الآلية من الإنكَليزية إلى العربية والعكس. وهذه تقتضي معرفة لسانية (صرفية وصوتية وتركيبية ودلالية). وتتميز العربية في ذلك عن غيرها من اللغات بنظام موحد ومتماسك غير هجين، فقد حافظت على نظامها البديع الصوتي والتركيبي والدلالي الذي يمكن وضعه في علاقات وأطر رياضية خلافا للغات الأوروبية (اليونانية واللاتينية والإنكَليزية والفرنسية) التي تحوي أفعالا شاذة. وأحسن مثال على ذلك، نظامها الاشتقافي الذي يعتبر مهما جدا للحاسوب؛ إذ نستخرج من الجذر (ح س ب)، مثلا، كلمة «محسب» وفقا لهذا النظام، كما يمكننا استخراج أسماء أخرى كثيرة للآلة أيضا، مثل: (حاسب، حاسبة، حاسوب... إلخ).

  وجدير بالذكر أن مصر والجزائر فيهما مراكز متقدمة في الترجمة الآلية قياسا مع العالم العربي.
- معالجة المصطلح في الحاسوب، إذ يمكن تخزين المترادفات لمصطلح ما في حقل دلالة معين في الحاسوب الذي يساعد في اختيار المصطلح الأنسب الذي لا يتضارب مع ما اصطلح عليه الغير في المجال نفسه، وفي المغرب والسعودية أفضل المراكز لتخزين المصطلح ومعالجته.
- المعجم، وتعدّ حوسبته مهمة جدا في وضعه وتنظيمه. لكنه يفتقر إلى من يقوم بدراسته؛ لأن من يبحث في الاتجاه المعجمي قليل أو نادر في العالم العربي، علما أن هناك معاجم حاسوبية وإلكترونية متنوعة في الغرب

تساعد على السرعة والدقة في إيجاد المصطلح للمفهوم المستحدث.

وأخيرا، يمكن دراسة اللغة المكتوبة بتواتر، كما يمكن دراسة الصوت على المستوى الدلالي والصرفي والتركيبي. فكل هذه الدراسات اللسانية تحتاج إلى جهد وعمق كبيرين، وإلى قياس وتجريد دقيقين.

2. الجانب التطبيقي

في عصر السرعة وانفجار المعلومات وتضخمها اقتحم الحاسوب بتطبيقاته كافة المجالات في الحياة الإنسانية، لاسيما مجال العلوم والفنون؛ وذلك ليسّهل التعامل بين الإنسان وهذه المعارف والمعلومات بما يتميز به من سرعة هائلة في إجراء عمليات مختلفة الأنواع: كالإضافة والطرح والمقارنة إلى حدّ تنفيذ مئة ألف أو عشرة ملايين أمر في الثانية الواحدة، وفي تمكين المرء من الوصول إلى المصادر المختلفة للمعلومات إن كان يحسن التعامل معها ويعرف لغاتها (*Language Programming*).

وينقسم الحاسوب حسب الوظائف التي يقوم بها إلى نوعين:

1) حاسوب نسبي أو حاسوب بالقياس (*Analog*).

2) حاسوب رقمي (*Digital*).

وما يهمنا هنا هو الحاسوب النسبي لتعامله مع عمليات المقاربة بين قيم رياضية رمزية، ومقارنة ما يطلب فيه واستنتاجه. وتعد اللغة قمة العلوم الإنسانية، كما يعد الحاسوب قمة الأجهزة الإلكترونية الحديثة، ولاشك أن التقاءهما يمثل ثورة هائلة في حياة الإنسان. كما أن التقاء علم اللسان مع علم الحاسوب ولّد ما يسمى بـ«علم اللسان الرياضي» (*Mathematical Linguistics*)، وله مستقبل واعد جدا أكثر من أي فرع من فروع علوم اللسان الحاسوبي؛ لأنه يطرح لنا فكرة قديمة حديثة فلسفية ذات أبعاد عميقة، وهي إمكان إيجاد علاقة متبادلة بين العلم الدقيق والأدب، أو بين المقاييس العلمية والمقاييس الفنية، وذلك من خلال معالجة الموضوعات التالية:

أ- الترجمة الحاسوبية

ويقصد بها الترجمة الحاسوبية بين اللغة العربية واللغات الأجنبية التي يلعب

فيها علم اللسان الرياضي دورا مهما ببحثه عن علاقات متشابهة بين اللغتين المراد ترجمة إحداهما إلى الأخرى بعد قيام الحاسوب عن طريق تقنيته المسماة بـ«مترجمات ذات المستوى العالي» (*High level translators*) بتحويل المعلومات الابتدائية التي تدخَل إليه بإحدى اللغتين (*Input*) إلى محوّل ثان يسمى (*Binary converting*)، ثم تدخل بعده في ذاكرة الحاسوب بشكل رموز، ثم تخرج منها بعد عملية تحويل أخرى إلى لغة أخرى غير لغة الدخل (*Input*) شرط أن تكون اللغتان مبرمجتين معا.

وتتضح أهمية دور علم اللسان الرياضي في الترجمة الحاسوبية في اختلاف وضع اللغة المراد ترجمتها عندما تجاوز نفسها لتخرج إلى لغة أخرى كلغة المجاز؛ ذلك أن أي لغة لا تعد تعبيرا مباشرة عن الإنسان والكون فقط، بل هي تعبير عن الوعي الاجتماعي للأمة، وتعتمد بلاغة الأمم ومجازاتها على مفهوماتها في الحياة بكل أطيافها من نظرات واعتقادات وعادت وتقاليد، ومن تأثير الطبيعة في هذه الأمم وما أشبه ذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف نستطيع -نحن العرب- تطويع علم اللسان الرياضي لخدمة لغتنا العربية؟ وبعبارة أخرى: أين المعاجم الحاسوبية المتنوعة والبحوث الحديثة التي عالجت مجاز اللغة العربية حاسوبيا ورياضيا؟ وهل نكتفي بما ألّفه الزمخشري -على سبيل المثال- في معجمه (أساس البلاغة)؟

ب-المقارنات المتنوعة للحاسوب النسبي

تتضح أهمية وظيفة الحاسوب النسبي في إجراء المقارنات خلال استخدام التجربة الأوروبية لها في حل مشكلة الإنجيل؛ حيث تم العثور على عدد من الأناجيل في الآونة الأخيرة تختلف فيما بينها اختلافات صغيرة بالزيادة في بعضها والنقصان من بعضها الآخر لأسباب لا نعرفها. وبقيام الحاسوب النسبي بإجراء مقارنات جبّارة بين النسخ المختلفة بصورة سريعة للغاية تبينت الزيادات والنقصان من خلال هذه المقارنات، واتحدت صياغة الإنجيل إلى حد ما.

ومن هنا يمكننا الاستفادة من مقارنات الحاسوب النسبي المتنوعة أيضا في حل إشكال الاختلافات بين النسخ المختلفة للمخطوطات ولكتب التراث؛ كالمقارنة

بين ديوان أبي نواس الصادر عن دار صادر مثلا، وعن الديوان نفسه الصادر عن دار المعارف، ولاسيما إذا تذكرنا أن الكتب والدواوين كانت تنسخ يدويا في وقت من أوقات التاريخ على أيدي من عرفوا بـ«النساخين» الذين قام بعضهم بعمله بدقة، وبعضهم كان يشرد قليلا، وبعضهم الثالث كان يستغرق في الشرود، إلى جانب التحريف والتصحيف وما إلى ذلك من أمور أخرى.

وهناك سؤال يطرح نفسه في هذا المجال: كم من النسخ لكتب التراث العربي الإسلامي في المكتبة العربية الهائلة ينتظر التحقيق والتمحيص وإعادة النظر على نحو سريع وعلمي ودقيق؟

إن الفوائد التي يمكن أن نجنيها من إجراء البحوث اللسانية الحاسوبية النسبية المقارنة تتجلى في:

- الكشف عن المنبع الأصلي لمصدر من المصادر القديمة.
- إزالة الإضافات وتصفية النصوص.
- توضيح شخصية المؤلف من خلال الحوادث المحيطة به.
- توضيح التاريخ.
- تقديم خدمة جلّى للمصلحة التاريخية العامة.

س: ما هي أهم أعمالكم المستقبلية؟

ج: هناك أعمال لم تنشر بعد وهي قيد الدرس والبحث منها مثلاً: مشروع كتاب حول (اللسانيات وتحليل الخطاب المنطوق والمكتوب) ومنها أيضاً مشروع كتاب (التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة)، وهناك مشروع لكتاب آخر يدور حول (التفكير اللغوي عند الموسيقيين والملحنين العرب في ضوء الصوتيات المعاصرة)، أما المشروع الأخير فهو يدور حول (التفكير اللغوي عند الفلاسفة العرب في ضوء العلاقة القائمة بين اللسانيات والمنطق في العصر الحديث).

الدكتور مبارك حنون

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: قد تبدو الإجابة صعبة بالنظر أولا إلى مدى صحة هذه المصادرة، صحيح أن اللسانيات قد طورت مناهجها وأدواتها التحليلية وعرفت، وهي تكد من أجل أن تبحث لنفسها عن وضع *Statut* داخل العلوم وعن مشروعيتها بينها، كيف تستفيد وتنمي هذه الاستفادة من مختلف العلوم الدقيقة والاجتماعية والإنسانية وتستعير منها أدواتها المنهجية وفرضياتها. وبالنظر إلى التطورات الكبرى التي عرفتها اللسانيات التي جعلتها تصبح العلم المؤطر لعدد من العلوم والعلم الذي فتح آفاقا رحبة لعلوم أخرى ومجالات في البحث وحقولا معرفية ما كانت تقارب وما كانت المقاربات تنجح في تناولها. لقد ردت اللسانيات الاعتبار للعلوم الاجتماعية والإنسانية ورفعتها إلى مصاف العلم بمعناه الدقيق. ويعرف تطورها فرض نمذجتها على باقي العلوم. ومن جهة ثانية، يشتد عود اللسانيات ويتعزز موقعها وانعكاسها في العلوم بسبب مساءلتها النظرية والمنهجية لنفسها، مساءلة تعيد النظر في الأسئلة والفرضيات والمنهجيات وتبني الأطر النظرية بناء على المعطيات اللسانية المتراكمة والمتنوعة.

لكن تأثير اللسانيات في العلوم الأخرى يبقى، مع ذلك، محدودا وذلك بسبب تعاون العلوم وتداخلها واستفادة بعضها من بعض. فمن الأكيد أن اللسانيات قد استفادت إلى حد كبير وما تزال من علم النفس المعرفي الذي يمكن القول بأنها مدينة له في أكثر من باب. مثلما استفادت اللسانيات من حقل الإعلاميات. ولعل هذا كله وغيره هو ما فتح أمامها باب التطور والتجديد في المنهج والمقاربة والثراء النظري والمنهجي.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: لا شك أن العرب قد عرفوا تأخرا في مجال مواكبة البحث اللساني والإسهام في تطويره. وحينما انخرطنا في هذا العلم اقتصرنا على الترويج، وبعمومية، لنظريات ولم نسمح لأنفسنا بالانفتاح على نظريات أخرى تعتبر تجاوزا علميا لما سبقها. وهنا يكمن سبب ثان من أسباب تأخرنا في الاشتغال بهذا العلم، وقد التبس علينا سؤال الحداثة بسؤال الأصالة وراودتنا أفكار الهوية وثراء التراث العربي القديم، وهو تراث قوي بحجمه ومجالاته وقدسية مواضيعه وقضاياه وطرق معالجتها واجتهاداته التاريخية. ولأن الأمر يتطلب تصورا ومنهجية عمل، ولأن ذلك لم يكن ليتأتى، فقد تولد عن ذلك تياران عايشا تراث الحداثة: التيار المناهض للسانيات الذي اعتبرها لا تعدو أن تكون خليطا من فقه اللغة والنحو والصرف. في حين تم إبعاد علم التجويد والقراءات القرآنية والبلاغة والتفسير وعلم الكلام والموسيقى والفلسفة وغير ذلك... والتيار الثاني ينحو نحو التوفيق بين التصور الحداثي والتصور التراثي المنغلق على نفسه. وظهرت في هذا السياق أفكار غريبة مناهضة للتطور الفكري للإنسانية من قبيل أسبقية العرب في هذا الأمر أو ذاك، واجترار أفكار غير علمية من قبيل النظر إلى اللغة العربية بمعزل عن قوانين باقي اللغات والتصور الكوني أو الكلي للأنحاء بمعناها العام. وهكذا أفرز ظهور اللسانيات في الأقطار العربية ردود فعل متباينة ومعالجات متنوعة قاعدتها الخلفية عدم وجود سند معرفي لهذا العلم الجديد. وهو ما يعني أن توطين اللسانيات لم يتم وفق سيرورة معرفية طبيعية وحركة فكرية حداثية شمولية، وهو ما يكاد يدفعني إلى القول بغربة اللسانيات بل وأحيانا غرابتها في المساحات الكبيرة للفكر العربي.

وإذا كان واقع الحال على ما ذكرنا، فإننا نذهب إلى خلاصة مفادها تأخر استيعاب اللسانيات وتمثلها على النحو الصحيح مع ما يصاحب ذلك من تحديد مجال تدخلها ومفعولها. ولم يصاحب ولوج اللسانيات المنظومة الفكرية العربية مخطط يقضي بنشر الفكر اللساني والتعريف به وباتجاهاته في أفق توسيع قاعدة القراء والمهتمين وإثارة العلوم المجاورة للاستفادة منه. بل إن الأبحاث العديدة

التي عرفها الوطن العربي غلب عليها الجانب النظري بدل التوازن بينه وبين التطبيقي، فضلا عن عدم إدماج علم اللسانيات في التدريس بمختلف الأسلاك التعليمية بكل من الثانوي والعالي أي تدشين الصلة بين اللسانيات والبيداغوجيا. ومن الطبيعي أن تتخلل البدايات الأولى لإدخال اللسانيات إلى الأقطار العربية فوضى في المصطلحات وصعوبات في الفهم وفي التطبيق. فقد اتسمت الترجمات بالقلة وبالضعف مع تعدد المصطلحات المقترحة وضعف التمثل وضعف المعرفة للقديم التي كان بالإمكان توظيفها بعد تمريرها في مصفاة الزاد النظري الحديث. هذه، في رأيي، كلها عوامل حدت من مفعول اللسانيات في الثقافة العربية.

وإذا ما نحن استحضرنا حصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية أمكننا القول بأن العرب لم يضعوا خطة لبحثهم العلمي في مجال اللسانيات، وهو ما جعل الأبحاث فردية النزوع والاهتمام وإذن، ذات نتائج محدودة. نعم لقد تعددت الأبحاث العلمية بداخل الأقطار العربية وبخارجها في كل من فرنسا وإنجلترا وروسيا وأمريكا وكندا وبلجيكا وألمانيا... وتوزعت بين التخطيط اللغوي والدراسات الإبستمولوجية والتاريخية والمقارنة والحاسوبية واللهجية والعلاقات بين الفصحى ولهجاتها ودراسات الأنساق الصوتية والصواتية والتركيبية والدلالية والتداولية منفردة أو متداخلة علاوة على الدراسات اللسانية الاجتماعية واللسانية النفسية... وتناوبت النظريات المختلفة والمتفاوتة الحيز الفكري المشغول على الوقائع اللغوية المتعددة... ودائما خارج أي مخطط قومي متوافق عليه. ولم تستطع التنظيميات اللسانية التي أحدثت في هذا القطر أو ذاك أن تخترق الحدود القطرية وتجمع الباحثين العرب المختلفي الآفاق التصورية للنظر في قضايا تخطيطية من هذا النوع.

وأشد ما أزعجنا في هذا الباب هو البحث الذي نقوم به في مختلف الدول الأجنبية، أهو بحث لنا أم لغيرنا؟، فالأبحاث المعدة خارج الوطن العربي لا تكاد تستفيد منها جامعاتنا وطلبتنا، ودروس أساتذة اللسانيات وأبحاثهم لا ترى طريقها إلى النشر، بل الأدهى أن معظمها مكتوب بلغات أجنبية ولم يتجشم أصحابها عناء نقلها إلى اللغة العربية ولا تقديمها في أي شكل إلى القارئ العربي.

نعم هناك ركام من المعارف الشديدة الأهمية، لكنها لا تشكل في نظري ما قد يجعل منها عطاء لسانيا شديد الوقع في مؤسساتنا التعليمية وفي منظومتنا الفكرية للأسباب التي ذكرناها أعلاه. نعم هناك حضور للسانيات في الثقافة العربية ولكنه حضور غير مؤسس له وأخشى أن تنقلب عليه أفكار الإيديولوجيات الظلامية المتعددة تلاوينها.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم اللساني لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك- بحسب بحث قمنا به في هذا المجال- غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية... إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها.

ج: هذا هو ما ذهبت إليه وما أوضحته في سؤالكم السابق. وتلك ملابسات التلقي التي لم تسهل عملية مواكبة المستجدات في مجال اللسانيات. بل إني أذهب إلى القول بما يشبه القطيعة التي حصلت ونمت بين نخبة من الباحثين والرواد في اللسانيات وبين جمهور الطلاب والباحثين الشباب وعدد من المثقفين الذين لم يصلهم من اللسانيات إلا النزر اليسير. ربما يعود ذلك أيضا إلى اللاتواصل القائم بين علومنا وعلمائنا وإلى عدم اعتبار اللسانيات علما ضروريا بل ومدخلا لتصحيح النظام الداخلي لعلومنا.

س: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: يزخر البحث اللساني العربي بقمم غطت الوطن العربي برمته ومختلف الأطر النظرية المعروضة في السوق اللسانية ومختلف مجالات البحث. وهو ما يعني أن بالساحة اللسانية أبحاثا رائدة في مختلف مجالات الدراسة اللسانية. لكن ليست لدينا مجلات ونشرات تتابع هذه الأبحاث وتعرف بها وتفتح باب مناقشتها

والمشاركة في التعقيب عليها، أي غياب بيئة علمية مفتوحة تحتضن البحث اللساني وتخصه بالتشجيع وإحداث آليات التعريف به. هناك أبحاث عديدة لعدد من شبابنا الباحثين الذين يكتبون باللغات الأجنبية ومنهم من أسهم إسهاما أساسيا في صياغة نظريات جديدة في الصواتة وفي التركيب وفي الصرف... هؤلاء يكاد العالم العربي، وأساسا القطر الذي ينتمون إليه، لا يعرف عنهم شيئا. وحينما لا تواكب هذا العمل العلمي الرائد عملية تواصلية علمية يبقى التراث، والأبحاث التي تقرأه قراءة تقليدية، بحجمه وبشموخه وشموخ بنائه ودوره محرجا ورائدا في زمن غير زمان إنتاجه. وبطبيعة الحال، تبقى بذلك اللسانيات مهمشة في الحياة العلمية للغة العربية.

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصه المعادلة: النحو ≠ اللسانيات، التراث اللغوي العربي ≠ اللسانيات؟

ج: جيلي عاش هذا الانشطار وهذا الصراع الوهمي، وهو صراع غير علمي، هو صراع مناهضة اللسانيات من قبل قادة الفكر التراثي. وقد كان إدراج اللسانيات في الجامعة المغربية مثلا إدراجا لا يرعاه أي تصور. فقد أضيفت مادة اللسانيات ومستوياتها إلى مواد النحو والصرف وفقه اللغة والقراءات القرآنية. هذا الخليط التصوري شوش على اللسانيات وعلى وحدتها ووضع تعارضات وهمية بين اللسانيات وتلك المواد، فكان أن تشيع الأساتذة والطلبة بين مناصرين للسانيات ومناصرين للتراث اللغوي العربي. هذا تجل آخر من تجليات الدخول السطحي للسانيات إلى الثقافة العربية.

ولم تتمكن النخبة من اختراق هذا التصور مثلما لم تتمكن من اختراق وضع آخر رسم حدودا وهمية داخل اللسانيات. ذلك أن كل شعبة من الشعب اللغوية بالجامعة المغربية (الفرنسية والإنجليزية والألمانية والعربية...) قد احتوت داخلها لسانيات لغتها. هذا وضع آخر أرعن، وهو وضع لم ييسر تعاون اللسانيين وتضافر جهودهم والتعرف على أعمالهم في هذه اللغة أو تلك... ولا يبدو أننا قد خرجنا من عنق الزجاجة هذا الذي زج بنا في تعارضات كاذبة وباطلة ومعرقلة لتطور اللسانيات والبحث فيها.

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: منذ بداية عصر النهضة الحالي والعربية لا تعرف مثل شعوبها ودولها سوى التحديات الرهيبة. وكما تعلمون، فوضع العربية مختلف من قطر إلى قطر... أنا لا أعتقد أن العولمة بقادرة على ابتلاع اللغة العربية على الرغم من الأوضاع المزرية التي تعيشها، وهي أوضاع تعكس أوضاع دولها. قد تعرف تضييقا عليها وتنكيلا بها خاصة إذا عرفنا أن العرب لم يبلوروا تصورا موحدا يحدد وضع العربية في عصر العولمة وخطة اعتراضية للنتائج السلبية لهذا النظام الجديد. قيل في محاولات تنظيرية للعولمة بأن لغتها هي الإنجليزية وبأن مجال استعمال اللغات الأخرى سيتقلص إلى حد كبير... وأنا أعتقد، وفي اعتقادي أمل، والتاريخ تصنعه الآمال أيضا، أن اللغة الإنجليزية مهما توسعت واحتوت ما احتوت من ثقافتنا وخصوصياتها تبقى عاجزة عن احتواء برمجتنا الرمزية والثقافية وتمظهراتها السلوكية والاجتماعية.

إن رد فعل الدول والشعوب المستضعفة والمثقفين ورجال السياسة الحالي- دفاعا عن الهوية الثقافية واللغوية ودفاعا عن الموقع السياسي والاقتصادي- يؤشر إلى أن بعض المفاهيم سيطول عمرها ومفعولها فينا، بل إنها قد تعيش مرحلة ازدهار وانتعاش وستشكل رمزا كبيرا في سوقنا الرمزية، لأنه سيتوسع ليشمل ما لم يكن يشمله في السابق. وفي ضوء ذلك، أتصور أن الكثير من إشكالياتنا السياسية والفكرية والثقافية واللغوية ينبغي أن تعاد صياغتها أخذا بعين الاعتبار نظام العولمة ومستجداته.

السؤال الكبير والخطير الواجب طرحه هو الآتي: بأي وضع لغوي نستقبل ما يسمى بعصر العولمة؟ وبأي وعي لساني نلج هذا العصر؟ أهو وضع (ووعي) لغوي متأخر أم متقدم؟ وهل يسمح أو لا يسمح بالتحديث؟ وما دور اللغة (ات) في التحديث؟ وبأية لغة (ات) ننجز هذا التحديث؟ وكيف حال اللغة (ات) التي

يراد لها أن تحدِّثنا؟ وهل عمل كل ذلك التراكم اللساني العربي والمغربي على بدء لبنات التحديث؟ هذه هي الأسئلة الموجهة التي تتوجب الإجابة عنها.

أعتقد أن العربية، وهي تقاوم من أجل بقائها، يجب أن تعمل من أجل بقاء اللغات المتعايشة معها في ما يمكن تسميته بتحالف لغوي مواطني. وهو ما يعني الإكبار بمفهوم التعدد. إن التعدد الذي لا يقوم على ما سماه عبد الكبير الخطيبي بـ«السلم اللغوي»-وأضيف إليه «السلم الثقافي»- بين كل اللغات المستعملة (بين كل الثقافات) في البلدان العربية. وهذا السلم اللغوي نعتقد أنه يجب أن يقوم على تحديد دور اللغات في محيطنا.

صحيح أن للتعددية اللغوية كلفة وثمنا، إلا أن استحضارها لا يعني تغييب طرفها الآخر وهو الفائدة. وأعتقد أنه من الخطإ تبني النزعة الاقتصادوية في أمور الثقافة واللغات، فلا تحق الدعوة إلى التقليل من النفقات أو ربح الوقت، فكم من تقشف كان استهتارا بالمصالح الحيوية وكم من ربح للوقت كان مضيعة لما هو أهم من الوقت، وأقصد الكيان والهوية. ومؤدى هذا الكلام البحث عن فحص التوازن بين الكلفة والفائدة وإقامته. ولا يعني أن لهذا التصور صلة بالمال، بل المقصود هو توضيح البدائل والمقارنة بينها للتوصل إلى أي فعل سينتج الفوائد الكبرى بأقل كلفة، والتفكير في النتائج الممكنة للمخطط والتفكير في الكلفة والفائدة معا والعلاقة بينهما، والنظر في ما إذا كانت الفوائد تبرر الكلفة.

إن التعدد شرط للوجود وشرط لوحدتنا وللضمير الجمعي والفردي على حد سواء، وهو منبع صلابة المعرفة وثرائها ومصدر لثراء الرموز والدلائل وصناعتها. إنه الرقعة التي تجمع فسيفساء (بالمعنى الجميل للكلمة) من الثقافات وتعددية من اللغات وتنوعا من صيغ التفكير. وبذات الوقت، تعتبر الوحدة شرطا للوجود ولتعددنا ولتمايزنا.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

هناك أكثر من فجوة بين اللغة العربية واللغات الأخرى «المتقدمة» معلوماتيا، وفجوة بين عربية المغرب وعربية مصر أو لبنان على هذا المستوى. على مستوى

الإعلاميات أيضا ليس هناك تنسيق بين العلماء والخبراء على مستوى البلدان العربية... وفي حدود علمي هناك مجهودات كبرى في المشرق العربي قلصت إلى حد ما ما يسمى بالفجوة الرقمية. ذلك أن العربية قد اقتحمت مجال الاتصال الرقمي وظهرت أبحاث ودراسات في اللسانيات الحاسوبية. فتقليص الفجوة يستدعي تعميم تكنولوجيا الإعلام والاتصال وجعلها آلية ضرورية لا فقط للاتصال بل ولتطوير البيداغوجيا والبحث العلمي بل والمقاربات والتصورات... والهندسة الإعلاميائية إما أن تكون مكونا في الفكر وإما لا فكر... ولعل هذا هو ما قد يسائلنا حول صلاحية القول بريادة اللسانيات في زمن الإعلاميات...

س: **لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانية؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟**

ج: صحيح وضعنا اللغوي معقد واللغات المستعملة فيه لم تحدد بعصور استعمالها... إذ نكاد نقول بأن اللغات المستعملة في مختلف الحقب التاريخية لا تزال تعيش بين ظهرانينا.. ففي الاستعمال اللغوي نجد كل العربيات التي ذكرت: عربية قديمة أو عدد كبير من ملامحها، وعربية معاصرة تخلت عن بعض الملامح وتأثرت في بعض ظواهرها بلغة أجنبية ما أو بلغات... وعربية وسطى... وعربيات دارجة... أحيانا لا تتداخل هذه اللغات بقوة في الاستعمال... هذا الوضع وضع مشوش إلى حد ما... لذا لا نجد في معاجمنا معجما تاريخيا ومعجما وصفيا للغة العربية المستعملة اليوم، مثلما نجد دراسات للغة العربية القديمة أو للغة العربية المعاصرة أو للهجات العربية أو للعربية الوسطى... هذا الوضع مميز للغة العربية ومميز للباحثين في مجالاتها... وأعتقد أن الاتجاهات أو التيارات أو المجموعات العلمية تتخذ العربية، في مستوياتها التي ذكرت، موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها... فهي تعكس هذا الواقع الذي تم تشخيصه ورصده.

س: **كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟**

ج: لا أتصور تطورا للغة العربية دون تحرير محيطها ومجالات الاستعمال

اللغـوي الذي تملأه في المغـرب اللغة الفرنسـية على الرغم من تخلفهـا في متابعة التطـور العلمي والتكنولوجي... المحيط غير سـليم، لأن التخطيط اللغوي للمغرب وربما فـي الأقطـار العربية لم يتـم بعد علـى النحو المطلـوب... وقد ذكـرت، منذ قليل، أن اسـتحواذ الفرنسـية أساسـا على الحاسـوب، بالمغرب، لم يسـمح بتطوير الاسـتعمالات الحاسـوبية للغة العربية ولمنطق هذا الاسـتعمال الحاسـوبي كما هو حاصل في عدد من دول المشرق.

س: ما دور المجامع اللغوية فــي النهوض بـالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: من الطبيعي أن يكون للمجمع اللغوي دوره الكبير في توحيد التصور حول وضع اللغة ومجالات اسـتعمالها وتطويرها فيـه والتخطيط اللغوي واتخاذ القرارات الخاصة بوضـع الألفاظ والمصطلحات وترسـيم تراكيب وألفـاظ وصرافات وجمع للمتـداول مـن الألفـاظ والتراكيب وطـرق النطـق والتوظيفـات الإيقاعيـة... وذلك بالاسـتفادة من التجـارب الأجنبية مع ما يتطلبه ذلك من وضع سياسـة لغوية نشـطة لا فقط فـي البلدان العربية أو الناطقـة باللغة العربية بل وفي البلـدان التي توجد بها جاليات عربية وإسلامية.

ســ: ما هو تقويمكم للترجمات اللسانية العربيـــة؟ وكيف يمكن للترجمة أن تسهم في خلق إشعاع لساني في الثقافة العربية؟

ج: تبقـى الترجمـات العربيـة للكتابـات اللسـانية الغربية ترجمـات ضعيفة في مجملها يخونها المصطلح اللسـاني المختار، وهو يتعـدد بتعدد المترجمين والبلدان التي ينتمون إليها. وقد يمتد الضعف ليشـمل العبارة فيتم التشـويش على المعنى... لذا، يصح القول بأن الترجمة لم تسـعف في إرساء اللسـانيات في البلدان العربية... وربما يكون ذلك مما تسـبب، جزئيا، في النفور منها. ولا تشـكو اللسانيات وحدها من مفعول الترجمة فيها بل يشكو منها الكثير من العلوم.

أعتقد أن الترجمة قد تسـهم في تصحيح الإشـعاع اللسـاني فـي الثقافة العربية إذا ما اسـتندت إلى توافـق حول المصطلح اللسـاني، وقام بها من اختبر اللسـانيات وأحكم اللغتيـن وفكر في أمر تقريب هـذا العلم إلى العـرب أو الناطقين بها وذلك

بالتمثيل له من العربية...

وفـي كل الأحوال، لم يوضع تصور حول الأسـئلة اللسـانية العربية التي توجه المترجميـن إلى النصوص الواجب نقلهـا إلى العربية. وهو ما يعنـي أن الترجمة قد كانت عشوائية أو مستجيبة لدواع فردية أو مدرسية.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر فـي الغرب قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن، وأن الكثيـر من تلك السمـات كان له تأثير مباشر فـي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري (حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصـا، باجترار قضايا هي في غنى عنها. نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: أعتقد أنه سبق لي أعلاه أن تحدثت عن اتجاهات ثلاث في الفكر اللساني العربي، وهي تعكس، في الحقيقية، اتجاهات الفكر العربـي برمته. وقد أضعنا وقتا ثمينـا في مناقشـة الثنائية التعارضية الباطلـة: الأصالة والمعاصـرة، ثنائية لا تعدو أن تكـون تجليا من تجليـات الفكر الميتافيزيقـي. وقد غطى هذا النقـاش الإيديولوجي على النقاش العلمي الذي أصبح ثانويا وخبا رونقه.

ومـا كدنا نخرج من هـذه الدوامة التـي تحدثتم عنها حتى غزانـا ومن خارجنا الفكر الظلامي الخرافي الذي يعطل اليوم مسيرة اللسانيات والبحث العلمي عموما. وربما لم يكن بد من ذلك لأن الفكر الظلامي نتاج من نتاجات العولمة وتطرفها.

لا بد، إذن، من وقت للخروج من تلك الدوامة... وربما هناك من يشـتغل في صمت تحت وابل من الرصاص الظلامي والعولمي... سيظهر عملهم وسيكون أفيد وأرصن. فالضجيج قد غطى على الصنيع الجميل في هذا المضمار.

س: نجد اليـــوم شبه إجماع على ضعف العربية فـــي مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: لا يكاد يقتصر الضعف على اللغة العربية وحدها بل هو يشمل كل اللغات: العربيـة والفرنسـية والإنجليزيـة... بتعليمنا وفـي مختلف الأسـلاك. وأعتقد أن مرد ذلك يعود إلى عدة عوامل أذكر منها: انحدار نسـبي للمنظومة التربوية، قيما ورسالة واختلال مكانة القيام بالواجب، ووجود مدرسـين لا يحسـنون اللغة التي يدرسونها أو يدرسـون بها (ضعف في التكوين بالجامعة وبمراكز التكوين)، وابتعاد عن الفعل البيداغوجي التشاركي المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى...

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: من المفـروض أن يكون إسـهامنا في اللسـانيات العالمية إسـهاما جد هام لاعتبـارات متعـددة منهـا أن تاريخنـا اللسـاني ورأسـمالنا الرمـزي (تراثنـا اللغـوي بمختلـف روافـده) كان بالإمكان أن يشـكل انطلاقتنا القوية في تأسـيس اللسـانيات والإسـهام الكبير فيها وذلـك بالانطلاق من قـراءة نقدية وتنظيميـة لمعارفنا في هذا المجـال بالاعتماد على الأسـس النظرية للإبسـتمولوجية اللسـانية. فلم تغز السـوق سوى الكتابات التقليدية التي تستنسخ القديم وتريد إحياءه كما هو. وإذا كان إسهام العرب في اللسـانيات العالمية متواضعا جدا فإننا نلاحظ، مع ذلك، انخراطا واسـعا لعـدد مـن باحثينا فـي الكتابات اللسـانية باللغـات الأجنبيـة لكونهـا المدخل الأول والطبيعي للحضور في المشـهد اللساني المعولم. ومن جانب ثان، أعتقد أن حضور العـرب والعربية في النظريات اللسـانية وخاصة في المنعطفـات النظرية التي عرفتها حضـور تؤكـده معطيات نظريـة في النحـو العربي شـكلت قاعدة التحديـد النظري، فضـلا عـن معطيـات ووقائـع لغويـة شـكلت معالم محوريـة فـي تطويـر النظريات اللسـانية: تذكروا معي على سـبيل المثال لا الحصر شومسـكي، وماكارثي وبرينس وأسماء أخرى كثيرة.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما

يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: مما يعترض الكتابة اللسانية من صعوبات المناخ الثقافي غير المساعد الذي لا تكاد تشغل فيه اللسانيات الموقع المهم واللائق بها. ثم إن المجتمع اللساني غير مدني وغير منظم وغير مهيكل ولا يجمعه ناظم. وتضاف إلى ذلك إشكالات البناء الداخلي للسانيات العربية من قبيل المصطلح والتضارب المخيف الذي يعرفه والذي يعيق أي توسع لمجال اللسانيات ومجال نفوذها ومصداقيتها. وتنافر المتن المدروس إذ تكون الأمثلة من القديم أم من المعاصر، واللسانيات الكونية والتنزيلات الخاصة للقواعد الكلية، وضعف تمكن الباحثين العرب من اللغة العلمية ومعرفة عدد من العلوم التي تعتبر دعائم لتصليب المعرفة اللسانية وذلك كالرياضيات والمنطق... والتمكن الجيد من كل النظريات والقضايا المعالجة عند الغرب...

س: **ماذا تقترحون بهذا الخصوص، من الناحية المنهجية تحديدا؟**

ج: في الحقيقة، يكون من المطلوب أولا إحداث جمعيات لسانية تهيكل المشهد اللساني على صعيد كل بلد عربي أو ناطق بالعربية، جمعيات لا تقوم على مبدإ الولاء لهذه المدرسة اللسانية أو تلك، ثم تليها عملية البحث عن مد جسور بين مختلف الجمعيات في البلدان العربية. وفضلا عن ذلك وبالموازاة معه لا يعقل أن تنتعش اللسانيات بدون مجمع لغوي يضم كل الباحثين ويضع تخطيطا لغويا للبلد ومشاريع تنمية اللغة العربية واللغات المتعايشة معها. ومن جهة ثانية، درس اللسانيات يحتاج إلى تأطير ابسيمولوجي ربما أكثر من غيره. هذا هو الأمر الذي بإمكانه أن يعيد النظام والأمن الداخليين لـمنظومة اللسانيات العربية.

س: **ما هي السبل الكفيلة في نظركم بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟**

ج: كان من المفروض أن تسهم اللسانيات في إصلاح اللغة العربية واللغات

المتعايشة معها. لكن الوعي اللساني العربي قد كان وما يزال قاصرا، وما تزال السلطة السياسية المختصة بالتعليم لا تعي خطورة المطلب والتعامل الإيجابي معه. وعلاوة على ذلك، لا مكان للسانيات ولا وضع لها ما لم تفكر في التخطيط اللغوي وتوضح معالم الإيكولوجيا اللغوية وتضع سياسة التعدد اللغوي. وربما نلاحظ جميعا أن مختلف مشاريع إصلاح المنظومات التربوية في البلدان العربية لا تولي للسانيات وإسهامها في ذلك أي دور. فأي تدريس للغة نتصوره خارج إطار العطاء اللساني؟ وأية مناهج وبرامج نضع دون الرجوع إلى أجوبة اللسانيات عن قضايانا التربوية والبيداغوجية؟ وأي كتاب مدرسي وما قيمته إن كان خاليا من اللسانيات؟ وباختصار، فحضور اللسانيات الحديثة في المدرسة -الممهدة للتعليم الجامعي- أكثر من باهت وتتخلله -إن حضر- أخطاء جسيمة. ربما لأن السوق العربية تخلو من كتب تبسيطية للمعرفة اللسانية الأولية، كما أن البحث اللساني الجامعي لا يعتني العناية الكافية بقضايا التدريس.

س: كيف بدأ البحث اللساني في المغرب؟

ج: انطلق البحث اللساني بالمغرب من الجامعة على شكل دروس ومحاضرات وعلى يد أساتذة مغاربة ومشارقة. وكانت البداية، وككل البدايات، تروج للفهم الحاصل للبنيوية في حدود مبادئها الأولى. ولم تعرف اللسانيات انطلاقتها القوية والحقيقية إلا مع الجيل الذي عاد من أوربا محملا بالنظريات الجديدة وبمعارف أعمق وأشمل. هكذا أصبحت اللسانيات تتمأسس في رحاب الجامعة، وقد قاد ذلك الفتح فريق من طليعته الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري والدكتور أحمد المتوكل والدكتور مولاي أحمد العلوي والدكتور أحمد الإدريسي والدكتور أحمد بوكوس وغيرهم كثير... وقد تنامى هذا العمل على إثر نشر الأعمال الأولى وإثر المبادرات إلى تنظيم المشهد اللساني وذلك بإحداث جمعية اللسانيات بالمغرب. وفي الحقيقة، فإن تلك الفترة تحتاج إلى تأريخ. أنا أتذكر أن مختلف الجامعات المغربية آنئذ قد بادرت إلى تشكيل جمعيات للبحث اللساني (لسانيات اللغة العربية: الفصحى والدارجة...) أثمرت عددا من البحوث وقربت الرؤيا والمقاربات وجعلت الأوساط الجامعية تنشغل بهذا العلم الوافد الجديد.

س: ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في المغرب؟

ج: تبدو الحصيلة على المستوى الكمي هامة جدا غير أن أكثر الأبحاث قد ظل حبيس الجامعات الأوروبية والأمريكية أو المغربية. وإذن ظل تأثيرها محدودا جدا. ولم ينشر إلا الجزء اليسير منها، ونكاد نجزم بأن المنقول إلى اللغة العربية والمتداول بين الباحثين ضئيل جدا بالمقارنة مع حجم الرسائل والأطروحات. والنوعي محدود جدا لأن الانتظارات الاستراتيجية من اللسانيات لم تحدد ولم تباشر بمنهجية معرفية وخطة شمولية تغطي مختلف استعمالات اللغة العربية. صحيح أن الكم المنجز الذي يشهد بتطبيق جيد ومبتكر للنظريات الحديثة قد سمح بتقريب دقيق للقوانين التي تنتظم نسق اللغة العربية في شموليته. وأكاد أجزم بأن الحقل الصواتي قد عرف نضجا كبيرا في معرفة اشتغال النسق الصواتي بالمقارنة مع اشتغاله في باقي أنساق اللغات العالمية الأخرى، ربما لأن العربية تقدم أحسن النماذج والأمثلة عن أناقة النظريات الصواتية الحديثة. لكن الصحيح أيضا هو الضعف الكبير الذي لا تزال تعرفه الدراسات الصوتية بسبب عدم وجود مختبرات لهذه الغاية في مؤسساتنا الجامعية، وهو ما قد يحد من النتائج التي انتهت إليها الدراسات الصواتية وذلك بحكم التداخل الوثيق بين الحقلين المعرفيين. ويبقى النقص الكبير متجليا في الكتابات التيسيرية والتعريفية بالمدارس اللسانية الحديثة والتطورات الهائلة التي عرفتها وتعرفها، وهو ما يشكل تحديا كبيرا للجيل الجديد. ومن الطبيعي، ونتيجة لذلك، أن تبقى بيئة اللسانيات محدودة. ومن جانب ثان، يبدو أن البحث الأكاديمي الصرف والمحصور في ما يسمى بمجاله الخاص يجب أن ينفتح على مختلف الممارسات والتعبيرات اللغوية بحثا عن قوانين كلية للممارسة اللغوية وعن كيفية اختلاف هذه الممارسات ودلالاتها المتعددة. ومن جهة أخرى، أود الإشارة إلى أن الأعمال التي أنجزها الباحثون المغاربة قد شملت مختلف المستويات وموضوعات لم تكن مطروقة من قبل: أبحاث في اللسانيات العامة وأبحاث في لسانيات اللغة العربية وتنوعاتها، وأبحاث في لسانيات اللغة الأمازيغية وتنوعاتها، أبحاث في اللغات الأجنبية المستعملة في المغرب، فضلا عن القضايا التي استأثرت بالبحث اللساني في الغرب. وربما تكون دراسات المحيط لا تكاد

تنفلت من تأثير مركز اللسانيات (أوروبا وأمريكا) بحكم المناخ الفكري والثقافي السائد، مع أن لنا أسئلتنا الخاصة بنا.

ويبقى أمر آخر لا نكاد نعرفه، وهو الأهم، ويتعلق الأمر بما يدرسه أساتذة اللسانيات في المؤسسات الجامعية. فمن شأن ذلك أن يقدم صورة عن واقع تدريس اللسانيات وعن الموضوعات المتناولة وطبيعة المعالجات والنظريات الموظفة. فنحن لا نعرف ما إذا كانت النظريات الموظفة في الجامعة تواكب التطور العلمي أم لا، ولا نعرف إن كانت هناك آليات مؤسساتية جامعية نتعرف من خلالها على واقع تدريس اللسانيات بالجامعات المغربية والعربية. والطلبة المتخرجون والحاصلون على الإجازة في اللسانيات لا نعرف إلى أين يجب توجيههم. فتطور اللسانيات بالجامعة متروك على عواهنه لا يخطط له ولا يراقب ولا يقوم. أما مراكز البحث، إن وجدت، فهي تسير على غير هدى ومتحررة من مشاغل أولويات البحث اللساني وقضاياه الرئيسية في سياق السياسة العامة للدولة.

ويمكن أن أشير إلى أمر في غاية الأهمية، ويتصل باللساني المنغلق على لسانياته واللساني المنفتح على بيئته الثقافية والفكرية والسياسية. ومعنى ذلك أن انخراط اللسانيات في قضايا تنمية البلاد ورأسمالها الرمزي الثقافي واللغوي أمر مطلوب وضروري.

هذه حصيلتنا في ما أراه، ومن الأكيد أن أكون انتقائيا بحسب ما يوجه اهتماماتي وما يشغل بالي من أسئلة قلقة يؤرقها الانتظار.

س: ركزتم في مجموعة من أبحاثكم على الجانب الفونولوجي، ما هي أهم النتائج التي انتهيتم إليها؟ وما هو الجديد الذي تضيفه؟ وكيف يمكن الاستفادة منها؟

ج: في الحقيقة، تنوعت مجالات اهتمامي ما بين اللسانيات العامة والسيميائيات والشعرية والصواتة. ومن الطبيعي أن يغلب المكون الصواتي على اهتماماتي العلمية بالنظر إلى تخصصي، فقد كان عملي الأول يدور حول **العلاقة بين الفصحى واللهجات: النسق الصواتي: مثال اللغة العربية**: وقد مهدت له بدراسة للخلفيات الإديولوجية والسياسية في دراسة المستشرقين للوضع اللغوي بالمغرب.

وقـد أفضت هذه الدراسـة إلى تبيـان أن التمثيـل الصواتـي للعمليـات الصواتية في الدارجة يعد تمثيلا وسـيطا للتمثيل الصواتي للفصحى، وهو ما يعني أن هناك علاقة متينة بينهما، وأن العامية بقواعدها تسـلم إلى الفصحى لتتدخل قواعدها وتسهم في تحويـل ذلك الشـكل الصوتي إلى شـكل فصيح، وهـو ما جعلني، فـي ذلك الوقت أي سـنة 1982م، أنتهي إلى نظرية التفصيح التي عاودتها في بحث لي لم يتيسـر بعد نشـره ويدور حول **وضع الهمزة في اللغة العربية**. وتتلخص عملية التفصيح في كون مجموعـة من ظواهـر اللغة العربيـة وقواعدها لا تـكاد تكون معالجتهـا لائقة وأنيقة وسـديدة ما لم يتم إدماجها ضمن منطق المعيارية أو ما نسـميه بالتفصيح. ذلك أننا نعتقد أن منطق التفصيح الذي كان يسـتهدف صناعة لغة مشتركة في متناول نخبة قد فرض شبكة من الإجراءات منها:

- استبعاد استعمالات وقواعد منظمة لها؛
- البحث عن ناظم للاستعمالات المقبولة وللقواعد المنظمة لها؛
- وضع سَنن وإحكام تسنينه؛
- إضافـة قواعـد وضوابـط مـن شـأنها أن تبعـد العربيـة «المسـتحدثة» عن الاستعمال العادي وعن عامة المستعملين؛

ومن الواضح أن التفصيح قد غلب عليه منطق الابتعاد عن الاسـتعمال العامي وسـن الاسـتعمال النخبوي. وقد كان مـن نتائج ذلك أن ظهرت سياسـة لغوية تقوم على ما يمكن تسـميته بـ «**الحذلقة اللغوية**» التي تجتهد من أجل تشـييد حواجز بين «العاميـة» و»الفصحـى». ومن هـذه الحذلقة يمكـن أن نذكر، على سـبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

- إدخال الإعراب في اللغة العربية؛
- البدء بالحرف المتحرك؛
- الهمزة: همزة الوصل وهمزة القطع؛
- وظواهر أخرى...

وقد أسـهمت الرسـالة المحمدية وقبلهـا الشـعر الجاهلي في منطـق التفصيح والتنافـس مـن أجله بين عـدد من النحـاة واللغويين؛ إذ تـم ترسـيخه والتحفيز على

شـق سـبيله وخلق «خيال» علمي يتوخى خلق آليات التفصيح وبنائه بناء متماسـكا، والتنظير له والاجتهاد في التأويل والصورنة وإبداع أشكال التفصيح المراد إدراجها.

ومنـذ عودتي من باريس والتحاقي بسـلك التدريس بالجامعـة كنت قد عقدت العـزم على إصدار كتب تيسـيرية في اللسـانيات والسـيميائيات لم أنجز منها سـوى كتاب (**مدخل إلى لسـانيات سوسـير**) وكتاب (**دروس في السـيميائيات**). وفي إطار سلسـلة الحلقات التي كانت تجمعني ومجموعة من الباحثين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، والتي أفضت إلى إصدارنا مجلة -**دراسات أدبية ولسانية**- والزملاء الباحثـون هـم علـى التوالـي: الدكتـور محمـد العمـري، والدكتـور محمـد الوالي، والدكتـور حميـد لحميدانـي، والدكتور امحمـد أوراغ-كنـت قد التزمت بالإسـهام فـي ترجمة أعمال رأت النور ويتعلـق الأمر بـ**(الاتجاهات السـميولوجية المعاصرة)** لـ**ماريـو داسـكال** و(**فـي الشـعرية**) لرومان ياكوبسـون و(**الشـعرية العربيـة**) لـجمال الدين ابن الشـيخ. كما كان من ثمرات هذا الالتزام المشترك كتابي المعنون بـ: (**في السيميائيات العربية القديمة**).

كما شغلت نفسي بقضايا تأريخ الأفكار اللسانية والمعرفة الصوتية عند العرب القدامـى وقضايا صواتية متنوعـة. وكنت أحرص على أن تكـون أعمالي تدور حول معرفـة مزدوجـة: معرفـة بالنظريـات الصواتيـة الحديثـة، ومعرفـة بالتـراث الصوتي العربي عملا على شـحذ الحس النقدي والخيال العلمي للقارئ والباحث والطالب بمواجهتهم بين نسقين معرفيين: نسق قديم ونسق حديث.

وخـلال فترات إعـدادي لدراسـات حول **الوقـف في اللغـة العربية** وتوسـيعي لمداركي في المجـال النظري، قمت بترجمة عدد من الأعمال مـن اللغة الإنجليزية رفقة زميلين، أولهما الزميل خالد التوزاني رحمة الله عليه، وقد أنجزت وإياه ترجمة عمل سـيلكورك (حول المقطع والنظريـة التطريزية للصرف غير السلسـلي) **لـجون ماكارثـي**؛ أما الزميل الثاني فهو أحمد العلوي، وقـد ترجمنا معا كتاب (**الفونولوجيا التوليدية الجديدة**) لفان در هالست ونورفال سميث و**كتاب** (**الفونولوجيا المقطعية: نـحـو نظريـة توليديـة للمقطـع**) لكليمنتـس، ج.ن. وكايـزر، س.ج و(**الفونولوجيـا المتعددة الأبعـاد**) لـموريس هالي وجان روجي فيرنيـو **و(صواتة عروضية أم صواتة**

مستقلة القطع) لوليام ليبن و(**اختلافات أنماط القواعد وأسسها البنائية**) لستيفن ر. أندرسون.

واسمح لي بأن أعرض عليكم بعض انشغالاتي على شكل محاور:

في اللغة والعولمة:

شغلتني العولمة وانعكاساتها المحتملة على البلدان العربية وعلى وطني، وفي هذا السياق تناولت الوضع اللساني (الثقافي) بالمغرب ومكانة اللغتين العربية والأمازيغية فيه من جهة، ووضع اللغة الفرنسية واللغات الأجنبية الأخرى بالبلاد، من جهة أخرى.

وفي سياق تطهير السجال وإنضاج النقاش على طريق صياغة موقف عقلاني وواقعي اندرجت مساهمتي تلك. ولمحاولة تقريب ما نرمي إليه من الأذهان تناولت هذا الموضوع ضمن إطار ما صار يعرف بالعولمة كنظام فكري وثقافي وما يطرحه علينا من تحديات ومن مهام علمية وفكرية وثقافية حمائية. وقد اقترحت معاودة النظر في بعض المفاهيم المتداولة وذكر آثار العولمة على الثقافة واللغة، ومن ثمة طرح تصورنا لمفهوم المواطنة اللغوية والثقافية، وانتقلنا إلى الحديث عن الجهة ومكانتها في زمن العولمة مع تناول بعض سمات وضعنا اللغوي واقتصاد التعددية اللغوية. وقد تناولنا العلاقة بين العربية والأمازيغية عارضين لبعض سمات التنوع الثقافي واللغوي ومستويات التفاوت بين الثقافات واللغات المستعملة في المغرب مع بلورة ملامح أولية للحل الحداثي الممكن للمسألتين الثقافية واللغوية في بلدنا.

في تجريب الحديث وتوسيع نطاق استعماله:

أنجزت أيضا دراسة عن لسانيات النص. وقد رميت إلى إثارة قضايا تتصل بنشأة اللسانيات وما ترتب على ذلك من خلخلة في علاقات اللسانيات ببعض العلوم خاصة منها تلك التي كانت تهتم بجانب أو مظهر من جوانب أو مظاهر اللغة. وقد حاولنا أن نتبين الوضع الذي أسند إلى الوقائع التي يقال بأن اللسانيات قد أبعدتها-وهل هي أبعدتها بالفعل- هذه الوقائع التي سيوكل أمر دراستها إلى ما يسمى **بعلم النص**.

بدايات تصحيح المقاربات الصواتية: في الصواتة التوليدية الحديثة:

وأنا أعالج العلاقة بين النسقين الصواتيين للفصحى والعامية بالمغرب وجدت نفسي في نفق مسدود وأنا أعالج قضايا متنوعة منها: المد والنبر والإطباق والتضعيف والتليين. مثلما اعترضتني صعوبات في موضوع العلاقة بين القطع الصوتية وتنظيمها الزمني وهرمية أو خطية العلاقة ووضع المفاصل والحدود فضلا عن تقطيع الكلام إلى وحدات أكبر من القطعة أو الفونيم من قبيل **المقطع** و**التفعيلة** و**الكلمة** و**المركب الصواتي والمركب التنغيمي والقول**، فكان أن ظهرت نظريتان من داخل الصواتة التوليدية هما: **الصواتة المستقلة القطع والصواتة الإيقاعية.** وكانت مرة أخرى وقائع اللغة العربية هي التي نبهت ماكارثي إلى اقتراح نظرية الصرف السلسلي التي وظفها أكثر من باحث لتطوير النظرية الصواتية التوليدية التي أصبحت عرف بالنظرية غير الخطية. وفي هذا السياق، عالجت مسألة المد في اللغة العربية انتهيت منها إلى إثبات الاستنتاجات التالية:

1- تأكيد التراث النحوي العربي والوقائع الصواتية للغة العربية أن للمصوتات العربية الطويلة أصلا واحدا، فهي تتكون، في الأصل، من مصوت يعقبه حرف مد يماثله ويجانسه، ومن ثمة. فطول المصوتات يرتبط بالشكل الصوتي-وإذن، فهو طول صوتي لا صواتي.

2- اعتبار المد سكونا لسببين: السبب الأول يكمن في أن حروف المد تتكون من مصوت وحرف مد مجانس ساكن. أما السبب الثاني فيكمن في أن المقطع الذي يرد فيه المصوت وحرف المد يعد مقطعا طويلا أو ثقيلا. وبذلك فهذا المقطع الثقيل يماثل ويساوي المقطع الثقيل المكون من ص مص ص (ص=صامت صحيح). وقد لجأنا إلى العروض وعلم الموسيقى العربيين للبرهنة على مثل هذا التساوي والتماثل، ومن ثمة قدمنا تفسيرا إيقاعيا لهذا التماثل والتساوي.

3- عدم إمكان هذا التماثل التطريزي إلغاء الاختلاف البنيوي العميق بين هذه المقطعين الثقيلين والمتمثل في أن المقطع الثقيل ص مص مص تتكون بنيته المقطعية من صدر ونواة متفرعة، وفي أن المقطع الثقيل المتبقي تتكون بنيته المقطعية من صدر ونواة وقفل. وقد عمدنا إلى وضع تشجير عروضي مناسب لهذا الاختلاف. ومن جهة ثانية، أثبتت هرمية الجهارة تساوي قيمة بروز العنصرين

الأخيرين العميقين من المقطع (مص ع) فيمـا يتصل بالمقطع الأول واختلاف قيمة بـروز العنصرين الأخيرين من المقطع الثاني (مص ص) مع العنصرين الأخيرين من المقطع الأول.

4- اعتبارنـا المصوت الطويل الذي تنشـأ عن مصوت وحـرف مد مجانس له ساكن نواة مقطعية تتكون من عنصرين متلازمين (مص مص) وإذن فهي نواة متفرعة مركبـة تحتل الموقع القوي في بنيـة المقطع، في حين اعتبرنـا مكونات المقطع ص مـص ص (ص= صامـت صحيح) صدرا ونواة مفردة بسـيطة وقفلا، ولـم ننظر إلى النواة والقفل، كما هو معهود في دراسـات بعض الدارسين الغربيين (ماكارثي مثلا) باعتبارهما يشـكلان وحدة هـي القافية التي اعتبرت متفرعة ذلـك لأن المصوت في اللغـة العربية (نواة المقطع) يكـون أكثر ارتباطا بالصدر منه بالقفـل ودليلنا في ذلك التسمية التي أطلقها العرب القدماء على الحرف وحركته وهي «الحرف المتحرك».

5- على خلاف ما أكده ماكارثي وغيره، فإن للعربية مقطعين ثقيلين لا غير،

كمـا عالجت، في السـياق نفسـه ظواهـر صواتيـة عديدة وفـق مقاربة هندسـة الملامح ومنهـا التضعيف والغنة (فـي التناغم الأنفـي) والإمالة والترقيـق والتفخيم وغيرها. كما تمت معالجة الجذور الثنائية.

في الصواتة الزمنية:

وتعتبر هذه الدراسة التي صدر منها الكتاب الأول وسيصدر منها قريبا الكتاب الثانـي ويدور حول التنظيم الإيقاعي للغة العربيـة. والعملان يتناولان ظاهرة الوقف في اللغة العربية.

وتنطلق دراسـتنا مـن اعتبـار وجوب انطـلاق معالجـة الوقف ممـا انتهت إليه الصواتة العروضية في صيغتها المتمثلة في ما يسـمى بالصواتـة المركبية أو المكون الإيقاعي (نيسـبور 1989م، نيسـبور وفوجل 1990م). ولأن للوقف فـي اللغة العربية **مكانـة وعناية خاصتيـن لما له من تأثير مباشـر علـى اللفظ إذ يترك أثـرا خاصا على المتواليـات الصوتيـة الموقـوف عليهـا- وهذا أمـر لا نظير لـه في اللغـات الأخرى باسـتثناء العبرية فيما نعلم**- فقد كان من شـأن ذلك أن يدفَعَنـا إلى أن نعاكس منطق هذه الصواتة قائلين: **إذا كان للغة تنظيم مماثل للموسـيقى، ألا يمكن لنظرية إيقاعية**

أن تعالـج المظهر الصوتي للغة بكافـة أبعاده؟ ألا يمكن أن يكون لهـذه النظرية دور حاسم في تنظيم شـؤون الأقوال؟ وفي هذه الحالة، تكون لكل مكونات النحو أدوار متكافئـة في تنظيـم اللغة. ومن هـذه الزاوية، وأخـذا بعين الاعتبار مكانـة الوقف في التراث العربي اعتبرنـا الوقف جزءا من البنية الإيقاعية يتوقـف على الإيقاع ويتوقف عليه الإيقاع.

ولأن النظريـة المتبناة هي النظريـة الفونولوجية الإيقاعية عنـد ليبرمان وبرينس (1977م) وبرينس (1983م) وسيلكورك (1984-1986م) ونيسبور وفوجل (1986م) وهييـز (1990م)... فلا نعتقـد أن يكون بإمكانهـا أن تمد الباحث باللغـة العربية إلا بالقليـل مما يقوضها. ولهذا **سـيكون مـن الغريب القول بأنها تشـكل الإطار النظري الذي علينا أن نشتغل في إطاره. إنها، في الحقيقة، لا تشكل إلا الإطار العام للعمل، وبذلك تفسح أمام الباحث إمكانات التحرر.**

لقد ظلت الدراسـات اللسـانية الكلاسـيكية للوقـف تنظر إلى الوقـف باعتباره سـلوكا لغويـا مباشـرا وظاهـرة إنجازية. وقد ظـل التركيـب أيضا مهيمنـا في أغلب المقاربـات التـي كان الوقـف موضوعـا لهـا. وادعينـا أن اللسـانيات الكلاسـيكية واللسـانيات الحديثة-علـى الرغم من التقدم الـذي أحدثته في التصـور إلى القضايا اللغويـة وأساسـا القضايـا الصواتية- قد فشـلت فـي حكمهـا القطعـي القاضي بأن الوقف ظاهرة صواتيـة يوظفها التركيب لوضع علامات حديـة فتصير ظواهر صوتية أو تطريزية تضطلع بمهمة الإعلام الحدي، فكان التركيب مسؤولا إلى حد كبير عن توزيع الوقـوف وعن مُدَده. وعـلاوة على ذلك، ظـل حضور الإيقاع حضـورا باهتا يُلجمه التركيب.

وبالإضافة إلى ذلك، ظهر لنا:

- أن الموسـيقى قد كانت من مصـادر علامات الترقيم، ولعـل ذلك قد يعني أن للوقف صلة بالموسـيقى وأن للصموتات رسالة موسيقية. وعلاوة على ذلك، فقد انتهينا إلى أن علامات الترقيم قد كانت توظف لرفع الالتباس.
- أن اللغـة إبداع وتشـكيل فـي الزمن وأن وحداتهـا القطعيـة والفوق-قطعية تتـوزع وتتنوع على مسـتوى الأحياز الزمنيـة، ومن وحداتهـا الفوق-قطعية

الصموتات والسكوتات. وقد عززت الدراسات الصوتية أن نسق حركات النطق والتنفس تخضع لإيقاع تتراكب عليه الصوامت والمصوتات. كما ظهر أن للتقطيع الزمني دوره في رفع التباس مجموعة من التراكيب، وفي الإخبار بالحد التركيبي إما بالوقف وإما بالتطويل وإما بهما معا. كما ذكرت لوهيست (1977م) أن إدراج الوقف طريقة من طرق رفع اللبس التركيبي. مثلما أشار أبيركرامبي (1968م) إلى أن للنبر الصامت وظيفة تضطلع بتمييز البنيات التركيبية الغامضة والملتبسة.

- اللغة منظمة تنظيما إيقاعيا، وتشغل في هذا التنظيم الوحداتُ الإيقاعية الأحياز الزمنية بنوع من التساوي. وما دام الوقف جزءا من اللغة وبعدا من أبعادها الزمنية، ألا يمكنه أن يكون من بين الوحدات الإيقاعية للغة؟
- سبق لستوكويل (1972م) أن ذكر أن الوقف يقع بين النطاقات التنغيمية وأنه باعتباره حدودا لا يتناسب مع الصمت أو غياب التصويت أو المجموعات التنفسية.
- ذهب كارتشيفسكي (1931م) إلى أن الوقف هو الذي يتحكم في التركيب لا العكس..

وقد قادتنا مجمل تلك الأفكار-والأفكار المتصلة بالوقف في التراث العربي وتصوره ضمن أفق إيقاعي، وكذا دراستنا لمختلف العمليات الصواتية المرتبطة بالوقف- إلى معالجة فرضية توجيه الوقف للنحو (تركيب أساسا) ويعني ذلك أن الوقف هو الذي يتحكم في التركيب مستحدثا أبوابا نحوية من قبيل النعت المقطوع والاختصاص والجملة الاعتراضية والجملة الاستئنافية والبدل والكلمة والمركب والكلام والجملة. كما تناولنا مسألة رفع الوقف للالتباس التركيبي إذ بوضع الوقف في مواضع معينة تم رفع الغموض فكان الوقف بذلك مصفاة تطريزية تراقب ما ينتجه التركيب. ومن جهة أخرى، أبانت لنا بعض الأمثلة أن من شأن إدراج الوقف في مكان معين أن يؤسس علاقات تركيبية جديدة فيتسبب ذلك في إحداث الكثير من الوجوه النحوية. كما عرضنا أمثلة من القرآن والشعر يُرَخَّص فيها للوقف بخرق التركيب صونا للإيقاع ورعاية له.

كل هذه الأمور انتهت بنا إلى إثبات الخلاصات الجوهرية التالية:

- كشفت هذه الدراسة عن الطبيعة الإيقاعية للوقف. فهو، إذن، بنية إيقاعية فرعية: إنه يتوقف على الإيقاع ويتوقف الإيقاع عليه. وهو عبارة عن أحياز فارغة أو مفرغة تعقب مجموعات من الأحياز الصامتية والمصوتية. وهي بطبيعة الحال مواقع قابلة لأن تُملأ في الوقت الذي لا يتم فيه الوقف. وذلك لتأكيد التناسب والتعادل بين أجزاء الكلام. إنه يبني الكلام وينظمه تنظيما زمنيا، وهو جزء لا يتجزأ أمنه. والوقوف تتعالق فيما بينها فتخلق نسقا من العلاقات. إنه يسهم في بناء التساوي الزمني والتوازي بين المقاطع والكلمات والمركبات والجمل، مثلما يخلق تساويا زمنيا بين الوقوف ذاتها، وبينها وبين ما يسمى بـ»الكلام».

+ بنية الوقف مجردة: فالوقف ليس زمنا ميتا وليس فراغا. إنه نسق مكون من عدة عناصر ووحدات تنسج فيما بينها علاقات متنوعة. إنه بنية إيقاعية مجردة تتحقق تحققات مختلفة منها: قطع الكلام وفصله؛ وصل أجزاء الكلام؛ توقف أعضاء النطق عن النشاط؛ إصدار أعضاء النطق لأصوات ما؛ تطويل صوت ما. إن الوقف يشغل حيزا زمنيا ضعيفا باعتبار الحرف الأخير (المقطع الأخير) نهاية وحدة إيقاعية، وهي بذلك تعارض بداية الوحدة الإيقاعية التي تكون قوية. لكن الوقف يُحَوّل ذلك الحيز الزمني الضعيف إلى حيز زمني قوي. ويُوَظّف لذلك «إلحاقات» إيقاعية من قبيل الصُّوَيت والنفخ والعمليات النطقية الثانوية والتضعيف وحروف المد واللين والنون والهاء.

+ بما أن الوقف لا يحققه الصمت فقط فمن غير الصائب الحديث عن نقرات صامتة. لذا بدا لنا أن نتحدث في المدرج العروضي عن مواقع فارغة أو مفرغة. وهذه المواقع قابلة لأن تُملأ في حال الوصل.

+ قواعد الوقف قواعد صواتية: إنها قواعد إيقاعية لأنها:1-تتوخى الاحتفاء بخواتيم الكلام من حيث الإبراز والتشديد والتجانس الصوتي؛ 2- علامات على نهاية الوحدة الإيقاعية البسيطة والوحدة الإيقاعية

المركبـة. وهـي قواعـد تعويـض عروضـي تـروم الحفـاظ على النسـق وتوازنـه الضابط لأزمانه القويـة والضعيفة. وهي تشـكل جزءا لا يتجزأ من نسـق القواعد الفونولوجيـة للغة العربيـة إلا أنها وُظّفـت هنا للقيام بأدوار إيقاعية وتناغمية.

+ ميزنـا داخل التنظيـم الإيقاعي بين ما سـميناه بالإيقاع البسـيط والإيقاع المركب. الثاني منهما يشـترط ترسـانة كثيفـة مـن «الأدوات الإيقاعية» يبـدو فيهـا الوقف مهيمنـا ومنظّمـا للأقوال، أمـا الأول فـلا يُوظف إلا القليل من تلك الأدوات فلا تنكشـف حقيقة آثاره علـى التنظيم القولي بالسهولة المطلوبة.

+ على مسـتوى بنية الوقف للغة، تأكدت لنـا فرضيتنا القاضية بأن الوقف منظم للغة ومُهَيْكِل لها. إنه مكون من مكونات الكلام.

+ وذلـك باعتبـار الوقـف كان، مـن جهـة، وراء المخالفـة الإعرابيـة فـي أبـواب مثل النعت المقطوع والاختصـاص والجملة الاعتراضية وجملة الاسـتئناف والبـدل والحـذف والعطـف والتوكيـد والتقديـم والتأخيـر والظرف والتمييز والاستثناء المنقطع والحال والكلمة والكلام والمركب والجملة. فهذه مقولات لا يحددها سـوى الوقف. ولعل هذا الاستنتاج يفيد المرء في ما يتصـل بإعادة تنظيم أبواب النحو أخـذا بعين الاعتبار الظواهر التطريزية وإحداثها للمقولات النحوية. إننا نفتح الباب، بذلك، على مصراعيه للنظر في بناء اللغة الواصفة في النحو العربي.

- قـد تصبـح بعض الجمـل السـليمة تركيبيـا، حـال وصلها، جملا ملتبسـة وغامضة. وبذلك لا يكـون التركيب قادرا على تأميـن العلاقات النحوية. وقد أُسـنِدت تلك الوظيفة إلى الوقـف الذي يتم إدراجـه ليقطع علاقات التعلـق وليربط علاقات كانـت مقطوعة أو مرتخية. ومـا كان الوقف ليقع هنـاك لو لـم يكن التبـاس وغموض، هذا مع أنه عادة مـا يُقال بأن الفصل محرَّم في تلـك المواقع التي اندرج فيها الوقف بسـبب شـدة التلازم بين المكونـات. إن الوقـف يتدخـل، إذن، ليقـوم بتعديـل العلاقـات التركيبية

ويبنينها من جديد. إنه يقوم بالرفع من جودتها التركيبية وكأن الوقف صار مصفاة تطريزية تراقب ما ينتجه التركيب وتقوم بضبطه.

+ يمكن للوقف، حين إدراجه، أن يكسر البناء التركيبي القائم وأن يعيد سبكه من جديد بنسج علاقات من طبيعة أخرى. وبذلك يكون الوقف هو الواضع لهذه العلاقات الجديدة والضابط لتجاورها وتماسكها أو أنه باعث للتركيب على نسخ علاقات وتعويضها بأخرى.
+ تسبب الوقف في إحداث قواعد تركيبية ربما تكون قواعد إيقاعية في جوهرها.
+ ولأن الوقف يُحتفى به لأنه يراد منه الاحتفاءُ بالإيقاع فإنه يُرخَّص له بخرق التركيب رعاية له وهذا ما استوجب الإقدام على القيام بتحويلات تركيبية.
+ الجملة وحدة إيقاعية (بسيطة أو مركبة) وهذا يعني أن بنيتها إيقاعية.
+ البناء النحوي للغة بناء مركب لا يعرف مفاضلة بين مكوناته، وهيكلة هذا البناء تعود إلى عمل متضافر ومتناوب لكل المكونات.

مدخل إلى الصواتة البصرية:

أما الكتاب الثالث من هذه السلسلة فيتناول علامات الترقيم أدرجته ضمن إطار نظري يسمى بـ(**الصواتة البصرية**). وكما تعلمون، فإن علامات الترقيم، على الرغم من إعادة اللسانيات النظر في عدد من القضايا، لم تحظ بما يلزم من العناية بحثا لها عن موقع في الحقل اللساني. ولقد تطلب هذا الأمر جهودا مضنية نظرية وعملية حققت تراكمات انتهت بهذه العلامات إلى أن تجد لنفسها موقعا في اللسانيات.

لكن، بما أن لعلامات الترقيم صلات بما هو صوتي و/ أو صواتي، فقد يكون من الأفيد أن نجد لها موقعا في صواتة يجب أن تبحث لنفسها عن تسمية ملائمة. وإذا كانت علامات الترقيم، باعتبارها نتاجا خطيا، قد ابتعدت عن الصوت لتلتحق بالمكتوب أو بالبصري، فإنها تكون بذلك قد وجدت لنفسها موقعا ضمن ما يسمى بلغة الإشارات *Sign language* .

وانطلاقا من هذا الموقع بالذات، فإن *Linda Uyechi* م (1996) تكون قد

مكنتنا من إطار نظري جديد قد يكون قمينا باستيعاب هذه الظاهرة. فقد تأتى لها أن تبلور ما سمته بالصواتة البصرية.

وهكذا، وإذا عملنا على توسيع هذا الإطار النظري ليشمل كل ما تدركه حاسة البصر، أي كل العلامات البصرية بما فيها الكتابة، فإنه يحق لنا أن ندرج ضمن هذا الإطار النظري علامات الترقيم.

في تأهيل القديم:

ولأن كل معرفة واقع تاريخي، فإن المعرفة الصوتية (الصواتية) لا تنسف ماضيها، لأنها، في ذات الوقت، ذاكرة ومشروع، ولأنها كذلك معرفة متعددة. ولأنها كذلك، فحداثتها تقوم على الحوار النقدي والتفاعلي مع مختلف المعارف الصواتية القديمة في تعدد حقولها. وفي هذا الباب، شغلني، إلى حد الهوس، التراث الصوتي العربي، من خلال نصوص متنوعة في الطبيعيات والموسيقى والتشريح وكتب النحو والتجويد والقراءات...، وبحثت عما يمكنه أن يسهم في تأصيل «معرفي» للصواتة وجعل القديم المعرفي في خدمة الحداثة المعرفية... وقد عملت على أن يكون الاعتناء بمظهر الرسم (الكتابة) وإعادة الاعتبار إليه مدخلا لإدماج هذا البعد في التصور اللساني ويضاف إلى البعد المنطوق وينظر إليهما باعتبارهما وجهين متلازمين ومستقلين ومتكافئي القيمة. ونقصد من ذلك ربط الرسم بالصواتة والكشف عن إسهام في تفسير بعض الظواهر الصواتية. وبذلك نسهم في رسم معالم صواتة بصرية للعربية.

وعلاوة على ذلك، فإن مثل هذا التنقيب المعرفي، فضلا عن كشفه عن صلات معرفية بين الماضي والحاضر في ثقافات وبين ثقافات مختلفة، ينبهنا إلى أن مثل هذا الصنيع، إذا توافرت له المعرفة العلمية الحديثة والزاد الإبستمولوجي المناسب والجرأة الفكرية والخيال المعرفي، يفضي بنا إلى مجموعة من الحقائق، وقد أفضى بنا ذلك إلى الوقوف على صلات علم الأصوات بالموسيقى وقد يذهب بنا التفكير إلى أن هذه المؤلفات تختزل وتكثف ما كتبه علماء الموسيقى وعلماء التشريح. فباتت العودة، أولا، إلى الطبيعيات والتشريح القديمين عودة لا مفر منها من أجل فهم أفضل للمعرفة الصوتية القديمة، ولتجديد المعرفة الصوتية الحالية وتحديثها.

هذا العمل نشـرته موجزا في مقال وأعمل الآن على أن يـرى النور في صيغته الكاملة.

هـذه عموما، هـي المحـاور التي شـغلتنا وتلك هي أهـم النتائـج العلمية التي انتهينـا إليها. آمل أن أكون قد قمت صورة واضحة عنها. لكن ما قدمناه مختزل حدا على مستوى المنجز من الأعمال وعلى مستوى نتائجه.

س: **ما هي أهم مشاريعكم العلمية المستقبلية؟**

ج: أنشـغل، اليوم، بتطوير أفق تفكيري اللسـاني في مجال دراسـة الوقف لأنه يسـمح لي بإعادة النظر في عـدد من البديهيـات، وباعتباره يتيح لـي فرصة التجديد والاجتهاد. مثلما أسعى إلى أن أنهي كتابا عن (النظريات الصواتية الحديثة وتطبيقاتها على اللغة العربية). دون أن يفتر انشـغالي بالتـراث الصوتي العربي القديم ومواصلة تحسـينه وتسـويقه العلمي وتقديمه في أبهى حلة. ومن الأكيـد أن يفضي بي موقعي كمسـؤول في قطاع التربية والتكوين إلى الانشـغال بتنمية وتحسـين تدريس اللغات ومنها اللغة العربية واللغة الأمازيغية وبتأليف كتاب مدرسي في الصواتة المدرسية.

هذه هي أهم مشـاريعي العلمية التي يجب أن يسـبقها نشر ما حدثتكم عنه من أعمال قمت بإنجازها ولم تجد بعد طريقها إلى النشر.

الدكتور محمد الأوراغي

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: : من الوجاهة التساؤل بَدْءاً عن سر انفراد اللسانيات دون باقي العلوم الإنسانية بالاقتراب من العلوم الدقيقة إن لم تكن من ضمنها، وهل لهذا التميُّزُ علاقةٌ باجتذاب اللسانيات للعدد الكبير من المثقفين الباحثين في العلوم الإنسانية عامَّةً. ولعلَّه من المفيد البدْءُ بالشقِّ الأخير من سؤالكم الأول.

يكشف تاريخ العلوم عن ثوابت مطَّردةٍ، في المقدِّمة يأتي ربطُ الجهد الثقافي المنفَق في حقل معرفي بمدى استثمار النتائج المتوصَّل إليها والانتفاع بها في أكثر من ميدان. إذن، على قدر الانتفاع بالعلم يأتي الاهتمام به. ولما كانت اللسانيات عِلماً يتَّخذ من اللغة موضوعاً للدراسة، كما هو معلوم، كان توظيفُ نتائج هذا العلم حيثما استعملت اللغة أداةً للتواصل. فما انتهى إليه سيبويه من بحثه قديماً في العربية توسَّل به المفسِّر حينئذٍ في بيان النص القرآني، والناقد في تحليل الخطاب الفني، والأصولي في استنباط الحكم الشرعي، والمنطقي في تحديد مقدمات القياس، والمتكلِّمُ في تخليص أصول الدين، والمربي في تلقين قواعد العربية، والبلاغي في الكشف عن الإعجاز القرآني، وهلم جرا.

فالاشتغال باللسانيات يولِّد حصيلة من المعرفة اللغوية، وهذه الحصيلةُ تُتَّخذُ آلةً منهجيةً في الكثير من الحقول المعرفية، حتى اضطرَّ إلى الاهتمام بعلم اللغة متخصصون في ميادين أخرى شغلت الناسَ في عصرهم، وانتقل منهم الكثيرُ إلى التأليف فيه وهم ليسوا من أهله. وترتَّب عنه أن ارتفعت نسبةُ المشتغلين بعلم اللسان بالقياس إلى باقي علوم الإنسان.

مما سبق نحتفظ بالحقيقة التالية: إن للسانيات في كلِّ عصرٍ حصيلةً من

المعرفة اللغوية قابلةً لأن تتحوَّلَ إلى آلة منهجية في الكثير من الحقول المعرفية. ولما كانت المعرفةُ اللغويةُ حلقةً في سلسلة المعرفة البشرية داخل ميادين كثيرة كان لابـدَّ من الاهتمام بصحَّة المعرفة القاعدية، لأنه لا يمتنع منطقياً أن يختلَّ ما تولَّد عن مختلٍّ.

ولعلَّ أهم ميزةٍ طبعت المعرفة البشرية في العصر الحديث هو تخلُّصها التدريجي من «المعرفة العادية» المتولِّدة عن الاستعمال المباشر للملكات الذهنية، لفائدة «المعرفة النسقية» التي تَنتُج عادةً عن استعمال أجهزة مفهومية تُصنَع مسبقاً للتقيُّد بتعليماتها من لدن كل باحثٍ ينظرُ في حقل من الموضوعات المتجانسة. من خصائص المعرفة العادية كثرةُ الخلاف وقلَّةُ الصواب، بينما المعرفة النسقية تختصُّ باليقين وإن لم يُصادف حقّاً.

ومن المعلوم أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تميَّزت اللغة دون باقي العلوم الإنسانية بمقاربة لم تَعْهدها من قبلُ، إذ لأول مرَّةٍ صارت اللغة تحت أنظار باحثٍ سويسري، ورث عن آل سوسور ذهنيةً علمية لاشتغال أجيال منهم بالعلوم الدقيقة خاصة، ثم تلقَّى تكويناً عميقاً في علوم طبيعية وفيزيائية وكيماوية، وتشبَّع بالتوجُّه النسقي العام الآخذ وقتئذٍ في التبلور والانتشار داخل الكثير من الحقول العلمية. كلُّ ذلك مكَّنه من أن تكون له مشاركةٌ قوية من ميدان اللغة في إقامة جهازٍ مفهومي قادرٍ على حلِّ مشاكل معقَّدة في مختلف حقول العلم وميادين الصناعة.

وبفضل نظرة سوسور إلى اللغة، بوصفها كياناً يتألف من عناصر متآزرة تتحـدَّدُ من الموقع الوظيفي لبعضها عند البعض الآخر داخل كلٍّ في غاية الانتظام والاتِّساق، صارت اللغة مشمولة **بنظرية الأنساق العامة** التي تأسَّست على يد فون بِرْتَلانْفي في منتصف القرن الماضي من أجل المقارنة بين الأنساق الحقيقية، وعادت اللغة كغيرها من الظواهر المعقدة تُعالج معالجةً نسقية، ويتأتى وصفها بلغة رياضية، كما في اللسانيات الرياضية.

وباختصار شديد لما أُخذت اللغةُ في العصر الحديث على أنها نسقٌ مفتوح يتفاعل مع باقي الأنساق المحيطة به تأتى للسانيات أن ترتقي إلى مستوى النظرية

بالمعنى الدقيق، وعندئذٍ صار للمعرفة اللسانية استعمالات في ميادين جديدة غير الميادين التقليدية الموروثة. فتكوَّنت اللسانيات الاجتماعية التي جعلت من التشاكل البنيوي بين اللغة والمجتمع موضوعا للدراسة، وصارت في اللسانيات النفسية نظرية ضمن العلوم الطبيعية، إذ حاول شومسكي أن يجعل من نموذجه اللساني آلة منهجية للكشف عن التركيب البنيوي للدماغ البشري، وهو موضوع يخصُّ البيولوجيين أصلاً. ولما أراد الإنسان المعاصر أن يتواصل مع الآلة باللغة الطبيعية دخلت المعرفة اللسانية ضمن العلوم الهندسية، وظهر ميدانُ اللسانيات الحاسوبية. وهكذا أخذت اللسانيات تظهر في كل حين مقترنةً باسم الميدان الذي توظَّف فيه حصيلةُ المعرفة اللغوية المقتنصة بالنظرية اللسانية المستحدثة. ولعل هذه الكلمات المختصرة كافيةٌ لرسم فكرة واضحة عن حصيلة اللسانيات في بيئتها الغربية.

س: **في ظل هذا (المعطى)المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف ثقافتنا على البحث اللساني بمعناه الحديث؟**

ج: من الطبيعي أن يستفسر متتبِّعُ الحركة اللسانية عن حصيلة هذا العلم في العالم العربي كافة والمغرب خاصة. ولتكوين فكرة واضحة عن وضعية البحث اللساني في المؤسسات الجامعية داخل الوطن العربي لا بأس من اقتضاب نظرة تاريخية من شأنها أن تُفسِّر حال اللسانيات العربية ومآلها.

من المعلوم أن العالم العربي خرج من عهد الاستعمار وأهلُه أقرب إلى الجهل منه إلى العلم؛ قلَّةٌ من المثقفين بالقليل من علم السلف، ومع شيء من لغات الغرب تحوَّلت طائفةٌ منهم إلى مخططين للنهضة العربية. وغلب الاتجاه القائل بعدم كفاية التراث العربي لإطلاق نهضة على غرار ما حصل في أوروبا، وبالتالي لا مفرَّ من التلمذة على مستعمِر الأمس، إذ هو السبيل الممكن لإخراج الشعب العربي من التخلف، وإدماجه بشيء من هويته في حضارة هذا العصر.

توالت البعثات العلمية وهي خالية الذهن، منطلقُها البلدانُ العربية، ووجهتُها مراكزُ الثقافة العصرية في العالم. لم يكن الإيفادُ جزءاً من مشاريع علمية وطنية، غايتُه اكتسابُ المعرفة العملية وتكوين الخبرات اللازمة للنهوض بأوراش مفتوحة

في شتى القطاعات داخل الوطن العربي، وإنما كان لمجرَّد الاطلاع على الثقافة المتداولة في البلدان الغربية. وكان من نتائج هذا الضرب من الإيفاد العلمي المرتجل أن عاد المتخرِّجُ من الجامعات الغربية بنصيبٍ مِنْ ثقافة المشرفين على تكوينه. حتى إذا انخرط في سلك التعليم الجامعي في وطنه لم يكن بوسعه إلا أن يُردِّد ما جلب في حقائبه من الأفكار والقناعات بصرف النظر عن موقف الثقافة المحلية منها.

وإذا نظرنا إلى البحث اللساني العربي الحديث في السياق التاريخي أعلاه عزَّ الموفدُ في إطار شراكة بين مؤسستين عربية وغربية تنهضان بنفس المشروع العلمي في أحد الميادين اللسانية النافعة، وفي المقابل كثر المبعوث من أجل الاطلاع على الثقافة اللسانية الغربية المتداولة في مؤسَّسات الآداب والعلوم الإنسانية خاصة. ومعظمُ هؤلاء مقتنعون بأطروحتين:

الأولى تتصل بالفكر اللغوي العربي القديم، وتدعو إلى ضرورة القطع مع الماضي، إذ لا مبرر منطقي للعودة إليه كما جاء على ألسنة الرواد، وعندئذ يستقيم مبرر التلمذة على الغرب في ميدان اللسانيات، ويتيسّر في نظرهم إطلاق نهضة حقيقية في مجال اللسانيات العربية الحديثة بغية تطوير البحث في اللغة العربية ولهجاتها المحلية. لكنَّ تجربةَ الخمسين عاماً الماضية بيَّنت أن النهضة المتحدَّث عنها تقلَّصت إلى ترديد المحليين لأفكار الغربيين وآرائهم اللغوية، ثم تطبيق نظرياتهم على اللغة العربية ليُثبتوا لهم صوابَ ما رأوا.

أما الأطروحة الثانية، وهي مكملة للسابقة، فتقوم على النفي المطلق لأيِّ حاجةٍ إلى نظرية لسانية جديدة تكون مستمدَّةً من الخصائص النمطية للغة العربية. لأن العربية في نظر هؤلاء لا يمكن أن تشكِّل استثناءً لما يقوله الغرب عن لغاتهم. بل كلُّ ما تتوقَّعُه نظرياتُهم اللسانية يجب منطقياً أن يكون في اللغة العربية. وإذا وُجد في العربية ما ينقض تنبؤات النظرية اللسانية الغربية وجب ردُّه إليها ولو بالتعجرف وإلا فهي لغة شاذة، وإذا عَضَدَها النحاة القدماءُ نُعتوا بالغفلة وقلة النظر. وقد أتينا لمثل هذا الكلام بالشواهد الكافية في مناسبات كثيرة. ولا أحدَ من العقلاء يتوخَّى إطلاق نهضة عربية حقيقية وهو يتبنى هذه الأطروحة المكبِّلة للعقل العربي.

وهكذا نشـأت في الثقافة العربية **لسـانيات اغترابية**، تميَّزت بانبثاقها في الغرب مـن لغاتهـم لتطوير معرفتهم بأنسـاقها بُغيةَ الإسـهام فـي تطوير ما يرتبـط باللغة من قطاعات صناعية واجتماعية وسياسية نشيطة، ثمَّ اجتُثَّت من وسطها الطبيعي ونُقلت إلى العالم العربي بغير أهدافها لانتفاء البيئة العلمية والصناعية المشابهة. فاللسانيات في العالم الغربي شديدةُ التفاعل مع لغاته وثقافاته، وهي فعَّالةٌ في مجالات مختلفة، لكنهـا في العالم العربي متدافعة مع لغته وتراثه اللسـاني، ومعطَّلةٌ بالقياس إلى واقع أنشطته الصناعية والاجتماعية.

يشـهد لصحَّة ما سـلف كونُ هؤلاء اللسـانيين لم يُنتجوا طيلـة نصف قرن من البحـث في اللغـة العربية بأنظـارٍ غربيـة، معرفةً لسـانية يمكن الانتفاع بهـا في قطاع ثقافي أو اجتماعي، أو اقتصادي. فلا المعرفةُ بنسق اللغة العربية تطوَّرتْ بتطبيق أحد النمـاذج النحوية الغربية عليها، بل لأول مرَّة يتصدَّع نسـق العربية بسـبب ما يزدحم عليها من النظريات اللسانية والنماذج النحوية الغربية. والأمثلة في هذا الباب كثيرة، يكفينـا حالياً أن نعـرض مثلَ (النشـرةُ الجويَّةُ تُقَـدَّمُ لكم من طرف هند) على نسـق العربية لنجد هـذه الجملة مختلَّةً تركيبيـاً، بينما نظريةُ النحو الكلي تحكم بسـلامتِها في العربية بدليل وجود مثلها في اللغتين الأنجليزية والفرنسية ونحوهما من اللغات البشـرية. ويُزكِّي هـذا الحكمَ مبدأُ التعميـم القاضي بأن يصحَّ في اللغات الهامشـية كالعربيـة كلُّ مـا يصح في لغـةٍ مركزيـة كالأنجليزيـة. وبكلمة واحدة إن اللسـانيات المغتربة خلَّفت أثراً سلبياً في مجال الثقافة العربية المعاصرة.

ومما زاد في تأزُّم اللسـانيات المغتربة امتطاؤها المؤخَّر لأسلوب الهروب إلى الأمام. فقد فشلت، بشهادة الواقع المعيش، عن تبسيط وصف اللغة العربية، وتطوير معرفة الناطقيـن بها، وعن بناء مناهج لغوية تُيسِّـر تعليم العربيـة لطلابها من العرب وغيرهم، وعن إعداد برامج لتقويم اللسـان، وإمداد علوم إنسانيةٍ مجاورة بما يحتاج إليـه منهجُهـا من معرفـةٍ لسـانيةٍ دقيقةٍ. وباختصـار إنها جلبـةً كبيرة ولا عمـل نافع، فصدق عليها المثل العربي القديم «أسمع جعجعةً ولا أرى طحناً».

ومـع هذا الفشـل البيِّن في قطاعـات اجتماعية مقـدورٍ عليها أخذت لسـانيات الاغتراب تُطالعنا من داخل كليات الآداب ومؤسسـات مشابهة بصيحات جديدة في

هندسة اللغة، وفي اللسانيات الحاسوبية، وفي تكنولوجيا اللغة والذكاء الاصطناعي، وفي التواصل مع الآلة باللغة العربية، وغير ذلك من القضايا الداخلة بامتياز في اختصاص معاهد العلوم البحتة والتكنولوجيا الدقيقة المفتقدة بشكل واضح في البيئة العربية. ولا تسيُّب في المعرفة من شخص قلَّت حيلتُه في الرياضيات ونحوها من العلوم البحتة والطبيعية فقضى حياته الدراسية في شعبة أدبية، حتى إذا تعلم في الأخير شيئاً من اللسانيات الغربية تقليداً ورغبةً في منصب اقترف مشاريع علمية لا قبل له بها.

وعندما تقوم لسانياتٌ على تكبيل العقل العربي، وعلى إلغاء تراث فكري ضخم من الحوار الثقافي، وتُفسد في العربية قصداً من أصحابها أو غفلةً، وتُموِّه في العلم كثيراً، ولا تُسهم في حلِّ مشكلٍ محلي إطلاقاً، وتكون الهجرة إليها لمجرَّد المعرفة اللازمة للوظيفة، عندئذ يعلم كلٌ متتبِّع لهذه الحركة لِمَ لم تنتشر اللسانيات في شرق الوطن العربي مع ما لهم من السبق في الاطلاع عليها، ويعلم السرَّ في تراجعها داخل المغرب بعد تراجع ملحوظ في الأمية اللسانية. ونضيف هنا قانوناً طبيعياً وهو كل علم انفصل عن العمل لا يدوم طويلاً، إذ الجدوى قاعدةُ المعرفة.

س: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائداً؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنافس لا نجد له مثيلا إلا في ثقافتنا، هل المشكل مشكل مناهج حقا؟

ومن مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين اللسانيين، فلا أحد منهم يهتم بما يكتبه الآخر، وهذا ما يجعل أمر اللسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصه المعادلة: النحو $\neq$ اللسانيات، التراث اللغوي العربي $\neq$ اللسانيات؟

ج: بالاستناد إلى ما تقدَّم يتبيَّن ما يمكن قولُه في مفاهيم مركزية تردَّت في

أسئلتكم. منها المفارقة الملحوظة في ريادة المتقدمين في اللسانيات العربية وخفوت المتأخرين في نفس المجال، والصراع الاستئصالي بين لسانياتٍ عربية قديمة ولسانيات اغترابية حديثة، والتنافس الرافض الذي يقوم بين مختلف التيارات والنزعات اللسانية التي تسعى إلى الانفراد بوصف اللغة العربية.

أغلب القضايا المذكورة أعلاه سبق أن تناولتها بشيء من التفصيل في مقالات منشورة في مجلات وكتب مشتركة تحت العناوين التالية: «**من أنماط الفكر اللغوي بالمغرب**»، «**من تحولات المغرب الثقافية**»، «**مناهج المعرفة العلمية في النظريات اللسانية**»، «**شروط إسهام الثقافة الإسلامية في بناء حضارة إنسانية**». وبيَّنت أن من اللسانيات الاغترابية ما نجح في خلق قطيعة مع الماضي حتى حلَّ التباغض بين التراثي والحداثي محلَّ التعاون، وأن منها ما سعى إلى التوفيق بين الفكرَيْن اللغويين العربي القديم والفكر الغربي الحديث فسقط في التلفيق النظري، ولم يخرج منه إلا بالتوبة الخالصة إلى أحد الفكرين. وأن تعدُّدَ النظريات اللسانيات والنماذج النحوية التي تتنافس من أجل وصف اللغة العربية ظاهرة غير سليمة علمياً وغير مقبولة إبستمولوجياً، لكن تعاقبَها بتجاوز بعضها بعضاً مطلوبٌ عُلومياً أو إبستمولوجياً.

ولا يخفى على أحد التشنُّج اللساني الملحوظ في الجامعة المغربية خاصة، وهنا تحضرني مستملحة واقعية، حين لم يجد لساني مغربي نموذجاً يستقلّ برئاسته على غرار أقرانه من الزملاء في نفس الجامعة اتّخذ من اللاأدرية في اللسانيات مذهباً واشتغل به عمراً. ولن يكون لِلِسانيات الطوائف شأنٌ، ومصيرها الزوال حتماً إذا انطلقت لسانيات عربية من الخصائص النمطية لهذه اللغة وتفاعلت مع ثقافتها وتدرَّجت في تطوُّرها مع نمو البيئة العربية صناعياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً. وتحقق هذه الانطلاقة مشروط بخروج اللسانيين العرب من سجن التقليد مطلقاً إلى فسحة الإبداع والتجديد.

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: عـدم الاطمئنـان إلى وضعيـة اللغة العربية مـن حق كل باحـث غيور على لسـان حضارة القرآن، خاصةً في ظلّ تحدِّيات دولية للغة ولثقافتها الإسلامية، وبعد أن صارت تكنولوجيا المعلومات والاتصال مقياسـاً فاصلاً لتقويم اللغات البشـرية. وإذا أردنـا أن نتصـوَّر مقدارَ هذه التحديات سـوف نجدها ملخَّصة فـي كون العربية شرعت تدخل في زمرة اللغات المهدَّدة بالانقراض.

ومن أراد الوقوف على صدق ما أوردناه يكفيه أن يقارن داخل وطن العربية بين القطاعات التي تسـتعمل فيهـا هذه اللغة بالقياس إلى القطاعـات الأخرى التي تنفرد بها اللغات الأجنبية أو اللهجات القطرية ونحوها من اللغات القبلية. وسـوف ينتهي لا محالة إلى أن مجالات استعمال العربية محدودة للغاية، وأن نسبة العرب العاملين في وطن العربية بغير هذه اللغة في تصاعد، وأن اللغة العربية لم تعد كافية للاشتغال بهـا في الوطـن العربي، وأن المثقـف بالعربية كالجاهـل بغيرها، وأن اقتـران العربية بالقرآن الكريم والحديث الشـريف جعل هذه اللغة مـن رموز الإرهاب، وأن الجهل بالعربية متفشٍّ بين أهلها فصار تواصلهم بغيرها أيسـر عليهـم، وأن اللغة العربية في أقطارٍ عربية تحوَّلت بفعل قادرٍ إلى لغة غزاة لا يُميِّزهم شـيءٌ عن سائر المستعمرين الذين تعاقبوا على حكم هذه الأقطار. ومن هذا القبيل الشـيء الكثير سبقت الإشارة إليه في بحث «تدبير اللغة العربية» المنشـور في مجلة التاريخ العربي العدد الخاص بالعربية لسـان حضارة القرآن. ومع كل ما سـبق قلَّ الوعي بالخطـر الذي يتهدد لغة حملت أكبر حضارة في عصرها، وأسهمت في بناء الحضارة المعاصرة.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: إن الحديث عـن الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتياً لا ينفصل عن الهـوة المعرفية التي تفصل العالـم العربي عن العالم المتقـدِّم تكنلوجياً وفكريـاً وعسـكرياً واقتصاديـاً وصناعياً وفي باقي مجـالات الحيـاة المعاصرة. ولما كانـت تلك بعضَ هذه صار من قبيـل المحال أن تتقلَّص الفجـوة الرقمي بين لغتين في ظل هـوة معرفية بين شـعبين. فالتجزيء غيـر وارد لكن التخطيـط المتكامل مع مراعاة الأولويات أنجع وأفيد.

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعاً لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ أ لأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: وجود مجموعات علمية تجعل من اللغة العربية موضوعاً للدراسة مرهون بإيجاد ما سميتموه باليارات والاتجهات. والإيجاد لا يعني الاستمرار في استيراد النظريات اللسانيات والنماذج النحوية من الغرب أو الشرق، وكذلك الحال بالنسبة إلى باقي العلوم، وإنما يعني أن يشارك العقل العربي غيرَه المعاصرَ في إقامة النظريات وبناء النماذج التي تسهم في تطوير معرفة الإنسان العربي بلغته خاصةً وتطوير المعرفة البشرية باللغات كافةً. وتتحقق تلك المشاركة بأن ينهض من بين العرب أولو كفاءات علمية عالية في مختلف الميادين والتخصصات، منطلقين من خصوصيات محلية، وبشروط البحث العالمية من أجل إنتاج معرفة نسقية من شأنها أن تطور قطاعات وطنية.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: يمكن للعربية أن تصبح فاعلة في محيطها بالاستعمال الذي تفتقر إليه وليس بالإهمال الذي تعيشه. وهنا أعود إلى العربيات الوارد في سؤالكم السابق لأقول إن هذا التعدد في العربية ليس له وجود في أذهان فريق من اللسانيين المغتربين. والهدف من إشاعته، كما سبق الإشارة إليه في مقال منشور بعنوان «التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي» يكمن في التسويغ العلمي المزيف للقرار السياسي بالتخلي عن العربية في التعليم خاصة واستعمال غيرها من اللغات الأجنبية. ولم يسبق لأحد من أولئك اللسانيين الذين يشيعون كذباً هذه التعددية في نسق العربية أن أثبتها دياكرونياً أو سنكرونياً. وإنما كلامهم أصوات لا طائل تحتها.

تكون العربية فاعلة في محيطها إذا لم يدخل الناطق بها إلى ميدان عملي أو حقل معرفي بغيرها من اللغات. أما العربية في حدّ ذاتها فقلّ نظيرها في تمايز فصوصها واتساقها، وفي قدرتها التعبيرية مع الاقتصاد في إجراءاتها، وتكفي في هذا الباب المقارنة بين عدد العمليات التي ينبغي إجراؤها للانتقال من البناء للفاعل

إلى البناء للمفعول في كل من العربية والفرنسية أو الأنجليزية. وليحاول كل واحد أن يُترجم ترجمة دقيقة تظهر الفروق بين (نَصر خالدٌ بكراً) و(ناصرَ خالدٌ بكراً)، و(تناصر خالدٌ وبكرٌ)، و(استنصر خالدٌ بكراً) ليقف بنفسه على الدقة في التعبير عن المفاهيم الوظيفية مع الاقتصاد الكبير في الإجراءات النسقية. وقد لا يكون لهذا الكلام معنى بالنسبة لشخص متشبِّع بالفكر الاستشراقي، أو لا يميّز بين العربية وأوصاف النحاة لها.

س: ما هو دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: لا يمكن للمجامع اللغوية أن يكون لها دور كبير في النهوض باللغة العربية في ظلِّ اختلالات لا حصر لها، إذ اتَّسع الخرق على الراقع كما يقال في مثل هذا الحال. كيف يكون للمجامع دور وقد أُحدثت وسط لغط لساني يضيع فيه الحق والرأي الصواب، والعربيةُ محدودة الاستعمال في المجتمع الحالي، معقَّدةُ الوصف في النحو القديم. وإذا استمرت هذه المجامع محتفظة بنفس النهج في العمل وبنفس الكفاءات والتوجهات فليس للعربية إلا أن تستمر على ما هي عليه من الانكماش المتزايد.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: ضعف مستوى المتمدرسين في اللغة العربية يمكن تفسيره بعوامل ثلاثة: أولاً اتساع سوق الشغل بغير العربية مع محدودية القطاعات التي تُشغِّل بالعربية فقط. ثانياً التساهل إن لم نقل عدم المبالاة فيما يخص العربية، يظهر بوضوح في وضع المنهاج التعليمي وتقدير الغلاف الزماني، وتحديد المعامل، واختيار المدرس، وجدولة الحصة، وتضافر جزئيات كثيرة تغذي فكرة أن المثقف بالعربية كالجاهل بغيرها. ثالثاً شبه غياب للعربية من قطاع الإعلام بمعناه الواسع، كالسينما والغناء والمسرح والتمثيل والإشهار وواجهات المحلات التجارية، فضلاً عن الاستغناء عنها في الحياة اليومية، وفي المقابل يحظى غيرُها بمزيد من الاهتمام في كل ما

ذكر وأكثر. كل ذلك يوفّر للمتعلِّم المناخ المناسب لعدم أخذ العربية مأخذ الجد.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر، في الغرب، قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن. وأن الكثيـــر من تلك السمـــات كان له تأثير مباشر فـــي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـــه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري(حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـــدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـــي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي فـــي غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: سبق الحديث عن الصراع الاستئصالي بين الفكرين اللغويين العربي القديم والغربي الحديث، وقد تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل في بحوث منشورة، وبيَّنا أن التقليد لا يُطور فكراً و لا يُطلق نهضةً سواء كان من التراثي للقدماء أو من الحداثي للغرب، وأن النهضة تنطلق في وطنها من أهل الوطن أنفسهم بعد سبر الإمكانيات وحصر الاحتياجات، وأن إطلاق أيِّ حركة لا يبتدئ بالصراع بين الذات والآخر، ولا بالإبقاء على استمرار الخصومة غير المبررة علمياً بين التراثيين الحاضنين على هوية الأمة والحداثيين الحريصين على الاندماج في العصر بكل مقوماته و بغير شرط مسبق. لا شيء يعوق إطلاق حركة نهضية من الرفض المتبادل. وحلُّ هذه المعضلة الأزلية يكمن في الجمع بين عدم الإلغاء، وإلا كأن شيئاً لم يكن ولا هو كائن مستمر، وبين ضرورة الانتقاء، وإلا انتفت الفوارق. ومنهج العمل هو بما توصي بها العلوميا (الابستمولوجيا)، وأول ذلك ألاّ يُترك شيءٌ كتب في حقل الاختصاص لقدمه أو لحداثته وغربته، فالإحاطة بالفكرين اللغويين العربي القديم والغربي الحديث ضروري، ثم فحصهما بمعايير صارمة للاحتفاظ بالصواب فيهما، وتصويب هفواتهما، وحل ما بقي فيهما من المشاكل مستعصياً، وعندئذ نكون قد أسهما في تجويد الآلة المنهجية وفي تطوير معرفة الإنسان ب لغاته. وكل استمرار

في هذه الخصومة اللسانية فلا يحمل إلا على الكسل الفكري.

س: ما دمنا بصدد الحديث عن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا من قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغوي، الأمراض اللغوية...ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟

ج: في أسئلتكم عن مشاكل اللسانيات في الوطن العربي وصفتم حالة هذا العلم غيرَ اللائقة، وكشفتم عن أهم الأسباب المفسِّرة لانزواء اللسانيات مع أهلها في زاوية الترف الثقافي، وكأن إرضاء الفضول المعرفي هو الباعث الحقيقي لطائفة من العرب للاشتغال باللسانيات. إذ لم يكن أبداً داخلاً في مشروع نهضوي، فتعلَّموا اللسانيات من أجل اللسانيات لا غير. اللسانيات في بيئتها الغربية قول وعمل، فاللسانيات السلالية مثلاً وُظِّفت في وقتها لامتصاص صدمة الشعوب المستعمرة إبَّان التوسع الأوروبي ونجحت في تهدئة الأوضاع في الهند. وللسانيات الكلية استعمالات في ميادين عديدة، فقد أسهمت مع البيولوجيين في رصد التركيب البنيوي للدماغ البشري، ومع المعلوماتيين في ميدان الترجمة الآلية والتواصل مع الآلة باللغة الأنجليزية، وكذلك كان حالها مع السيكولوجيين المهتمين بتكوين الأنساق المعرفية، ومنها بناء الفرد للنحو إبان اتصاله بلغة محيطه. أما المنقولُ من اللسانيات إلى الوطن العربي فمحصور في قسمها النظري، بينما قسمُها العملي تُرِكَ هناك، وبذلك انفصلت اللسانيات نهائياً عن ميادين العمل، وصارت مجرَّد أقوال معنعنة. والعلم بدون عمل عمره قصير حتماً. وكل علم لا يستند إلى قاعدة «اِعلم لتعرف كيف تعمل» انضوى إلى الترف الثقافي الخالي من المردود؛ فهو لا يُطوِّر مجتمعاً، ولا يجوِّد صناعة، ولا يجلب ثروة، ولا يُيسِّر معيشة، ونحو هذا مما يتطلَّع إليه إنسان هذا العصر، واللسانيات المغتربة من هذا القبيل.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد

حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: إخراج الثقافة العربية الحديثة، وضمنها اللسانيات، من وضعيتها المتردية يتحقق بتوافر الشروط التالية: أولاً الشروع في إنتاج المعرفة وفق الشروط المنهجية المتبناة في هذا العصر، وبذلك نتخلَّص من آفة التقليد. ثانياً ربطُ إنتاج المعرفة بتطوير قطاعات وطنية في شتى الميادين الاقتصادية والصناعية والثقافية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك، وحينئذٍ نتخلص من آفة المعرفة لذاتها ومن أجل ذاتها. ثالثاً ربط البعثة العلمية إلى الخارج بجلب المعرفة العملية والخبرة اللازمة لتطوير قطاع من القطاعات الوطنية الحيوية. رابعاً إدماج الجامعة في وسطها لتكون قاطرة للتنميةً الجهوية حتى تصير الجامعة فضاءً أكاديمياً للتفكير في مشاكل واقعية واقتراح بدائل مستقبلية. خامساً هيكلة الجامعة بتفعيل التراتبية الأكاديمية واحترامها، بحيث يكون التوظيف من أجل إنجاز مشاريع من وضع أساتذة أولي خبرة وتكوين علمي رفيع بغاية النهوض بقطاعات مرتبطة بتخصصاتهم. وعندئذٍ نتجنب الفوضى التي تعيش الجامعة في أكثر من قطر عربي. سادساً الإقلاع عن الاهتمام بالشكليات والأرقام والإحصائيات، والتركيز بجدّ على المضامين والمحتويات لتخريج مواطنين بكفاءات معرفية ومؤهلات مهنية للاندماج السريع في الوسط أو العمل على تجديده. وإذا توفرت مثل هذه البيئة الثقافية وجدت اللسانيات موقعها في الجامعة وفي المجتمع على السواء، وذلك باقي العلوم.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: فيما يخص هذا السؤال يحسن أن نتحدَّث عن اللسانيين العرب وإسهاماتهم في اللسانيات الغربية. والصفة الجامعة بين هؤلاء هو انخراطُهم في نظريات لسانية غربية للتعاون مع أصحابها على قدر اجتهادهم. وهم طبقتان، لن نسمي منهم أحداً دفعاً للحرج. الأولى تضم لسانياً عربياً استفاد من التراث اللغوي العربي القديم وأسهم في النظرية اللسانية التي يشتغل في إطارها بإضافة شيءٍ إليها.

والثانية تضم فئةً أُسند إليهم دورُ الاختبار المراسي لتوقعات النظرية المحسوبين عليها، فإذا توقعت النظرية أن تكون للجملة في تركيب كل لغة بشرية رتبة أصلية كان على هؤلاء أن يُثبت للجملة في العربية رتبة أصلية. وإذا رأت النظرية أن صرف اللغات سلسلي وجب على اللساني العربي أن يحلل مثل (استغفر)، و(انكسر) إلى (استـ+غفر)، و(انـ+كسر). وإذا استعصى معطى تركوه بدعوى القدم، وعوضوه بلهجة محلية أو كلام صحفي.

س: **في نظركم ما هي السبل التي ترونها كفيلة بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟**

ج: نجاح أي مشروع علمي مرهون بجعله وليد بيئته، منها ينبجس، وإليها تعود نتائجه، فينقلها إلى طور أحسن. لا يمكن للسانيات أن تنجح وهي لا تهتم إلا بنفسها، لا يكون لها ذكر في وطن العربية وهذه اللغة تعاني من تعقيدات الواصفين لها قدماء ومحدثين، ومناهج تعليمها مختلة، والجهل بقواعدها الصرفية والتركيبية منتشر، والنطق بأصواتها معتسر، ومعجمها مفتقر، ناهيك عن العربية وهندسة اللغة وغيرها من حقول العلم الدقيقة. فالعلم يُقاس نجاحُه بمقدار ما يحل من مشاكل في أكثر من ميدان.

س: **تؤسسون في كتابكم (الوسائط اللغوي) لنظرية جديدة في اللسانيات، نود منكم أن تقدموا هذه النظرية إلى القارئ العربي؟**

ج: تعلمون أنه من الصعب تقديم نظرية في سياق الحوار القائم على الاختصار، ومع ذلك سأحاول ولا تثريب علي إن لم أوفق. ولكن سأضيف شيئاً إلى ما سبق وتمهيداً لما سيأتي.

تردد في أسئلتكم مصطلح اللسانيات العربية واللسانيات العالمية، ولا بأس من تدقيق المفاهيم أولاً. نقول عن لسانيات إنها عربيةٌ إذا جمعت بين الخصائص الآتية:

أولاً. أن تنطلق من الخصائص النمطية للغة العربية في انسجام تام مع ثقافتها فينتفي التعارض نهائياً بين توقعات النظرية وواقع اللغة العربية وأصولها الثقافية.

ثانياً. أن تكون النظرية اللسانية قادرة على التمييز الصارم بين ما في التراث العربي من صواب يمكن احتواؤه وجعْلُه منضوياً إلى توقعاتها، وبين ما فيه من هفوات برهنت النظريةُ على نُبُوِّه وعدم وروده.

ثالثاً. أن تتميز تلك النظرية اللسانية بأبجديتها، بحيث لا تختلط بغيرها أبداً سواءً كان غيرُها تراثياً أو حداثياً.

رابعاً. يجب أن تكون قد صيغت أولاً باللغة العربية.

خامساً. يلزمها أن ترفع معرفة الإنسان العربي بلغته إلى مستوى أعلى مما كانت عليه من قبلُ.

سادساً. أن يكون لها إسهاما واضحا في اللسانيات العالمية، وذلك بإضافة ما يلي:

سابعاً. أن تتجاوز النظرية اللسانية المستحدثة كل ما بأبدي اللسانيين في حقبة من تاريخ العلم من نظريات لسانية ونماذج نحوية. والتجاوز بمعناه العلومي، كما هو معروف، احتفاظ بالصواب، وتصويب الخطأ، وحل المستعصي، وتضييق الفجوة من جديد بين توقع النظرية وواقع موضوعها.

ثامناً. أن ترفع مستوى معرفة الإنسان بلغاته وتقفز بها إلى طور أنضج، يعقبه تطور ملحوظ في ميادين أخرى.

ولعل اللسانيات النسبية المقدمة باختصار فيما يأتي من الحديث ما سرد من الخصال وزيادة، فهي أول نظرية لسانية وُضعت في العالم العربي بشروط هذا العصر وبما سرد من المواصفات أعلاه. وهي أول نظرية وضعت في العالم للمقارنة النمطية بين اللغات البشرية عبرَ مستويات متتالية.

تنطلق المقارنة في إطارها من الوسائط اللغوية، وتنحدر منها إلى المقارنة بين أنساق الفصوص اللغوية الأربعة، ومنها تنحدر من جديد إلى الخصائص البنيوية الماثلة في الظواهر اللغوية. وهي أول نظرية لسانية تتنبَّأ بنموذجين نحويين لنمطين من اللغات: نحو توليفي للغات التوليفية كالعربية ونحوها من اللغات الكثيرة، ونحو شجري للغات الشجرية كالأنجليزية وغيرها الكثير.

هدفها اللسانيات النسبية هو المحافظة على النمطية؛ وذلك بإقامة نماذج

نحوية نمطية بعدد الأنماط اللغوية الممكنة منطقياً والمحققة واقعياً، وعليه سيكون مبدأ التنميط.

وأساسُها؛ فرضيةُ عملٍ كسبيةٌ مفادُها أن اللغة البشرية من نوع الملكات الوضعية بالاختيار والمكتسبة بالتلقين، وليست من نوع الملكات الطبيعية المنسوجة خلقة في خلايا الجهاز العصبي والمنقولة من السلف إلى الخلف بالمورِّثات.

واللغة البشرية، كسائر الوضعيات، متقوِّمة الذات من أربعة مبادئ كلية مرتَّبَةٍ ترتيب تعلُّقٍ بحيث يكون وجودُ السابق ضرورياً لوجود اللاحق.

المبدأ الدلالي: مصدرُه كونٌ وجودي، ومحتواه كلي، وأقسامُه: علاقاتٌ دلالية، عددُها محصورٌ في 1) علاقة السببية، وعلاقة العلية، وعلاقة السببية المركبة منهما، وعلاقة اللزوم، وعلاقة الإضافة وعلاقة الانتماء. 2) مفردات بحتة؛ تكون أطرافاً للعلاقات الدلالية، عددُها غيرُ متناهٍ، لكنها تنتظم بواسطة العلاقات الدلالية في بضع مقولات.

المبدأ التداولي؛ مصدره الكونُ الاجتماعي، محتواه كلي، أقسامه:1) علاقاتٌ تداولية تقوم بين المتخاطبين، وتُؤثِّر خصائصَ بنيويةً في العبارة اللغوية، أو تُعيِّنُ أوردَ التأويلات الدلالية التي تحتملها نفسُ العبارة. 2) قيودٌ إجبارية يلتزم بها المتكلِّم، بصفته طرفاً في علاقةٍ تداولية، لضمان الرد المناسب من مخاطبه العادي.

محتوى المبدأين الدلالي والتداولي مادةُ البنية القولية، والبنية القولية صورتُها الحسية. ولا يكون لنفس المادة المجردة أكثرُ من صورة حسية واحدة. وإذا اتَّحدت المادةُ وتعدَّدت الصورة فبسبب الوسائط.

المبدأ الوضعي للوسائط اللغوية؛ مصدرُه احتمالاتٌ منطقية منضبطةٌ بمبدأ الثالث المرفوع. محتواه شبكتان من الوسائط المتقابلة على جهة التضادِّ. وهو منمِّطٌ للغاتِ بسبب اضطرارِها إلى اختيار إحدى الشبكتين وإهمالِ نقيضِها. أقسامه: 1) وسائط العربية من اللغات التوليفية؛ كوسيط العلامة المحمولة المنتقى لفصها التركيبي، ووسيط الجذر المنتقى لفصها المعجمي، ووسيط الوزن المنتقى لفصها الصرفي، ووسيطَي التضعيف والاحتمال المنتقين لفصها النصغي. 2) وسائط اللغات التركيبية المتميزة باتقاء وسيط الرتبة المحفوظة للفص التركيبي، ووسيط

الجذع للفصل المعجمي، ووسيط الإلصاق للفص الصرفي، ووسيطي التشطير والاقتصار للفص النصغي.

ليس بين تينكم الشبكتين من الوسائط اللغوية وسائطُ أخرى ممكنة. وليس بين اللغات البشرية لغةٌ لا تنتمي إلى أحد ذينكم النمطين اللغويين

المبدأ الصوري؛ له دور التشخيص الحسي لمحتوى المبدأين الدلالي والتداولي. مصدره؛ جهاز النطق البشري المبني لإنتاج عددٍ محصور من النطائق. محتواه؛ نطائقُ صوتية وقواعد صورية. أقسامه: 1) **نطائق حسية** متمايزة بقيمها الصوتية الخلافية، وهي تتفرَّعُ في كل لغة إلى صوامت وصوائت. 2) **قواعد صورية** للتأليف بين النطائق الحسية تأليفات نمطية أو خاصة.

كلُّ اللغات البشرية تتألَّف من أربعة فصوص متوالية تألُّف النموذج اللساني من أربعة قوالب متعاقبة، بحيث يتناول كلُّ قالبٍ فصّاً تناولَ مجموعِ قوالب النموذج لمجموع فصوص اللغة. وهي لها ترتيب كليٍ على النحو التالي:

نَصْغٌ ← معجم$_1$ ↚ نسْلٌ ↚ معجم$_2$ ← تركيب.

النصغ؛ فص لغوي كلي، لا تقوم لغة بدونه. يتفرَّع في جميعها إلى:1) مكوِّن نَطْقِي؛ محتواه عدد محدود من النطائق المتفرعة إلى صوامت وصوائت.2) مكوِّن نَصْتي؛ محتواه قواعدُ تركيب النطائق.خرجُه: قَولاتٌ يمكن إقرانُها بكلماتٍ آتية من المعجم المحض فتتولَّد مداخلُ المعجم النمطي.

نَمَطيَّة الفص النصغي تُلتمس في كيفية تكوين اللغات لنطائقها وفي قواعد بنائها.

1 – تكوين اللغات لصوامتها إما أن تقتصر على تشغيل بعض حجرات الرنين، وهي اللغات الاقتصارية. وإما أن تُشغِّلها جميعاً، وهي اللغات الاحتمالية. والفصيح في النمط الاحتمالي أعلى نسبةً منه في النمط الاقتصاري.

2 – تشترك اللغاتُ في الصوائت الأساسية؛ (الضمة، والفتحة، والكسرة، والسكون). ولإضافة صوائت أخرى أمام اللغات احتمالان: إما التضعيف فتحصل على المدود كما في العربية. وإما التشطير فتحصل اللغةُ الفرنسية، مثلاً، على ضمات

وكسـرات وفتحات متفاوتـات الضم فـي نحـو(*pour,port, peur, pur*)، ومتفاوتة الكسر في مثل ((*pair ,père, pire*. وكذلك الفتح.

تأليف النطائق وتكوين قولات المداخل المعجمية الأصول؛ (معجم1).

تسـلك اللغـاتُ لتأليـف نطائقِها نحواً مـن الاثنين: إمـا أن تُرصِّـص الصوائت بالصوامـت فتنتج جِذْعاً مرصوصـاً لا يُخترق، كما في الفرنسـية. وإما أن تُوَلِّف من الصوامت جَذْراً رخواً يُخترق، وتبني من الصوائت صيغةً، ثم تسـكب الجذر الرخو في الصيغة القالب، فتحصل على قولةٍ للمدخل المعجمي الأصل. كما في العربية.

قواعد المكوِّن النَّصْتِي في النمط الجذري من اللغات تتفرَّع إلى صنفين:

1) قواعـد تأليـف الصوامـت لتكوين الجـذور، مثـل: إذا اجتمع حلقيـان قُدِّم المجهور على المهموس. لا يجتمع ما اشـترك في صويت نووي كالصفير أو النفث. لا يتوالى في قولة /ج/ و/ق/، أو /ك/و/ج/.

2). قواعـد تأليـف الصوائـت لتكويـن الصيـغ؛ لا يُخـرج من كسـر إلى ضم. لا يجتمـع السـكون والمـد. لا يجتمـع السـكون مع مثلـه. لا يتكـرر نفسُ الصائت أكثر من ثلاث مرات.

الفـص المعجمي لا تخلو لغةٌ بشـرية منه، وهو ليس كليـاً ولا خاصّاً بل نمطياً ينقسم في كل لغة إلى:

1- معجم واقـع؛ محتواه مداخل معجميـة أصول، يحصل عليهـا بإقران خَرْجَ الفص النصغي بخرج المعجم المحض. تُعرَف بالاستقراء التام سماعاً. وكل مدخلَ أصل فهو قاعدة لتوليد عدد من المداخل المعجمية الفروع.

2- معجـم متوقَّـع، محتـواه مداخل معجميـة فـروع، يُنتجها من قسـمه الأول بواسطة الفص النَّسْلي. ويكون اكتسابُ معظمِها بالاستنباط قياساً.

نمطيـة الفص المعجمـي. المعجـم، باعتبـار الوسـائل التي يسـتخدمها الفص النسلي لإنتاج المداخل المعجمية الفروع، نمطان اثنان:

1) **معجـم شـقيق**؛ يتميـز باحتوائـه علـى عـدد مضبوط مـن المداخـل الفروع المولَّدة باطِّراد من كل مدخل أصل. فيكون لكل فعل أسٍّ عددٌ من الأفعال الشـقائق، ولكل فعل أس أو شـقيق عـدد من المداخل الصفـات. يُعبَّر عنه

بما يلي:

قَطَعَ ← قُطِعَ ← انقطع ← استقطع ← قاطَعَ ← تقاطعَ ← ...

↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓

قاطعٌ مقطوعٌ منقطع مستقطِعٌ مقاطِعٌ متقاطِعٌ ←...

↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓

قطّاعٌ قَطيعٌ ... ...

2) **معجم المسيك**. يتميَّز باحتوائه كسائر المعاجم على الأفعال الأساس، من غير أن يكون للفعل الأس أكثر من فعل شقيق أو اثنين في أحسن الأحوال. ومن غير أن يطَّرد توليدُ المداخل الصفات من كل فعل. كما هو الحال في معجم اللغة الفرنسية مثلاً. إذ تولَّد من الفعل المتعدي (*tuer*) فعلاً لازماً منعكساً (*se tuer*) وفعلاً للمشاركة (*s'entre tuer*)، ولا يطَّرد. ثم تولَّد الصفة (*tueur*) من الفعل الأس (*tuer*) ولا تولِّدها من الفعلين الشقيقين (*se tuer*)، و(*s'entre tuer*).

الفص النسلي لا تخلو لغة بشرية منه، موقعه في الجميع بين المعجم الواقع الذي يضم المداخل الأصول وبين المعجم المتوقَّع الذي يضمُّ المداخل الفروع. مهمَّتُه منحصرةٌ في إنتاج المداخل الفروع من أصولها. ومحتواه مؤلَّفٌ من مكونين:

1 – **مكوِّن اشتقاقي**؛ قواعده ذات طبيعة دلالية، وما له هذه الطبيعة فهو كلي، تُشغَّل لتوليد بعض الكلم من بعض مثل (المغالبة تأتي من فعل متعد افتراقي).

2 – مكوِّن صرفي؛ قواعده ذات طبيعة صورية، وما كان كذلك فهو نمطي، تُجرى لضبط انتقال قولة من بنية إلى أخرى، مثل (الفعل من الأجوف تنقلب عينُه إلى مثل حركة فائه).

بين الاشتقاق والصرف علاقةُ تحكُّم الأول في الثاني، بمعنى كلُّ ما يُقرُّه المكون الاشتقاقي يسمح به المكوِّن الصرفي، وليس كل ما يُقرُّه المكونُ الصرفي يُرخِّصُه المكونُ الاشتقاقي.

فالمكوِّنُ الصرف حين أقرَّ (هَدَمَ ← هُدِمَ)، لا يمنع (هَلَكَ ← هُلِكَ). بينما

المكوِّنَ الاشـتقاقي يُرخِّـص (هُدِمَ السُّـورُ) بقاعدة دلالية؛ (فِعْلُ المفعول يُشـتقُّ من فِعْلٍ متعـدٍّ مطلقاً أو مـن لازم بإضافةٍ)، ويمنع (هُلِـكَ الرجلُ) بقاعـدة دلالية (فِعْلُ المفعول لا يأتي من فِعْلٍ قاصرٍ أ ناقص).

اللغـاتُ الجذرية التـي اختارت لفصِّها النصغي وسـيطَ الجـذر كالعربية مجبرةٌ على اختيار وسـيط الوزن لمكوِّنها الصرفي، وعندئذٍ يكون المدخل المعجمي مؤلَّفاً من أحـرف الجذر وصيغة الصرف. إذ يُفـرَغُ الجذر(درج) في الصيغة (اسْـتَفْعَلَ، أو فاعِـلٌ، أو فَعَّالَةٌ، أو انْفَعَـلَ، أو فُعِلَ...) لإنتـاج المداخل (اسْـتَدْرَجَ، دارِجٌ، دَرَّاجَةٌ، انْدَرَجَ، دُرِجَ...).

اللغات الجذعية التي اتَّخذت الجذرَ وسيطاً لفصها النصغي، كالفرنسية، يلزمها أن تختار وسيط الإلصاق لمكوِّنها الصرفي. فتنتج من الجذع (*terre*) بإلصاق سابقة (*en*) أو لاحقـة (ain)، (*ment*) أو هما معاً مداخـل كما في (*enterrer*) (*terrain*) .(*enterrement*)

اللغة الوزنية يمكن أن تستفيد من إتاحات اللغة الإلصاقية، والعكس لا يمكن.

اللغة العربية وزنية وزيادة.

إذا استنفدت اللغةُ ذات الصرف الوزني كالعربية إتاحاتِ وسيطِ الوزن لجـأت إلى إتاحات وسيط الإلصاق. في حين لا تسـتعمل اللغات ذات الـصرف الإلصاقي شيئاً من إتاحات وسيط الوزن.

تجمع العربية بالصيغة رجل ← رجال، وباللاصقة، مسلم ← مسلمون، مسلمين مسلمة ← مسلمات.

للعربيـة جمع بالصيغة وجمع الجمـع باللاصقة: رَجُـل ← رجال ← رجالات. هرم ← أهرام ← أهرامات.

للعربية مفـرد بالصيغة ومثنى باللاصقة: بنت ← بنتـان، بنتَيْنِ. طفل ← طفلان، طفلَيْنِ.

فِعْـلُ العربية زمانـه في صيغتـه، ويُطابق باللاصقـة مراكبَه، كما يظهـر من مثل (دَرِزْنَ).

مبدأ التنميط يقضي في إطار اللسـانيات النسبيـة أن ينحل المدخل المعجمي،

فـي اللغـات ذات الصـرف الوزنـي كالعربية ونحوهـا، إلى الجـذر والصيغـة، فمثل (اسـترزق) يتألَّف من (رزق+ اسـتفعَلَ)، و(انـدرس) مـن (درس+ انفعل)، وكذلك يسـتمرُّ فـي الباقـي. أمـا فـي اللغـات ذات الصـرف الإلصاقـي كالفرنسـية ونحوها الأنجليزيـة وغيرهمـا فينحـلُّ نفـسُ المدخل إلـى الجـذع واللواصق، كمـا في مثل (*childless*)، و(*singer*)، و(*secondary*) المتألِّـف مـن اللواحق *-less* *-er* *ary* والجذوع *second, sing, child* .

مبدأ التعميم وخلط الأنماط اللغوية.

مبـدأ التعميـم مقـوِّمٌ للسـانيات الكلية، وهـو يقتضـي بصحَّة فـي كل اللغات البشرية ما ثبتَت صحَّتُه في إحداها بشرط أن تكون مركزيةً كالأنجليزية.

مبدأ التعميم يستمدُّ مشروعيتَهُ أولاً من فرضية العمل الطَّبْعِيَّة التي تعتبر الملكة اللغوية معارفَ طَبْعِيَّةً (*idées innées*) منسوجةً خِلْقَةً في عضوٍ ذهني هذه المعارف أولية تُورَّث ولا تُكتسـب بالتعلم، بها يتمكَّن الفردُ من بـناء نحوٍ للغة المستعملة في محيطه. وثانياً من عقيدة النشـوء والارتقاء الذاهبة في الحقل اللغوي إلى أن اللغات المركزية أكثرُ نضجاً من اللغات الهامشـية الآخذة حتى الآن في التطور والارتقاء.

من مظاهر الخلط في الصرف.

عـدم التمييز بين الجـذر المرتص والجـذع الرخو، واسـتعمال أحدهما بمعنى الآخر، والحال أن الأولَ يُتيح ما لا يُتيحه الثاني.

غمـوض في الفكـر وارتباك في تعيين موقـع المكون الصرفـي ودوره بالقياس إلى باقي الفصوص اللغوية وسائر مكوناتها.

معالجـة موضوعـات الصـرف الوزنـي بقواعـد الصـرف الإلصاقـي يجعل في اللغـة موضـوع التطبيق ما ليـس منهـا، و لا يتوقُّع جميع مـا فيها. مـن الأول تعليق معنى الطلب في (اسـتطعم) بالسابقة (اسـت). ومن الثاني عدم التفريق بين (سابَقَ) و(سافَرَ).

التركيب؛ وهو الفص الرابع في كل لغة بشـرية، وهو ليـس كلياً ولا خاصاً بل نمطيـاً. وللتمييز بين العـوارض (أي الأحوال التركيبية كالرفـع والنصب، والوظائف النحويـة كالفاعـل والمفعول) تكـون اللغاتُ مخيَّرة بين وسـيطين اثنين: إما وسـيط

العلامة المحمولة وإما وسيط الرتبة المحفوظة.

مـن اللغات التـي اختـارت لفصهـا التركيبي وسـيطَ العلامـة المحمولـة نذكر 1) العربيـة إذ جعلت الضمـةَ علامـةً تُلصقها بذي الرفـع والفاعليـة، والفتحةَ علامةً أخرى تُلصقها بذي النصب والمفعولية، كما في مثل (فقهاً نَظَمَ مالكٌ). 2) الفارسية إذ خصَّـت ذا النصب والمفعوليـة باللاحقة (را)، وعلَّمت بالعلامـة العدمية ذا الرفع والفاعلية، كما في نحو (كتاب را خواند رِضى) بمعنى (كتاباً قرأ رضى). 3) اللاتينية التي أفردت المركب الذي تلقـى الرفع والفاعلية باللاحقة(a) وجعلت لذي النصب والمفعوليـة اللاحقـةَ (*em*) إعرابـاً عـن عوارضه. كما فـي مثـل (*hominem videt fimina*) بمعنى (الرجلَ رأتِ المرأةُ). 4) اليابانية بالمعربة باللاصقتين (وَ)، (أ) تباعاً عن وظيفتي الفاعل والمفعول، كما في المثال (موسى أُ كمثرى وَ أَكل). 5) الكورية التي تعـرب باللاصقتيـن (**نُـونْ**) و(**رُولْ**) بهـذا التتابع عـن فاعلية مركـبٍ ومفعولية الآخر، كما في نحو(موسى نون كمثرى رول أكلَ).

وكل لغة اختارت وسـيط العلامـة المحمولة تكون قد وفَّـرت لفصها التركيبي بنية قاعدية ذات رتبة حرة. من خصائصها.

- البنيـة القاعديـة الحـرة نمطيـةٌ تصدق فـي اللغـات التوليفية لا غيـر، وهـي لا تمنع ترتيباً تحتمله القسمة المنطقية.
- لتترتَّب المكونات الحرَّةُ في بنيتهـا القاعدية تحتاج إلى **قاعدة تنضيدية ذاتُ** طبيعة تداوليـة؛ فحواها أمـــرٌ بترتيب مكونـات الجملة وَفْقَ أصـول المبدأ التداولي.
- لا تُؤصِّل ترتيباً بعينه، ولا تَشتَقُّ ترتيباً من غيره.
- الجملـة (كُمَّثْرَى خضمت ليلى) ولَّدَتْها القاعـدةُ التنضيدية بهذا الترتيب من البنية القاعدية الحرة مباشـرةً، كما تولِّدُها بسـائر التراتيـب الباقية في مـثل (بُشـرى الحلوى قَضمت)، (جمعت الحصى فدوى)، (سفَّ رضى النشا)، (هدى كسرت العصا)، (ردَّد موسى الصدى).
- التراتيب السـتُّ المسـموحُ بهـا قاعدياً ليس لهـا نفس الـتردد فـي الكـلام، فالترتيـب الأبسطُ تداوليـاً يجـب منطقياً أن يكـون الأكثـرَ رواجـاً. وأقلُّها

استعمالاً أشحنُها تداولياً. وما لا يحمل غرضاً لا يجوز استعمالاً.

- حَرِّكْ الألف ليست من قواعد تركيب بنيتُه القاعديةُ ذاتُ رتبةٍ حُرَّة.

اختيار الأنجليزية من اللغات الشجرية لوسيط الرتبة المحفوظة يُوفِّرُ لفصِّها التركيبي بنيةً قاعدية ذات رتبة قارة، قُدِّم لها من التمثيلات ما يلي (شومسكي، نظرية العمل والربط، ص97)

$$P \longrightarrow sn - FLEX - sv$$

خصائصها.

البنيـة القاعدية القـارَّةُ نمطيةٌ في إطار اللسـانيات النسـبية؛ إذ لا تصدق إلا في اللغات الشجرية التي اختارت لفصها التركيبي وسيطَ الرتبة المحفوظة.

- بموجبها يُؤصِّل التركيبُ الشـجري ترتيباً بعينه، منه يَشـتَقُّ ترتيباً آخرَ يَسمح به، ويَمنع باقي التراتيب المحتملة.
- يحتاج التركيب الشجري إلى قاعدة التحريك التحويلية لإنتاج ترتيب فرعي من آخرَ أصلي.
- قاعدة التنضيد التداوليةُ ليسـت من قواعد التركيب الشـجري، كما لم تكن قاعدة التحريك من قواعـد التركيبي التوليفي، إذ كلتاهما قاعدةٌ نمطية، ولا يصير النمطيُّ كليّاً بالجعل.

س: ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟

ج: الاشـتغال بالبحـث في اللغـات يتطلب اسـتعدادات ذهنية تُؤمِّـن لصاحبها التعود على التفكير المنطقي، ومن كان في حياته الدراسـية يجد صعوبات في درس الرياضيات فسوف يستعصي عليه امتلاك ناصية اللسانيات. ومن وجد في نفسه ميلاً إلى التنقيب عن المفسِّـرات العليـة لمختلف الظواهر والمعطيـات الملحوظة انطلق إلى البحث اللساني من مبدأ عدم التساهل مع النفس، أو ركوب طريق المختصرات، وطلـب البحوث المريحة، بل عليـه أن يتوخى الإحاطة بالمكتـوب في كل ما جعله موضوعاً للبحث، لا يُغربل الفكر بمعايير غير معتمدة علومياً للمفاضلة بين النظريات أو الأفـكار، ينبغـي الحرص علـى التكوين بدون انقطـاع، وعلى الجمـع عندئذ بين توسـيع حصيلة الثقافة اللسـانية وتنمية الملكة النقدية، تحصـل الأولى بمطالعة أولاً

المكتبة اللغوية العربية القديمة وثانياً المكتبة اللغوية الحديثة، وبذلك يمكن تجنُّب الإسقاطات المفسدة للمعرفة. أما تنمية الملكة النقدية فتحصل بشيئين: أولهما بتتبع الخطوات التي يتبعها كبار اللسانيين الغربيين وهم يُشيِّدون نظرياتهم على أنقاض غيرها الآيل إلى الأفول. وثانيهما بالاطلاع الواسع على فلسفة العلوم في الفكر العربي القديم وخاصة الغربي الحديث. وحين تتكوَّن هذه العُدَّةُ المعرفية والمنهجية تعيَّن البحث عن أوجه انتفاع الوطن والأمة بها، بدءاً بفكِّ مشكلات اللغة العربية مع الناطقين بها وما أكثرها، ثم الإسهام في إيجاد حلول قطاعية بالتعاون المتين مع متخصصين في الرياضيات وآخرين في المعلوميات ونحو هؤلاء الذين يشكّلون ميداناً واحداً متداخل التخصصات.

الدكتور محمد المدلاوي

س: : الأستاذ المدلاوي، لقد أشار العالم الأنثربولوجي، كلود ليفي ستراوس، إلى أن اللسانيـــات بفضل توجهها العلمي، ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخـــرى إن هي أرادت أن تحقـــق نصيبا من العلم، هل تعتقـــدون أن نبوءة ليفي ستراوســ قد تحققت اليوم، وما هي أوجه الاتصال والانفصال بين التفكير اللغوي القديم ونظيره الحديث؟

ج: : لا أعتقـد أن من يتحلـى بقدر من الموضوعية يسـتطيع أن يشـكك اليوم في مثل هذه التوقعات، ولا أقول النبوءات، بالنظـر إلى المكانة التي تحتلها منهجية اللسـانيات اليوم في سـاحة علوم الإنسـان، وإلى الإنجـازات المعرفيـة الكبيرة التي حققها هذا العلم في بـاب موضوعه، الذي هو اللغة، إحـدى أهم الملكات المميزة للذهن الإنسـاني، وفي باب منهج البحث على الخصوص من حيث العلاقة الجدلية ما بيـن الفرضيات النظريـة والمعطيات التجريبيـة. إنها إنجازات لم تـأت من فراغ، بل كانت نتيجة تراكمات أسـهمت فيها أقوام وحضارات من جنسـيات مختلفة، من خـلال مختلف تجليات علم اللغـة باعتبار جوهر هذا العلم، وبقطـع النظر عن لفظ التسـميات حسـب العصور والمدارس (علـم النحو، علـم لغة، لسـانيات). من هنا يمكننـا القول إن اللسـانيات هي علم قديم وحديث في الوقت نفسـه. إن المشـكل يكـون أحيانا مجرد مشـكل تسـميات توهِمُنا أحيانـا أن هذا العلم قديـم، أو أن ذاك العلم حديث. أشـير هنا مثلا إلى أن «العربية» كانت تسـمى «اللسـان العربي»، ثم « اللغـة العربية»، ولا يعني ذلـك وجود اختلاف فـي الماهية المرجعية للتسـمية. وإذ بقيت تسمية علم الطب مسـتمرة الاستعمال مند القرون الوسـطى فليس معنى ذلك أن هـذا العلم كمـا هو قائم اليـوم هو علم الطب نفسـه كمـا كان قائما قبـل قرون. فكذلك ما أصبح يسمى اليوم لسانيات، هو علم قديم ولكن مناهجه الحديثة شكلت ثورة بالقيـاس إلى مناهج الماضـي. وإلا فكثير من الرؤى العلميـة المتبناة اليوم في إطار نظريات اللسـانيات الحديثة معبرا عنها بمفاهيم ومقولات متطورة حديثة، كان قد تـم التوصل إلى جوهرها فـي إطار تقاليد دراسـات لغوية موزعة مـا بين ما كان

يسـمى نحوا أو صرفا أو بلاغة، لكنها كانت تصـاغ صياغات أقل دقة وصورية. كما أن الاهتمـام باللغة لـم يكن مقصورا على اللغويين دون غيرهـم. فقد طرَق الفلاسـفة والمناطقة القدماء أبواب اللغة؛ كما أن قضايا اللغة حاضرة كذلك في أعمال فلاسفة معاصرين، وتعبر عن ذلك بكل وضوح الكثير من كتابات محمد عابد الجابري.

أعود إذن، مرة أخرى لأقول إن الوجه الحديث لعلم اللغة أو «اللسانيات» إنما يكمن في إعادة صياغة الأسئلة التي كانت مطروحة من قبل صياغة أكثر صورية وأقل تأثرا بالعوامـل الثقافية الأثنية والقناعـات الأيديولوجية (مسـألة الإلهام والاصطلاح مثـلا في التراث اللغـوي العربي)، وذلك مـا يحصل في كل مجـالات تطور العلوم (علوم الأحياء والفلك مثلا ودور القناعات الأيديولوجية في مدى تطورها). من هذا المنطلق، يكون الجديد بالنسـبة إلى اللسـانيات المعاصرة مقصورا على التجديدات التي تمت على مسـتوى هذه الصياغة الجديدة للأسـئلة. فـإذا تناولنها جوهر الجدة والثورة في اللسانيات التوليدية مثلا نجد أن شومسكي انطلق من سؤالين رئيسيين:

1- كيـف يمكـن لطفـل، مهمـا كان انحـداره الإثنـي، أن يحصّـل في سـنواته الخمـس الأولى، نظامـاً معرفيا معقدا هـو نحوُ لغة محيطـه، وصرفُهـا، وكافةُ أوجه بنائها واشتغالها، كيفما كان ذلك المحيط، وذلك اعتمادا على مجرد احتكاك سمعي منه بجمل من تلك اللغة غالبا ما تكون متقطعة يغلب عليها الحذف التركيبي اعتمادا علـى المقام ويطبع النطقَ الفعليَ بها الإدغامُ الصوتي في الحديث اليومي، كل ذلك بشكل غير منهجي وبغير أي بيداغوجيا؛

2- بمـاذا يمكـن أن تسـهم دراسـة الملكـة اللغويـة فـي فهـم طبيعـة المعرفة البشرية؟

إن هذا يعني باختصار، حسب الفرضية النظرية الأساسية للمدرسة التوليدية أن الذهن البشري مزود باستعدادات فطرية عامة لما يمكن أن يكون عليه نظام لغة بشرية طبيعية ممكنة، مبرمجة فيه برمجة عصبية مادية قابلة للتطور والتشكل على شكل لغة بشـرية طبيعية بعينها كلما توافرت مثيرات خارجية تجعله يحدد الاستعدادات العامة حسب النموذج العيني الذي يحتك به. فكما يولد الإنسان باستعداد لممارسة المشي مثلا، وباسـتعداد لبلـوغ البلوغ الجنسـي، بحيث يكـون كل من ذينك الاسـتعدادين

مضمنا في البرنامج الجيني للكائن ويتفتق ويتحقق عندما تتوافر بعض الشروط الخارجية المعينة (تغذية، الخ) بحيث إن هذا الكائن لا «يخطئ» مثلا فيطير بدل أن يمشي، أو «ينسى» فلا يبلغ الحلم الجنسي، فكذلك يولد الفرد مجهزا في برنامجه الجيني العصبي بـ»ملكة لغوية عامة» لا تنتظر إلا بعض الشروط الخارجية لتتفتق وتتحقق على شكل لغة خاصة (عربية، أمازيغية، فارسية، يابانية، إنجليزية، أردية، الخ). وفرضية اللسانيات التوليدية المعاصرة هي أن تلك الملكة اللغوية العامة المشتركة جينيا ووراثيا ما بين بني البشر، يمكن تمثيلها وصياغة نظامها صياغة صورية تجريدية-بقطع النظر عن وجه برمجتها الفيزيولوجية الدماغية التي تتناولها علوم أخرى-وذلك على شكل صياغة جوامع وكليات لغوية، كالقول مثلا بامتناع عودة الضمير على ما بعده لفظا ورتبة، أو القول بأن الاسم المعين لا يمكن أن يكون فاعلا ومفعولا نحويا في نفس الوقت. وجماع تلك الجوامع هو ما يسمى بـ»النحو الكلي» (*Universal Grammar*)، وهو ما تسعى اللسانيات الحديثة إلى الكشف عن ملامحه وإلى أوجه صياغته الصورية الممكنة.

س: : يبدو أن الثقافة العربية لم تستثمر منجزات الدرس اللساني بالشكل المطلوب، والأكثر من هذا أنها غير قادرة على مواكبة المستجدات اللسانية.

ج: : مشكل مواكبة مستجدات البحث اللساني وما يطرحه من صعوبات في العالم العربي، لا يختلف عن المشاكل المطروحة في هذا الفضاء فيما يتعلق بمواكبة مستجدات البحث العلمي عامة في سائر الميادين الأخرى. فالمسألة هي مسألة وجود «سوق للبحث» تروج فيها العلوم وتنخرط في آلية الرواج والتبادل في ميدان إنتاج المعرفة، وطلبها، واستهلاك منافعها الإنتاجية والتدبيرية. إن هذه السوق غير موجودة في هذا الفضاء بقدر من الاستقلالية يسمح بشروط الحياة والنمو. وهذا على عكس ما نجده في البلاد المتقدمة؛ فما من علم من العلوم إلا ونجد له هناك مؤسسات إنتاج أو تدبير سوسيو-اقتصادية تساعد على ترويجه مادته ليس على مستوى الإنتاج فقط، بل على مستوى الاستهلاك والطلب أيضا. فهل تعلم مثلا بأن مؤسسة الجيش الأمريكي يستهلك المعرفة اللسانية الأكثر تقدما ويخول منحا للبحث اللساني كما وقع لشومسكي نفسه الذي حصل من مؤسسة القوات

الجوية الأمريكية (*The US Air Forces*) على دعم مالي لإنجاز مقاله الشهير حول صياغة المصدر(*OnNominalization*) وعمله عمل فعله؛ وقد ثبت شومسكي، وهو من هو على مستوى المواقف السياسية، هذه الملاحظة في الهامش الأول لذلك المقال اعترافا بدعم تلك المؤسسة للبحث العلمي؛ هذا مجرد مثال.

كما أن دوائر المعرفة في فضاء الثقافة العربية الحالية تنعدم فيها شروط تكامل الاختصاصات وتداخلها، مما هو ضروري لاكتمال الدورة العلمية، ولاستقلالية الأسئلة العلمية وأصالتها حسب الميادين. واللسانيات معرضة أكثر من غيرها لاهتزاز الوضعية بسبب انتفاء مثل تلك الشروط بالنسبة إليها. إن أي علم من العلوم، سواء أكان رياضيا، أم فيزيائيا، أم لغويا، هو في حاجة إلى مؤسسات للإنتاج، وأخرى للاستهلاك والطلب؛ كما أن مجالات البحث نفسها تفرض هذا التكامل والتداخل. وفي هذا الصدد نشير إلى أن اللسانيات في المغرب قد عرفت، في فترة من الفترات، إقبالا كبيرا، إلا أنه كان إقبالا محدود الأفق من حيث نوعية محركاته؛ إذ كانت محركات سوسيولوجية من نوع أرضي-أرضي لها علاقة بالإطار العام لسوسيولوجيا التكوين والتشغيل بالنسبة لطلبة الآداب في السبعينيات والثمانينيات. فإذ أصبحت مادة اللسانيات نوعا من الموضة في شعب الآداب ابتداء من السبعينات من القرن العشرين في المغرب، فقد أصبحت إمكانية الحصول على منحة للدراسة في الخارج مرتبطة باختيار بعض التخصصات، وأهمها اللسانيات، التي تم بفعل ذلك التهافت السوسيولوجي «توسيع جُبّتها» حتى أصبحت تتسع لكل شيء (مثلا «قاموس كذا أو كذا عند الشاعر الفلاني» مع التزيين ببعض الجداول والأسهم والتشجيرات). إنه منطلق انتهازي كان يحمل في ثناياه برنامج محدودية أفقه.

أقول، باختصار، بأن مواكبة مستجدات البحث اللساني يطرح صعوبات لا تختلف في شيء عن تلك المطروحة في كل مجالات الفكر العلمي في ثقافتنا المغربية. ويزيد الأمر تعقيدا بالنسبة إلى اللسانيات بسبب كون هذا العلم يعتبر في نظر العديد من الناس من العلوم الكمالية، وهو اعتقاد لا نسلّم بصحته إلا فيما يتعلق بالتوازنات التي يتعين إقامتها بالنسبة إلى تكوين الأطر بحسب قطاعات البحث؛ إذ

ليس المغرب في حاجة إلى آلاف المجازين في اللسانيات بينما يسجل فيه مثلا عجز كبير في عدد المهندسين؛ إلا أن تكامل الدورة العلمية فيه من جهة أخرى، ما بين هندسة الإعلاميات، والترجمة الآلية، وصناعة الإشهار وفن التواصل، وكثير من علوم الإنسان النظرية والتطبيقية، لا يمكن أن يتحقق في غياب نواة متجددة من الأطر الكفأة في ميدان اللسانيات.

س: : اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي؛ التي اعتبرت اللسانيات بموجبها علما غربيا لا يمكن أن يفيد الثقافة العربية في شيء.

ج: أولا، إن العلم كعلم، أي كمعرفة بالطبيعة، أو بالبرهانيات والرياضيات، أو بالإنسان أو بالمجتمع، لا حدود جغرافية له، ولا قومية، ولا إثنية. فلا يمكن أن نتحدث عن علم عربي، وعلم غربي، وعلم ياباني، وعلم صيني، وعلم إفريقي بجنوب الصحراء... إن التمييز والتميّز يحصل ويقوم على مستويات وفضاءات أخرى، هي فضاءات الذهنيات والثقافة الضابطة للقيم الجمالية والروحية والسلوكية والتدبيرية. في هذه المجالات تحديدا يمكن أن نتحدث عن الأصالة، وعن الآخر، وما إلى ذلك. أما إقحام هذه الأبعاد في مجال العلم أو سجن العلم في قفص تلك الأبعاد فإنه مناف للعلم وقاتل له بحكم التعريف. ما معنى مثلا أن نتحدث عن رياضيات عربية إسلامية، أو عن رياضيات مغربية، أو عن فيزياء أمريكية، أو طب عربي، إذا لم نقصد بذلك «التأريخ» لتلك العلوم كما أسهمت مختلف الشعوب في تطويرها؟ وهذا يصدق أيضا على اللسانيات.

إن طرح مسائل الخصوصية حينما يتعلق الأمر بتطور العلوم إنما يعكس تصلبا أيديولوجيا يصيب الأمم والجماعات في فترات معينة من تاريخها. وعندما تغلب الإيديولوجيا على العلم، فإن ذلك يحد من تطوره، ما دامت الإيديولوجيا تعني، في معناها البسيط، «الذاتية»، سواء أكانت هذه الذاتية فردية أم جماعية، كما أن الإيديولوجيا درجات. وهكذا فقد بدأت اللسانيات مثلا أول ما بدأت في معسكر أوربا الشرقية، وتحديدا في براغ؛ ولكن تغليب إيديولوجيا معينة حكم عليها هناك بالتراجع. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الغرب، وخصوصا أمريكا وهناك وجدت تربة

خصبة؛ فرومان ياكوبسون (*Roman Jakobson*) وموريس هالي (*MorrisHalle*)، مؤسس علم أصوات اللغة الحديث، اضطرا في منتصف القرن الماضي إلى مغادرة أوروبا الشرقية، فوجدا في أمريكا ظروف البحث العلمي المتخلص من ربقة الإيديولوجيا. الشيء نفسه يقال عن واقع علوم الاجتماع والسيكولوجيا ما بين المعسكرين. إن العلوم لا يمكن أن تتطور وهي في قبضة الإيديولوجيا.

س: الأستاذ المدلاوي، هل من تقويم للسانيات في المحيط العربي؟

ج: تقويم اللسانيات في المحيط العربي يمكن أن يتم على مستويين: مستوى التاريخ ومستوى الحاضر. فأما على مستوى التاريخ فأقول بأنه لا نجد أحدا من العارفين يمكن أن ينكر ما حققته اللغويات العربية، وما لعبته من دور في تطور الفكر اللغوي الإنساني. فالبحوث العربية في هذا المجال هي من بين التقاليد الكبرى في مجال الفكر اللغوي العالمي إلى جانب التقاليد الهندية، والتقاليد الإغريقية.

وعلى المستوى التاريخي دائما، أود بهذه المناسبة أن أنبه إلى وجود حلقات مفقودة في التأريخ للغويات الإنسانية بصفة عامة، واللغويات التي كانت اللغة العربية حاملا لها على الخصوص، واللغويات المغاربية بصفة أخص. وأشير هنا تحديدا إلى حلقات انعقدت وخطوات نوعية تمت في شمال إفريقيا لفَّها النسيان. فمن المعروف أن المتتبعين لتطور الفكر اللغوي على المستوى العالمي يشيرون إلى بعض المحطات الأساسية التي شكلت منعطفات هامة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني: اكتشاف اللغة السنسكريتية، والمدارس الألمانية (النحاة الجدد، المدرسة المقارنة)، الخ. وفي هذا الباب درج الجميع على ربط ظهور الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة، التي مهدت للسانيات الحديثة، بأصول ألمانية، من خلال أعمال مدرسة النحاة الجدد: فرانز بوب Franz Bopp، وجاكوب كريم *Jakob Grimm*. ومن خلال هذا التأريخ بالضبط يتم القفز على ما تم إنجازه في شمال إفريقيا، وبالضبط ما بين مدينتي تهارت ومدينة فاس من جهة، وبلاد الأندلس من جهة ثانية، وهو إنجاز أسهمت في تحقيقه ظروف سوسيو-معرفية وسوسيو-لغوية وإثنو-ثقافية تتمثل خصوصا في التعدد والغنى اللغويين بالمنطقة حيث كانت تتداخل العربية، والأمازيغية، والعبرية، والآرامية، واللاتينية، والقشتالية، والبرتغالية،

الخ. وقد تداخلت هذه اللغات تداخلا وظيفيا؛ حيث كانت كل لغة من هذه اللغات تقـوم بوظيفة معينة فـي قطاع أو قطاعـات معينة (تجـارة دوليـة، إدارة محلية، دين، أدب، فلسـفة، علوم طبيعية، فنون، إلخ). وقد سمح كل هذا بظهور أولى المؤلفات في علم اللغة المقارن. ويمكن أن نشير، في هذا الصدد، إلى أعمال يهودا بن قريش التاهرتـي المغربـي، وخاصة رسـالته المعروفة في العبريـة بـــ «אגרת» إلى جماعة يهود فاس، حيث قام ابن قريش هـذا بإنجاز أول مقارنة ثلاثية بين العربية والعبرانية والآراميـة التـي كان يسـميها بالكلدانيـة، فأقـام قوانيـن التقابلات الصوتيـة بين هذه اللغات تماما كما فعل جاكـوب كريم *Jacob Grim* بعد ذلك بثمانية قرون فاعتبره مؤرخو الفكر اللسـاني، عـن جهل بالتاريخ الكونـي، أبا للسـانيات المقارنة من غير منـازع. وكتاب ابن قريش مؤلـف باللغة العربية ومدون بالحرف العبراني، وقد نشـر هذ الكتاب سـنة 1875م بباريس على يد العالم بركَـاش ***Jean-Joseph Barges***، ثم أعيد نشـره بتل أبيب سـنة 1984م بتحقيـق دان بيكر דןבקר بإشـراف العالم اللغوي أهـارون دوتـان אהרון דתן الفائـز بجائزة إسـرائيل سـنة 2005م، وكان أحد طلبتي في مادة اللغة العبرانية قد قام في بداية التسـعينات بقلـب الفصل الأول للكتاب من الحـرف العبرانـي إلى الحـرف العربي. ثـم إن هناك اللغـوي، ابن بـارون، في كتابه (الموازنة بين العربية والعبرانية)، وأبراهام الفاسـي، وآخـرون غيرهم ممن ألفوا في اللغويات بلغة عربية مدونة بحرف عبراني، وتلك خزانة غنية انقطع عنها السند لهذه الأجيال. وقد بلغت تلك المعارف المقارنة من البداهة، حينئذ، ما جعلها تنتشـر بين عموم المثقفين ممن ليسـوا لغوييـن، من أمثال ابن حزم الظاهـري، كما يتضح ذلك من مقدمة كتابه (الإحكام في أصول الأحـكام)، وذلك باعتبار تلك المعارف حينئذ مـن باب الثقافة العامة. من كل ذلك نسـتنتج أن شـمال إفريقيا عـرف حوالي القرن الحادي عشر الميلادي وجود مدرسة لسانية مقارنة انقطع عنها السند بعد ذلك سواء بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة من أبناء شمال إفريقيا أنفسهم، أم بالنسبة إلى الأجانب ممن اهتمـوا بالتأريخ للفكر اللغوي الإنسـاني. ولعل من بين أسـباب هذا التهميش الذي طال هذه الكتابات هو أنها كتبت باللغة العربية ولكن بحرف عبراني.

أمـا على مسـتوى الحاضر، فأقـول بأن ما ينبغي أن نشـير إليه هـو أن المغرب

متميز داخل محيطه الجهوي في مجال اللسـانيات. فبعدما كانت الريادة لمصر (عبد الواحد وافي، محمود فهمي حجازي، محمود السعران، تمام حسان، ...) لم تحافظ الأجيال اللاحقة هناك على اسـتمرارية تطور تلك التقاليد الريادية التي انفتحت على اللسـانيات في وجهها التاريخي المقارن ثـم البنيوي، فتصلبت اللسـانيات في ذلك المستوى ولم تستطع مواكبة التطور، ربما بفعل تصلب علاقات الأستاذية في محيط ثقافي لا يثق فيه جيل سـابق بما هو جديد، لمجرد أنه جديد تستعصي عليه مواكبته، فيتخـذ من الحساسـية الشـعارية ضـد كل ما هـو جديد وسـيلة للاحتفاظ بأسـتاذية سـلطوية يعوض بها الأسـتاذية العلمية. أما في المغرب فمنذ بداية السـبعينيات ظهر جيل أول، كما أسلفت، من الباحثين الذين تمكنوا من أسس المعرفة اللسانية انطلاقا من الجامعات الغربية، مما سـاعد على تكوين ما يمكن أن نسـميه «وسـط لساني»، فتكونت أفـواج من الطلبة، بفضل مجهودات شـخصية في أغلـب الأحيان أكثر مما يتعلـق الأمر بتأطيرات مؤسسـاتية؛ ولعل فـي ذلك النصيب من الحريـة البيداغوجية ومن عدم إحكام تعميم الأستاذية السلطوية المتصلبة على الجميع، ما كان في صالح تطور اللسـانيات. وقد كان ترسخ اللسانيات في شـعب اللغة العربية أقل منه مقارنةً مع شـعب اللغات الأجنبية في الداخل والخارج، التي أسـهمت في تكوين نخبة من اللسانيين المغاربة أصبح لهم حضورهم القوي، ليس في المغرب فحسب، بل على المسـتوى العالمي. يظهر ذلك في إسـهامهم الفعـال في تطوير البحث اللسـاني في مجالات التركيب والصوتيات والصرف. ويلاحظ اليوم، في نوع من الإشـفاق على مسـتقبل اللسـانيات بالمغرب، أن الكثير من هؤلاء الأطر قد انقطعوا عن الممارسـة الفعليـة للبحـث والتأطير فـي الجامعة المغربيـة، حيث اسـتأثرت بهم مهـام مكتبية أخرى لها من الإشـعاع والرمزية، في إطار المحيط السوسـيو-ثقافي السائد، إضافة إلـى مردوديتها الماديـة، أكثر مما للتفرغ للبحـث العلمي والتأطيـر، وذلك وجه من أوجه الإهدار وإضاعة المال وإخطاء سبل المردودية على مستوى المجتمع.

إن الإشـكال الذي تعاني منه اللسـانيات فـي ثقافتنا الأكاديمية اليـوم إذن، هو مشكل الاستمرارية: فإلى أي حد تستطيع اللسـانيات في المغرب، في ظل الشروط السوسـيو-ثقافية المشـار إليهـا، أن تواكـب، جيـلا بعـد جيـل، سلسـلةَ التطـورات

المستمرة للأطر النظرية، وللأوجه التطبيقية لهذا العلم على المستوى العالمي، والتي تزداد وتيرتها سرعة يوما بعد يوم بفعل تسريع آجال التأليف والنشر بفضل الوسائط الاتصالية الالكترونية خاصة؟ ويزيد إلحاح السؤال عندما نعرف أن السوق الداخلية لا تساعد من حيث الطلب والاستهلاك، ولا حتى من التقدير الرمزي لمهنة البحث عامة. فالمواكبة تفرض حاليا ارتباطا مستمرا بمؤسسات أجنبية، ونوعا من الغربة عن الوسط السوسيولوجي المباشر. ويسهم في هذا الوضع طبيعة اللسانيات نفسها، التي تتميز بطابع علمي صوري يفتقد كلَّ أشكال «المتعة الأدبية» والفطرية بالشكل الذي تربينا على تصوره وتذوقه حسب مفهومنا الثقافي للمعرفة باعتبار التعبيرية والخطابية قطب رحاها، وبذلك تفرض اللسانيات، بالمقابل، تحملا سيكو-اجتماعيا كبيرا في المتابعة والمواكبة إضافة إلى المجهود الذهني، وذلك في وسط عامّ لا يتابع، ولا يناقش، ولا يبحث أصلا.

س: نعتقد أن اللسانيين العرب أسهموا بشكل أو بآخر في الوضع الحالي للسانيات: غياب كتابة لسانية تيسيرية تقرب اللسانيات من القارئ العربي؟

ج: أتفق معكم تمام الاتفاق حول هذا الأمر. إن الخطاب اللساني الموجه إلى قراء العربية يطرح صعوبات عدة؛ من بينها انقطاع السند على مستوى المصطلحات والمفاهيم. أعني بهذا أن البحث في هذا المجال لم تتم إعادة بنائه على أسس ربط انتقالي بيداغوجي للحديث بالقديم، على مستوى الجهاز المصطلحي والمفاهيمي أثناء عرض المقولات والبنيات والآليات التصورية الجديدة في حد ذاتها، وذلك بخلاف اللسانيات في البلاد المتقدمة التي تطورت فيها الآلة الاصطلاحية في تدرج لم يخلق قطيعة معرفية تصوّر للمتلقي بأن الخطاب اللساني يتناول شيئا جديدا في جوهره، مخالفا في الطبيعة لما كان تعالجه علوم النحو، والصرف، والأصوات والمعجم. ويترتب على انقطاع السند المشار إليه وجهٌ آخر للمشكل لا يقل أهمية، ويتمثل في غياب كتابات تعنى بالتيسير، أي ما يسمى ***vulgarisation***، والذي تحتاج إليه كل العلوم لكي تترسخ في وسط معين، ولكي يمر منها باستمرار نصيب معين إلى دائرة الثقافة العامة المشترك فيها. وفن تيسير العلوم فن يتطلب مهارة بيداغوجية خاصة، بالنظر إلى طبيعة القارئ المستهدف، لا تتوفر دائما وبالضرورة في الباحث

المنتج للمضامين العلمية. فشومسكي مثلا عبقري من حيث إنتاج المضامين العلمية، ولكنه لا يكترث بالجانب البيداغوجي في التقديم. إن أناسا من أمثال رايمزديك *Henk Riemsdijk*، وميخائيل كينستوفيتش *Michael Kenstowicz* هم البارعون في تيسير مضامين نص لساني لتسري في أوساط متوسط أهل الفن، وتصبح بعد ذلك من المكتسبات العامة في المجال.

الإشكال الآخر الذي تولد عن انقطاع السند وعن القطيعة الاصطلاحية والمفاهيمية هو استفادة المدعين، وهم كثر، من كل أنواع الخلط المتولدة عن ذلك الانقطاع، وذلك لترويج خطابات تُحسَبُ على اللسانيات بحكم عناوينها، على الرغم من كونها محض هذيان ولغو لا مضون لهما. إن اللسانيات باعتبارها علما من العلوم الإنسانية غير ذات مناعة ضد ما يمكن أن نسميه بالشرلطانية و»الشعوذة الأكاديمية«. وهذا يجعل الكثير من الكتابات التي تُحسَب على اللسانيات تُنفر الناس، من ذوي الجد، عنها؛ أما المستخفون منهم والإمعات فيفتعلون الفهمَ حيث لا يوجد في واقع الأمر ما يمكن أن يُفهَم، بل ويعقبون بنصوص أخرى أكثرَ لغوا يدعون من خلالها بأنهم «غير متفقين»، وبذلك تروج سوق اللغو والشعوذة اللسانية؛ وقد سبق لي أن كتبت في هذا الأمر مقالا منذ حوالي عشرين سنة.

س: لقد خطت اللسانيات خطوات مهمة في العالم المتقدم؛ فمن جهة هناك كثرة النماذج والنظريات ومن جهة ثانية هناك تعقد وتشابك الخريطة التصورية لأحياز البحث في التركيب والصرف والدلالة والمعجم يصعب أحيانا تمثل أسسها وإمكاناتها وآفاقها؛ كما أن التداخلات المعرفية التي فتحتها الثورة المعرفية مع نمو العلوم المعرفية غيرت خريطة العلاقات بين اللسانيات من جهة، وبقية العلوم المتداخلة مع هذا العلم في الموضوع كعلم النفس، وعلوم الذكاء الاصطناعي، والمنطق من جهة ثانية. كل هذا يطرح إشكالا بالنسبة إلى المؤسسات العلمية العربية التي تحتاج إلى تجديد تصوراتها لخارطة العلوم من حيث الأولويات، ومن حيث بيداغوجيا التكوين ورسم المسالك والمجزوءات والمقررات الأكاديمية. ألا تعتقدون أن مسالك تشخيص الأزمة متعددة، منها ما هو إبستمولوجي يتعلق بأدوات التصور من مقولات وأطر نظرية ونوعية خطاب كما أشرتم إلى ذلك على التو، ومنها ما يتعلق بتخطيط البحث العلمي وبسوسيولوجيا طلب المادة العلمية، وإنتاجها، وتبادلها، واستهلاكها، ورعاية مؤسساتها؟

ج: إن البعد الابستمولوجي قائم فعلا وضروري لفهم حقيقة ووظائف مختلف مجالات البحث بما فيها البحث اللساني. ألا ترى أن الإطار المعرفي الذي كان يؤطر بحث القدماء قد جعلهم يميزون مثلا بين علوم الآلة وعلوم الغاية، وأن ما يعتبر منها علوم غاية في مستوى معين من مستويات التصور يصبح عبارة عن آلة ووسيلة في مستويات أخرى؟ ومع ذلك فهناك من العلوم ما هو آلة بامتياز وغاية بامتياز؛ إنها العلوم المعرفية الصورية، كالرياضات، واللغويات، والمنطقيات. فبالرغم من أن هذه العلوم الصورية تطلب لذاتها كغاية في الأطر المعرفية الحديثة، فإن سائر علوم الطبيعة، والإنسان، والمدينة، في حاجة إلى ما توفره هذه العلوم المعرفية الصورية من أدوات مقولية ومفهومية وعملياتية لكي تصوغ بها تلك العلوم قضاياها وأسئلتها وفرضياتها ونظرياتها.

ولكن لم تعد مثل هذه الثقافة العلمية قائمة. فالمنطق مثلا، وهو أب العلوم الصورية المساعدة الأساسية، قد غاب عن الجامعة المغربية والجامعات العربية في تواز مع تغييب الفلسفة، التي غابت معها الكثير من الأسئلة الابستمولوجية، فتكونت بذلك أجيال لا تطرح مسائل المعرفة أبدا، ولا تطرح المشاكل التي طرحت مع بداية النهضة الأوروبية، مثلا، طرحا عميقا. فنحن نعيش في عالم انطلقت قاطرته العلمية والتكنولوجية الأولى مع بداية النهضة الأوربية. هذا هو العالم الذي نعيش في ظرفيته على جميع المستويات (خصوصا مستوى الاستهلاك المادي) ولكننا خارج روحه وجوهره. إن الأمم التي تريد أن تنخرط في الحضارة المعاصرة يجب أن تهضم أسئلة فترة الأنوار التي لا يمكن منطقيا القفز عليها باسم خصوصية معينة، وذلك لأن أبعادها ومنطلقاتها كونية. غير أن ثقافتنا مازالت بعيدة عن الانخراط في هذا التقليد لأسباب إيديولوجية محضة قائمة على الخلط بين مجال العلم، بما فيه نظرية الأخلاق (*Ethique*) من جهة، وهو مجال كوني، ومجال الثقافة والإبداع من جهة ثانية، الذي هو مجال إبراز الخصوصيات. وبما أنه ليس هناك قط وقت لفوات الأوان بالنسبة إلى الخطى الجدية الصغيرة اللازمة لقطع المسافات الكبيرة، فلا مناص من العودة للتشبع بروح النظريات العقلانية والأسئلة الكبرى التي كانت تؤطر السؤال العلمي في ميادين الطبيعة، والسؤال الأخلاقي في ميادين الإنسان

والمدينة في فترة الأنوار.

س: **فهل ترون إذن، بأن المحـــاولات الجارية لإعادة الاعتبار للفلسفة تترجم بروز وعي بخطورة المشاكل التي تراكمت إبان مرحلة التغييب السابقة؟**

ج: أخشـى أن تكـون إعادة الاعتبار للفلسـفة مندرجة في إطـار أضيق، لخدمة أهداف إيديولوجية نفعية بالأسـاس من الناحية السياسـة تحت ضغط ظرفية سياسية تتميـز بانقلاب السـحر على السـاحر من خلال اسـتقواء الفكر الدينـي الذي تجاوز مرحلة مواجهة المثقفين إلـى مواجهة الأجهزة الحاكمة التي أصبح ينازعها السـلطة بالسـلاح. فقد حوربت الفلسـفة في وقـت من الأوقـات محاربة مؤسسـية لأهداف سياسية، في إطار محاربة الفكر الماركسي، كما لو أن الفلسفة، كنمط للتفكير، ترتد إلـى نظريةٍ بعينها من النظريات الفلسـفية، ثـم جاءت الآن محـاولات لإدماجها من جديد. ولكن إعادة إدماج الفلسـفة هذه لم تكن، حسـبما يبدو لي، ثمرة وعي بقيمة التفكير الفلسـفي في حد ذاته كشرط من شـروط أي نهضة يدافع عنها منتجو الفكر الفلسفي أنفسهم كما دافع سـقراط وكوندورساي، بل لعلها مجرد تجريب وتوظيف أيديولوجي مرحلي غاياته سياسية في إطار محاربة بعض التيارات السياسية الحالية. إذا كان الأمـر نابعـا من قناعـات نفعيـة توظيفية كهذه، فإن ما يسـمى بإعـادة إدماج الفلسـفة محكوم عليه بالفشـل سـلفا. والحال أنه لا علم، بل لا دولة حقيقية، بدون فضاء للفلسفة في المدينة. فمن السهل بناء أيديولوجيا شعاراتية تعبوية تحرك العامة والجمهور الخام تحريكا حركيا؛ ولكن ليس من السـهل بناء جهاز فلسفي متماسك وقـوي ومقنِــع للعقل بذاتـه، يخول للعقـل حريةَ التفكيـر، وحريةَ صياغة الأسـئلة، إلى أن تبقى المسـألة مجرد مسـألةِ حرية تعبير عن تلك الأسـئلة، فيكون حلها شأنا سياسـيا. فالمعضلـة هي انتفـاء حرية التفكيـر على مسـتوى المكون الثقافـي لذهنية أفراد المجتمع، وليس انعدام حرية التعبير على المستوى السياسي. لكل الاعتبارات السـابقة يمكنني القول إن تغييب الفلسـفة وتغييب ما يرتبط بها ويتأسس في مناخها من علوم اجتماعية لم ينعكس سـلبا على تلقين وتلقي اللسـانيات فحسب، بل على العلوم كلها في مشـهدنا الثقافي العام، وهذا ما يفسـر سهولة انتشـار الفكر الخرافي فـي العقود الأخيرة في أوسـاط المواد العلميـة بالجامعة وفي الصحافة ومنشـورات

العامة (الشعوذة بمحاولة إثبات أن كل علوم الفيزياء والطب والفلك، الخ. مشفرة تشفيرا في التنزيل)، ذلك أن تلك المواد تلقَّن كمجرد ركام من الوصفات الجاهزة خارج أي تأطير فلسفي.

س: تتعلق المسألة إذن، بالمجال المادي لإنتاج الأفكار الذي يخضع لتنظيم وهيكلة من طرف السلطة التي توزع الأدوار وتقنن وظائف المنتوج المعرفي استنادا إلى اعتبارات ظرفية.

ج: إن الإشكال المطروح لا يمكن أن نعتبره مع ذلك مجرد إشكال تنظيم، وتدبير، وهيكلة، على سبيل الحصر. إنه أكثر من ذلك بكثير. إن جوهر المشكل هو ما إذا كانت للنظام الثقافي السائد ثقة في العلم كعلم، أي ما إذا كانت فيه للعلم قيمة محترمة في حد ذاته بالقياس إلى غيره (كالسياسة، والإدارة، والتجارة، والرياضة) في سوق الرمزيات والنفعيات. على هذا المستوى بالضبط، نجد أن مجتمعنا قد عرف نوعا من النكوص فيما يتعلق بقيمة العلم باعتباره إنجازا بشريا يجعل الإنسان قادرا على أن يفعل في الطبيعة وأن يعبر عن معطياتها بشكل صوري. إن المسألة إذن، ليست تنظيمية فقط؛ إن المشكل مشكل تربوي كذلك يتعلق بتكوين وتكييف الذهنيات والعقليات، وهذا يعني أن معالجته تكمن في تكامل جدلي بين الإجراءات التدبيرية المؤسسية الرسمية للشأن التربوي والثقافي العام من جهة، وبين الفعل التنويري للنخبة الحرة من جهة ثانية. وحينما تحقق تطورات وثورات على مستوى العقليات والذهنيات، يأتي التنظيم والتدبير الملائم من تلقاء نفسه.

س: إن أي وضع لغوي تعددي يقتضي تدبيرا عقلانيا محكما للتعدد على هدي المشروع المجتمعي المنشود؛ وذلك من خلال توزيع متوازن عقلاني تكاملي لوظائف اللغات المتعايشة. ما قولكم في الوضع اللغوي المغربي القائم وفي الكيفية التي يتم فيها التعامل معه؟

ج: الواقع اللغوي المغربي واقع تعددي. وهذا التعدد هو القاعدة في تاريخ المغرب. ففي إطار هذا التعدد اللغوي حققت الأجيال ما حققت، وخلفت لنا ما خلفت. فالذي يتغير، بحسب معطيات التاريخ الجهوي والعالمي الذي يتفاعل معه المغرب، هو عينية اللغات التي تشكِّل فيه عناصرَ ذلك التعدد تواكبا وتناوبا (ليبية، فينيقية، بونيقية، آرامية، عبرية، لاتينية، عربية، قشتالية، رومانثية، برتغالية، اسبانية،

فرنسـية، انجليزيـة)، وليـس مبدأ التعدد فـي حد ذاته وجـودا وعدما. فمـن ذا الذي بإمكانـه أن يثبـت وجود فتـرة من الفتـرات عبر تاريـخ المغرب-فتـرة ازدهار مدني حضـاري كانت أم فتـرة اضمحلال وانحـلال- تتسـم بالأحادية اللغويـة؟ على هذا الأسـاس نقول إن قضية التعدد اللغوي ليسـت جديدة سواء كواقع أم كطرح وصفي سوسيو-لسـاني. ليس هناك جديد بخصوص مبدئية وجود هذه المسألة. التغيير إنما يحصل على مسـتوى التعامل مع تدبير ذلك التعدد اللغوي. هذا التدبير يتخذ أوجها مختلفة ويسـفر عن تراتبيات، ووظائفيات، ورمزيات سوسـيولغوية مختلفة، بحسب منظومة القيم الأيديولوجية القائمة والمؤسسة له في فترة من الفترات.

لقـد اسـتتبت عقب اسـتقلال المغرب مثـلا مجموعة مـن القيـم الأيديولوجية أساسـها الجنـوح نحو الرفع مـن قيمة وحدانيـة الأبعـاد الانتمائية، بقطـع النظر عن منطلقات الإطار العقدي (وحدة اللغة، وحدة القومية، وحدة الدين، وحدة الحزب، وحـدة العمال، وحدة النقابة، وحـدة ومركزية الحكم الخ)؛ وقـد انعكس ذلك على كيفية واتجاه وغائيات تدبير الملف اللغوي، وذلك من خلال التدخل على مستويات قطاعـات التعليـم، والإنعاش الثقافـي، ومصالـح العدالـة، ومرافق الشـأن المحلي، ووسائل الاتصال، وذلك في اتجاه تراتبية ووظائفية ورمزية سوسيولغوية معينة. وفي وقتنـا الراهن دخلت على الخـط قناعات أخرى أخذ ينخرط فيهـا الفكر، وذلك في اتجـاه الرفع من قيم الديموقراطية، وحقوق الإنسـان، والحق في الاختلاف؛ فكانت للملف اللغوي علاقـة جدلية مع هذا الواقع الجديد تأثيرا تأثرا. فمن ذا الذي يمكن أن ينكـر بأن الخطـاب المطلبي اللغـوي الأمازيغي كان، في المغـرب الحديث، من بين مؤسسـي قيم الاقتناع بالحق في الاختلاف وبواجب تدبيره، مما سـمح بالتدرج نحو الفكر التعددي الذي لا يرى، مثلا، في تعدد الأحزاب بالضرورة تهديدا للوحدة الوطنيـة ولا تعدد النقابـات بالضرورة تشـتيتا للطبقة العاملة؟ ومـن ذا الذي يمكن، مـن جانب آخر، أن ينكـر بأن ما عرفه تدبيـر الملف اللغوي من تقـدم على الصعيد الرسمي انعكاسٌ، بالمقابل، للاتجاه السياسي العام الذي انخرط فيه المغرب عموما منذ سـنوات، والـذي انعكس كذلك علـى ملفـات اجتماعية أخرى كملـف المرأة، ومفهوم السلطة، والحريات الفردية والجماعية.

إن التعـدد أمر طبيعي، وفي ظل هذا التعدد متى ما أحسـن تدبيـر أمره أنتجت الحضـارة العربيـة والمغربية آثارا خالدة. يبقـى فقط أن نعرف الكيفيـة التي ندبر بها هـذا التعدد، والتي تمكننا من الاسـتفادة من المزايا التي يوفرهـا. إن التدبير اللغوي يفرض وضع لغة معينة في المكان العقلاني المناسـب لها بمقتضى ميزان التوازنات اللازمة إقامتها بين الوظائـف الرمزية والهوياتة لتلك اللغة مـن جهة، وبين معطيات الوقت من جهة ثانية. وإلى جانب التدبير السوسيو-لغوي العام للتعدد، أو ما يمكن أن نسميه «الماكرو-تدبير» على صعيد الفضاء الاجتماعي، لابد من تدبير بيداغوجي لذلك التعدد، أو ما يمكن أن نسميه «الميكرو-تدبير» على صعيد قطاع التعليم.

وكمـا أن الدول الواعيـة المنخرطة في العصـر تجتهد باسـتمرار لتكييف تدبير واقعهـا اللغوي بحسـب مقتضيات العصر ليس فقـط على الصعيـد الداخلي، ولكن كذلك على الأصعدة الجهوية والعالمية، بحسـب قدراتها وطموحاتها ومسؤولياتها، فـإن على المغـرب أن يكون لـه اجتهاد علـى تلك الأصعـدة كذلك بمـا يتوافق مع قدراته ومطامحه.

ســ: إن أي تخطيط وبنـاء للتعدد له كلفة تقاس اقتصاديا بـالقدرة على توفير الوسائل والإمكانيات التقنية لتنفيذه وصياغة برامج إصلاح واضحة مع تعميمها. كما أن له كلفة تقاس اجتماعيا بـالقدرة على ضمان استقرار هويـاتي داخل نسيج سوسيو-لسانــي مركب في بلـــد متعدد الأبعاد مثل المغـــرب. ألا ترون أن الإرادة العامة في البـــلاد تتجه نحو المأسسة اللغوية الفاعلـــة بتشكيل أكاديمية محمد السادســ للغة العربية، والمعهد الملكــي للثقافة الأمازيغية، ومع ميثاق التربية والتكويـــن، بحيث يمكن أخيرا القول بـأن الدولـــة أصبحت تضع حسابات متوازنة للكلفة والفائدة لصالح التوازنات اللغوية؟

ج: تدبيـر التعـدد يبـدأ بمـدى تقـدم الفكر الجمعـي وإدراكـه أن التعـدد واقع طبيعي، وأن لهذا الواقع الطبيعي علوما تتناوله: سوسيو-لسـانية وتربوية. إن بإمكان هذه العلوم أن تشـخص الواقع، فتُبنى على أساس ذلك التشخيص برامجُ في ميادين متعددة في مجالات التربية، والإعلام والاتصال، والتنمية البشرية والاقتصادية.

فعلـى الرغم مـن التقدم الـذي أحرزته اللسـانيات عندنا في المغـرب، فإننا ما زلنا نلاحظ شـبه غياب للسوسيو-لسانيات والسيكو-لسـانيات. وترجع أسباب هذا

الوضع إلـى غياب العلـوم الاجتماعية عامـة نتيجة لتغييب الفلسـفة كما أشـرنا إلى ذلك مـن قبل. إن ما نتوفر عليه من معالجات سوسي-لسـانية وسيكو-لسـانية قليل جدا. كمـا أن الدراسـات القليلة المتوافـرة في هذا المجـال مكتوبة بلغـات أجنبية. أضف إلى ذلك أن هذا النوع من الدراسـات ما زال بعيدا كل البعد عن ثقافة «طلب العروض لإنجاز دراسـات». نعني بذلـك أن تطلب مثـلا وزارةٌ، أو إدارة أو حزبٌ، أو نقابـة، أو هيئةٌ مـا، من خبير فـي الميدان، الإجابةَ عن أسـئلة معينـة يتوقف على الإجابة عنها تدبير أمر مسـألة تابعة للقطاع المعني. إن مثل هذه الثقافة غير موجودة في تقاليدنـا التدبيرية. ولذلك يبقى التدبير اللغوي في المغرب سـواء على مسـتوى المؤسسـات الحكوميـة أو الحزبية، رهين مبـادرات الحدس وما يسـمى بـ«**الدمغي**» سواء على مستوى صياغة الأسـئلة، أم فيما يتعلق بوضع البرامج والخطط. زد على ذلك إن المؤهل لصياغة الأسـئلة العلمية الكبرى المثوّرة للمعرفة بخصوص إشكال من الإشـكالات التي يحس بها المجتمع دون أن يقوى علـى بلورتها، هم الباحثون الفرادى الأحرار، وذلك بمجرد فضول علمي، وليس استجابة لبرنامج أسئلة توجيهية تسطره مؤسسـة معينة لتدبير البحث العلمي ولا لطلب مصلحة أو قطاع حكومي أو حزبي. أما المجتمع المدني والخطاب السياسـي فيعبر عن الأسـئلة بطرقه الحدسية المعتمدة على الرأي والمسـتعملة للخطاب شـبه العامي، ومن ثمة فهما لا يصوغان الإشـكالية صياغة علمية يمكن أن تنبني على أساسـها مخططـات للتدخل والتدبير، بـل غالبا ما يتخـذ فعلهما طابـع التدافع والسـجال السياسـي الذي هو، في أحسـن الأحوال، مؤشـر على وجود إشـكال معين دون تشـخيصه، وغالبا ما يهتم السياسي بالوجه التدافعي ويفوته أن للأمر وجها معرفيا.

ومع ذلك فمن الأكيد أن هناك مجهودات تأسيسية تبذل حاليا للدفع في اتجاه أكثـر عقلانية، وذلك من خلال نصوص مؤسسـة مـن قبيل «الميثـاق الوطني للتربية والتكويـن»، و«الظهير المؤسـس للمعهد الملكـي للثقافة الأمازيغيـة»، ثم من خلال البـدء فـي تفعيل هيـاكل هـذا المعهد، وكذلـك من خلال مشـروع أكاديميـة محمد السادس للغة العربية والمجلس الأعلى للتعليم. ولكن هذا كله يحتاج بالضرورة إلى خطة عقالنية وآلية شـفافة ومسطرة صورية لترشـيد تزويد هذه المؤسسات بمواردها

من العنصر البشري المناسب لكل منها من حيث الكفاءة التكوينية والتجربة المهنية، هـذا العنصر الـذي تتحكم نوعيته فـي الدفع الفعلي بـروح تلك النصـوص في هذا اتجاه الفلاح أو الفشـل، مهما كانت عبقرية إحكام صياغة المشـرع لتلك النصوص في اتجاه دون آخر. لكننا لا نجد لحدّ السـاعة خطة ومسـاطر تضمن تلك الشـفافية وذلـك الترشـيد، يسـتعان فيها، إن اقتضـى الحال ذلـك، كما تفعل ذلك مؤسسـات عريقـة علـى الصعيـد العلمـي وتدبيـر شـأن الأطـر، بخبـرات خارجيـة (***External Examiners***) لمعالجة ملفات المشاريع. إن ميكانيزمات اختيار العنصر البشري تبقى عنصرا حاسـما في هذا المجال؛ وهي ميكانيزمات كانـت تخضع في مغرب الأمس لاعتبارات الـولاء المخزني فأصبحت اليـوم تحكمها كيمياء التوازنـات والتمثيلات القطاعية والفئوية: تمثيل الألوان الإثنو-جهوية والبيوتاتية، تمثيل الألوان السياسية-النقابية، تمثيل الألوان الأيديولوجية، تمثيل النساء تمثيل الإدارات المعنية، الخ. حتى إن الأمر يؤدي في النهاية إلى تمثيل كل الأطياف ما عدا المعنيين الأساسيين (خبراء التربية العامة، وخبراء المواد الدراسـية، وخبراء التوقع والتخطيط بالنسـبة للمجلس الأعلى للتعليم مثلا، الخبراء المناسـبون حسـب التكوين والإنتاج بالنسبة لأكاديمية اللغة العربية، ومثل ذلك بالنسـبة للمعهد الملكي للثقافـة الأمازيغية، وغير ذلك من المؤسسات السامية التي يعهد إليها بإنجاز الدراسات والخبرات).

س: في ختام هذا الحوار نريد منكم، الأستـاذ المدلاوي، تحديد أهم القضايا التـي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب والمحافظة على استمراريتها.

ج: كنت قـد أجبت عن مثل هذا السـؤال من خلال مشـروع اقتراحيّ رسـمي اسـتجبت من خلاله لطلب التقدم بمشاريع لتسيير مؤسسة للبحث، وألتزم هنا بنشره وتعميميه فـي تفاصيله حينما يحل الوقت المناسـب. وخلاصة ذلك المشـروع فيما يتعلـق بسـؤالكم أنه يتعيـن على البحـوث اللسـانية العربيـة، إن هي أرادت مسـايرة الركـب، أن تتجـاوز العقليـة النرجسـية المتمثلة فـي التسـليم المجاني بـأن البحث اللسـاني باللغة العربية لا يمكن أن ينصب، وإلى الأبـد، إلا على اللغة العربية ذاتها. إن تطويـر الآلـة الواصفـة لهذه اللغـة، والرفع مـن قدراتهـا التصوريـة، والمفاهيمية الاصطلاحيـة، والصياغيـة، أمـور لا يمكـن أن تحصل، كما هو شـأن بقيـة اللغات،

إلا بانفتاح هذه اللغة وبجرأتها على تناول لغات أخرى، قريبة أو بعيدة، بالدرس والوصف. فيما يتعلق بتجربتي الشخصية في ميدان التكوين اللساني للأطر- وبقطع النظر عن أبحاثي العلمية والمنشورة في هذا الباب وفي هذا الاتجاه الذي أرى أنه الأصوب لتطوير اللسانيات العربية، لم أشرف على عشرات وعشرات الأطاريح الأكاديمية بشكل يخل بشروط الإشراف لمجرد توسيع نفوذ الأستاذية بشكل إداري كما أشرت إلى تلك الممارسة سابقا؛ ولكنّ ما أشرفت عليه وتمت مناقشته إلى اليوم من أطاريح في قسم اللغة العربية تحديدا، يسير في هذا الاتجاه، اتجاه جعل العربية حاملا من حوامل المعرفة بها وبغيرها (أطروحة حول الاستفهام في العربية الفصحى، أطروحة حول إدغامات وإبدالات العربية الفصحى؛ ثلاثة أطاريح لسانية منصبة حول الأمازيغية ما بين تركيب وصرف وأصوات؛ أطروحتان حول العبرانية). وأضيف أنه في اليوم الذي يسمع فيه المرء مثلا عن سلسلة من الأطاريح الجامعية تنجز باللسان العربي، وتناقش باللغة العربية، في شعب العربية، وتدور حول تنازع العمل (*Theta Role Conflict*) في العبرانية، أو حول قواعد الغنة (*Nazalization*) وأسسها في الفرنسية، أو حول انقطاع الجارّ عن المجرور (*Stranded Preposition*) في الإنجليزية، أو عن الجار المنقطع والمتحرك إلى موقع الصدارة (*Pied-piped Prepostion*) في الإنجليزية والأمازيغية، أو عن أسس التركيب الحصري (*Cleft Construction*) في الأمازيغية أو في العربية المغربية الدارجة، أو عن أسس تحرُّك العناصر المرتبطة (*Clitic Movement*) في الأمازيغية، أو عن قواعد النبر (*Stress Assignment*) في العربية الحسانية أو في العربية القاهرية، إلى غير ذلك من الميادين البكر، إذ ذاك سيقوم البرهان العملي ليس على وجود لسانياتٍ عربية -إذ اللسانيات لسانيات وكفى- ولكن على أن اللغة العربية قد اقتحمت بالفعل ميدان اللسانيات كلغة منتجة للمعرفة وحاملة لها. وما لم يتم هذا فإن العربية ستبقى مجرد «لغة كتاب»، في حدود السقف الابستمولوجي المعرفي الذي رسمه التراث المؤسِّس كسقف لعلوم العربية من نحو، وصرف، ومعجم، وبلاغة، في حدود وظيفة هذه العلوم كمجرد علوم آلة إنما تُطلب في حدود ما يخدم علوم الشرع (قراءات، تفسير القرآن وإبراز إعجازه، تحقيق متن الحديث، استنباط الأحكام من

النصـوص) التي تمثل الغايـة المعرفية. وتجدر الإشـارة إلى أن القـوة الأيديولوجية لهـذا الحصر المعرفي التأسيسـي لعلوم العربية كان قد حال حتى دون اسـتنفاذ كافة الإمكانيـات التي يسـمح بها سـقف الوضـع الاعتباري لعلـوم الآلة نفسـه؛ ذلك أن قوة الربـط الأيديولوجي للدرس اللغـوي العربي بغائية معالجة النصوص الشـرعية، ومـا ترتب على ذلك من ربط للغة نفسـها بالقداسـة، في تداخـل كل ذلك مع القيم القوميـة، قد حـال حتى دون الانفتـاح المقارن لهـذه اللغة على قراباتهـا اللغوية من عبرانية وسـوريانية، وعلى القرابات الملية من علـوم الصحف الأولى. فكم هو عدد المفسـرين الذيـن يعرفون مثـلا بأن المعنـى الحقيقي الأصلـي لكلمـة «مِـلّـة» ذات الأصل العبرانـي (مِـلة أو مُـلة **מולה**) هـو «الختان»؟ أي أن «ملـة إبراهيم» (**מולת אברהם**) تعني في أصل لغة الصحف الأولى «ختان إبراهيم»، الذي هو ختمٌ رمزي وختـامٌ لِما أخذ اللـهُ «ميثاق بني إسـرائيل لا تعبـدون إلا الله، وبالوالدين إحسـانا، وذوي القربـى، واليتامى والمسـاكين» (البقـرة 83)؛ فقد ورد فـي الاصحاج 17 من سـفر التكوين ما يلـي: (17: 9 ثم قال اللـه لإبراهيم «أما أنت فتحفـظ عهدي، أنت وذريتك من بعدك جيلا بعد جيـل. 17: 10 هذا ميثاقي الذي تحفظونه بيني وبينكم، أنت وذريتك من بعدك : يُختَـن كلُّ ذكـر منكم. 17: 11 فتـختِـنون لحمةَ غُـرلتكم؛ ذلك ميثـاق بيني وبينكم»)؛ ومـن ذلك المعنـى الحقيقي للملة (أي ختـان الميثاق) فاض معنـى «الدِين» عـن طريق النقـل بالمجاز («قـل إنني هداني ربـي إلى صراط مسـتقيم، دينا قيمـا، ملةَ إبراهيم حنيفا؛ وما كان من المشـركين» الأنعـام 161). هذا مجرد مثال من أمثلة كثيرة.

د حسن باكلا

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلـود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضـل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقـق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيـات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: مـا قالـه سـتراوس إنمـا كان تجسـيدا لفكـرة أحـد رواد علـم اللسـانيات الحديث، ليونارد بلومفيلـد، وهي حقيقة واضحة؛ ذلك لأن هذا العلم يسـتأثر بأهم ظاهرة اجتماعية نفسـية في الكون، ألا وهي اللغة الإنسـانية؛ فاللغة بمثابة الروح في جسـد البشـرية. وقد كان هذا العلم سـببا لنشـوء الكثير مـن العلوم اللغويـة الفرعية كعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسـي وعلم اللغة الحاسوبي، الخ. كما أن هذا العلم كان سـباقا إلى التوجه نحو فكرة انصهارية فروع العلوم وتلاحمها والتشـابك الكبير بين العلوم بشتى أنواعها وأساليبها. فالعلوم جميعها، الإنسانية منها والطبيعية، إنما تواجدت لخدمة البشـرية ومصالحها المتنوعة والمتعـددة. وليس أدل على هذه المكانة الرفيعة لهذا العلم من وجود كرسي له في أكبر وأهم صروح العلوم والتقانة في الولايات المتحدة الأمريكية، ألا وهو معهد ماساشوسيتس للعلوم والتقانة.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أزيد من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: فـي رأيي الشـخصي، لـم تحـدث هناك نقلـة كبيـرة على مسـتوى البحث اللساني العام. تصدر بين الحين والآخر دراسات وأبحاث جامعية يغلب عليها طابع التطبيق للنظريات الحديثة على اللغة العربية في الغالب أو بعض اللغات الأخرى في النـادر، ولا نجد في أكثرها ما يضيف جديدا إلى علم اللسـانيات العام. كما لا نجد في الأفق القريب علامات لاسـتحداث نظريات يمكـن تطبيقها على اللغات عموما. ومما يجدر ذكره أن أقسـام اللغات الأجنبية في الجامعات أكثر عطاء وحماسا ودقة

في أبحاثها اللسانية من أقسام اللغة العربية.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم اللساني لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك -بحسب بحث قمنا به في هذا المجال- غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية... إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها.

ج: أعتقد أن هذا يفسر جزءا من المشكل القائم حاليا. ويمكن إضافة العديد من الأسباب التي تعوق تقدم علم اللسانيات العام في الوطن العربي. من ذلك -في رأيي- أن هذا العلم الحديث ذاته ظهر في العالم الغربي منذ بداية القرن العشرين وكان نتيجة حتمية لوصول علم اللغة المقارن إلى نهاية طريقه تقريبا من ناحية، وإرهاصات الحربين العالميتين وما تحتاجه من الاهتمام اللساني بلغات الشعوب المختلفة وحضاراتها من ناحية أخرى. علاوة على ذلك، فصل أقسام اللسانيات والصوتيات عن أقسام اللغات المحلية وآدابها مما أدى إلى الإبداع والتطور اللامتناهي في إنتاج النظريات الحديثة مع ربطها أحيانا بالتراث اليوناني والروماني والهندي وغيره. كما أن تراكم المعلومات اللغوية في عهود الاستعمار كون قاعدة صلبة للتطور اللساني. ولا يمكن أن نفصل ذلك عن الدوافع الإبداعية لدى علماء اللسانيات الغربيين عندما وجدوا أنفسهم في تنافس متزايد بين دفتي بحر المانش من جهة وبين جنبتي المحيط من جهة أخرى.

س: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: حقا، هذه المعادلة صعبة للغاية. لقد ترك لنا سلفنا تراثا ضخما لم ننته حتى الآن من كشف أسراره وأفكاره. وما بين أيدينا الكثير منه نستطيع أن نكون منه نظريات عامة في مجالات لسانية كثيرة. وقد أسهم في تكوينه وتطبيقه ونشره

علماء ناطقون بلغـات غير العربية متعددة. إلا أن مـن المحدثين من طبع الكثير من الدراسـات اللغوية العربية بطابع التقديس لبعض هذه الأفكار، مع أن الدراسـات لم تكن سوى اجتهادات علمية قام بها أسلافنا -رحمهم الله- يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى وتطبيقها عليها. وهناك دراسـات عربية وغربية وشـرقية تظهر أهمية التراث اللغوي العربي الإسـلامي وإمكانية تطبيقه في مجال اللسـانيات والصوتيات بشـكل عـام. ومـن الأمثلة علـى التطبيق قديما مـا أخذته الدراسـات العبرانية فـي الأندلس مـن النحـو العربي منهجـا ومصطلحا وفكـرا من دون الإشـارة إلى مصـدره العربي الإسـلامي في معظم الأحيان، ومـن ثم نقله إلى الكثير من أنحـاء أوربا في العصور الأوربية الوسطى وما بعد ذلك.

س: يتخذ هذا الصراع مظهـرا تلخصه المعادلة: النحو ≠ اللسانيات، التراث اللغوي العربي ≠ اللسانيات؟

ج: لا يمكـن لعام من العلوم أن يتقدم ويتطور في ظـل الصراع. فعلوم العربية ذاتهـا نشـأت وترعرعـت عندمـا توفر لهـا الجو الآمـن والرعايـة الرشـيدة والعلماء المخلصون الذين نذروا أرواحهم وأوقاتهم لخدمة هذه العلوم وبلورتها ونشرها. كما أن علماءنا من السـلف الصالح كانوا موسـوعيين في تلقّيهم للعلوم وفي طروحاتهم وكتاباتهم، الأمر الذي نفتقده لدى الكثير من الباحثين والدارسـين المتخصصين في علم من العلوم أو حتى في واحد من فروعه المختلفة. والأرجح أننا نرى في معظم دراسـاتنا اللغوية فريقين كبيرين على طرفي نقيض. فعلى طـرف، نجد فريق التراث اللغوي الذي يشـكك فـي كل ما هو جديـد وحديث في الدرس اللغـوي المعاصر، وكأن الأول لـم يترك للآخر شـيئا. ويقـف على الجانب الآخر فريـق يكاد لا يعرف شـيئا عن التراث الحضـاري واللغوي فهو ينسـاق وراء النظريـات الحديثة من دون دراية أو علم بأن دراسات السلف قد سبقت الفكر اللساني المعاصر إلى حل مشكل لغـوي أو إثارة نقطة غير هامة في عرف اللسـانيين المحدثيـن. والمطلوب اليوم هو توافـر فريق كبيـر من الباحثيـن اللغويين القادريـن على هضم وفهم التـراث اللغوي بمعناه الشـامل لجميع علوم العربية إلى جانب التعمق في الفكر اللسـاني الحديث. فأجيالنـا الحالية مطالبة بأمرين هامين: أولهما المحافظـة على التراث وإبراز نظرياته

وتقويمها في ضوء العلـم الحديث ومناهجه؛ وثانيهما ربط التـراث بالفكر المعاصر والإفادة من كل ما هو جديد وحديث شـريطة توافقه مع أعرافنا وتقاليدنا الحضارية الأساسية.

بعد هذه المقدمة التي ما كان هناك بد من وضعها، نعود إلى السؤال المطروح. وهـو المعادلـة غير العادلـة لدى بعـض المفكريـن، بـل إن بعضهم يـرون أنهم هم اللغويون الأقحاح. ولا أحد يشـك في هـذا الادعاء. ولكن من الخطـأ الاعتقاد بأن علم اللسـانيات العـام ينحصر في النحـو العام أو فـي النحو العربي مثـلا؛ لأن هذا العلم الجديد يتفرع منه ما يربو على خمسـين علما لسانيا أو فرعا له. والنحو بمعناه العام (الذي يشـمل علم تراكيـب الجمل، وعلم الصرف، وعلـم الأصوات اللغوية) أو بمعناه الخـاص (الذي ينحصر في علم تراكيب الجملـة) إنما هو فرع من العلوم اللسـانية؛ فإذن، ليست هذه معادلة صائبة وبخاصة عندما يشـار إلى نحو لغة بعينها. صحيـح أنه في علم اللغـة الوصفي أو البنيوي يحتل النحـو مكانة جوهرية في ذلك المنهـج العتيـق في نظر الكثيريـن. كذلك يعد مجانبـا للصواب من يـرى أن التراث اللغوي العربي هو علم اللسانيات بعينه. ذلك لأن اللسانيات في تفرعاتها وتفاصيلها قـد تحتوي التراث اللغـوي العربي وغير العربي، إلا أن هذا العلم أشـمل من ذلك؛ فهـو لا ينحصر في لغـة أو لغات بعينها بل يدرس ظاهرة كونية، هي اللغة الإنسـانية بجميـع مظاهرها ومحتواهـا وتفاصيلها الداخليـة والخارجية وتطبيقاتهـا العملية في المجالات الحيوية كافة. أما التراث اللغوي العربي، فإنه يتحتم أن يُعطى أهمية بالغة وعنايـة فائقة من البحـث والدرس ونبـش مكنوناته ولـمّ متفرقاته ونشـر مخطوطاته والعمـل علـى إبـراز النظريات العلميـة التي انبنـى عليهـا أو التي تقـف خلفه، بدلا مـن ترديد طروحاته ومقولاته عـن طريق التلقين والحفظ بعيدا عـن التطبيق العملي في كثير من الأحيـان. لذا يتوجب على المسـؤولين في الجامعـات النظر في إعطاء أهمية كبرى للدراسات اللغوية العربية حتى لو تطلب الأمر فتح قسم خاص للتراث اللغـوي العربـي والإسـلامي يهتم باللغـة العربيـة وتراثها إلـى جانب دراسـة لغات الشـعوب الإسـلامية في داخل الوطن العربي بخاصة والعالم الإسلامي بعامة. وفي هذا إثراء للدرس اللغوي العربي الإسـلامي. هذا حلم يراود الخيال، فهل هناك من

جامعة عربية تحقق هذا الحلم الكبير الذي أرى أنه يسير في خط التضامن الإسلامي علميا وحضاريا؟!

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: ربما نجد بعض الإجابة فيما سبق. والحقيقة تقال إن الإعداد للتحديات المستقبلية لم يتم بعد. فما زالت هناك هوة كبيرة بين الباحثين التقليديين والمحدثين، ولا تزال الشكوك الوهمية تقبع في أذهان الدارسين. لا بد من تضافر الجهود العلمية بين الفرقاء من أجل خدمة اللغة العربية الفصحى درسا وبحثا على المستويين النظري والتطبيقي ونشرها محليا ودوليا بالطرق العلمية الحديثة. وحتى يتم ذلك لابد من إنشاء منظمة أو مركز رئيس، على غرار المركز الثقافي البريطاني مثلا، تشترك فيه الدول العربية جلها إن لم يكن كلها؛ علما بأن خدمة العربية واجب وطني وقومي معا. يعمل هذا المركز تحت مظلة اليونسكو العربية والأيسيسكو الإسلامية وتنفق عليه الدول العربية والبنك الإسلامي للتنمية بسخاء ما أمكن حتى يقوم بفتح فروع له حول العالم. تكون هذه الفروع مزودة بأحدث المناهج، وأفضل الكتب والقواميس التعليمية والعلمية، والمدرسين من ذوي الخبرة والإبداع، وأحدث أجهزة تعليم اللغات، كاستخدام الإذاعة والتلفاز والمختبرات اللغوية المطورة والفيديوهات والأقراص الممغنطة والإنترنت. وغير ذلك مما ييسر عملية تعليم اللغة العربية ونشر الحضارة العربية الإسلامية من خلال هذه المراكز. ولا شك أن اللغة الإنجليزية بعلومها ودراساتها وأبحاثها وتقنياتها المتجددة ستستغل الوضع الراهن، إلا إذا توافرت العزيمة العربية وتوافقت من أجل مستقبل الأجيال. وفي اعتقاد الكثيرين أن هذه التحديات لا يمكن مواجهتها إلا بالتضامن العربي علميا ومعرفيا وعمليا.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: إن مـن يعتـز بحضارته ولغتـه لابد أن يعمـل من أجلهما ويبـذل جهده في سـبيل تقدمهمـا. غيـر أن الفجوة بيـن العربيـة واللغـات المتقدمـة معلوماتيـا كبيرة جـدا. لابد مـن أن نخطـو خطـوات ثابتـة وجريئة فـي الاتجـاه الصحيـح. لابد من مراجعـة حاضرنا مراجعة دقيقـة وواعية لنرى أيـن نحن من اللغـات المتقدمة. نرى ما ذا عملت اليابـان والصين، مثلا، في لغتيهما. نرى كيـف احتلت اللغة الإنجليزية المكانة الحالية، ونرى كيف تطورت لتكـون اللغة الأولى في المحافل الدولية ولغة الإنترنـت. للغة العربية تاريخ طويل وحافل وقد سـبق أن كانت العربية اللغة الأولى فـي العالم القديم. كيف وصلت إلى تلك المنزلة الرفيعـة. الفارق الكبير حاليا ليس هو الاسـتخدام الأمثل للتقنيات وإنما صنع هـذه التقنيات وتطبيقاتها وتسـويقها في التجارة العالمية التي هي بيد الغرب أكثر منها في يد الشرق.

سـ: لماذا لا توجـد اتجاهات أو تيارات أو مجموعـات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادهـا ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربيـة قديمة تراثية، وعربيـة مقدسة، وعربية وسطى هـي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: لا أعتقـد أن كل هـذه الأسـباب هـي الوحيـدة والحقيقية لنشـوء التيارات والاتجاهـات العلمية فـي الوطن العربي. ففـي الماضي قامت هناك مـدارس نحوية ولغوية مشـهورة على مسـتوى العالم الإسـلامي وشـارك في كل منها علماء أفذاذ، تُرجم لكثير منهم في كتب الطبقات الخاصة بمدارسهم، لا نزال حتى اليوم نستشهد بآرائهم السـديدة بـل ونجتر مقولاتهم الصائبـة. ما ينقصنا اليوم هـو العمل الدؤوب لخدمة لغتنا وحضارتنا بعيدا عن المصالح الشـخصية والأهواء الفردية. وقد نشـأت هـذه المـدارس بدوافـع عـدة: منها ما هـو ذاتي محـض، ومنها حـب اللغـة العربية والحضارة الإسـلامية، ومنها التنافس الشـريف بيـن علماء المـدارس المتنوعة، إلى جانب التشـجيع الـذي لاقاه العلماء مـن ولاة الأمر ومن ذوي المناصـب العلية في بلاطات الحكام. ومن الملاحظ ندرة اللقاءات العلمية بين الباحثين العرب من جهة وبينهم وبين الباحثين من غير العرب من جهة أخرى. وإذا ما قارنا الندوات الشهرية والفصلية والسـنوية للغـة الإنجليزية مثلا والندوات حول العربية نجد الفرق واسـعا جدا لدرجـة أنه لا يوجد أي مجـال للمقارنة لا كمّا ولا كيفا. أمـا توصيات ندوات

العربية الرسمية فتبقى حبيسة بين دفتي وقائع هذه الندوات النادرة.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: من المعلوم بدهيا أن اللغة، كظاهرة اجتماعية، تنهض بنهضة أهلها وتضعف بضعفهم وقد تموت إذا اختفى أثر مستعمليها ولم تبق لهم باقية. ينطبق هذا على اللغة العربية وغيرها من اللغات الحية. وقد مرت العربية بمراحل مختلفة: فقد كانت لغة العلم والسياسة والمال في العصور الذهبية الأولى قبل ظهور اللغات الأوربية الحديثة. أما اليوم، وقد تراجعت العربية مسافات طويلة إلا أن فيها الحيوية والمرونة التي تسهل على أهلها النهوض بها ثانية لتقف في مصاف اللغات العلمية. وهذا يتطلب تكريس الجهود والعمل المضني من العلماء وتشجيع الباحثين ماديا ومعنويا لتكثيف جهودهم في خدمة اللغة العربية. وليس هناك من عذر اليوم عن مواكبة الركب العلمي فقد توافرت وسائل البحث العلمي وتقنياته وبرزت مراكز البحوث العلمية المهتمة باللغة العربية في الغرب بل ظهرت هناك جمعيات ومنظمات للغة العربية فاعلة بندواتها ومؤتمراتها الدورية، وبما تنتجه من أبحاث دقيقة ومنشورات علمية ومجلات متخصصة. وقلما تجد الحضور من الباحثين في الوطن العربي. ولا شك أن التواجد في هذه الندوات مفيد جدا للتلاقح العلمي والتواصل الفكري ومعرفة أحدث المستجدات النظرية والعملية. أما فيما يتعلق بالشق الثاني من السؤال، فهناك مشاكل متعددة تعترض طريق المعالجة الآلية العربية. منها الخوف من خوض التجربة الجديدة لقلة التدريب، أو ضعف الإخلاص في العمل، أو عدم بذل الجهد الكافي، أو لفقر المكتبات العربية وقلة أو ندرة الكتب العلمية المتخصصة مقارنة بالمكتبات الغربية والخدمات التي تقدم فيها. وكثيرا ما تؤلف أو تؤلف البحوث بهدف شخصي أو لأسباب الترقيات العلمية في أغلب الجامعات العربية. ناهيك عن عزوف البعض عن المشاركة في البحث العلمي بسبب عدم توافر وسائل البحث التقنية أو قصور في الإعداد الفني أو الإبداع التقني وعدم القدرة على مجاراة التطور والتقدم التقني والفني في الغرب. وتظل الأعمال اللسانية والتقنية في دور التقليد ومرحلة المحاكاة والاستهلاك وفي

أغلبها تظل هذه الأعمال تحت مستوى الإبداع العلمي المطلوب.

س: ما دور المجامع اللغوية فـي النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟ وهل قامت بواجبها فعلا؟

ج: منذ العشـرينات من القرن الماضي والمجامع اللغويـة العربية تظهر واحدة بعد الأخرى كما أن هنـاك اتحاد عربي للمجامع. والحقيقة تقـال: إن هذه المجامع قامت بدور كبير في النهوض باللغة العربية على مسـتوى التنظير. أما على المستوى التطبيقي والممارسـة العمليـة فهي محدودة العـدة والعدد، وينقصهـا الدعم المادي والمعنـوي الرسـمي والإعلامي إلـى جانب الفـرق العلميـة العملية التي تسـهم في إعـداد الاسـتبانات وجمـع المعلومات الشـفوية والبيانـات اللغويـة واللهجية محليا وإقليميا وتدوينها والتعريف بها ونشـرها. كما أن مما يؤخذ على المجامع المتعددة وكثرتها في الوطن العربي من دون الجدوى العلمية الكبرى التي يتوقعها الدارسـون والباحثـون. فالمجامـع في حاجة ماسـة إلـى الحوافز والأيـدي العاملة فـي الميدان أكثـر من العمـل المكتبي أو الإداري. كما أنـه يتعين تعاون المجامـع مع الجامعات والمؤسسـات التعليمية وغيرها حتى تكون أعمال المجامع صورة وانعكاسـا للواقع بدلا من البرج العاجي الذي لا تزال تتنصب فيه بعض هذه المجامع.

ســس: كيف تقومون واقع المعجميـــة العربية؟ وكيف يمكن أن تسهم في خدمة اللغة العربية؟

ج: لاشـك أن المعاجم لها دور كبير فـي خدمة اللغة ومثقفيهـا وباحثيها، إلى جانب تيسـير مجالات الترجمة. والمعاجـم العربية، مع كثرتها عـددا، إلا أن الكثير منهـا مـا هو إلا نـوع من المسـارد اللغويـة وبخاصـة ثنائي اللغـة أو متعـدد اللغات منهـا. ولا تزال المكتبة العربيـة تفتقر إلى المعاجـم العربية-العربيـة بمتونها الغزيرة وشـروحاتها الوفيرة ووسـائل الإيضاح من الصور والرسـوم الوافيـة. على أن تكون المتون مشتقة من اللغة الفصيحة المعاصرة القائمة على النصوص التراثية والحديثة، ومبنيـة علـى العمـل الميداني والاسـتبياني. وممـا ينقص المكتبـة العربيـة المعاجم الأحاديـة للهجات العربيـة المختلفة لمعرفـة صلتها بالفصحى من جهـة واللهجات العربية الأخرى من جهة ثانية. كما ينقصهـا المعاجم الإلكترونية بالصوت والصورة

معا وبخاصة بعد أن أصبحت هذه التقنية ميسرة ومتداولة وسبقتنا إلى استخدامها لغات كالإنجليزية والفرنسية واليابانية والصينية. ونتمنى أن يأتي اليوم الذي نرى فيه المعجم العربي بمواصفاته الكاملة الحديثة على الشبكة العنكبوتية العالمية لما في ذلك من خدمة جلّى للمترجمين من ناحية، وللترجمة الآلية من جهة أخرى. ولا يفوت القول هنا إن المكتبة العربية تحتاج أيضا إلى المعاجم اللغوية التاريخية التي توفي العربية حقها اللغوي والدلالي والحضاري والتأريخي واستعمالاتها في مختلف الأمكنة والأزمنة والعصور المتعاقبة. وإذا ما تحدثنا عن الترجمة البشرية منها والآلية نجد على الفور النقص الكبير في أدواتها ومنها فقر اللغة العربية في القواميس والمسارد العلمية ثنائية اللغة، كما أن التركيز على اللغة الإنجليزية، وأحيانا بعض اللغات الغربية الأخرى، أدى إلى افتقار العربية إلى الترجمة من لغات عريقة وحديثة كالصينية واليابانية والهندية وغيرها مما قد يضيف الكثير إلى علومنا وثقافتنا، وبالأخص عندما يتكلم البعض عن حوار الحضارات مثلا.

س: **لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر في الغرب قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن، وأن الكثير من تلك السمات كان له تأثير مباشر في الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري(حداثي)، واتجاه تراثي (تقليدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا في الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي في غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة.**

ج: لا يزال الفكر العربي، بشكل عام، متقوقعا على نفسه فيما يتعلق بالفكر اللساني العام. والفرق بين عصر النهضة في الغرب وعصر النهضة العربية أن الأولى سبقت الثانية بقرون من ناحية، ثم إن عصر النهضة في أوربا كان مقترنا بالنهضة العلمية والصناعية والإبداعية من ناحية ثانية، كما أن عصر النهضة العربي كان في

ظل الاستعمار الذي لم يهيئ له الحرية الكافية للتطور والتطوير العلمي والصناعي من جهة ثالثة. فمجال المقارنة محدود بين العصرين. ولا تزال الدراسات اللسانية تسير في الفلك نفسه والمرجعية ذاتها مع فارق ومساحة من الحرية الفكرية المفترضة. وترجع ظاهرة التقوقع اللساني إلى التركيز على بعض اللغات الغربية دون اللغات الأخرى الغربية منها والشرقية التي ظهرت إنجازاتها في المحافل الدولية كالمؤتمرات والندوات الدورية التي تعقد كثيرا وبعيدا عن الوطن العربي. ولم يحن الوقت بعد للمراجعة والتقويم اللساني الشامل. وفي رأيي أنه إذا لم تؤسس كليات وأقسام علمية للسانيات والصوتيات العامة في جامعاتنا لإيجاد الكوادر المتخصصة في العلوم اللسانية والصوتية المتنوعة فإننا سنظل في الدوامة الحالية المهتمة ببعض اللغات، وليس اللسانيات والصوتيات العامة، كما هو حادث في كليات اللغات والترجمة في الوطن العربي. والأمل معقود ومفترض على كليات وأقسام اللسانيات والصوتيات العامة في عقد الندوات والمؤتمرات العلمية والحلقات العلمية ونشر الوعي اللساني والصوتي عن طريق المحاضرات ونشر الكتب والمجلات اللسانية والصوتية العامة بين المثقفين المدارس والمعاهد. كما أن هذه الكليات أو الأقسام الجديدة ستخدم أقسام اللغات وكليات الترجمة على غرار ما هو معمول به في البلدان الغربية. ومما لاشك فيه أيضا أن اللسانيات والصوتيات العربية ستفيد كثيرا من هذه الكليات والأقسام اللسانية العامة المؤسسة باللغة العربية. كما أن هذا سيساعد في الاهتمام بلغات الشعوب الإسلامية وعلى رأسها اللغة العربية.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: يعود ضعف اللغة العربية في مؤسسات التعليم إلى أسباب كثيرة: منها ما هو متعلق بالمناهج الدراسية، ومنها ما هو متعلق بالمدرسين وإعدادهم، ومنها ما هو متعلق بالكتب الدراسية، ومنها ما هو متعلق بأساليب التعليم ذاتها. ولا تعليق هنا، إذ العبرة بالنتائج. والنتائج الحالية في التعليم العام والجامعي تثبت هذا الضعف الذي نواجهه. وأرى أن نشر الوعي اللساني في مختلف الأسلاك سيساعد في تخطي هذه العقبات.

س: يبقى إسهام اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: ليس هذا الوضع طبيعيا على الإطلاق. ولكن الظروف الحالية، وبخاصة عند حضور المؤتمرات الدولية خارج الوطن العربي، يتحتم على العديد من الباحثين استخدام اللغات الغربية كالإنجليزية والفرنسية أمام الجمهور الذي يتابع الأبحاث اللسانية أولا بأول. وقد يصدق في هذه الحالة قول القائل «زامر الحي لا يطرب». فبعض الأبحاث اللسانية قد لا تفهم أو قد تظهر غريبة عند كتابتها باللغة العربية لحداثتها من جهة، أو لأنها تطبق نظرية ليست معروفة بعد في اللسان العربي. وكلتا الحالتين تجبران الباحثين على استعمال لغات البحث العلمي الأخرى.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: قضايا اللسانيات العربية التي تستحق البحث كثيرة جدا. من ذلك قضيتا المصطلح والتعريب، وكذلك قضية الفرق بين علم اللغة وفقه اللغة اللذين يدرسان في كثير من الجامعات العربية كمادتين لغويتين مستقلتين، إلى غير ذلك من القضايا التي تعتبر فرعية في الدراسات اللسانية. فوجود كليات أو أقسام للسانيات العامة، وأقسام للسانيات العربية بخاصة على النسق المطروح سابقا، يزيل مثل هذه الإشكاليات الفرعية والتي يعتبر البعض أنها إشكاليات لا يمكن أن تُحلّ. ولا بد من العبرة بما حدث ويحدث في اللغات الأخرى كاليابانية والصينية والكورية وغيرها من اللغات التي تكيفت وتصالحت مع المصطلحات الأجنبية بل وتقدمت على دول عربية كثيرة في حل هذه المعضلات اللغوية. كما أن تجربة أسلافنا في مواجهة المصطلحات العلمية والتكيف معها والتعامل بها خير مرشد ودليل على إزالة هذه الإشكاليات إن جزئيا وإن كليا. ويجدر القول إن هذه الإشكاليات، إن قبلنا بهذا التعبير، ما هي إلا جزئيات متفرقة، فلا بد من دراسة الكليات والعموميات

لحل ما يسمى بالإشكاليات، مهما كان حجمها أو نوعها.

س: ماذا تقترحون بهذا الخصوص، من الناحية المنهجية تحديدا؟

ج: كما أسلفت القول، إن دراسة هذه الظواهر الجزئية لن تتم إلا بدراسات وأبحاث كلية معمقة، ولن تتم مثل هذه الأعمال إلا بفتح كليات أو أقسام للسانيات العامة على وجه العموم، أو اللسانيات العربية على وجه الخصوص لتخصصها الدقيق في هذه الأمور بدلا من تناول الجزئيات بعيدا عن معرفة جذورها واستئصال شوائبها. وقد قام أكثر لغات العالم المتقدم بالأخذ بهذا المبدأ الكلي فاستطاعت أن تخرج من هذه الإشكاليات بالدراسات والأبحاث وإقامة المؤتمرات والندوات الدورية المكثفة والعمل الدؤوب من أجل خدمة لغاتها.

س: ما هي السبل الكفيلة في نظركم بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: أعود فأقول إن المشاكل اللغوية لا يمكن أن تُحل بالطرق المعمول بها في الوقت الحاضر. فها قد مر أكثر من نصف قرن من الدراسات ووجهات النظر المختلفة لحل إشكاليات العربية من دون أن نصل أو نتوصل إلى حلول مرضية. فالقضية أكبر من تناول الجزئيات منفردة مستقلة عن إطار عام ومظلة كبرى تُعالَج فيها القضايا اللغوية مجتمعة نظرا إلى تداخل هذه الإشكاليات، ولأنها تصب في النهاية في نهر واحد ألا وهو خدمة لغة الضاد العريقة. ولا بد من الاهتمام بالبحث العلمي في قضايا تراثنا اللغوي وربطها بالعلوم اللسانية الحديثة، وكما أبدى أسلافنا اهتمامهم باللهجات العربية فإن الاهتمام العلمي الحديث بهذا الجانب مطلب أساسي لمعرفة أسرار لغتنا وإدراك كنهها وأبعادها من الزوايا اللغوية كافة. وهكذا فإن الدراسات اللغوية الجزئية ليست بتلك الجدوى العالية إلا إذا تمت دراسة الجزئيات في إطار العموميات والكليات اللسانية وعندها يتحقق الحل الشامل الكامل أو المتكامل.

س: عرف تعريب التعليم العالي نجاحا كبيرا في بعض الأقطار العربية، ما الذي يجعل هذه التجربة لا تعمم في باقي الأقطار العربية الأخرى؟

ج: القـرار الحكيم وتحديـد الأهداف السـامية والنيـة الصادقـة والعمل الجاد المتواصـل مـن الدوافع الأساسـية التـي أدت إلـى تعريب بعـض العلـوم في بعض الأقطـار العربية. وكان من المفترض أن تعمم هـذه التجربة إلا أن هناك من العوامل مـا دفع إلى الاتجـاه المعاكـس. والجامعات العربيـة مطالبة باتخاذ القـرار الإيجابي حتى لا تظل العلـوم مقيدة ومرتبطة باللغـات غير العربية. ويأتـي التعليم العالي في مقدمة الدفـاع عن العربية في ظل الهيمنـة العلمية والعولمة الحديثـة. وإنه لمن غير الإنصـاف أن تظل بعض علومنـا تلقن وتدرس في معظم جامعاتنـا ومعاهدنا بلغات غير العربية، بعد أن كانت العربية هي لغة العلوم والحضارة الإسـلامية شـرقا وغربا لفتـرة طويلة من الزمـن. ومع التشـجيع الكبير لتعلـم اللغات الأجنبيـة وإتقانها، إلا أن الدراسـات اللسـانية أثبتت أن التعليم باللغات القومية أكثـر نفعا وأعظم جدوى. ولأسـلافنا تجارب في تعريـب العلوم من لغـات مختلفة يمكن أن نسـتفيد من هذه التجارب الاستفادة القصوى.

س. ما هو تقويمكم لحصيلة الترجمـــة اللسانية في الثقافة العربية (الكتب اللسانيـــة المترجمة إلى اللغة العربية)؟ وكيف يمكن للسانيات أن تسهم في تقدم البحث اللساني في الثقافة العربية؟

ج: مـا ترجم إلى العربية حتى الآن من الكتب أو المقالات اللسـانية لا يتعدى النزر اليسـير. كما أن الترجمـات من اللغات المختلفة لم تثمـر كثيرا لعدم التخطيط بيـن المترجمين في البلـد الواحد وبينهم وبين نظرائهم في البلـدان العربية الأخرى. وحـدث من جراء ذلـك ترجمة بعـض كتب اللسـانيات مرتيـن أو أكثـر. وليس من شـك في أن افتتاح كليات وأقسـام للعلوم اللسـانية العامة أو اللسـانيات العربية في الجامعات العربية سيسـهم في نشـر الوعي اللغوي من جهة، وفـي الترجمة المنظمة لأمهـات كتـب اللسـانيات، ومتابعـة النظريـات والاتجاهـات اللسـانية فـي مختلف أشكالها وتنوعاتها وأطوارها.

س: هل النحو العربي قادر على وصـــف اللغة العربية المعاصرة، وهي لغة تختلـــف عن تلـــك التي قعد لها النحـــاة منذ مئات السنين؟ وهـــل هذا هو مصدر صعوبات النحو التي تؤرق الناشئة؟ وما هو المطلوب في نظركم؟

ج: النحو العربي بخير. إلا أنه لا يزال يعتمد على التلقين والأساليب التقليدية

في تأليفه وتعليمه. وهو بهذا الشكل لا يستطيع وصف اللغة العربية المعاصرة وصفا مفصلا ودقيقا. فالاعتماد على الأبواب النحوية في تقديم قواعد اللغة العربية تثقل كاهل الطالب الحديث حفظا وتلقينا من دون القدرة على تطبيق هذه القواعد. كما أن اللغة العربية المعاصرة بحاجة إلى طرق حديثة تعتمد التحليل والتعليل اللغوي المناسب للفهم والأداء. ولا يزال هناك من علماء النحو من يرفض النظريات اللسانية ويعتبرونها دخيلة على ثقافتنا العربية الإسلامية. وقد يكون هؤلاء على حق في الوقت الحاضر، لعدم وجود نحو جديد بديل يعتمد على التحليل والمنطق اللغوي الملموس. ولو وجدت أقسام خاصة باللسانيات العربية أو اللسانيات العامة لكان هذا العمل من أهم منتجاتها بل من أوائل اهتماماتها. ونحن بحاجة إلى وصف وتقعيد اللغة العربية المعاصرة للناشئين بشكل عام ولطلاب الجامعات بشكل خاص. واللغة العربية الفصيحة ولهجاتها تنقصها مؤلفات لنحوها ومعاجمها، ودراسات وأبحاث تجريبية وتطبيقية لأصواتها وأساليبها المعاصرة، إلى جانب الأبحاث اللغوية- الاجتماعية، واللغوية-النفسية، واللغوية-الإحصائية، واللغوية-الحاسوبية، وغيرها من الأبحاث التي نجدها متوافرة في أقل اللغات أهمية من العربية، وهي اللغة التي نفخر دائما بأنها إحدى اللغات الست الرسمية في المنظمات الدولية.

س: **كيف تقيمون وضع اللسانيات في المملكة العربية السعودية؟**

ج: لا تزال الدراسات اللسانية لدينا فقيرة كما وكيفا. ولقد كان من الصعب جدا إجراء التغييرات الحديثة على المناهج التي مر عليها حوالي خمسين عاما في بعض أقسام اللغات. ولا تزال الدراسات اللسانية تتراوح بين القبول والرفض في بعض الجهات الأكاديمية. والأمل كبير في تحسين أو تغيير هذا الوضع الراهن، بخاصة في الجامعات التي وضعت في خططها السابقة افتتاح أقسام للسانيات والصوتيات، إلا أن أمورا إدارية أكاديمية حالت دون تحقيق ذلك. ولا أزال أدعو إلى كلية أو معهد أو قسم للسانيات والصوتيات في جامعاتنا على النحو الذي خبرناه في دراساتنا في مثل هذه الأقسام بالجامعات في الخارج، لما لهذه الأقسام من فوائد جمة لكليات الجامعة وأقسامها جميعا. ولقد تطور الوضع في بعض الجامعات هناك لفتح معاهد

أو أقسـام لفرع واحد من فروع علم اللسانيات والصوتيات نظرا إلى التوسع العلمي الكبيـر في هـذا المجـال أو ذاك. ولن تتقـدم البحوث اللسـانية في الوطـن العربي، ومـن ثم ترجمة العلوم اللسـانية كما ونوعا، إلا بعد ظهور هذه الأقسـام أو الكليات المتخصصـة، التي تتابـع التطور العلمي السـريع في المجالات اللسـانية واتجاهاتها نظريا وعمليا، تجريبيا ومعمليا وتطبيقيا.

الدكتور محيي الدين محسب

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلــود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضــل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقــق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيـــات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: لقد أصبح البحث في اللغة في العصر الحديث يحتل مكاناً مرموقاً في دائرة اهتمام الفكر والعلم. ومن ثم فقد تداخلت عدة علوم وتضافرت في سبيل الكشف عن جوانب تلك الظاهرة المتفردة: ظاهرة اللغة. ومن الواضح أن نظرة متعمقة إلى الخطوط العامة في هذا السياق المعرفي تكشف عن مؤشرات واضحة لمركزية اللسانيات وتفاعلاتها التي تنضوي تحت ما شهده النصف الثاني من القرن العشرين من ظهور موجة معرفية أُطلق عليها موجة (العلوم المتداخلة الاختصاص) *interdisciplines*. وكان الأساس الجامع لانبثاق هذه الموجة هو وصول فلسفة العلم إلى تحول يكاد يكون جذرياً في نقضه لفلسفة العلم الكلاسيكية التي نظرت إلى الظواهر باعتبارها ذرات، أو أجزاء، أو عناصر، وليس بالنظر إليها في كليتها القائمة، أو من منظور كونها (نسقاً) *system*. وفي إطار هذه الفلسفة الجديدة أصبحت وحدة العلم هي المثل الأعلى الإيجابي للروح العلمية المعاصرة. ولعلنا في هذا السياق نشير إلى أن ظهور النظرية العامة للأنساق *general system theory* التي بدأ منظرها الأشهر فون بيرتالانفي -نشر أول أعماله التي حملت هذا العنوان عام 1950م- أقول: لعل ظهور هذه النظرية يمثل علامة دالة على هذا التحول، الأمر الذي يشخصه بيرتالانفي بوضوح عندما يقول إن هناك ميلاً عاماً نحو التكامل في مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية.

وفي قلب هذا الميل إلى التكامل كانت اللغة هي البؤرة الجاذبة؛ وذلك بسبب الإدراك الحديث لمركزيتها في تشكيل تلك الظاهرة التي تسمَّى (الإنسان). ومن ثم انخرط علماء الاجتماع في دراسة الطبيعة الاجتماعية للغة، ولدورها في قيام مجتمع

مـا، أو جماعة ما، وفـي تحديد أنماط علاقـات الفاعلين الاجتماعييـن. وبدأ علماء النفس تشـغلهم زاوية تأثير اللغة علـى مجمل مظاهر التنظيم السـلوكي، والعمليات النفسـية المختلفة كالإدراك والتفكير والذاكـرة... إلخ. واتجه منظـرو الحضارة إلى اللغـة لبحـث تأثيرها فـي عمليات الصـراع الحضـاري، والتغيـر الثقافـي، وعلاقتها بطبيعـة المكان، ودوافـع الهجـرات، وقضايـا المثاقفة...إلخ. وكل ذلـك وغيره من نماذج علمية تطلب ضرورة توفر تأسيس كاف، ودرجة لازمة من معرفة طبيعة اللغة، وعملية اكتسـابها، ونموها، وعلاقتها بالقوى الإدراكية والمعرفية... إلخ. وكان على اللسـانيات أن تقوم بدورها في الكشـف عن هـذه الطبيعة. ومن ثـم تعددت مناهج البحـث اللسـاني، واختلفت باختـلاف زاويـة النظر إلى اللغـة، وباختـلاف الغايات والأهداف المنوطة بدراسـتها. وكان لتآزر اللسانيات مع العلوم الأخرى أثر كبير في تشـكيل نظرية اللغة وتمحيص مفاهيمها. وعلى سـبيل المثال فقد كان من نتيجة هذا التآزر نشـوء هذا التداخـل الاختصاصي الماثل في علوم مثل: اللسـانيات البيولوجية *biolinguistics*، أو اللسـانيات العصبية *neurolinguistics* أو اللسـانيات الإكلينيكية *clinical linguistics*، أو اللسـانيات النفسـية *psycholinguistics* . وربما كان سوق التعريفـات التي يقدمها ديفيد كريسـتال لهذه المصطلحات في قاموسـه (اللسـانيات والصوتيات) ملائماً لإعطـاء فكرة أولية عن طبيعة الاشـتغال المعرفي الذي تنطوي عليه تلك العلوم.

يقول كريسـتال في قاموسـه الصادر عـام 1985م إن اللسـانيات البيولوجية هي أحد الفروع النامية في اللسـانيات، حيث تقوم بدراسـة الشـروط البيولوجية المسبقة للنمـو وللاسـتعمال اللغويين لدى الإنسـان، وذلك من خلال وجهـات نظر كل من تاريخ اللغة في الجنس البشـرى، ونمو اللغة لدى الفرد. وتشمل الموضوعات محل الاهتمام المشـترك بالنسـبة إلى علمـي الأحياء واللسـانيات: الانتقـال الوراثي للغة، والنماذج الفسـيولوجية والعصبية لإنتاج اللغة، والمتوازيات التشـريحية بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى، وتطور الأشكال المرَضية للسلوك اللغوي.

وتـدرس «اللسـانيات العصبية» الأسـس العصبية لنمـو اللغة واسـتعمالها لدى الإنسان، وتحاول أن تنشئ نموذجا لتحكم المخ في عمليتي الكلام والسمع.

وفى **تعريف** اللسـانيات العياديـة (الإكلينيكية) يقول كريسـتال إنهـا تقوم على تطبيق النظريات والمناهج اللسانية والنتائج الوصفية على تحليل الحالات والأوضاع الطبيـة التـي تنطوي علـى اضطرابات فـي اللغـة. وهذا التطبيـق يتضمن تـآزر عمل اللسـاني مع معالجي وأطباء الكلام، وأطباء السمع للمسـاعدة في تقويم وتشخيص وعلاج الاضطرابات في إنتاج وفهم اللغة المنطوقة أو المكتوبة-وبطبيعة الحال فإن هـذه الاضطرابات قد تقع فـي أوضاع تعليمية كما قد تقع فـي أوضاع عيادية. وهذه الغاية لها علاقة واضحة بغايات اللسـانيات النفسية، واللسانيات العصبية، ودراسات اكتساب اللغة.

واللسـانيات النفسـية تـدرس الارتباط بين السـلوك اللغـوي وعمليـات الفكر النفسـية التي تكمن تحت هذا السلوك. وهنا ثمة اتجاهان رئيسان: أولهما : يستعمل اللغة بوصفها وسـيلة لفحص النظريات والعمليات السـيكولوجية (مثـلاً: دور اللغة وتأثيرهـا علـى الذاكـرة، والإدراك، والانتباه، والتعلـم... إلخ)، ولهذا فقد يُسـتخدم أحيانـا مصطلـح اللسـانيات السـيكولوجية *Psychological lingustics*. وثانيهمـا: يدرس تأثير القيود السيكولوجية على استعمال اللغة (مثلاً: كيفية تأثير حدود الذاكرة فـي إنتاج الـكلام وفهمـه). وهذا الاتجـاه الأخير هو الذي اسـتحوذ علـى الاهتمام الأساسـي للسـانيات حيـث نُظـر إلى الموضـوع أساسـا على أنـه دراسـة العمليات العقلية الكامنة تحت تخطيط الكلام وإنتاجه وفهمه. وكانت دراسـة اكتسـاب الطفل للغة هي أفضل فروع هذا العلم تطـوراً، بيد أن موضوعات أخرى عديدة قد جذبت إليهـا اهتمامـاً ملحوظاً (مثـلاً: فكرة تعقـد اللغة، والعلاقـة بين العموميـات اللغوية والعموميات المعرفية، ودراسة القراءة).

هـذه الصـورة العامـة تعطينا المسـوغات التـي جعلـت اللسـانيات تحتل هذه المكانة المركزية في التحولات الإبستمولوجية للمعرفة العلمية الحديثة والمعاصرة. فهي؛ أي اللسانيات، اشتغال في اللغة التي باتت أكثر الظواهر مدخلية وجوهرية في معرفة الظاهرة الإنسانية.

س: **في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني فـي الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف ثقافتنا على البحث**

اللساني بمعناه الحديث؟

ج: نستطيع أن نتصور الاتجاه السائد والمهيمن في مواقفنا العربية الثقافية والعلمية من خلال معادلة اقتصادية. فإذا كان هناك النمط الاستهلاكي فإن ذلك يتمثل في مواقفنا الثقافية من خلال مسارين: مسار استهلاك المقولات التراثية، ومسار استهلاك المقولات والنظريات الغربية. وبين هذين المسارين يتأرجح مسار ثالث يصدر عن مرجعية فكرية تلفيقية تحاول تارة إلباس مقولة من لدن الجاحظ أو الآمدي -مثلاً- ثوب رولان بارت أو جاك ديريدا، أو تحاول إرجاع البنيوية أو السيميائية -مثلاً- إلى عبد القاهر. وفي كل هذه المسارات ثمة قفز على الشرط التاريخي والسياق المعرفي. التراث أنتج مقولاته الثقافية لصالح ظرفه التاريخي الخاص، وتفاعلاً مع سياقه المعرفي الخاص. وكذلك الموقف الثقافي الغربي لا ينفك عن شرطه وسياقه. ومن المطلوب تماماً أن نعي العلاقة العضوية التي تربط هذه المقولات -هنا وهناك- بظرفها وسياقها. وهذه ليست دعوة للقطيعة المعرفية مع التراث أو مع الآخر الحضاري المعاصر. إنما المطلوب هو أن ننتج تجربة ثقافية تكون لبنة في مقتضيات إنتاج مشروع حضاري مأمول قائم على الإبداع -بمعناه الواسع- وليس الاستهلاك. ولعل إبداعية هذه التجربة الثقافية تتمثل -أساساً- في القدرة على إبداع إنتاج دلالات النصوص وشتى ممارسات الخطاب، والقدرة على مساءلة النظريات القائمة، وإقامة الحوار معها، والإضافة إليها.

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: لعل أخطر التحديات هنا هو ما يصل اللغة بقضية الهوية في سياق ما تفرضه العولمة. ولقد قدمت حول هذه النقطة ورقة في الحلقة النقاشية بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود أشرت فيها إلى ما تواتر في السنوات الأخيرة-وبخاصة مع موجة ما بعد الحداثة- من مقولات مثل (أوهام الهوية)، و(مأزق الهوية)، و(محنة الهوية)...إلخ. ومن ثم وجدنا من يدعو إلى (نقد خطاب

الهويـة وتجاوزه) على أسـاس أنه يفضي إلـى «تحكيم صورة مثاليـة لا تاريخية عن الذات القومية -الدينية...إلخ» على حد ما يقول محمد السيد سعيد. وهنا يمكن أن يثار عدد من الأسئلة: هل ثمة ضرورة لنبذ خطاب الهوية؟ وهل يعني هذا النبذ ضمناً نبذ التفكيـر المعرفي في مسـألة الهوية؟ وبماذا نفسـر إذن، ذلك الاهتمـام المعرفي العالمي بمسـألة الهوية حيث تتوالى الدراسـات وتعقد الندوات والمؤتمرات؟ وهل يمكن لإطـار ثقافي معين، أو لجماعـة ثقافية معينة، أن تمـارس التاريخ بدون وعي ما بهويتها؟ أم أن الإشـكال لا يكمن في مسـألة الهوية بذاتهـا، وإنما في نمط معين من أنماط الخطـاب حولها هو الذي يتصورها جوهراً مسـتقلاً ومتعالياً على التاريخ والنسـبية؟ أم ترى أن دعوة النبذ هذه تصدر رد فعل لممارسات جماعات اجتماعية انخرطت-بعدم امتلاكها الوعي النقدي والحس التاريخي- في مآزق الهوية وأوهامها وفخاخهـا، وذلك عندما قامت-تحـت تأثيرات انخراطها في صـراع القوة والهيمنة، والتضامن والانتماء-بتحويل (الهوية) إلى (أيديولوجيا) دفاعية أو تسلطية؟

ولعل هذه الأسـئلة تفرض ضرورة أساسية وهي مسـألة تعريف المفهوم نفسه؛ أقصـد مفهـوم (الهويـة). ودون الدخول فـي تفاصيل كثيـرة فإنه يمكننـا أن نتحرك إجرائياً في إطار مفهومين واسعين للهوية:

1- المفهوك السكوني: وهو الذي يرى الهوية من منظور ثبات التطابق المطلق بين ذات العنصر أو الشيء ونفسه طوال وجوده. فهذا المنظور يرى الهوية «بوصفها إنتاجاً سـكونياً محليـاً محضاً، يحقق اسـتمرار الماضـي في الحاضـر، أو...بوصفها تصـوراً ميتافيزيقيـاً ناجـزاً، تمهـره وحـدة ثابتـة» بتعبير محمـد حافظ ديـاب. وهذا المفهوم يشـيع كثيراً متلبسـاً بالنظرة إلـى (الثقافة) القومية من منظـور (الخصوصية) كأن يقـال -مثـلاً-: «فثقافتنـا تتميـز بخصوصية الـدوام والاسـتمرار؛ لأنهـا مرتبطة بوشـائج لا يوجد ما يماثلها في حضارات الغرب أو الشـرق» (ورد هذا القول عند: مرزوق بن تنباك في كتابه: (الفصحى ونظريـة الفكر العامي، ص39). ومن الواضح أن هذا التصور يقوم «على نموذج أنطولوجي للحقيقة يفترض الاسـتمرارية والثبات فـي الوجود» (محمد علي الكـردي: (حوار الأنا والآخر في عصـر العولمة). ولكن المشـكلة التي قلما يتصدى أصحاب هـذا التصور لمعالجتها هي مشـكلة التعارض

بيـن (الهوية) -على هذا النحـو- و(الزمن). فالزمن بطبيعته يعنـي (التغير)، والهوية فـي منظورهم جوهر ثابت؛ أي أنها لازمنية؛ أي لاتاريخية! ومن ثم فإن هذا التصور يقـع دائماً في خطاب يبذل جهده الأقصى في محاولة وقف ما لا يقبل الوقوف؛ أي حركة التاريخ.

2- المفهوم المتحـرك: وهو الذي يرى الهوية عمليـة تاريخية قائمة على مبدأ (الاسـتيعاب) المنفتح على ثراء التعدد داخل الوحدة، والتجدد داخل منظور الخبرة الإنسانية. ومن الواضح أن عنصر (الزمن)؛ أي التاريخ، هو في موقع اللب من نظرة أصحاب هذا التصور. وهذا العنصر نفسه هو المأزق الذي يواجه هذا التصور حيث إن سـيل التغير التاريخي يجعل مـن مهمة فرز مقومات الثابت والمتحول في مسـار ثقافي معين مهمة بالغة المشـقة. وهـذا ما يفضي -في بعض الأحيـان- إلى زعزعة أركان الانتمـاء، أو إلـى الصراع حـول تراتبية الانتمـاء، ومن ثم الانـزلاق إلى قبول الذوبـان فـي نمـوذج ثقافي مهيمـن، أو فـي مرجعيات ثقافيـة أخرى تكـون مصدراً للاستقواء. وهذه النقطة الأخيرة هي أحد ارتكازات الحِجاج المضاد لخطاب الاتجاه الأول. غيـر أن هنـاك فريقاً مـن أصحاب هذا الاتجـاه الثاني يـرى أن «المجتمعات التي تطرح مشـكلة الهوية هي المجتمعات التي تعاني أزمة عميقة» كما يقول سـمير أمين (حوار الدين والدولة. ص20)، ومن ثم يصل إلى أن رفع التعارض بين مسـألة الهويـة والزمن أو التاريخ إنما يكمن في قبول مبدأ (الهوية المتغيرة). ويسـتدل على نجـاح هذا المبدأ بأن «المجتمعات التي نجحت فعـلاً في التطور تكيفت به وغيرت هويتهـا... دون أن تسـأل أحيانـاً عن هويتهـا الأصلية...[إنهـا] لا تتسـاءل مثل هذا التساؤل بل تواصل مسـيرتها وتتغير دون أن تتساءل عما سـيؤدي إليه هذا التطور». ومن الواضح أن مثل هذا الطرح فيه كثير مـن تجريد هذه المجتمعات من تاريخها، وبخاصـة تاريخهـا الثقافي، ونظرتها إليـه، وتفعيلها لمناح معينة فيـه؛ أي أن في هذا الطرح نوعاً تعسـفياً من فصل عمليـة (التغير) عن فاعلية (الثقافـة) التي هي «فاعلية اجتماعية وفردية نشـيطة تتعلق بأسـلوب رؤية الجماعات لنفسـها وتاريخها وواقعها وتعاملهـا معه» (هذا التعريـف للثقافة لبرهان غليـون، وقد ورد في سـياق رده على سمير أمين الذي أوردنا رأيه في الاقتباسين السابقين. انظر المرجع السابق. ص76).

ولا شـك أن هذا الفصل يغفل حقيقة ملموسـة تاريخياً وأنثروبولجياً وهي «أن القيم الاجتماعية جوهرية لدمج ولاستمرارية الجسم الاجتماعي وكذلك الشخصية»(لويس دومـون: (مقالات في الفردانية: منظور أنثروبولوجي للإيديولوجية الحديثة)، ترجمة د. بدر الدين عردوكي. ص309).

مـن الواضح إذن أننا إزاء إشـكالية فـي كلا التصورين (السـكوني والمتحرك) لمفهوم الهويـة. ولعل تعقيد هـذه الإشـكالية كان -مع جملة عوامـل أخرى- وراء نبذ بعض المفكرين لمفهوم (الهوية) برمته؛ وذلك باعتبار أن «الإنسـان يتعولـم الآن بطريقـة تتحول معهـا الهوية إلـى أسـطورة». على حد مـا يقول علي حـرب (فتوح العولمة ومآزق الهوية. ص106).

وبطبيعـة الحـال فـإن التصوريـن ينعكـس كل منهمـا بدرجـات مختلفـة على معالجـات قضية علاقـة اللغة بالهويـة، أو بالأحرى على تصورات هـذه المعالجات للدور الذي تنهض به اللغة في تجسـيد الهوية، أو في اسـتمراريتها، أو في بنائها، أو في تعطيلها، أو في تقويضها. ومن الملاحظ أن هذه الإشـكالية قد بدأت تزداد حدة وتعقيداً مع تفاقم ظواهر العولمة الثقافية في السـنوات الأخيـرة. وهي الظواهر التي بدأت تفرض طرقاً جديدة في اسـتعمال اللغة وفـي التفكير حولها. ومن ثم فإن مما يهمنا هنا أن نتناول بعـض جوانب علاقة اللغة العربية بالهوية في ظل تفاعلات هذه العولمة.

والملحوظة العامة في هذا السـياق هي أن كلا التصورين اللذين أشـرنا إليهما بخصـوص الهويـة يستشـعران مخاطر هائلة تجسـدها ظاهـرة العولمـة الثقافية على مكانة اللغة العربية واستمراريتها. لكن الفارق بين التصورين يكمن في رد الفعل.

فالتصـور السـكوني يميل إلى منطـق الصـون والحماية والمحافظـة على اللغة العربية بكل مقاييسـها ومعاييرها الصوابية التي أرساها الفكر اللغوي العربي التراثي، ومـن ثم مقاومـة كل الظواهر الدخيلة والمسـتحدثة والغازية ممـا تحمله التحولات التاريخيـة، وبخاصـة تحـولات ظواهر العولمـة في السـنوات الأخيـرة. وأوضح ما تتجلـى فيه توجهـات هذا التصور مـا يعرف بكتـب التصحيح اللغوي التي لا شـك أنهـا تعكـس تيـارات اجتماعيـة وثقافيـة تـرى أن في هـذه الحمايـة اللغويـة حماية

للهويـة الأصيلـة. غير أن هناك اتجاهـاً معرفياً آخر فـي إطار هذا التصـور يبدو أكثر عمقاً من اتجـاه التصحيح اللغوي. وأعنـي بذلك الاتجاه الذي يعالج مسـألة علاقة العربية بالهوية من منظور فرضية النسـبية اللغويـة، أو فرضية همبولت-وورف، التي تقـوم علـى أن كل لغة تحمل فـي بناها المعجميـة والتركيبية والدلاليـة رؤية خاصة للعالم. وعلى هذا الأسـاس قدَّم عدد من الدراسات التي بحثت -فيما أسمته أحياناً بـــ (عبقرية العربيـة)- الكيفياتِ التي تجسـد بها العربيـة رؤيتها لـكل عناصر الحياة والفكر والكون.

أما التصور المتحرك فهو يميل إلى الأخذ بمنطق التطور التاريخي، ومن ثم فهو يقر مقولات التجديد والاسـتيعاب والإبـداع والاختلاف...إلخ. ولكـن الأزمة التي يواجهها هذا التصور تكمن في عدم قدرته على تعيين الحدود التي تقف عندها هذه المقولات في اللغة. وهذه الأزمة الفكرية تظهر بجلاء أمام عدد من الإشكاليات:

من ذلك مثلاً إشـكالية علاقة (اللهجات العربية المستعملة) بالهويات المحلية أو القطريـة: هل تُقبل هذه اللهجـات بوصفها واقعاً لغوياً تاريخيـاً، ومن ثم يُقبَل أن تدخـل المجتمعات العربية في إطـار التعددية اللغويـة *multiligualism*؛ الأمر الذي يترتب عليه قبول تنـوع الهويات محليا وقطرياً فيكون حقـاً من حقوق أصحاب كل لهجة أن يتعلموا بها وأن تكون وسائل إعلامهم بها؟!

ومن ذلك أيضاً إشكالية تعيين المدى الذي يمكن الوصول إليه والتوقف عنده فـي قبول واقع التفاعل التاريخي بين العربية واللغـات الأجنبية، وبخاصة الإنجليزية التـي أصبحـت اللسـان المهيمـن للعولمـة الثقافية إلـى درجة إقامـة بعضهـم ترادفاً مقصوداً قصداً عولمياً بين العولمة والأنجلزة *englishization*.

والحاصل أن أزمة أصحاب هذا الاتجاه قد تضاعفت إشـكالياتها من جهة هذا الوابل الفلسفي ما بعد الحداثي الذي انخرط في عملية زحزحة وإقصاء وتفكيك لكل ما هو مفهوم عام وشـمولي وكلي ومتجانس. وفي مقدمة مـا يتعرض هنا للزحزحة والتقويـض فكـرة الدولة القوميـة التي شـكّلت اللغة مكانـة رمزية محوريـة في بناء هويتها منذ القرن الثامن عشر الميلادي. ومن ثم وجد أصحاب هذا الاتجاه أنفسهم أمـام رؤيتين لا تخفى الوشـائج بينهما في المحصلة الأخيـرة: الرؤية الأولى تكرس

لـ»هوية جديدة لا تترك حتى مجالاً لتهميش هويات أخرى فقط إنما تلغي كل هوية دون هوية النهاية السعيدة المتمثلة بالأنموذج الديموقراطي الليبرالي» (على حد قول رسول محمد رسول في كتابه: (محنة الهوية. ص54) ؛ أي أمام مقولة «نهاية التاريخ» التي نظَّر لها فوكوياما، والرؤية الثانية هي رؤية (صدام الهويات) التي تضمنتها مقولة هنتجنتون في (صدام الحضارات)، والتي تنطوي- بحساب موازين القوى- على تكريس هيمنة الأنموذج نفسه؛ أي الأنموذج الليبرالي الرأسمالي. ومن الطبيعي إزاء محصلة كتلك فإن بعض المثقفين العرب ممن يمكن عدهم فريقاً ضمن تنويعات أصحاب الاتجاه المتحرك يقفون في استدعاء واضح لصورة التمترس الدفاعي عن الهوية الثقافية العربية، وبالأخص الهوية اللغوية. يقول الدكتور أحمد الضبيب مثلاً «يدخل العرب في عصر العولمة ذي الصراعات الحاسمة، والقوى المتكالبة، عزلاً لا من الأسلحة المادية وحسب، وإنما من الأسلحة المعنوية، وأهمها سلاح الثقافة الذي يستمد قوته من اللغة الفصحى الموحدة، وهي خط الدفاع الأول عن الهوية»(اللغة العربية في عصر العولمة. ص174). وإذا كان هذا القول يرد في سياق دراسة تتحدث عن (اللغة العربية في عصر العولمة) فإن ذلك يعني أن هذا الفريق الثقافي يضع العربية في لب مفهوم الهوية، ومن ثم فإن ما يراد الدفاع عنه هو (الهوية العربية). وعلى الرغم مما يبدو -للوهلة الأولى- من بداهة ووضوح في مفهوم (الهوية العربية) إلا أن قدراً من الاقتراب الفاحص والمدقق سيصل إلى أن هناك جدلاً واختلافات كثيرة تنبثق كلما حاول العقل العربي أن يحدد الثابت والمتحول في البنيات الأساسية لهذه الهوية وخصائصها الفارقة سواء من جهة أبعادها التراثية، أم من جهة علاقاتها بالانتماءات الخصوصية القطرية، وأخيراً من جهة تفاعلاتها بهويات الآخرين الحضاريين. وهذه لا شك خريطة موضوعية تحتاج قراءتها إلى سياق أوسع من سياقنا الحالي.

على أن ما يهم الآن الإشارة إليه هو أننا بحاجة إلى نظرية معرفية جادة وعميقة حول مسألة العلاقة بين اللغة والهوية في سياق العولمة. وأحسب أن هذه النظرية وما يترتب عليها من سياسة لغوية عربية جديدة لابد أن تبلور تصورات واضحة حول جملة من التحديات التي يفرض سياق العولمة التعامل معها وإنجاز

التصورات المعرفية والإجرائية اللازمة لهذا التعامل، ومن ذلك نذكر ما يلي:

1 - التحول في النظر إلى اللغة من منطق (السلعة) و(الرأسمال التجاري)، وما يفرضه ذلك من عمليات فكرية ومعرفية وحضارية تمس تصوراتنا وممارساتنا لما نبقي عليه من نظرتنا إلى اللغة من منطق (الرمز) و(الرأسمال الثقافي).

2 - التحول من أحادية التفكير المحلي إلى التفاعل الجدلي المبني على المعرفة النقدية الدقيقة بما هو إيجابي في التفكير المحلي وفي التفكير العولمي.

3 - التحول من منطق الحماية بالعزلة اللغوية إلى منطق الحماية بالتفاعل المشارك (مثلاً: الإسهام العربي في المادة العلمية والمعرفية والفكرية والإبداعية التي تتيحها شبكة المعلومات الدولية)

4 - التحول من منطق التفكير بنقاء الانسجام والوحدة إلى منطق ثراء التعدد والتنوع والاختلاف داخل الوحدة؛ أي داخل مشروع الهوية الثقافية الذي يُبنى لا بوصفه جوهراً وإنما بوصفه (عملية) ذات مقصدية تاريخية واجتماعية واقتصادية.

5 - التحول من (الثقافة) إلى (المعلومات) مع ما يكتنف ذلك من تشذير الذات الإنسانية، وتشتت الأطر المرجعية لهويتها أمام السيل العولمي في الأفكار، والمذاهب، والبشر، واللغات، والبضائع، والصور، والرسائل، والتقانات، والتقنيات.

ولاشك أن السؤال اللغوي يقع في القلب من كل هذه التحولات.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: سأكتفي في هذا السياق بالتوقف عند نموذج محدد من واقع المعرفة اللسانية في المؤسسة التعليمية، وهو طريقة تقديم المعرفة الدلالية، وبخاصة فيما يتعلق بالتنمية الدلالية المعجمية. وأعتقد أن هذا النموذج كاف في تبيان أن كثيراً من علل هذا الضعف الذي يشير إليه السؤال كامن في غياب -أو عدم الاستفادة من- أسس المعطى اللساني في تعليم العربية. والسؤال هنا هو: هل تقوم هذه الطريقة بمهمة تحويل تعلم الجوانب الدلالية في العربية من مسار التلقين والحفظ والنظر

الجزئي؛ أي المســار الذي يؤدي إلى قولبة العقل وجموده، إلى مسار إعمال الذهن في إنتاج الدلالة، وإدراك عناصر البنية، واستنباط العلاقات بين الوحدات المعجمية أو النصية؛ أي إلى مســار الإبداع العقلي؟ أعتقد أننا لكي نقدم طريقة لســانية ناجعة لتحقيق هـذه المهمة يلزم الارتكان إلى مجموعة من الأسـس ومـن ثم الإجراءات. فبخصوص تحليل معنى الكلمة يلزم التدريب على:

أ - اسـتنتاج المعنى من السـياق النصي. وفـي حالة عدم اشـتمال النص على القرائـن المسـاعدة على هذا الاسـتنتاج فإنه يمكن وضـع تركيب أو أكثر في أسـئلة التمرين الدلالي يشتمل على مثل هذه القرائن، ثم يُوجَّه الطالب إلى مقارنة استنتاجه بما يرد في قاموس لغوي ملائم بخصوص المفردة المستهدفة.

ب - تشـجيع الطالب علـى وضع تعريفات مناسـبة للمفردات، ثـم حفزه إلى مقارنة تعريفاته بالتعريفات الواردة في القاموس الملائم.

ج: اسـتخدام تحليل المكونـات الدلالية في إنتاج معاني المفـردات، وبخاصة فئة المفردات الدالة على محسوسـات. وبخصوص تحليـل (التعبير التصاحبي) فإننا نعـرف أنه يزيـد من فعاليـة الكفـاءة الدلالية لـدى المتعلـم؛ وذلك من خـلال حفز توقعاتـه، وتنشـيط اختياراتـه، فيما يتعلـق بالمصاحـب، أو المصاحبـات التي ترتبط بلفظ معين. فإذا أردنا–مثلاً– أن ندخل في معجم الطالب كلمة (دجى) فإن اكتسابه لمعناها يترسـخ بإدراجها مع المصاحبات الممكنة وبخاصة أكثرها شيوعاً مثل كلمة (بدر) التي ترد في التعبير (بدر الدجى)، وكلمة (مصابيح) في التعبير الشائع (مصابيح الدجى)...إلخ. ويمثل تمرين إيجاد المصاحبـات اللغوية الممكنة لمفردة ما عنصراً حيوياً في تنمية الثروة اللغوية لدى الطالب: فمع كلمة (دجى) مثلاً يكتسب الطالب عدداً مـن الكلمات المصاحبة الأخـرى مثل: حلكة الدجى، غياهـب الدجى...إلخ. كذلـك فإن هذا التمرين يقدم دعمـاً لتمكين الطالب من اسـتخدام طريقة المكونات الدلالية في تحليل معنى الكلمة: فمثلاً المكون الدلالي الذي يجمع بين كلمة (بدر) وكلمة (دجى) يتمثل في أن البدر [يظهر ليلاً] وأن (الدجى) هي [ظُلَم الليل].

وبخصـوص تحليل معنـى التعبير الاصطلاحـي (التعبير المسـكوك، والأمثال، والرواسـم (الكليشـيهات) فإننـا نعـرف أن هـذا المفهوم يشـير إلى أشـكال تعبيرية

لا يعتمد كل منها في تأدية معناه على المعنى الحرفي لكل عنصر من عناصره. فالتعبيرات الاصطلاحية قد تأخذ دلالة مجازية، أو دلالة ثقافية. ومن المفيد أن يشتمل تمرين تنمية الكفاءة الدلالية لدى الطالب على تحليل دلالات الأنماط الشائعة من التعبيرات الاصطلاحية في العربية، مثل: لسان الحال، قميص عثمان، على بكرة أبيهم، يضرب أخماساً في أسداس، رجع بخفي حنين، خاوي الوفاض، يعلم من أين تؤكل الكتف...إلخ.

وبخصوص تحليل شبكة العلاقات الدلالية بين الوحدات المعجمية فإننا نلاحظ أن الكتب المدرسية تكاد تقتصر في تعليم دلالات المفردات العربية على علاقتين دلاليتين هما: الترادف والتضاد. وأعتقد أن هذا التركيز على هاتين العلاقتين يترتب عليه ضرر بالغ في تشكيل البنية العقلية لمتعلم العربية. ففضلاً عن أن النظر إلى مفردات اللغة بوصفها مترادفات يغفل حقيقة لسانية مهمة وهي أنه لا وجود حقيقياً للترادف التام، فإنه يرسخ لدى المتعلم رؤية للعالم لا ترى فيه جديداً؛ فكل شيء يكرر شيئاً آخر، أو أشياء أخرى. وهذا تصور يعمد إلى رد التنوع إلى الوحدة، ومن ثم تصبح اللغة أشبه ما تكون بآلة لإنتاج التماثل والهوية الواحدة. وفي المقابل فإن التركيز على علاقة (التضاد) لا يبعد كثيراً عن منطق التركيز على علاقة الترادف. فالعالم–بمنطق التضاد– ينقسم إلى قطبين متقابلين، وكل قطب يشتمل في داخله على فئات من العناصر المتماثلة، أو المترادفة.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا التركيز قد أغفل عدداً مهمّاً آخر من أنماط العلاقات الدلالية. ولذلك فإن التصور المقترح يشير إلى نماذج من هذه العلاقات مبيناً جدوى إدراك تعدد الارتباطات البنيوية بين المفردات، وذلك مثل العلاقات الدلالية التالية:

- علاقة الاشتمال: لون ________ أرجواني
- علاقة الانضواء: زئير________ صوت
- علاقة التدرج: وليد________ طفل________غلام....
- علاقة التكامل: زوج________ زوجة...إلخ.

وفي هذا السياق فإنه يمكن الإفادة من التحليلات القائمة على نظرية «المجالات الدلالية»؛ حيث يمكن للتمرين على وضع هذه المجالات أن يسهم في

تنمية قدرة التعميم والتخصيص: فالكلمات: يذهب، ويأتي، ويعود، ويسافر، ويسير، ويجري، ويبحر، يمكن وضعها في المفهوم العام (يتحرك)، وفي الآن نفسه يمكن التفريق بينها بالخاصة الدلالية المميزة التي تضيف إلى مفهوم (يتحرك) عنصراً دلالياً أو أكثر: فـ[يذهب] و[يأتي] تقتضيان مفهوم [الاتجاه]، و[يعود] ويسافر] تقتضيان مفهوم [المكان المحدد]، و[يسير] و[يجري] تقتضيان مفهوم [الحركة بدون وسيلة اصطناعيةٍ، في حين أن [يبحر] تقتضي مفهوم [الحركة بوسيلة اصطناعية].

وبخصوص تحليل العلاقات الدلالية التركيبية فإننا نعرف أن عملية الفهم- في جوهرها- هي عملية تحليل دلالي يقوم من خلالها القارئ بتحديد الأدوار والعلاقات الدلالية الماثلة في التركيب. ومن أجل مزيد من حفز الكفاءة الدلالية لدى المتعلم فإن توجيهه إلى بناء نماذج صورية للأدوار الدلالية (المنفِّذ، الأداة، المفعول، المستفيد، ...إلخ) يعد أمراً مهماً في إدراكه لدلالات عناصر التركيب، وللعلاقات القائمة بينها. وفي هذا السياق يمكن مثلاً الإفادة من نظرية (العائلات الفعلية *verb families*) في وضع تمارين دلالية يقوم الطالب من خلالها بتبيان الفروق الدلالية بين أفعال العائلة الواحدة (مثلاً: عائلة الفعل «ينتقد»: يتهم، يوبخ، يلوم، يقدح، يزدري...)، وكذلك تبيان السمات الدلالية الضمنية المميِّزة لأدوار المشاركين في كل فعل من هذه الأفعال، ومدى ما تفرضه هذه السمات من قيود اختيار.

وبخصوص تحليل العلاقات الدلالية بين الوحدات النصية فإننا نعرف أن كل نص يقدم تمثيلاً لعالَم ما: عالم واقعي آنيّ (كنص الخبر الصحفي)، أو عالم واقعي سابق (كالنص التاريخي)، أو عالم متخيَّل (كنص قصة خيالية). وبطبيعة الحال فإن هذا التمثيل الدلالي لا يتم دفعة واحدة، وإنما يتم من خلال عمليات خطية متنوعة يتوالى فيها تنظيم كُتل المعلومات *information blocks*. وفي هذا الخصوص فإن التمرين الدلالي للمتعلم يستهدف -ضمن ما يستهدف- تنمية قدرته على أمرين:

- اكتشاف المفاصل الدلالية الكبرى للنص، واستنباط العلاقات الدلالية بين هذه المفاصل؛

- اكتشاف العلاقات الدلالية بين الوحدات النصية المكونة لكل مفصل (مثل:

علاقة الإجمال والتفصيل، أو علاقة السبب والنتيجة، أو علاقة التقابل...إلخ).

والسؤال بعد ذلك: هل تقوم عملية تنمية الكفاءة الدلالية المعجمية -عبر المسارات المتتابعة للنهج التعليمي- بتحقيق هذه المهمة؟ أعتقد أن الإجابة الموضوعية تفضي إلى النفي. فإذا انتقلنا إلى طريقة إكساب المتعلم الكفاءة النحوية فإن الأمر أشد سوءاً. ويكفي مثلا أن أشير إلى استمرار إصرار كثير من المؤسسات التعليمية حتى الآن على (شرح ابن عقيل) على الرغم من أن هذا الكتاب يقوم على خلط منهجي بين مسارات علمية ثلاثة: تاريخ العربية وظواهرها اللهجية، والفكر النحوي واختلافاته التأويلية، والقواعد النحوية التي يراد إكسابها للمتعلم. والحادث أن المتعلم يضطرب بين مقتضيات هذه المسارات وغاياتها المتغايرة: فما المطلوب منه تعلمه واستعماله عندما يقول له الكتاب إن الأسماء الستة تُعرب بالحروف الثلاثة، ثم إن هناك من أعربها بإطلاق حرف واحد، ثم هناك من أعربها بالحركات الثلاث؟! وكل ذلك يتم في عدة أبواب خاصة بمقتضيات الصيغ بمعزل عن اندراجها التركيبي؛ أي أنها تُقدم له قبل أن يتم إكسابه فهماً واضحاً للكلام ودوره في تمثيل التجربة الإنسانية العقلية أو الشعورية أو السلوكية، وقبل إكسابه فهماً أوضح لمقتضيات التركيب الذي يقوم على العلاقات النحوية التي تحدد الوظائف النحوية (للأسماء بصفة خاصة).

س: ما دمنا بصدد الحديث عن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا من قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغوي، الأمراض اللغوية... ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟

ج: يذهب بعض منظري (العلم) إلى أن هناك ثلاثة أنواع من العناصر التي يقوم عليها النسق العلمي. وهذه الأنواع هي:

1- العناصر النظرية: وتتمثل في مجموعة المفاهيم والمنطلقات التصورية التي يحاول العالم من خلالها أن يفسر الظاهرة التي يتصدى لدراستها.

2- العناصر الاجتماعية: وتتمثل في الشكل المؤسسي الذي ينتج العالم من خلاله معرفته العلمية؛ وذلك مثل مراكز البحوث، أو الجامعة...إلخ.

3- العناصر العملية، أو عناصر العائد العام: وتتمثل فيما يترتب على هذه المعرفة العلمية من آثار في مجال فهم هذه الظاهرة، ومن كيفيات التأثر بذلك في السلوك العملي.

وربما يكون هذا التصور مفيداً عندما نطل من خلاله إلى واقع تطور الدرس اللساني في حياتنا العلمية العربية، وإلى علاقة هذا التطور بالسياق الثقافي العام. وهنا نلاحظ -بصفة عامة- أن اللساني العربي لم يكن متوفراً لديه -وقت بداية تعرفه اللسانيات الحديثة- مرتكز للمساءلة النقدية التي يقيم على أساس منها رؤية واضحة للترابط الجدلي بين جوانب هذه العناصر. ومن ثم فقد وقف هذا اللساني من عناصر المفاهيم النظرية التي طرحتها عليه اللسانيات الوصفية -مثلاً- بدون مساءلة ما يترتب عليها من تحديد دور المؤسسة العلمية أو التعليمية في تشكيل طبيعة العلاقة بين الإنسان العربي ولغته. ولقد كان أخطر هذه العناصر المفهومية هو تغييب البعد الدلالي، أو البعد الوظيفي المعنوي، من عملية التحليل العلمي لهذه اللغة. وعلى حين أن هذا التغييب في النظرية الوصفية الغربية كان متسقاً مع معطيات الفلسفة الوضعية السائدة، فإنه كان في السياق الثقافي العربي متسقاً مع تسلط التبعية الذهنية للمرجعية المستعارة، من ناحية، ومن ناحية أخرى مع هيمنة إيديولوجيا الشكل التي حاول خطاب النخب التي حكمت بعد حركات الاستقلال أن يغطي بها على غياب المضامين الحقيقية، والبرامج الفعلية، لهذا الاستقلال. ولقد قاد ذلك إلى تشكيل موقف مضاد من إدخال البعد العقلي، ومن ثم البعد الفلسفي، في فهم ظاهرة اللغة. وأصبح مفهوم (العلم) في تعبير (علم اللغة) لا يعني إلا الجرد الشكلي، أو الإحصائي الكمي لمواضعات المدونة اللغوية. لقد أصبح العلم علماً بـ(النص) لا بـ(الخطاب). ومن ثم كان هذا الازدراء (العلمي) للعمليات العقلية من تقدير وتأويل وتوجيه وتعليل. وكما يقول أنيس فريحة -مثلاً- أصبح «هم الباحث أن يدرس هذه اللغة درساً وصفياً تقريرياً *descriptive analysis* لا درساً فلسفياً؛ أي ذلك الدرس الذي من شأنه البحث عن العلة أحياناً. وإذا أصررنا على

معرفة العلـة والنتائج نكون قد خرجنا مـن نطاق البحث العلمي إلـى دائرة الحدس والتخمين». وفي إطار هذا السـياق قامت حركة (نقـد النحو العربي) و(تقويم الفكر النحوي)...إلخ؛ لأنـه قام بـ(جريمة) إدخـال العقل والتفلسـف والمنطق في تحليل اللغة!!. وفي إطار هذا السـياق أيضاً لنا أن نتصور حجم دور المؤسسة التعليمية في تشـكيل ذهنيةٍ لدى المتعلـم ينفصل فيها الكلام عن دلالتـه الخطابية، وعن مرجعيته العقليـة. ومن ثم تصبح مهمته ليس إعمـال العقل تأويلياً فيما يقرأ أو يسـمع، وإنما التسـليم بظاهره المباشـر، والوقوف به عند أقرب محطة لحرفية الدلالة. وحين نريد أن ننظر إلى (العناصر العملية) التي ترتبت على ذلك فإننا نشير -مثلاً- إلى الموقف من الإبداع الأدبي لدى كثير من المتعلمين من حملة الشـهادات العليا في تخصص اللغة العربية. فهنا نجد إما موقف القانع بالشرح المدرسي الاختزالي، إذا كان النص يسـمح بتداول مباشـر، وإما موقف العجز، ومن ثم الرفض والهجوم، إذا كان النص محمـلاً بجماليات الغموض والرمـز. وفي كلتـا الحالتين ثمة عجز فـادح عن إنتاج الدلالة.

وبطبيعـة الحـال فليـس المقصـود ممـا سـبق أن اللسـاني يتحمل وحـده تلك التبعـات؛ إذ إننـا نسـتطيع أن نشـير إلـى أدوار موازية (كهيمنـة النموذج الاسـتبياني الإمبريقي في الدراسات السوسـيولوجية-مثلاً). ولكن المقصود هو التأكيد على أنه لا يجوز للسـاني بالـذات فيما يتعلـق باللغة -وهي حقل اختصاصـه- أن تغيب عن وعيه تلك المسـاءلة النقدية الدائمة لما يترتب على العناصر النظرية التي يشتغل بها من نتائج على المسـتوى الثقافي العام. فاللغة ليست موضوعاً ينغلق في إطار تجربة معمليـة، أو إطار صيغ جبرية. إنها -بالأسـاس- ظاهرة ثقافيـة يخضع تحليلها -من ناحيـة- للتحولات المسـتمرة في منطق إنتـاج العلم والمعرفة، ولكنـه يخضع -من ناحية أخرى- لضرورة الارتباط بتشكيل علاقات القوة والتضامن في الفضاء الثقافي للمجتمع.

س: **ترجمتم مجموعة من الأعمال إلى اللغة العربية، هل حققت هذه الترجمات الأهداف المتوخاة منها؟**

ج: لـي بالفعل بعض الترجمات: سـتيفن أولمان (الأسـلوبية وعلـم الدلالة)،

و(الفكـر اللغـوي بين اليونـان والعرب) فصـول من كتـاب المستشـرق الهولاندي: كيس فرستيغ: (عناصر يونانية في التفكير اللغوي عند العرب)، وروجر فاولر: (نحو نظرية لسـانية/ اجتماعية للخطاب الأدبـي)، وبيير باولو جيجليولي: (اللغة والسـياق الاجتماعي). ومن جهة أهداف هـذه الترجمات فهي متغايرة بتغاير العمل المترجم: فعمل أولمان يمثل -في تصوري- الصورة الكلية المركزة لعطاء الأسلوبية التعبيرية، ولقـد اهتممت أن يقرأ هذا العمل على ضوء رؤية نقدية لإبسـتمولوجيا هذا الاتجاه الأسـلوبي، وهي الرؤية التي أخذت حيزاً أوسع في كتابي (الأسـلوبية التعبيرية عند شـارل بالي: أسسـها ونقدها). كذلـك اهتممت فـي التعليقات على هـذا العمل أن أقدم عينة من واقع مشكلات ترجمة المصطلح في ثقافتنا العربية المعاصرة؛ وكانت المصطلحـات الواردة في الترجمة فرصة لهذا التطبيـق. أما ترجمة فصول من كتاب فرسـتيغ فقد اسـتهدفت تقديم قراءة نقدية لهذا العمل الذي يمثل جـوراً فادحاً على أسـس الاسـتدلال العلمي حين أرجع كل شـاردة وواردة فـي التفكير اللسـاني عند العرب إلى أصول ومصادر يونانية ممتدة باتسـاع العلم اليوناني زمناً وحقولاً معرفية وصلـت إلى حـد القول بقيـام أصـول النحو العربـي على أصـول الطـب التجريبي اليوناني!! أما عمل فاولر فهو مهم لأنه يقدم صورة مغايرة لنمط الاتجاهات الشكلية في اسـتثمار اللسانيات في تحليل الخطاب الأدبي، وأقصد بذلك استثمار اللسانيات الاجتماعيـة التـي تغوص إلى كشـف تمثيلات شـبكة العلاقـات الجدلية بيـن اللغة والسـياق الاجتماعي. أما عمل جيجليولـي فهو تلك المقدمة التـي وضعها لتحريره كتاب (اللغة والسـياق الاجتماعـي) ومنها يمكن للقارئ العربي الإلمام بأسـس هذا الفرع اللساني واتجاهاته ونماذج قضاياه.

ســ: هل تعتبرون ترجمة المصطلح اللسانـــي إشكالا في الترجمة كما يعتقد البعض؟

ج: إشـكالات ترجمة المصطلح اللسـاني تندرج ضمن إشكالات المصطلحية العربية الحديثة والمعاصرة. وأوضح هذه الإشـكالات غيـاب البناء على ما هو قائم من قبل. وفي هذا السياق أستأذن في الإشارة إلى كتابي (نقل المصطلح اللساني في مطلع القرن العشرين: النجاري نموذجاً). فمحمد النجاري هذا (توفي بمصر 1914م)

وضع قاموساً من ستة مجلدات من القطع الكبير أسماه (قاموس فرنساوي/ عربي) يصفه الزركلي بأنه «أوسع المعجمات الفرنسية العربية» (بلغت صفحات الأجزاء الستة 2744 صفحةً) وفي مقدمته يقول إن القارئ سيجد-بالإضافة إلى المعاني المختلفة لكل كلمة- تعريبَ كل الألفاظ الاصطلاحية في القانون، والرياضيات عموماً، والطب، وعلم الكيمياء، وعلم الطبيعة، وعلم الفلك، وألفاظ النبات، والأمثال...إلخ. ولقد استخرجت منه المصطلحات اللسانية، وقمت بدراسة تحليلية لها، ومقارنتها بما ورد عند لسانيين عرب محدثين، وبصفة خاصة قارنتها بما ورد في قاموسين حديثين: أحدهما عام، وهو قاموس المنهل لسهيل إدريس، وقاموس اختصاصي في اللسانيات؛ وهو قاموس عبد السلام المسدي. ولكن السؤال يبقى: هل تقوم المؤسسات العربية المعنية بشأن المصطلح، أو أصحاب الجهود الفردية، بالبناء على كل هذه الذخيرة الاصطلاحية التي قدمها هذا العمل؟

س: ما هو تقويمكم للمنجز الترجمي في الثقافة العربية لحد الآن؟ وكيف يمكن للترجمة أن تسهم في خلق إشعاع لساني في الثقافة العربية؟

ج: لا جدال في حقيقة أن الترجمة أحد المصادر الفعالة في إقامة حوار مع عطاء الثقافات الأخرى. وبالنظر إلى هذه الأهمية القصوى للترجمة فإن ترك أمرها للاجتهادات الفردية يقلل كثيراً من فعاليتها. الترجمة تحتاج إلى عمل مؤسَّسي، وإلى أن تكون هناك خطط مدروسة، وسياسة مطردة ومتسقة بين الأقطار العربية حتى لا يتكرر بذل الجهد في ترجمة العمل الواحد (إلا إذا كان ما هو قائم يعتوره النقص أو التشويه)، وحتى لا تسقط من قائمة الثقافات التي نترجم عنها ثقافات مهمة لها عطاؤها وتميزها. ثم إن الترجمة ما تزال بحاجة ماسة إلى تعدد منابر النشر حتى تتسع قاعدة القارئ العربي المطلع على فكر الآخرين.

الدكتور مرتضى جواد باقر

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلـــود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضـــل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقـــق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيـــات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: تشـغل اللسـانيات موقع الصـدارة في العلوم الإنسـانية بسـبب طريقتها في النظـر إلى العلـم، والبحـث العلمي.كما أعتقـد. أهمية اللغـة لم تخلقها اللسـانيات القديمة أو الحديثة، إنما هو أطر البحث اللساني ما يجعلها تحتل موقع الصدارة من التزام بأصـول ومتطلبات البحث وصولاً إلى وضع نظرية لسـانية عن اللغة البشـرية كنظام معرفي.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني فـــي الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف ثقافتنا على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: مناهج اللسـانيات الحديثة لم تأخذ موقعها المناسـب فـي خارطة البحث العلمي فـي العالم العربـي ما زالت مناهـج اللسـانيات الحديثة غريبة على السـاحة الثقافيـة، ومـا زال المصطلح اللسـاني الحديث غير مألوف وغير راسـخ. الاسـتثناء الوحيـد والبـارز لهـذا نجده فـي المغرب حيـث تبـدو هناك بـوادر تأسـيس للثقافة اللسانية.

س: هناك أسبـــاب موضوعية ولا شك تفسر هذا الوضع، وتحول دون استثمار منجـــزات الدرس اللسانـــي في الثقافة العربيـــة بالشكل المطلـــوب ما هي هذه الأسباب؟

ج: وجود تراث ضخم وثري من الدرس اللسـاني العربي التقليدي يحول دون ذلك بالتأكيد، والمقاومة الطبيعية للأخذ بالجديد القادم من الآخر-المشكوك بنواياه أصـلاً- تحول دون ذلك. لا ننس أن هناك من يتهم المناهج اللسـانية الجديدة بأنها

جزء من الغزو الاستعماري لتفريق الأمة وعزلها عن تراثها.

هذا التشـخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللسـاني في ثقافتنا، حين ننظر إلى استقبال اللسانيات الجديدة من الداخل. هناك عوامل خارجية طبعاً عدم تأسيس أقسام علمية أو مراكز بحثية خاصة باللسـانيات، وعدم إيلاء هذا العلم الأهمية التي تليق به. هـذا طبعاً بالإضافة إلى المسـألة التي تتعلق بعموم التخلـف في مجتمعاتنا وما يجره هذا من مظاهر ومتعلقات.

ســ: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائــدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: لن تكون المعادلة صعبة أو غير مفهومة إذا ما عرفنا أن هناك إرثاً مسـتديماً في الثقافة العربية من التعصـب والانغلاق وإلغاء ما لا نؤمن به، هذا الإرث يعاكس في اتجاهه التراث العقلي الذي نفخر به.

س: التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنافس لا نجد له مثيلا إلا في ثقافتنا، هل المشكل مشكل مناهج حقا؟

ج: لا بالتأكيـد. إنـه تنافس بيـن ما بأيدينـا وما يردنا مـن الجديد. طبعـاً هناك الرغبـة الإنسـانية الطبيعية بالبقاء علـى ما ألفنـاه ولا نخرج منه إلى مـا ليس مألوفا، وهناك أيضاً إشـكال عدم التوازن في مقدار ما نعرفه عن هذه المناهج. وأخيراً هناك الارتداد إلى التراث والماضي الذي يزيد منـه التخلف في الحاضر. أما القطيعة بين دارسـي مناهج اللسـانيات الحديثة المختلفة فأظنها متأتية مـن الخلافات التي تطبع الدرس اللسـاني العالمي ووجود أكثر من مدرسـة فكرية ومنهجية فيه. ومن يدري، ربما كان الانزواء في صوامعنا المنهجة بدون المخاطرة بالخروج منها يعطينا شعوراً بالأمن!!

ســ: من مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين اللسانيين، فلا أحد منهم يهتم بما يكتبه الآخر، وهذا ما يجعل أمر اللسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟

ج: عوامل كثيرة تكمن وراء هذا، منها اعتزازنا المبطن بإقليميتنا (سوسيولوجيا

العلم والمعرفة تمدنا بالكثير من الأمثلة على هذا)

س: يتخذ هذا الصراع مظهـرا تلخصه المعادلة: النحو ≠ اللسانيات، التراث اللغوي العربي ≠ اللسانيات؟

ج: ربما كانت المعادلة أكبر الدرس اللغوي العربي لا يساوي اللسانيات. لا تعليق لدي أكثر مما قلت.

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: اللسانيون يرصدون ولا يفرضون قوانين. الحكومات والشعوب هي التي تقوم بهذه المهام. وتخطئ مرة وتصيب أخرى. المشكلة كبيرة. هناك لغة تعم ولغات تنحسر. ما العمل؟ أن تنشر الثقافة العربية. من الذي ينشرها؟ الدول وواجهاتها ومؤسساتها الثقافية. المعاهد والمراكز والمؤسسات اللسانية لا تستطيع ذلك. من ذا الذي يستجيب إليها؟ ليست هي المنفذ. الأمر الثاني المهم هو أن ننظر إلى الأمر من وجهة نظر علمية موضوعية ونبتعد عن الدعوات الحماسية التي لا تمتلك غير الإثارة. هناك لغة تنتشر. وهذه ليست أول مرة يحدث فيها هذا، ولو بدرجة أقل كثيراً. من الطبيعي أن تدخل مفردات وتعبيرات من هذه اللغة إلى اللغات الأخرى. وهذا إثراء لهذه اللغات استيعاب هذه الحقيقة وما يليها من الحقائق التي تنتج عن قوانين لسانية عامة بخصوص الاتصال بين اللغات قد يساعدنا في اقتراح سبل ترسيخ مكانة العربية للمخططين اللغويين.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: أن نقبل بما دخل إلى العربية منها جزءاً من لغتنا كما قبلنا بالسراط والإيوان والاستبرق وغيرها، فيسوغ بذلك استعمالها ويقل انشغالنا بإيجاد وفرض مقابلات عربية ربما لا نستطيع إشاعة استعمالها.

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: أنا لا أفهم بالضبط ما المعني بهذا السؤال. ولكني أقول إن الدرس اللساني العربي الحديث -أي الذي كتبه العرب مستعينين بالمناهج الجديدة- لم يستثن من جوانب الظاهرة اللغوية شيئاً أنا هنا لا أعرف شيئاً اسمه «الوسطى» هذا مصطلح لا حدود لما يحيل إليه.

س: ما هي الإشكالات التي يمكن أن تطرحها العربية بوصفها لغة الإنتاج الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب، لا لغة التداول اليومي؟

ج: كل اللغات تستخدم في مدى عريض من الاستخدامات. ولا أدري إن كان هذا قد شكل مشكلة لتلك اللغات -الإنجليزية مثلاً- وإن لم يشكل ذلك، فلم يشكل مشكلة للعربية؟ أو لدراسة العربية.

س: ما هو دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: أنا أحسب أن تبني المجامع اللغوية العربية مبادئ اللسانيات الحديثة العامة ربما ساعد في جعل عملها أفضل وأفيد...

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: لا أعرف جواباً عن هذا. إن لم يؤمن الناس والأكاديميون عموماً أن عليهم أن يجعلوا العربية لغتهم العلمية داخل الصف وخارجه، ستبقى الأمور على حالها. ربما لو خففنا من غلوائنا في وجوب تعريب كل المصطلحات مثلاً، لكان الأمر أسهل.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر، في الغرب، قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن. وأن الكثير من تلك السمات كان له تأثير مباشر في الاتجاهات التي اتخذتها

الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري (حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي فـي غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: هذا سؤال جدير بالتأمل. هل طبعت النهضة العربية الإسلامية -في القرنين الثالث والرابع الهجريين- الدرس اللساني العربي؟ لا بد من ذلك. النهضة إن حدثت فهي تطبع كل شيء بطابعها. لو لم تكن هناك نهضة لما رأينا هذا النقل، أو توارد الخواطر- بين تراثنا اللساني والتراث اللساني للأمم الأخرى. أما من ناحية الصلة بين الدرس اللساني العربي التقليدي والفكر اللساني الحديث، إن كان هذا هو السؤال، فأنا لا أجد صلة مباشرة بينهما- تنم عن تأثير أو تأثر. كتب الكثير عن قراءة نعوم جومسكي للنحو العبري التقليدي -أبوه كان دارس تقليدياً للعبرية- وعن تأثره بمقولات النحو العربي عبر دراسته للأدبيات اللغوية العبرية. لكن ماذا يثبت هذا؟ لا شيء فيما أرى. أما الحديث عن دوامة فلا أستطيع أن أخوض فيه.

س: ما دمنا بصدد الحديث عـن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تساهم لا مـن قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميـم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغـوي، الأمراض اللغوية...ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا.

ج: هو مظهر من مظاهر تخلفنا العام، وليس تخلف اللسانيات. حين يكون هناك مثلاً اهتمام بمرضى الحبسة عندنا أكثر مما نلقاه فإن هذا سيستلزم اهتماماً بدراسة اللسانيات النفسية أعمق مما هو عليه الآن. وكذلك الأمر بالنسبة لكل شيء آخر.

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلــت تؤرق البحــث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلــك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: أنـا قد لا أتفق معك في أن هناك مشـكلة خاصة باللسـانيات كحقل علمي أو أن اللسانيات تعيش مشـكلة خاصة بها. المصطلح اللساني، مشكلته كمشكلة أي مصطلح علمي جديد. سـيكون بالضرورة متعدداً، وغير راسـخ وغير مألوف. ولكل هذه أسباب ولكنها ليست داخلية.

ســ: تبقى مساهمة اللسانيات العربية في اللسانيات العالمية محدودة جدا، ولا يــكاد يذكر من اللسانيين العرب إلا من لهم كتابات باللغات الأجنبية. هل هذا الأمر تعتبرونه طبيعيا ولماذا؟

ج: فـي الحضارة المتخلفة يكون البحث العلمي متخلفاً وتكون تلك الحضارة مستهلكة وليست منتجة.

س: في نظركــم ما هي السبل التي ترونها كفيلــة بإنجاح مشروع الإصلاح اللغــوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجــب أن ترتكز عليها البحوث اللسانيــة العربية إن هي أرادت مسايرة الركــب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟

ج: نشر الوعي اللساني وزيادة التواصل مع مواطن الإنتاج سيفيد.

س: ترجمتم مجموعة من الأعمال إلى اللغة العربية، هل حققت هذه الترجمات الأهداف المتوخاة منها؟

ج: إن كان الهـدف هو نشـر المعرفة اللسـانية فأعتقد أن مـا ترجمته، وترجمه غيري، قد حقق ذلك.

س: ما هي المشاكل التي اعترضتكم أثناء الترجمة؟

ج: عدم وجود المصطلح أو تعدده وعدم رسوخه.

ســ: هل تعتبرون ترجمة المصطلح اللسانــي إشكالا في الترجمة كما يعتقد البعض؟

ج: لا أظن ذلـك. إن اتبعت الطرق المنهجية المألوفـة لكل مترجم في ترجمة المصطلح، فلن يكون ذلك صعباً. المشكلة إننا نخلط بين استنباط المصطلح، وعدم إلفته.

س: مــا هو تقويمكم للمنجز الترجمي في الثقافــة العربية لحد الآن؟ وكيف يمكن للترجمة أن تسهم في خلق إشعاع لساني في الثقافة العربية؟

ج: تجيبك على هذا تقارير الأمم المتحدة. إنه فقر مدقع.

س: ما هو تقويمكم لواقع البحث اللساني في قطر؟

ج: لا أظن هناك بحثاً لسـانياً يخرج عن إطار البحوث الجامعية. الاسـتثناء هو ما فعلناه فـي آذار من العام الماضي حينما أقمنا، في جامعة قطر، مؤتمراً للسـانيات في الخليـج، اجتمع فيه نخبـة من الباحثين وقدمـوا بحوثاً تناولـت مختلف جوانب المشهد اللساني في هذه المنطقة.

س: ما هي نصائحكم للسانيين الشباب؟

ج: أن يشـككوا فـي كل شـيء، وأن لا يقدسـوا شـيئاً ولا يقاربـون اللغـة أو البحث اللغوي بمسـلمات لا إثبات لها. وأخيراً أن يتغلبوا أثناء بحثهم اللساني على عواطفهـم وانحيازاتهم تجاه العربية، فهـي لغة القرآن، نعم، ولكنهـا لغة كغيرها من اللغات يجري عليها ما يجري على غيرها.

الدكتور مصطفى غلفان

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: إشارة ليفي ستراوس خلاصة لمواقف عديدة تعود لفترات سابقة من تاريخ الفكر الإنساني عامة والفكر اللساني خاصة. ومرد هذا الاهتمام هو أولا اللغة البشرية باعتبارها مركزا للنشاط الإنساني كيفما كانت طبيعة هذا النشاط النفسية والاجتماعية والفكرية وثانيا باعتبار المسار الذي دخلته الدراسات اللغوية في العصر الحديث بدءا بالأبحاث المقارنة مع فرانس بوب *Franz Bopp* والتاريخيين في القرن التاسع عشر ثم مع سوسور والتطورات التي عرفتها الدراسات اللسانية في أوروبا وأمريكا مع شومسكي بالأساس. فخلال هذه الفترة لعبت اللغة دوراً أساسياً في المباحث المنهجية التي كانت تسعى جادة لعلمنة العلوم الإنسانية وربطها بالعلوم الدقيقة. فعلم الاجتماع وعلم النفس والانتروبولوجيا وباقي العلوم الإنسانية كانت وما تزال في حاجة ماسة إلى منهجية اللسانيات التي فرضت بالفعل نفسها مع البنيويين والتوليديين. فالتحليل اللساني يسير في هذين التصورين وفق خطة محكمة وأسس نظرية وإجرائية مضبوطة يفترض أن يعرفها المحلل اللساني معرفة تامة. إن هذه المنهجية المتبعة في اللسانيات هي ما تحتاجه العلوم الإنسانية الأخرى، وهذا مكمن القوة في البحث اللساني المعاصر.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: بالفعل لقد مر على تعرف الثقافة العربية البحث اللساني الحديث أزيد من نصف قرن، لكن الحصيلة لم ترق إلى المستوى المرتقب أو اللائق من قبل المهتمين

المختصين بالثقافة العربية التي نعرف تاريخياً أنها ثقافة لغوية بامتياز. اللسانيات في ثقافتنا العربية ما تزال ترفاً فكرياً، أكثر من هذا لم تقدم اللسانيات للغة العربية ما كان منتظرا منها على غرار ما حصل في ثقافات أخرى مثل الفرنسية والإنجليزية والألمانية على سبيل التمثيل لا الحصر. ما يزال البحث اللساني نوعاً من الألغاز والكلام غير المفهوم ومجالاً محدوداً لا يدخله إلا قلة قليلة من الدارسين.

س: هناك أسباب موضوعية ولا شك تفسر هذا الوضع، وتحول دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب ما هي هذه الأسباب؟

ج: الأسباب عديدة ومتنوعة وهي ليست دائما أسبابا موضوعية. لابد من الإشارة إلى تدخل ما هو إيديولوجي بالمعنى العام في هذه الوضعية الراهنة للثقافة العربية بما فيها اللسانيات ولكن أيضاً في المجالات الفكرية الكبرى مثل التاريخ والدين والفلسفة وغيرها من العلوم الإنسانية القريبة جدا من حياة الإنسان العربي. لكن ضمن الأسباب أسباب موضوعية لا جدال حولها مثل أساس المعرفة العلمية في اللسانيات: ماذا تدرس اللسانيات؟ وكيف تدرس اللسانيات اللغة. وما الغاية من الدراسة اللسانية؟ أعتقد أن توضيح مثل هذه الجوانب من الأوليات التي غالبا ما يتم القفز عليها عندنا على الرغم من أهميتها. في الثقافة العربية نلاحظ تدخل عناصر أخرى تخلق نوعا من التعتيم الفكري والمنهجي وتخلط «الأوراق» لغايات ليست علمية أو معرفية بقدر ما هي سياسيوية أو إيديولوجية غير بريئة بصفة عامة.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم(اللسانيات)، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم (للسانيات) لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك(بحسب بحث قمنا به في هذا المجال): غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية...إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها؟

ج: أعتقـد أن كل مـا ذكرتَـه صحيح، وهـذه العوامـل مجتمعة تسـهم إلى حد كبير في الوضع المتردي وفي هذا التخلف اللسـاني الذي تعيشـه اللسـانيات واللغة العربية في الوقت الراهن. أود أن أؤكد على تدخل العامل «غير المعرفي» المقصود من قبل فئات من الدارسـين اللسانيين العرب (وغير اللسـانيين) تتاجر الإيديولوجيا بالعلـوم عامـة وبالعلـوم الإنسـانية بصفـة خاصـة. أعطيـك مثـالاً: هل يخفـى على الدارسـين العـرب أن اللسـانيات تـدرس اللغـة أو اللسـان *La Langue* علـى وجه التحديد؟ أليسـت هذه هي القاعدة الأساس في اللسانيات إذ بها تأسست اللسانيات وعليها قامت؟ بالطبع الجميع يدرك هذه الأمور جيدا ويفهم مغزاها المنهجي. لكن كـم باحث عندنـا في العالـم العربي يحـرص على تطبيق هـذه القاعـدة والعمل بها ويسـتثمرها في أبحاثه اللسانية وحتى في محاضراته أو على الأقل يؤكد على قيمتها المنهجيـة؟ إنهم بالفعـل قلة قليلة جدا تعـد على رؤوس أصابع اليـد الواحدة. بكل صراحة نحن في الثقافة العربية ندور حول اللسـانيات وعلى هامش اللسـانيات ولـم نلج بعد عالم اللسانيات إلا في حالات نادرة جداً.

سـ: واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائـدا؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة؟

ج: واقـع البحث اللسـاني العربي يطـرح في نظـري علامات اسـتفهام معرفية كبرى. اللسـانيات كما تمارس عند غيرنا في اتجاه، وفي أبحاثنـا اللغوية العربية في اتجـاه مغاير. مرة أخـرى لا أتحدث عـن الحالات القليلـة التي تمارس اللسـانيات «**كما يجـب أن تكون**». في اعتقادي، لا يمكن للسـانيات أن تلعـب أي دور معرفي طليعي في الثقافة العربية المعاصرة مادام الحـال عندنا على هذه الكيفية. إن الإرث اللغوي العربي بقدر ما يشكل قمة حضارية فإنه في نظري تحول إلى هاجس معرفي خلق نوعاً من الصراع الخفي بين الفكر اللغوي القديم واللسانيات بكيفية غير مبررة ولأسباب غير بريئة أشرت إليها سابقاً. هذا الإشكال المصطنع وجه البحث اللساني في الثقافة العربية نحو مشـارب أخرى لا علاقة لها البتة باللسانيات كما كان منتظرا منها.

س: التنافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنافس لا نجد له مثيلا إلا في ثقافتنا، هل المشكل مشكل مناهج حقا؟

ج: التنافس بين المناهج غير مرتبط في الواقع بأي ثقافة معينة بقدر ما هو مرتبط بالنشاط العلمي. وبفضل التنافس بين المناهج تتطور الممارسة العلمية نفسها. وبديهي أن مثل هذه الأمور تقع في إطار المشروعية المنهجية ذاتها، بمعنى أن الصراع (الطبيعي والعادي) بين المناهج يكون قائماً على أسس معرفية واضحة. المشكل في الثقافة العربية أن تبني منهجا معيناً والدفاع عنه غالبا ما يتحول إلى موقف شخصي وذاتي (اعتباري بمعنى آخر) مع ما يترتب على هذه المسألة من تداخل بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي، لتتحول القضية المنهجية وكل نقاش يرتبط بها إلى مسألة ذاتية مرتبطة بهذا الباحث أو ذاك، أي الشخص المتبني للمنهج وليس للمنهج باعتباره طرائق بحث وقواعد إجرائية. والغريب عندنا أن كثيرا من الباحثين العرب يدافعون عن هذه المناهج (والنظريات أيضاً) بكيفية أقوى وأعنف وبدرجة أكثر تشدداُ من صاحب المنهج أو أصحابه. أذكر في هذا الصدد ما عرفه الفكر اللغوي العربي الحديث من دفاع الوصفيين عن الوصفية ودفاعهم المستميت عنها ضد كل التيارات والنزعات والتوجهات ولو كانت غير متواجدة معها في نفس الفترة التاريخية (موقف الوصفيين العرب من منظومة النحو العربي القديم).

س: من مظاهر هذا التنافس وجود شبه قطيعة بين اللسانيين، فلا أحد منهم يهتم بما يكتبه الآخر، وهذا ما يجعل أمر اللسانيات في ثقافتنا متروكا للاجتهادات الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟

ج: قلت لك إن الصراع والتنافس المنهجي والفكري عندنا هو صراع بين الذات والموضوع بكيفية غير واضحة أو غير منهجية بحيث يختفي عندنا كل نقاش جاد وهادف وموضوعي وهذه سمة تكاد تكون عامة بالنسبة إلى الفكر العربي لأنها موجودة في مجالات معرفية أخرى غير المجال اللساني. مرد هذا الوضع، في اعتقادي، إلى أن الباحث العربي في اللسانيات يكاد يعيش في شبه عزلة عن غيره من الدارسين فلا يريد سماع سوى ما يعجبه ويروق له من مريديه وأتباعه المباشرين. أما العلاقة مع الآخر (المغاير أو الذي لا يشتغل في نفس الإطار

المنهجـي والنظـري) فإنها غالبا مـا تكون غير واضحـة، فلا تعاون ولا تشـارك ولا تشـاور... فكيـف يمكن أن نتصـور التكامل وبالتالـي تطور البحث اللسـاني العربي نفسـه؟ هنـاك نوع مـن الأسـتاذية المبالـغ فيها لدرجـة أنهـا أصبحـت «مرضية» مع احترامي الشـديد والفعلي لكثير من الأسـماء الكبيرة عندنا في الوطن العربي. وهذا الوضع أعطى فـي العالم العربي نتائج سـلبية وأثر على مكانة اللسـانيات في الثقافة العربية وعند جمهور القراء.

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصـــه المعادلة: النحو $\neq$ اللسانيات، التراث اللغوي العربي $\neq$ اللسانيات؟

ج: فـي نظري هذا المظهر الذي تشـير إليه هو سـبب ونتيجة فـي الوقت ذاته. وأعتقد أن ثمة أسباباً موضوعية وذاتية قادت إلى الوضعية التي ذكرتها وهي وضعية فيها كثير من الالتباس المقصود. فاللسانيات ليست ضد النحو العربي أو غير العربي وإن كانت تنافسه في عقر داره. واللسانيات ليست أيضا ضد التراث اللغوي العربي. وكل مـن يقول بهـا يمارس الفتنة المعرفيـة ويصطاد في الماء العكـر، إن هذا هو ما أسـميته في سـؤال سـابق بالمتاجرة الإيديولوجية بالمعرفة. اللسـانيات تقدم وسائل مساعدة للتحليل. اختلاق المواجهة بين اللسانيات والنحو من جهة وبين اللسانيات والتـراث من جهة ثانيـة ينم عن خبـث معرفي لا قيمة لـه من الناحيـة المنهجية. لا أنكر أنـي لا أحبذ المقاربـات التي تحلل التـراث اللغوي في ضوء اللسـانيات ومع ذلك يمكـن القول إن التـراث اللغوي العربي لـم يقدم بصورة شـمولية وبوجه آخر أكثـر إيجابية إلا مع ظهـور اللسـانيات البنيويـة والتوليدية والوظيفيـة، فكيف يمكن للسـانيات أن تكون ضدا التـراث أو العكس؟ أي علاقة بين التـراث اللغوي العربي واللسـانيات من حيث إنها دراسـة اللسـان؟ مـا ذا يمكن للتراث اللغـوي العربي أن يقدم للسـانيات؟ أظن أن الثقافة العربية الحديثة لا تطرح الأسـئلة الحقيقية المتعلقة باللغة العربية في حد ذاتها أي اللغة العربية كأداة للتواصل بالدرجة الأولى. لكن أن تتحول اللسانيات إلى مختبر لتحليل التراث وتشريحه فهذا في اعتقادي ابتعاد فعلي مقصود عن جوهر العمل اللساني نفسـه، والمعادلات التي ذكرت شكل من أشكال الالتبـاس الجاثم على كثير من العقول ولا يسـاعد كثيرا على تنمية البحث اللسـاني

العربي.

سـ: **تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟**

ج: ما يواجهنا لغويا من تحديات هو في حجم ما يواجهنا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. وربما كان من المفروض أن نجيب عن كل هذه الوضعيات المتنوعة الفاعلة في واقعنا اليومي: ماذا نريد؟ ما دورنا في عالم اليوم؟ نحن نتحدث عن إشكالات وقضايا لا يعيشها المجتمع ولا الفكر، فكيف نبحث لها على حلول مواتية؟ إنها التبعية الفكرية والنفخ في الماء ... شخصيا لا أعرف برامج معينة لمواجهة هذه التحديات الجديدة. الإشكالات موجودة بالفعل وتأثيرها في اللغة العربية واضح وملموس فكرياً، اللغة العربية كعادتها ومن تلقاء نفسها وبوسائلها الذاتية تكافح من أجل البقاء، وأظن أنها ستنجح في ذلك كما نجحت في الماضي... أعتقد أن الحل لمواجهة هذه التحديات بكل أشكالها وحجوماتها وأنواعها هو إعطاء اللغة العربية المكانة التي تستحقها واللائقة بها اجتماعيا وفكرياً وسياسياً. للأسف الشديد لا يوجد مجتمع مثل المجتمع العربي لا يهتم بلغته ولا يقدرها ولا يحترمها في جميع المستويات. هل تعرف رجل أعمال أو مهندسا أو طبيباً أو عالما فيزيائيا أو وزيرا أو سياسيا أو حتى بعض الحكام الذين لا يتقنون لغة بلادهم الرسمية؟ هل تعرف شباباً يتهكم من لغة بلاده؟ كل هذه الظواهر المشينة في حق لغة الوطن والثقافة موجودة عندنا. من هنا يجب أن تبدأ المعركة. يجب رد الاعتبار للغة العربية أولا قبل التفكير في أي شيء آخر.

سـ: **ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟**

ج: الفجوة الرقمية هي عبارة مهذبة للحديث عن الفرق الفاحش بين الشمال والجنوب اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا. الفجوة الرقمية مظهر واحد فقط من فجوات أخرى وما أكثرها. لتحل مشاكل التنمية (صحة وتعليم وشغل ...) وبعد

ذلـك يمكننا أن نتحدث عن تكنولوجيا الإعلام والوسـائط المتعـددة وما إلى ذلك. موضـوع الفجوة الرقميـة موضوع ثانوي جدا بالنسـبة إلى الباحث اللسـاني العربي. هناك في اعتقادي موضوعات أكثر أهمية بالنسـبة إلى اللسانيات العربية وإلى الثقافة العربية. طبعا هذا لا يعني أن ينحصر العمل اللساني فيما هو لغوي محض.

س: لماذا لا توجـد اتجاهات أو تيارات أو مجموعـات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادهـا ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربيـة قديمة تراثية، وعربيـة مقدسة، وعربية وسطى هـي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: المفـروض أن ينصب التحليل اللسـاني على اللغة العربيـة. ونحن لا نأتي بجديد عندما نذكر هذا الأمر. وهذا العمل اللسـاني هـو ما نجده في بعض الأعمال اللسـانية العربية النادرة مثل أعمال الفاسـي الفهري وأحمد المتـوكل وقلة قليلة من اللسانيين الشباب المغاربة. لكن يبقى مفهوم اللغة العربية كمفهوم منهجي أو نظري في حاجة إلى تحديد وتوضيح وهذه مهمة اللسانيين بالدرجة الأولى. نحن لا نملك المعطيـات اللازمـة في موضـوع طبيعة اللغـة العربيـة الحديثة حتى تكون دراسـاتنا اللسانية واقعية وعملية. ولهذه الأسباب لا توجد في نظري دراسات لسانية بالشكل المطلوب. الإشـكالات عديدة أولها كما ذكرت تحديـد طبيعة اللغة العربية موضوع الدراسات اللسانية. مثلا عندما نستعمل في اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية تركيبا معينا يمكنك أن تقول إن ما تسمعه ينتمي إلى لغة قديمة أو حديثة أي أن هذا التركيب مستعمل راهنا أو غير مسـتعمل. مقبول أو غير مقبول، ممكن أو مستحيل. لكـن بالنسـبة إلـى اللغـة العربيـة هنـاك صعوبات عديـدة فـي الوقوف علـى حقيقة مستويات استعمال اللغة العربية.كل متكلم يمكنه أن ينهل من عربية العصر الجاهلي ومـن لغة القـرآن الكريـم ومن اللغـة العربيـة الحديثـة بأسـاليبها المتنوعـة الأصيلة والدخيلة على حد سـواء، المبسـطة أو المسـتعملة في اللهجات المحلية. إن القول بوحدة اللغة العربية عبر تاريخها الطويل فيه جوانب إيجابية وأخرى سلبية، والحدود غير واضحة بين الاستعمالات أو مستويات اللغة العربية وهذا يجعل مأمورية البحث اللسـاني، الذي يتخذ اللغة العربية موضوعا له بالمعنى الدقيق للكلمة، صعبة. لا بد أن نبدأ بدراسـة معجم وتركيـب (اللغات العربية) أي مجمل الاسـتعمالات أو على

الأقل أبرزها والمقارنة بينها. هناك أبحاث الخولي محمد علي وبعض أبحاث داود عبده وقلة أخرى لكنها غير شاملة وتحتاج إلى دعم الجميع. مشروع البحث في ما يسميه بعض الدارسين العرب بالذخيرة اللغوية (العربية) في بعض دول الخليج والجزائر على جانب كبير من الأهمية إذا تم إنجازه كما تصور أصحابه.

س: كيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: لكي تصبح اللغة العربية فاعلة في محيطها، يجب إعطاءها الدور الإيجابي الذي تستحقه. يجب رد الاعتبار السياسي والفكري والاجتماعي للغة العربية. تعيش اللغة العربية اليوم وضعية اغتراب بين أهليها وذويها. فماذا يمكنه أن تنتظر من لغة لا يحترمها أصحابها؟ المسألة فكرية واجتماعية ولكن سياسية أيضاً. اللغة العربية رغم قوتها وإمكاناتها الذاتية ضحية استعمال ضيق. بالنسبة إلى المعالجة الآلية يجب أن لا نوهم أنفسنا، لم نصل بعد إلى مستوى الإبداع المسجل بالنسبة إلى لغات أخرى في هذا المجال. هناك مجهودات فردية متفرقة هنا وهناك داخل الوطن العربي، وأهم الإنجازات تحتكرها الشركات الإعلامية الكبرى. البرمجيات العربية حققت مستوى لا بأس يه ولكنه ما زال في بدايته.

س: ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: في كتابي (اللسانيات العربية في الثقافة العربية: حفريات النشأة والتكوين) قدمت جوابا عن هذا السؤال. أضيف هنا أن المجامع العربية في حاجة إلى أن تكون أقرب إلى الواقع اللغوي العربي الراهن وأن تتعامل معه كما هو من أجل إيجاد الحلول الناجعة لمشاكل اللغة العربية. المجامع العربية في حاجة ماسة أن تلج المدارس والثانويات والمعاهد والجامعات والإدارة والمصنع الصغير والكبير والصحف وكل ما له علاقة باللغة العربية، نحن في حاجة إلى وعي لغوي جديد بقضايا اللغة العربية. وهذا الوعي مرتبط بالواقع الفكري والسياسي وبكل ما يعيشه الإنسان العربي أينما كان في الوطن العربي. المجامع اللغوية العربية (لاسيما مجمعي القاهرة ودمشق) قدمت الكثير من أجل عربية في مستوى الحضارة

الحديثة. لكن صنيعها لم يعد يساير الوضع الراهن للغة العربية واستعمالها، وبدأت اللغة العربية تتراجع أمام المد التقني واللهجي واللغات الأجنبية على حد سواء. مجهودات المجامع اللغوية وما يتبعها من مؤسسات غالبا ما يظل مجهولا أو غير متوفرة للدارسين والباحثين. يجب على المجامع أن تفكر في الكيفية التي تدعم بها وضعية اللغة العربية في عالم اليوم في كافة المستويات لمواجهة المتطلبات الحضارية المتزايدة.

س: **نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟**

ج: أنت الآن تضع الأصبع على مشكل جوهري بالنسبة إلى اللغة العربية ومستقبل الثقافة العربية برمتها. بالفعل تعيش اللغة العربية وضعا مقلقاً بين أحضان الأجيال الصاعدة. ولا أريد تحميل المسؤولية لأي جهة. إنه وضع بات يفرض نفسه علينا وبالتالي يتعين التفكير مليا في الحلول الناجعة. العوامل والأسباب معروفة لا سيما لدى المهتمين بالتربية والتعليم. المشكل في هذا الواقعة هو أننا نتحاشى الخوض في موضوع الضعف بالصراحة والموضوعية اللازمتين في موضوع على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى الأجيال العربية المقبلة وللثقافة العربية بل للشخصية العربية ومقوماتها. الحلول التي أشرت إليها لا يمكنها أن تكون من وضع فرد واحد أو أفراد مهما كان مستواهم العلمي وموقعهم في المجتمع والثقافة.

دعنا نبدأ من حيث ينبغي أن يكون المنطلق. لقد تكلمت سابقا عن مسالة رد الاعتبار للغة العربية اجتماعيا وسياسيا فإن مشكل ضعف اللغة العربية في جميع الاستعمالات اليومية، في التعليم والإدارة والصحافة وحتى في الكتابات الأدبية كان حاضرا في ذهني. المشكل في اعتقادي مرتبط بالتحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي يعرفها العالم العربي. المشكلة ليست فقط هيمنة هذه اللغة أو تلك أو هذه الثقافة أو تلك على غيرها من اللغات والثقافات. يجب العمل على فهم آليات هذا الواقع المتدهور للغة العربية انطلاقا من المحيط التربوي والتعليمي من جهة والاجتماعي والسياسي من جهة أخرى. فلا يكفي في البلدان العربية أن تقنن مسألة اللغة دستوريا لأن استعمال أي لغة وتداولها لا يخضع لسلطة من هذا

النـوع ولكن اللغة تأخذ مكانتهـا من خلال الاعتبار والموقع الـذي تحتله هذه اللغة في حياة الأفراد والمجتمع. وهذا الوضع بالنسـبة إلى اللغة العربية في حياة الإنسان العربي وواقعه اليومي غير مريح. فهناك منافسة قوية من قبل اللهجات المحلية عربية وأمازيغية، وهناك اللغات الأجنبية ولاسـيما الفرنسية والإنجليزية. واللغات الأجنبية هي لغات العلوم والتكنولوجيا في مؤسسـات التعليم العالي ومعاهده، وبالتالي فهي رمز لسـلطة معرفية واجتماعية معينـة. بينما نجد أن اللغة العربية التي تشـكل دعامة الثقافـة العربية، باتت في نظر الكثيريـن مرجعا وإحالة لثقافة قديمـة ومتجاوزة ليس باسـتطاعتها ضمـان العمل فـي أحضـان المؤسسـات الماليـة والتجاريـة والصناعية لكبرى. من هنا يبدأ رد الاعتبار.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر، في الغرب، قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن. وأن الكثيـر من تلك السمـات كان له تأثير مباشر فـي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري(حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فـي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي فـي غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: مـا قلته يسـتدعي تقديم بعـض التوضيحـات: أولا أنا أوافقـك الرأي على مـا ذهبت إليه من كون بعض إشـكالات الفكـر العربي الراهن هي إشـكالات عصر النهضـة إذا كان للعـرب فعلا نهضـة، بيد أنه لا بد من تسـجيل ملاحظـة مفادها أن الفكر العربي في المرحلة الراهنة لم يتجاوز أسئلة النهضة، بل إنه سجل تخلفا كبيرا بالقيـاس لما عرفته الثقافة العربية إلى حدود العقدين الأخيرين من القرن العشـرين. الواقع أننا لسنا في حاجة إلى تقويم الحصيلة أو الخروج من الدوامة، العالم العربي فـي كثير مـن قضايـاه الفكريـة والاجتماعية ما يـزال يبحث عـن نفسـه. وكلما طال

البحث عن الحلول المناسبة، كلما ازدادت مشاكلنا وتفاقمت. إنه فعلا وضع يدعو إلى الشفقة. وقد أجبت بنفسك عن بعض مظاهر الصعوبات التي نعيشها.

س: **ما دمنا بصدد الحديث عن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا من قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغوي، الأمراض اللغوية...ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟**

ج: فاقد الشيء لا يعطيه. لا يمكنك أن تقدم أي حل أو إسهام لأنك في موقع ضعف. الأمر مرتبط بواقع العلوم الإنسانية في العالم العربي. إذا كانت اللسانيات تعاني أزمة التأسيس والانطلاقة السليمة فكيف يمكننا أن نطالبها بالإسهام والانفتاح على المجالات الأخرى التي ذكرتها؟ هناك ترابط واضح بين تطور العلم النظري وتطبيقاته وانفتاحه على المجالات التقنية الأخرى. في العالم العربي نحن في البداية الأولى للسانيات. ومن المؤسف له أن هذه البداية استغرقت وقتا طويلاً...

س: **يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلت تؤرق البحث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟**

ج: اسمح لي أن أقول لك بأن مشكل المصطلح والتعريب مشكل ثانوي في نظري، إذا ما قيس بالمشاكل الحقيقية التي يتعين على اللسانيات أن تجد لها الحلول المناسبة، وعلى رأس هذه الحلول أولا تحقيق استقلالية اللسانيات وضمان هذه الاستقلالية ثانيا دراسة اللغة العربية لسانيا (وليس نحويا بالمعنى التقليدي للكلمة). عندما تتوحد الجهود وتحضر الإرادة (العلمية) الحقيقية، من السهل آنذاك تجاوز مشكل المصطلح والتعريب وما شابه ذلك. ليس معنى هذا أن مشكل التعريب والمصطلح غير وارد أو ليس له قيمة، بل إنه مرتبط بمشاكل أخرى ولا يمكن حله

إلا في إطار معرفي شمولي ومتكامل.

س: ماذا تقترحون بهذا الخصوص (من الناحية المنهجية تحديدا)؟

ج: لست مختصا في هذا المجال ولكن يمكن القول إن مشكل المصطلح بسيط ومعقد. بسيط لأن هناك العديد من المؤسسات العربية المختصة في هذا المجال لها تجربة واسعة وتشتغل بكثير من الاحترافية وبإمكانها أن توحد الجهود إذا توافرت لها الشروط الملائمة وتم تطبيق كثير من قراراتها. هذه المؤسسات يمكنها أن تشرف على توحيد المصطلح في الإدارة والمدرسة والجامعة والصحف وما إلى ذلك في كل بلدان العالم العربي. نظريا هذا الأمر ممكن جدا، لكن الصراعات القطرية (كل دولة عربية تسعى إلى فرض مصطلحاتها) والمطامح الفردية تجعل هذا الأمر في غاية التعقيد على جميع المستويات. فالباحث العربي مولوع بوضع المصطلحات ومراكمتها، وهو على علم بوجود ما هو أفضل منها استعمالا وشيوعا وموافقة لقواعد اللغة العربية. الباحثون العرب يفضلون ترويج مصطلحاتهم الخاصة دون غيرها.كما أنك لا تستطيع أن تتحكم يوميا في الآلاف من المصطلحات التي تنبت كل يوم في كل مجالات المعرفة الإنسانية. وأنت لا تستطيع مهما فعلت أن تفرض على الباحثين مصطلحات محددة دون غيرها.

س: سلكتم في أبحاثكم منحى خاصا في الكتابة اللسانية يقوم على التحليل النقدي الذي يسعى إلى مساءلة الأسس النظرية والمنهجية للسانيات العربية، وقد بات هذا التوجه يشكل اتجاها قائم الذات (في المغرب وفي دول عربية أخرى).لم تبنيتم هذا الاختيار المنهجي؟ وما هي الاعتبارات المعرفية التي تحكمت فيه؟وما هي النتائج التي توصلتم إليها بواسطته؟ وكيف يمكن تطوير هذا المجال من مجالات البحث في محيط ابتلي بالصمت وعدم القبول بالحوار العلمي الجاد؟

ج: إذا أمعنا النظر في التطورات النظرية والمنهجية التي حققتها اللسانيات سنجد أنها كانت دائما ذات طابع منهجي: لماذا يحظى دو سوسر (1857-1913م) بهذه الأهمية التاريخية؟ لا شك أن ذلك مرتبط بإسهامه في بلورة المنهجية اللسانية وتحديد معالم جديدة للبحث اللساني. تعريفات سوسور الجديدة للمادة والموضوع وللسان والكلام والفرق بين التزامني (الآني) والتعاقبي (الدياكروني) وهي كلها مفاهيم أولية سهلة وبسيطة ولكنها ذات قيمة منهجية كبرى أقام عليها سوسور صرح

الفكر اللساني الجديد باعتراف الجميع. الأمر نفسه يصدق على أبحاث شومسكي وظهور النحو التوليدي ابتداء من 1957م. ثورة شومسكي كانت ثورة على المنهجية البنيوية. يمكنني أن أقول بكل تواضع إن أزمة اللسانيات العربية هي أزمة منهج أو على الأصح ما يعترض اللسانيات العربية من صعوبات يكمن في المنهجية المعتمدة في الكتابات العربية لمقاربة اللغة العربية. ولهذا كان لا بد من الانكباب على هذا الجانب لمعرفة ما يعترض اللسانيات عندنا من صعوبات. ما النتائج المتوصل إليها؟ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب حيزا أكبر. أجيبك باختصار شديد بأن البحث اللساني في الثقافة العربية يحتاج إلى تنفيذ أوليات البحث اللساني كما هي متعارف عليها عالميا ليس أكثر. بمعنى آخر لا نحتاج إلى أن نقول إننا في حاجة إلى نظرية جديدة خاصة باللغة العربية أو شيء من هذا الكلام. إننا بكل بساطة في حاجة إلى تفعيل أساسيات العمل اللساني المتمثل في البحث في اللغة كموضوع وليس في شيء آخر. فئة قليلة جدا تفعل هذا المبدأ الهام وتحترمه في اللسانيات العربية وهذا ما يفسر أنها الأكثر بروزا في الثقافة العربية الحديثة. أقصد هنا تحديدا أعمال أحمد المتوكل والفاسي الفهري وداود عبده ومازن الوعر. اللسانيات العربية يجب أن تكون عربية بمعنى أن تنصب على اللغة العربية في مستوياتها المختلفة لا عربية في أشياء أخرى. لن نمل من ترديد هذه الفكرة الأولية والبديهية. في اعتقادي من هنا يمكن أن يبدأ قطار اللسانيات العربية ويسير على سكة البحث اللساني الحقيقي.

س: يبقى المغرب متميزا في محيطه في مجال اللسانيات. ما هي أسباب هذا التميز؟ ثم ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في المغرب؟

ج: المغرب فعلا متميز لسانيا في المحيط العربي. هناك العديد من الأسماء المعروفة مثل الفاسي الفهري وأحمد المتوكل، وهناك أسماء شابة هي في بداية الطريق، وهذا راجع بالتحديد إلى ما أشرت إليه سابقا من كون جل اللسانيين المغاربة يشتغلون بالأساس حول اللغة العربية كموضوع ثم تأتي بعد ذلك باقي الإشكالات المنهجية حول النظرية وطبيعة النموذج اللساني وما شابه ذلك وهذا يمثل قفزة نوعية قياسا لما يكتب في العالم العربي من أبحاث تحسب على اللسانيات وهي ليست من اللسانيات في شيء. هناك شبه إجماع على الحصيلة الإيجابية للبحث

اللساني في المغرب ومع ذلك لا بد أن يقترب هذا الدرس اللساني المغربي من واقع اللغة العربية كتابة واستعمالا في الدراسة والجريدة والتلفاز وبصفة عامة يتعين الانفتاح على الدرس الأدبي والتربوي وهي مجالات تلاحظ أن اللسانيين المغاربة لا يهتمون بها على الرغم من أنها في الواقع دراسة للغة العربية في محيطها المباشر أي التربية والتذوق الفني والأدبي.

س: ما الجديد الذي تعدون به القراء؟

ج: سيصدر لي قريبا نهاية 2006م كتابا بعنوان (اللسانيات في الثقافة العربية حفريات النشأة والتكوين)[1] وهو بحث يناقش العديد من الجوانب التاريخية المتعلقة بدخول اللسانيات إلى الثقافة العربية الحديثة. هناك أيضا حث مستمر من بعض الزملاء والأصدقاء على أن أنشر دروسي في اللسانيات التوالي: (مدخل للنحو التوليدي(1957-65)) و(النحو التوليدي مفاهيم وأمثلة في اللسانيات العامة).

(1) نشير إلى أن هذا الكتاب قد صدر فعلا سنة 2007م، عن دار المدارس للنشر والتوزيع، البيضاء، المغرب.

الدكتور نهاد الموسى

س: لقد أشار الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي ستصبح جسراً تَعْبُرُهُ العلوم الإنسانية كلها إن هي أرادت أن تحقق نصيباً من العلم. ولا أحد يستطيع اليوم أن يشكك في تحقق رؤية شتراوس؛ فما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بهذا الاهتمام كله؟

ج: تشبه هذه المقولة أن تكون مستقرة في الأعراف اللسانية المعاصرة؛ ذلك أن اللسانيات تعالقت مع كثير من العلوم الإنسانية والطبيعية والطبية، وانتهى هذا التعالق إلى انبثاق لسانيات بينية تستقي مادتها من اللسانيات بما هي وصف اللغة ودراستها شكلياً ووظيفياً، وتستقي مناهجها من العلوم المختلفة؛ فقد صار لدينا لسانيات اجتماعية وأخرى حاسوبية وثالثة نفسية ورابعة أدبية...إلخ. وإنما تستمد اللسانيات موقعها هذا من طبيعة موضوعها وأداتها البحثية؛ فهي العلم الوحيد الذي تلتقي فيه مادته وأداته الواصفة؛ حقاً أنها تدرس اللغة باللغة ولكنها في ذاتها ومناهج درسها تمثل المنظومة السيميائية ومرجع التفسير اللذين ينتظمان الحقول المعرفية الإنسانية جميعاً... حقا أن اللسانيات الآن باتت تشغل موقع الفلسفة!

س: لا يمكن إنكار التنافس بين المناهج اللسانية، وهو تنافس لا نجد له مثيلاً إلا في ثقافتنا، فهل المشكل مشكل مناهج حقاً؟

ج: لعل المقدمة السليمة للإجابة عن هذا السؤال تقديم إطلالة سريعة على المشهد اللساني الغربيّ؛ فقد أعقب اكتشافَ السنسكريتية دورةٌ مستأنفة في درس الظاهرة اللغوية. وأفضت في بادئ الأمر إلى درس اللغات درساً تاريخياً مقارِناً. وتوالدت المذاهب اللسانية، بعد ذلك، تترى. وكان كل لاحِق منها يتشكل بتدارك ما فاتَ السابقَ، أو يتشكل على نحو مقابل. وقد جاء المذهب «**التزامني**» الذي يتجه إلى درس اللغة درساً وصفياً في حقبة آنية ردَّ فعل للمذهب «**التعاقبي**» الذي اتبع نهج الدرس التاريخي للغة في أطوارها المتعاقبة، وجاء المذهب **التحويلي التفريعي** استدراكاً حاسماً على **المذهب البنيوي** القائم على مبدأ السلوك اللفظي المنطلق من

مقولة المثير والاستجابة؛ إذ قام المذهب التحويلي التفريعي على أن اللغة بنية عقلية وأنها تتجاوز آلية المثير والاستجابة إذ إن أمثلة الكلام مفتوحة غير متناهية. وجاء **المذهب الوظيفي** يأخذ على المذهب التحويلي التفريعي انحصاره في مادة الكلام دون اعتبار الموقفِ الذي يجري فيه الكلام ودورِ الكلامِ في عملية «الاتصال» بين أطراف الموقف الكلامي.

وهذا حديث معاد مكرور. ويعنينا منه، هنا، الآن، أنَّ الغرب عمل بدأب على تطوير علم اللسان البشري في نظريات متتابعة تتعارض وتتباين لتتكامل. وتصبح عناوين: اللسانيات التاريخية، والمقارنة، والوصفية، والاجتماعية والنفسية، والوظيفية، والحاسوبية... نماذج لآفاق من التبصر في الظاهرة اللغوية تطَّرد ولا تتوقف.

وكان موقف العرب من هذا العِلْم الذي كان الغرب يطوره لنفسه وفي سياقه الثقافي الخاصّ، على الجملة، موقفَاً موسوماً بالقبول والإقبال. بل يمكننا أن نعدو في وصفه إلى مثل القول بالانبهار بالولع والمحاكاة. ويندغم هنا أمران: أمر انتفاء التحيز الثقافي من جهة الغرب، وأمر تقليد «الغالب» في المقولة الخلدونية، «الغائب» في نظرية الأثر الثقافي للمستعمر بعد رحيله، من جهة العرب.

وتشبه سلسلة اللسانيين العرب أن تكون انعكاساً لسلسلة المذاهب اللسانية المتعاقبة في الغرب؛ وذلك أنَّ أجيالاً من اللسانيين العرب قد تدربوا في مدارس الغرب. ورجع كل جيل معتنقاً مذهب المدرسة التي تخرج منها، ويكون في هذه الأجيال من يعتنق المنهج الساميّ المقارِن، أو يَصْدُرُ عن المذهب الوصفي ابتداءً، أو ينحاز للمنهج التحويلي التفريعي أو ينزع منزعاً وظيفياً تداولياً، أو يتمثل رؤى ذهنية تحاكي ما يعمله العقل الإنساني حين ينتج اللغة ويستقبلها تمهيداً لنمذجتها وتمثيلها للحاسوب.

ويعلن اللسانيون العرب، على هذا الصعيد، صراحة، جدوى المناهج في إعادة وصف العربية وتفسيرها. وقد أنجزت، في هدي هذه المناهج، دراسات في العربية أفادت من كل منهج بمبلغ ما انتهى إليه اجتهاد أتباعه. وأصبح شعار المؤتمرات اللغوية في العالم العربي وخارجه توظيف اللسانيات الحديثة وتطبيقها على العربية.

ولعل أبرز سمات هذه الظاهرة أن الجانب العربي يتخذ موقفاً اتّباعياً يكاد ينحصر في استثمار المعطيات النظرية المتاحة في قراءة جديدة لظواهر في العربية! وهذا أمر طبيعي ولكنه يقصِّر بالبحث اللساني العربي عن أن يكون رافداً أو منافساً في حلبة الدرس اللساني العام. إنه يقدم نحواً عربياً وصفياً أو نحواً عربياً تحويلياً أو نحواً عربياً وظيفياً، وإذن يزاوج بين «المادة» وهي العربية و»المنهج» وهو غربي. **وليس واضحاً أن جدل المادة والمنهج قد أفضى إلى «إضافة» عربية إلى النظرية اللسانية العامة.**

ولكن موقف الجانب الغربي كان مختلفاً؛ فحين ازدهرت نظرية النحو التحويلي التوليدي ثم قيل في سياق مراجعتها إنها تمثل عودة إلى النحو التقليدي لم يجد شومسكي بأساً في أن يلتمس لها أصلاً لدى فون همبولت في مقولته: إن اللغة خلاقة، وإنها تستعمل قواعد محدودة استعمالاً غير محدود، بل إن شومسكي اعتدَّ نحوَ بانيني للسنسكريتية قطعة من النحو التحويلي. ولكن الموقف اتسم بتجاهل شبه تام لنظرية النحاة العرب وما صدروا عنه في مؤلفاتهم، صنيع سيبويه وابن جني وعبد القاهر، وما صرحوا به في تلك المؤلفات وجرَّدوه أصولاً كلية على نحو غير ملتبس كالذي استصفاه ابن هشام في (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) من (ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المُعْرِب من جهتها)، ومنها (أن يراعي ما يقتضيه ظاهر الصناعة ولا يراعي المعنى)، ومنها ما عقد من ذلك الباب في (أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية).

وخلاصة الأمر أن التنافس في اللسانيات الغربية والمجادلات والمحاورات في قضايا اللغة كانت تدور في سياق علمي يدفع إلى التنافس، ويبحث عن الكفاية الوفية في التفسير مما مثَّل إضافة أو استدراكا وتبقى الأنظار في جدل مفتوح!

وأما التنافس في السياق اللساني العربي فإنه تنافس في سياق الاتباع لا الإبداع، وهو يفضي بأصحابه إلى مِثْل القطيعة أو الخطوط المتوازية.

س: ما أهم تيارات الدرس اللساني العربي؟

رغم أن المشهد على التعميم سديمي إلا أننا نستطيع تمييز تيارات أربعة عامة هي:

أولهـا يتمثل فـي درس قضايا مـن قضايا العربيـة. وقد وقع في بدايـات القرن العشـرين خاصـة وفـي سـياق مواجهة مباشـرة مـع أطروحات جـاء بهـا الغرب في سياق مَدِّه الاسـتعماري في المنطقة. وهو درس مباشر يلوذ بمرجع ثقافي يتمثل في المحافظة وحمايـة العربية من الدعوات «المُغْرِضَة». ولكنه يسـتبطن أصولاً لسـانية صـدر عنها أهل العربية دون أن يصرِّحوا بها، وإنما نستشـفها ونسـتخرجها نحن في هَـدي ما جـرَّده البحث اللسـانيّ من أنظـار. ومثل ذلك مـا تداوله أهـل العربية من وجوه الاحتجاج والاستدلال في مواجهة الدعوة إلى العامية، وكتابة العربية بالحرف اللاتيني.

وثانيهمـا يتمثل فـي «اتباع» النظريات اللسـانية التـي طورها الغرب في سـياقه الخاص. وقد قـام على المزاوجة بين المنهج المسـتعار والموضـوع العربي، واتجه إلـى إعادة وصـف العربية واسـتئناف النظـر في قضاياهـا وظواهرها فـي ضوء تلك النظريات، فكان تياراً تطبيقياً خالصاً إلى حد بعيد.

وثالثهما يتمثـل في مقارنة البحث اللغـوي العربي ونظريتـه الخاصة بمقولات المناهـج اللسـانية المتعاقبة، وقد نجم في سـياق ازدهار النظريـة التحويلية التفريعية حين ملأت الدنيا وشـغلت الناس، وأخذت كل نظرية تلتمس لنفسـها موقعاً بالنسبة إلـى تلك النظريـة. وتمثَّل هذا التيار، في الجانب العربي، بالسـعي إلـى إيجاد موقع للنظرية اللغوية العربيـة يقرنها أو يقارنها بالنظرية التحويلية خاصة من خلال البحث عن مشابِهَ بين المقولات الرئيسية الكبرى في النظريتين.

ورابعها يتمثل في اسـتثمار حصيلة هذه الجهود المتراكمة لتشكيل وعي علمي بالعربية، وتشـكيل وعي لسـاني عام، وإقامة جدل بين الموضوع والمنهج تَطْرَحُ فيه العربيـة أسـئلتها الخاصة في ضوء الوعي اللسـاني العـام، وتتقدم في مباشـرة تلك الأسـئلة والقضايـا علـى قاعدة وعي لسـاني عـام يمكن العربيـة من تحقيـق اندغام «الخـاصّ» العربـيّ فـي «العامّ» اللسـاني، والإسـهام فـي النظريـة اللسـانية من هذا المدخل. وما يزال هذا التيار يتشـكل ليمنح « فرادة» العربية دوراً وموقعاً في سـياق النظريات اللسانية « الكلّيّة» واللغات الحديثة «الكونيَّة».

س: كيف ترى منزلة اللسانيات في الدراسات العليا في الأردن؟

ج: ليس ثمة اختلاف كبير بين موضوعات الأطروحات الجامعية في الأردن وغيرها من البلاد العربية الأخرى. على أنه يمكن القول إن هناك اتجاهاً مطَّرداً نحو الأطروحات ذات الطابع اللساني الخالص؛ وبيان ذلك أن الطلبة، جُلُّهم، بدأوا ينصرفون عن دراسات النحو التقليدي بصورته الجامدة، وصاروا يستبدلون به موضوعات حديثة كاللسانيات الحاسوبية واللسانيات الاجتماعية، ونحو النص، حتى اللسانيات العصبية، أما اللسانيات التقابلية فما تزال مقتصرة، على التعميم، على الطلبة الأجانب من الماليزيين والكوريين الذين ينشدون الوقوف على ما يواجههم من صعوبات في تعلم العربية. ولعل اتجاهاً بارزاً بدأ ينشط بين الطلبة يتمثل في الإقبال على دراسة «لغة الإعلام» وتحليل خطابها على توجهاته ومقاصده المختلفة.

وأحتفل هنا بما طَمَحت إليه جامعة اليرموك الأردنية من افتتاح برنامج «اللسانيات التطبيقية» لطلبة الدكتوراه، وما شرعته الجامعة الأردنية من افتتاح برنامج ماجستير تعليم العربية للناطقين بغيرها. وهما علامتان ينبغي أن تكونا دالَّتين على «الوعي» بمنزلة اللسانيات وأهميتها.

س: اشتغلتَ كثيراً بقضايا اللغة العربية المعاصرة: الازدواجية، والكتابة، وتعليم العربية، والحوسبة...إلخ، فبمَ اختلف تناولك هذه القضايا عن تناول الآخرين إياها؟

ج: لعل وجه الاختلاف الرئيس يتمثل في أن معالجتي تنطلق من تشخيص واقع الظاهرة والعوامل الثاوية خلفها، انتهاءً إلى الاستفادة من اللسانيات التطبيقية ومرئيات التخطيط اللغوي. فالقضايا المعالجة إنما تمثِّل مشكلاتٍ تحدُّ من تفوق العربية وإسهامها في مناشط الحياة العربية على الوجه المؤمَّل؛ ولذلك فإن منتهى قصدي أن أضع رؤى أراها ضرورية لحل هذه المشكلات (القضايا) أو الحدّ من تأثيراتها السلبية المعيقة للعربية. فإذا نَظَرْتَ، مثلاً، في كتابي **(قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث)** وَجَدْتَ أنه يتوجه إلى ظاهرة مؤرِّقة هي ظاهرة الازدواجية، وهو تناول ينتهي إلى تدابيرَ منهجية وإجرائية تنفَّذ في التعليم والإعلام وأدب الطفل... وينتهي أمر هذه التدابير، إنْ أُخِذَتْ بحقها في التطبيق، إلى تَحَوّلٍ تدريجي من العامية إلى الفصحى الرشيقة المعاصرة. وكذا القول في القضايا الأخرى.

س: على الرغم من أنك عالجت معظم قضايا اللغة العربية معالجات مستقلة في مشروعـــات مستقلة إلا أنك عدت لمعالجة هـــذه القضايا مجتمعة في كتابك الأخير «اللغة العربية في العصر الحديث..قيم الثبوت وقوى التحول»... فما وجه افتراق المعالجة هنا وهناك؟

ج: الافتـراق هنـا من وجوه عـدة؛ **أولهـا** أن المعالجة هنا معالجـة كلية تتناول العربيـة وقضاياها في سـياقها الثقافـي والاجتماعـي والاقتصادي والسياسـي، وهي عوامـل تتداخـل الآن، بتأثيـر العولمة، علـى نحو لا يقبـل القسـمة ولا الانفصال، بـل إن أي معالجـة لقضايـا العربية بمعزل عـن هذه العوامـل سـتكون منقوصة، أما المعالجات المسـتقلة فقد كانـت تَصْرِفُ عنايتهـا إلى قضية واحـدة دون الانصراف كثيراً إلى ما يتعالق بها من قضايا... إنني هنا أعالج العربية وقضاياها من حيث هي كينونة خاصة تتجاذبها قيم الثبوت وقوى التحول في مشهد كونيّ أصبح فيه هاجس موت اللغات هاجساً مقيماً.

وثاني هذه الافتراقات ما يحمله هذا الكتاب من معالجة مسـتحدثة تسـتجيب للشـرط التاريخي؛ التطور، وما حمله معه من تعقيدات أفرزتهـا العولمة ومنتجاتها؛ فإذا نَظَـرْتَ إلى معالجـة الازدواجية قبل عشـرين عاماً وجدتَ أنه لا ذكـر، تقريباً، لقضيـة الثنائية، أما الآن فـإن الثنائية (العربيـة والإنجليزية) تطرح تسـاؤلاتٍ جديدةً تفاضـل بين العاميـة والإنجليزيـة وليس الفصحـى والإنجليزيـة. وإنْ تأملت ضعف الطلبـة فـي العربيـة قديماً، قبـل عشـرين عاماً مثـلاً، وجـدت أن أسـاليب التدريس تتحمل الوزر الأكبر في ذلك، أما الآن فـإن الانصراف إلى التعليم باللغات الأجنبية (الإنجليزيـة خصوصاً) سـبب رئيس في ضعـف الطلبة فـي العربية؛ لأنهـم وأهلهم ينصرفون إلى المدارس التي تعلم باللغات الأجنبية وابتداءً!

وثالث هـذه الافتراقات أن هذا الكتاب يمثل خطاباً اسـتثنائياً يتجاوز خطابي اللسـاني الاعتيـادي مـن حيـث المتلقـون؛ إذ لـم أتقصـد أن أخاطـب اللسـانيين المتخصصين في اللسـانيات العربية وقضايـا اللغة العربية، ولكنـي في هذا الكتاب عَمَّمـت قاعـدة المخاطَبين وتحولـت بخطابي من الخـاصّ إلى العامّ، من اللسـاني المتخصـص إلى المثقَّـف العربي عمومـاً، وإنما كان ذلـك لرؤيتي أنَّ اللغـة العربية و قضاياهـا المعاصرة وما تواجهه مـن تهديدات لم تعد هَمَّ اللسـاني العربي وحده،

إنها هَمُّ اللسـاني والإعلامـي والطبيب والناقد الأدبـي والتاجر والممثـل... إنها هَمُّ هؤلاء جميعاً، فالقضايـا التي يطرحها الكتاب تمسُّ جميع أبنـاء الوطن العربي على اختلاف بلدانهم واهتماماتهم واختصاصاتهم، والقضية اللغوية صارت قضية أسـرية واجتماعية أكثـر منها لغوية خالصة خاصـة بالمتخصصين! مَنْ مِنَّا لا يعاني مشـكلة الازدواجية؟ ومن منا لا يُؤَرِّقه ضَعْفُ أبنائنا في القراءة والكتابة؟ ومن مِنَّا لا يشـغله هَمُّ الإنجليزية وهيمنتها والتفكير في جدواها الاقتصادية؟

ولذلـك كلـه وجدتنـي أسـتقرئ جمعاً مـن هـؤلاء المؤَرَّقيـن بهواجـس اللغة وقضاياها: فمنهم لساني متخصص، ومنهم ناقد أدبي مرموق، ومنهم كيميائي حاذق، ومنهم طبيب بارع...إلخ.

وأخيـراً فإن الكتاب يعـرض صـورة العربية المتدافَعـة بين قيـم الثبوت وقوى التحـول والمجـالات التي يظهـر فيها هـذا التجاذب. أمـا عوامل الثبـوت فهي التي تحفظ للعربية صورتها، علـى التعميم، وهذه العوامل هي النصُّ المقدس، والتراث، والهوية. وهي قيم ثبوت تمثل للعربية مَدداً ومصدراً للقوة والاستمرارية والديمومة. وأمـا قوى التحول فهي قوى العولمـة وأدواتها الحواسـيب والإنترنت والفضائيات. وأما ملتقى التجـاذب بينهما فهو في مجالات التعليـم والترجمة والإعلام والإعلان والاقتصاد، وأما أبرز ظواهر هذا التجاذب اللغوية فهي الازدواجية والثنائية.

س: تدل الوقائع المشخَّصة على أن ثمة ضعفاً واضحاً في مستويات الطلبة في اللغة العربية، ما يطرح أسئلة كثيرة تتناول أطراف العملية التعليمية برمتها، وقد كانت لك تجربة خاصة في تلمس ضعف الطلبة في العربية. كيف تشخص هذا الضعف؟

ج: يشبه ضعف الطلبة في اللغة العربية أن يكون التربة الخصبة لنمو المشكلات اللغوية الأخرى؛ ذلك أنها تمثل دورة مسـتمرة من الضعـف وإنتاجه وإعادة إنتاجه. وتشـخيص ذلك ماثل في أن جمهـرة الطلبة ما يزالون يقعون دون مسـتوى الكفاية؛ وذلك أن جُلَّهم يعثـرون في تحقيق النطق ببعض أصوات العربية، كما يخطئون في ضبط كثير من أبنية الكلم، ويختلُّ لديهم تركيب الجملة أو يلتوي، وتكثر أخطاؤهم فـي الإعـراب، ويسـتعملون الألفاظ اسـتعمالاً قلقـاً بعيداً عـن تحقيـق دلالتها، ولا يكادون يسـتعملون علامات الترقيـم، كما يقعون في كثير من أخطـاء الإملاء. وهذا

على المستوى الموضوعي. أما على مستوى الأداء فإن الطالب العربي المتخرج في المدرسة لا يقرأ كما ينبغي له أن يقرأ: إنما يُجَمْجِمُ بأصوات متعثرة تترجم صورة المكتوب، فلا هو يقرأ قراءة جهرية معبرة، ولا هو يسرع في القراءة الصامتة، ولا هو يحسن استخلاص معاني ما يقرأ، ولا هو يحسن التغلغل فيما وراء السطور. وهو لا يستمع كما ينبغي له أن يستمع؛ إذ إنه لا يحسن استخلاص مضمون ما يسمع، وقد يستمع إلى محاضرة فلا يتمكن من استصفاء الموضوع الذي تدور عليه في تلخيص آنيّ بارع دالّ، أو تجده منكباً على نسخ ما يسمع حسب!

وهو يعثر في التعبير الشفويّ ويتلجلج لأنه يتردد بين مستوى المشافهة المكتسب في لهجته ومستوى الكتابة المتعلم، ولم تطوِّر المدرسة العربية نموذجاً ناجعاً للتعبير الشفوي. وهو لا يعبر تعبيراً كتابياً موافقاً للحاجة؛ إذ يتهيَّب من مواجهة مطالب التعبير الوظيفي، فإذا عبَّر عرضت في تعبيره أخطاء أولية في النحو والكتابة، وكتابته، على العموم، لا تنبئ عن إحاطة بالمعاني ولا تتسلسل تسلسلاً منطقياً.

ويفتقر الطلبة، مع الأسى، إلى الحيلة المنهجية اللازمة ذات العلاقة بموضوعات الكفاية اللغوية الضرورية، إذا اعترضهم السؤال عن معنى كلمة، أو ضبطها، أو أصلها (إن كان لها أصل في الفصحى)، أو معنى اسم من أسماء الأعلام، أو ترجمة أحد الأعلام...إلخ.

وأما أسباب اطِّراد دائرة الضَّعف هذه فيمكن إجمالها في الأسباب التالية:

أولا : **الخلل البنائي الذي يعتور المناهج المدرسية في العربية**؛ وذلك أنها لم تُبْنَ على نسق علمي مضبوط يتفطَّن إلى الاعتبارات اللغوية، فترى موضوعات الكتاب تتداخل تداخلاً مشتتاً يصعب على المعلم أن يجد لها سلكاً ناظماً أو رباطاً جامعاً سوى التراكم.

ثم إن هذه المناهج لا تأخذ نفسها بالتسلسل البنائي المحكم، بما ينبئ عن خطة مرسومة تتغيا بناء مستوى من المعرفة اللغوية يتفاوت من صفّ إلى صفّ، بما يفضي إلى بناء كفاية لغوية ملائمة؛ إذ إنه من الصعب تبيُّن الفروق بين مستوى كتاب الصف الرابع ومستوى كتاب الصف السادس مثلاً.

ثانياً : وهـو مترتب على الأول، ومفـاد ذلك أن الذين رسـموا المنهاج أخذوا أنفسهم بأسس تربوية ونفسية وحسـب، وأغفلوا جوهر المادة وهو العنصر اللغوي، لذلك «لم يكـن المعلم، وهـو يعالج تعليم اللغـة من خلال تلـك المناهج والكتب القائمـة على الاختـلاط والتراكم، لِيَصْـدُرَ، على مسـتوى الموضوع، صـدوراً لغوياً منظماً ومحسوباً».

ثالثـاً : الاسـتخفاف باللغة العربية، وإنَّمـا يكون ذلك عندما يعهد المسـؤولون مهمـة تدريس اللغـة العربية إلى أسـتاذ غير مختـص بالعربية؛ لأن نصابه التدريسـي لـم يكتمل. ولعل أولئك يصدرون عن مقولة أو يصرِّحون بها: **أنّ هذه لغتنا، ولسـنا محتاجيـن إلى كثيـر علمٍ لتعليمهـا، فلا ضَيْـر أن يتولى ذلك مـدرِّس التربيـة الفنية، مثلاً!**

وهكـذا يفرز هذا الوضع اللغوي المختلط أوضاعاً قلقة تنعكِس في مسـتويات الأداء اللغـوي كلهـا، بما يكشـف عن ضعف واضح فـي تحصيل القَـدْر الأدنى من المعرفة باللغـة وكيفية تحقيقها على وجوهها الصوتيـة والصرفية والنحوية والدلالية والهجائية والأسلوبية.

س: كيف السبيل، إذاً، للخروج من دوامة هذا الضعف؟

كنـتُ وضعت قبل ما يقرب من عشـرين عاماً رؤية لتطوير تعليـم اللغة العربية تسـتفيد من منجزات الدرس اللساني وتتجاوز ما وقف عنده التربويون من الاقتصار على الشـكل وطريقة التعليم دون النظر فـي طبيعة اللغة ومادتها، ولعله يحسـن هنا أن أورد تلك الرؤية على ما كانت عليـه يومذاك؛ لأنها -فيما أرى- ما تزال صالحة ونافعة. وتنطلـق هذه الرؤية من طبيعـة اللغة في تحديد محتـوى المنهاج والكتاب. وهي تصدر صدوراً لسانياً خالصاً يطبَّق على ثلاثة مستويات هي:

1. مستوى موضوعيّ:

يُقْصد منه استصفاء صـورة العربية الفصحى في مسـتوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والمفـردات الدلاليـة والأداءات الأسـلوبية والاعتبارات السـياقية التي إنْ أخذ المتعلم نفسه بها أمن العامية والتردد واللعثمة .

ولا يتحصَّل لنا ذلك إلاّ إذا انتحينا منحى إحصائياً، نتوفَّر فيه على مادة تصدق

أن تكـون ممثلـة للعربية في مسـتوياتها المختلفـة وعصورها المتعددة. فـإذا تهيأ لنا ذلك، صنَّفنا القواعد المستنبطة وَفْق مدى الشيوع والتكرار، فنأخذ بالشائع المتداول كثير الدوران ونَذَرُ النادر والقليل الشاذ. وهكذا نتخلص من حرج عظيم؛ أن نساوي قاعـدة عامة تدور في كل سـطر أو في كل صفحـة بقاعدة لا تـكاد تعرض في نصّ كامل أو كتاب كامل إلاّ نادراً.

فإذا تـم لنا فرز عينة ممثلة للاسـتعمال الجـاري في العربية على المسـتويات: الصوتـي والصرفي والنحـوي والمعجمي والأسـلوبي جميعـاً، أمكن لنا أن نسـوِّي للعربيـة صورة رشـيقة، محددة الملامـح، متدرجة العناصـر وفقاً لنسـبة دورانها في الاسـتعمال ووفقاً لمقاصدنا العلمية مـن درس العربية وتدريسـها، وإذن لوجد أبناء العربيـة ومَنْ يَسْـعَوْن في تعلمهـا كتاباً قاصداً يوضع فـي هدي ذلـك، يُبَلِّغهم الغاية العملية المحورية من درس اللغة بلا فضول ولا التفاف.

2. مستوى وظيفيّ:

نتغيَّا فيه الوقوف على أوجه استعمالنا اللغة وتحققاتها الوظيفية في أمثلة ناجزة، وهذا ما درج التربويون على تسـميته بالمهارات الدراسـية (القراءة الجهرية والقراءة الصامتة والتعبير الشـفوي والتعبير الكتابي والخـط). وينبغي أن تنطلق المعالجة هنا من التحقـق من الأهـداف المرجـوَّة، وضبطها ضبطاً محكماً يسـهل معـه الانطلاق بخطى إجرائية تحقق المسـاعي المنشودة. وهكذا نصير إلى ضبط الأهداف الخاصة مـن الأول بعيداً عـن الأهداف العامة العائمـة. وإذن يتعين علينـا أن نميز ضمن كل وحدة من هذه الوظائف خطوات محـددة متدرجة متكاملة تفصيلية تؤدي إلى القيام بها قياماً صحيحاً في نهاية الأمر .

ومـن تطبيقات ذلـك أننا في القـراءة الصامتـة نُضَمِّنُ العنـوان الرئيس (الهدف العام) عناوين فرعية مثل:

+ وضع عنوان دالّ على موضوع النص.
+ استخراج الأفكار التفصيلية التي يأتلف منها موضوع النص.
+ تحري فكرة محددة في نص كامل على وجه الفرز والبحث.
+ تمييز استجابة ذاتية للنص (من قبل القارئ).

+ السرعة في القراءة ... الخ.

ومن ذلك أن يصبح التعبير الكتابي، كذلك، باباً وظيفياً مقرراً، له نهج مرسوم ينتظم فروعاً أو فصولاً يُعالَجُ كل منها في درس مخصوص، وتغدو مثل هذه العناوين التالية دروساً في كتاب اللغة الذي يتعاطاه الناشئة:

+ تمييز الأفكار المترابطة.

+ تمييز الكلي من الجزئي.

+ التسلسل.

+ وضع الألفاظ مواضعها.

+ إحكام الاستشهاد بالمأثور.

3. ستوى الطريقة في التأليف والتعليم:

ويمثل هذا المستوى الوجهة التطبيقية التي ينبغي أن ينتهي إليها المستويان الأولان، ويتوزع مسؤوليةَ هذه الوجهة هيئتان: هيئة المؤلفين وهيئة المدرسين. ويضبط هذا المستوى بمقولتين لسانيتين تنبثقان من رؤية كلية شمولية، هاتان المقولتان هما:

المقولة الأولى: وحدة الشكل والمضمون.

وإنما يكون ذلك باعتبار الشكل والمضمون حين التأليف، أو حين يبتدع المدرس أمثلته التي يهدف منها إلى تدريب الطلبة على نسق لغوي ما. وذلك أنَّ اعتبار هذه المسألة، مسألة العلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، يوجِّهنا إلى وجوب حضور هذين العنصرين معاً في كل موقف من مواقف تعليم اللغة والتأليف فيها. وإلاَّ بطل أن يكون الموقف لغوياً. وبطل أن يكون إطاراً طبيعياً لتحصيل اللغة واكتسابها.

وهكذا يفضي عدم التنبُّه إلى مثل هذه المسألة إلى أمثلة صارخة، ومن أمثلة ذلك في النحو أنْ لا يَسْتَهْجِنَ المعلم، مثلاً، قول الطالب، أكلت تسعة أرغفة، في سياق تعليمه قواعد العدد.

ومن ذلك في الرسم أن تسوق إحدى المعلمات مثالاً: رأى ليلى أعمى. في سياق تعليم طالباتها الألف المقصورة (الياء المهملة).

وهكذا فإن طريقة الفصل هذه تورث الطلبة تحصيلاً لغوياً شكلياً يقف من

اللغة عند حدود السطح الخارجي، ويُخَلِّف في كثير ممن يستعملون العربية لفظية جوفاء مهزوزة.

المقولة الثانية: وحدة مستويات اللغة.

ومفاد هذه المقولة أن اللغة بنية واحدة متماسكة، أما تقسيماتها الفرعية فإنما هي وسيلة يتخذها اللسانيون لدرس اللغة في مستوياتها المتعددة، من ثَمَّ علينا أنْ نقدم اللغة -عند التعليم- بنية متماسكة تحكمها قواعد وقوانين مضبوطة، تهيئ لمستوياتها الفرعية الانسجام والاتساق ...

وأكثر ما ينبغي التفطُّن إليه في هذا السياق استعمال المفردات؛ إذ لا ينبغي أن تُسْتَلَّ المفردات من صدر المعجم وتقدم عائمة في الهواء، وإنما تُهَيَّأ لها سياقات دالة تستغني عن أن تكون منسوقة على هيئة عمودين من المترادفات. وليت مؤلفي الكتب المدرسية ومعلمي العربية يلتفتون إلى مَنْهج لغويّ مُتَقدِّم في هذه السبيل، هو الزمخشري، فإنه -في معجمه (أساس البلاغة)- لا يكاد يشرح اللفظة بمرادفها، بل يأتي بها في سياقات حية متعددة تُجلّي دلالتها وطريقة استعمالها في آن معاً.

فإذا تحصَّل لنا ذلك أصبح تعليم العربية عملاً منهجياً منضبط المادة على المستوى الجزئي التفصيلي (إذ يصبح لكل موقف تأليفي تعليمي موضوع جزئي محدد كما في النظام الرياضي مثلاً) منضبط الطريقة على المستوى الكلي (إذ يُتخَذُ لتدريس كل جزئية مظهرٌ كُلي مكتمل) ويصبح تدريس اللغة العربية، في هذا الأفق من الأمل، علماً بأصول وفصول، وينتفي عنه ما يلابسه من فرط التراكم والفضول.

وإذن ننتقل بهذه التدابير وأمثالها إلى مداخل سليمة لتعليم العربية من منطلق الكفاية لا من منطلق الذاكرة التراكمية والتلقين، ويستقيم معه أن يكون تعليم العربية تعليماً عقلياً ذهنياً لا تعليماً يقاس بمقدار ما يعرف من معلومات «عن اللغة» فتصير اللغة لدى المتعلم جهازاً معرفياً وأدائياً لا معلومات تمثل عبئاً على الذاكرة فحسب.

س: انتهى تعالق اللسانيات بالعلوم الحديثة إلى ظهور اللسانيات الحاسوبية التي صارت أبرز فروع اللسانيات وأرقاها. ما غاية اللسانيات الحاسوبية؟ وما وجوه استثمارها؟

ج: يَتَغَيّا تَمثيلُ النّظام اللغويّ للحاسوب تمكينَه من مُضاهاة الإنسان في كِفايته وأدائه اللغويّين؛ فيصبح قادرا على تركيب اللغة وتحليلها، يمثِّل الرّسم الكتابيّ بالأصوات المنطوقة فَيَقْرَأ، ويُحَوِّل الأصوات المنطوقة إلى الرّسم الكتابي بالإملاء الصّحيح، ويَعْرِف قواعد النّظام الكتابيّ ما ظَهَر منها وما بَطَن فيكتشف الأخطاء الإملائيّة، ويَبْنِي الصِّيَغ الصرفيّة ويتعرَّفها في سِياق الكلام ... يُنْشِئ الجمل الصّحيحة، ولا ينشئ جُمَلا غير صحيحة، يُعْرِب كما يُعرب الإنسان ... وهكذا. ذلك أنّ مَن يعرف اللغة معرفة كافية يستطيع أن يصحِّح النُّطق إذا عثَر اللسان فقال: صوت مُجْعِزٌ بدلَ مُزْعِج، ويستطيع أن يكتشف الإخلال بإخراج الصّوت من مَخْرَجِه أو تغيير صِفَته إذا سمِع قائلا يقول: سَبَاح الخير بدَلَ صَباح الخير، ويستطيع أن يصحّح أداء الأصوات مجتمعة إذا سمع قائلا يقول: الجامعة (بلفظ اللام جيمًا)، ويستطيع أن يتبيَّن الخروج على قواعد الصّرف إذا قال قائل: مُفْتاح بِضمِّ الميم بَدَلَ مِفْتاح بِكَسْرها، أو قال: مَعْجَم بِفَتح الميم بدلَ ضَمِّها، ويستطيع أن يتبيّن الخطأ في النَّظْم إذا سمع قائلة تقول: الحفلة متى؟ والخطأ في الإعراب إذا سمع مذيعا أو مذيعة يقرآن: أجْرى الوفدان مفاوضاتٍ مكثَّفَةٍ (بتنوين الكسر في مكثّفة بدلا من تنوين الفتح). إنّه يكون قادرا على القيام بِدَوْرِ المصحِّح الإملائيّ فيعرف، مثَلاً، أنّ (سَعَا) على هذه الصّورة خطأ، وأنّ (نَرْجُوا) على هذه الصّورة خطأ ...إلخ.

وما مشاريع «المصحِّح الإملائيّ» و»المُعْرِب» و»المحلِّل الصّرفيّ» ... إلاّ نَماذج لمحاكاة ما يختزنه الإنسان من أدلّة الكفاية اللغويّة ونماذج من تطبيقات تمثيل اللغة للحاسوب.

س: يعاني المجتمع العربي من الثنائية اللغوية، بما هي استعمال العربية والإنجليزية أو الفرنسية معا، وهذه الثنائية تتحمل بأخطار كثيرة. كيف تشخص لنا هذه الحال التي سميتها ثنائية الهدر؟ وكيف السبيل إلى تقنين هذه الظاهرة؟

ج: لعل هذه الظاهرة في المجتمع العربي تحمل هاجسين:

الأول هاجس الخطر: ويتمثل في النوم على الظن الذي هو إثم: أنَّ اللغات الأجنبية هي وسيلتنا للانفتاح على الآخر، وإدراك ما حصَّله من العلم والمعرفة، حسبْ!

والثاني هاجس الهدر: ومفاده أنه ليست لدينا رؤية واضحة للأهداف والغايات من تعليم اللغات الأجنبية، وما انتهى إليه ذلك من هدر للمال والوقت والجهد؛ إذ إن نتائج تعليم اللغات الأجنبية لا توازي مقدار المال والجهد المبذول، وذلك على المستوى الفردي الضيق، والمستوى القُطْريّ الأوسع، والمستوى القوميّ الأرحب!

وتطرح الثنائية في المجتمع العربي أسئلة خطيرة منها:

- لماذا فرض المستعمر لغته علينا ابتداءً؟
- ما جدوى تعليم هذه اللغة الآن؟
- هل نعلمها لنستأنف مشروعاً شاملاً للترجمة، مثلاً؟
- هل نعلمها لأغراض التواصل الاقتصاديّ؟
- هل نعلمها لأغراض التواصل السياسيّ؟
- هل نعلمها لأغراض علمية محددة؟
- لماذا لا يكون تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية فرضَ كفاية يوَجَّهُ له عدد من أفراد الأمة لغايات مقررة مقدَّرة تسُدُّ حاجة الأمة في سياق مشروعها القومي؟
- هل أدى تعليم العلوم بالإنجليزية والفرنسية في العالم العربيّ إلى نهضة علمية عربية؟

ولكنني أحترس هنا بأنني لا أدعو إلى مقاطعة «تعليم» اللغات الأجنبية، وإنما أدعو إلى « ترشيده»؛ أن يبنى على خطط رشيدة تتلمس فائدتنا ومصالحنا، وإنما يكون ذلك بأن نستبدل بالثنائيةِ التعدديةَ الموجَّهة التي تأخذ من «الجميع» ما أفادنا هذا الأخذ، من اليابان أو من الصين، من ألمانيا أو هولندا، من ماليزيا أو كوريا الشمالية»!

ومنتهى القول في الثنائية اللغوية أنها لم تُعْقِبْ فينا إلاَّ حيرة عطلت فعالية اللغة العربية في شطر رئيس من مقومات حياتها هو شطر العلم والتكنولوجيا والاقتصاد. بل إن الثنائية قد أخلَّت بالاتساق في المجتمع العربيّ بما أدخلته على بعض الناشئة من هذه الاتجاهات السلبية نحو لغتهم، وما أدخلته على بعضهم من الزهو والاستعلاء باللغة الأخرى، كما أفضت إلى تهجين العربية على ألسنة الناطقين بها في المشرق والمغرب.

س: لم تعد القضايا اللغوية منعزلة عن تأثيرات الاقتصاد ومبادئه وإجراءاته. هلا وصفت لنا تفاعل اللغة مع الاقتصاد وأثر العوامل الاقتصادية في اللغة عموماً والعربية خصوصاً.

ج: لعله يحسن أن استذكر ما كتبته في كتاب (اللغة العربية في العصر الحديث)، ويومذاك تناولت جدل علاقة العربية بالاقتصاد مبتدئاً بحوار مشخَّص واقعي؛ وهو حوار يدور بين موظفةٍ طالبة تخصصت في اللغة العربية ومديرها، وينتهي هذا الحوار إلى تساؤل المدير المغلَّف بالدهشة والاستغراب: وماذا تعملين باللغة العربية؟ وهو تساؤل ينبئ عن رؤية أهل الاقتصاد، غالباً، للغة العربية؛ أنها لغة غير صالحة للأعمال والاقتصاد، وهو موقف ينطوي على بنية عميقة مفادها أن الإنجليزية هي لغة الاقتصاد والأعمال، هي وحدها حسب!

وقد فككت، هناك، وجوه تغليب «الناس» اللغة الإنجليزية في المجالات الاقتصادية، مبيناً العوامل التي مكَّنت لها على حساب اللغات الأخرى، وهي عوامل اقتصادية ذات أبعاد « استيطانية واستغلالية» تستقوي بالقوة العسكرية المباشرة.

وإنما اتخذتُ هذا الحوار مدخلاً لتفكيك علاقة اللغة العربية بالاقتصاد، وهي علاقة تنطوي على مفارقات كثيرة ومتعددة. ومن هذه المفارقات إعراض الاقتصاديين العرب، ومنهم كثير من مدرِّسي علوم الاقتصاد في الجامعات، عن استثمار العربية في الأعمال ومجالاتها المختلفة، في الوقت الذي تستعمل الشركات الأجنبية اللغة العربية الفصحى لترويج بضائعها في قنوات تجارية معروفة. وثانية هذه المفارقات إعراض الطلبة عن التخصص في اللغة العربية والإقبال على التخصص في اللغة الإنجليزية، في الوقت الذي يتزايد فيه إقبال الإعلاميين ومعدِّي برامج الأطفال على اللغة العربية!

وفي السياق ذاته دللتُ على بعض ملامح هيمنة الإنجليزية في الجوانب الاقتصادية في المجتمع العربي، فالشباب العربي يرى في الإنجليزية مصدراً للرقي الوظيفي والاقتصادي، وأصحاب المحال التجارية يرون فيها مصدراً للدخل المرتفع. وانتشارها في لافتات المحال التجارية وإعلانات الصحف اليومية ظاهر جليّ!

فلما فرغتُ من هذه المقدِّمات العامة والحقائق المباشرة عمدت إلى تشخيص علاقة العربية بالاقتصاد، وقد جعلت تفكيك بنية هذه العلاقة في أمثلة ثلاثة هي:

الأول: وهـو من الواقع الراهـن. ومفاده أن اللغة العربية باتت «لغة مُسْـتَهْلِكة» تغزوهـا المفـردات الإنجليزية تترى، وإنمـا يحدث ذلك لأن أهلها مسـتهلكون غير منتجين، واللغة إنما تستجيب لمنجزات الناطقين بها فتعبر عن أفكارهم ومبتكراتهم خيـر تعبير، أمـا وأنهم يسـتهلكون منتجات الآخر، فـإن لغتهم تسـتهلك لغة الآخر! وأمـا الآخر فإنـه يسـتثمر العربيـة فـي التنميـة الاقتصاديـة، فهـو يسـتثمرها ترويجاً لبضائعهـم في العالم العربي، وهم يتخذون الفصحى لسـاناً لهم طلباً للشـيوع الذي لا يمكـن تحصيله بأي عامية كانت. والثاني: اسـتثمار العربية فـي مجال الإنتاج في المصانع والشـركات. ويتجاوز ذلك إلى طموحات حوسبة العربية والترجمة الآلية، فإنهـا مهمة وضرورية في تأسـيس مجتمع المعرفة العربي، إذ إن تعريب الحاسـوب وملحقاتـه متطلب رئيس لتحقيق ذلك، ولا ضير أن تتأسـس مثل هذه المشـروعات على أهداف اقتصادية خالصة!

الثانـي: من الماضي البعيـد، وهو بيان عـن دور العامل الاقتصـادي «التجارة» في انتشـار الإسـلام فـي ماليزيـا قديماً، مثـلاً، وامتـداد هـذا العامل مدعومـاً بعامل ديني خالص يتمثل في إسـلام الماليزييـن. وأما الآن فإنهم يصرحـون بإقبالهم على تعلـم العربية لمثل هذا العامل، مضافاً إلى العامل الدينـي بالتزام خالص؛ ذلك أنهم ينشـدون الانفتـاح على الأسـواق العربية فـي ظل طمـوح ماليزيا إلـى أن تكون قوة اقتصاديـة كبرى في العالـم! وتظهر العربية في حيـاة الماليزيين اليوميـة: في لافتات الترحيب بالسـياح، والتحايا اليومية، واسـتخدام الحرف الجـاويّ الذي هو الحرف العربي معـدّلاً تعديـلاً طفيفـاً ليوافق خصوصيـة اللغة الملايويـة. بـل إن ماليزيا قد شـرعت نهجاً يختصر بــ (J QAF)، وهو يأتلف مـن أركان أربعة يرمز كل حرف إلـى واحد منها؛ فــ (J) يرمز إلى الحرف الجـاويّ، و (Q) يرمز إلـى القرآن، وA يرمز إلى العربية، و F يرمز إلى (فرض عين) وهو مشـروع سـاطع الدلالة لا يحتاج إلى تأويل.

وأما **المثال الثالث** فهو من الحاضر العربيّ، ومفاده أن دور الاقتصاد في حال العربية مرتهن بالجدوى، وعلى هذا فإن الناس يقبلون على أي لغة ما دام استعمالها مجدياً مادياً، ولعل ذلك يفسِّـر نشـر الإعلانات في الصحافة اليومية بالعامية، وقبول

الرسـائل المبثوثة في حواشـي الفضائيات بعامية سوقية، وسـعادة مدير الشركة بعقد صفقة رابحة بالإنجليزية أو الروسية أو اللاتينية!

وأما الآثار السلبية للاقتصاد في اللغة العربية فتتمثل في جانبين:

1- معجمـي؛ يتمثـل فـي الإخـلال بنقـاء العربيـة وأصالـة ألفاظهـا؛ إذ كَثُرَتِ الأسماء والرموز والعلامات التجارية الإنجليزية.

2- تركيبـيّ (نظْميّ) تمثل فـي انحرافات تركيبـة تخالف عن قوانيـن التركيب العربي، ولا سيما تركيب الإضافة الذي صار يجري على نسق الإنجليزية، كما في : (موبايل سيتي) و(مكة مول).

ومستصفى القول أن ثمة ضرورة لدفع الحوار بين الاقتصادي واللساني، وإقناع الاقتصادي بجـدوى العربية الفصحى في الترويج والربح، وأنه ينبغي اسـتثمار اللغة العربية في مشاريع التنمية العربية.

س: عدَّ «ديفيد كريستال» في كتابه (اللغة والإنترنت) الإنترنت ثورة لغوية حقيقية! ما مدى تأثير الإنترنت في العربية؟

ج: يقترب كلام كريستال كثيراً من الصحة؛ وإنما يتمثل ذلك في تأثير الإنترنت في طـرق التواصل والتعبير، ويتجـاوز ذلك إلى بنيـة اللغة ذاتها؛ فاللغـة الإنجليزية نفسـها، وهي التي ابتكـر الحاسـوب أولاً بها، تعاني مـن تأثيرات الإنترنت السـلبية متمثلة في: البنية اللغوية المهلهلة، واسـتعمال الاختصـارات التي تزاوج بين الكتابة بالحروف والأرقام، والكتابة بالعامية...إلخ. ولا شـك أن هـذه التأثيرات قد انتقلت إلى العربية وغيرها من اللغات، وإن اختصت العربية بالكتابة بالحرف اللاتيني!

وحقـاً أن التـداول العربـي بالإنترنـت قـد يتخـذ اللهجـة المحكيـة بالحروف اللاتينيـة، ولكـن هـذا المنحـى يمكن أن يكـون مؤقتـاً وخاصـة إذا ما تعهـد تطويرُ البرمجيات ونظم التشغيل بالعربية استعمالَ العربية الفصحى وحوَّل أشرعته ضدّ مدّ التواصل المباشر بالإنجليزية واللهجات العربية المكتوبة بالحروف اللاتينية.

س: كيف ترى منزلة المجامـع اللغوية في المجتمـع العربي؟ وكيف تقيم جهودها؟

ج: تراجعـت منزلة المجامع فـي الحياة العربية هذه الأيـام عما كانت عليه في

بدايات نشـأتها. ولعل مرجع ذلك إلى تسـارع المتغيرات التي تقتضي الرأي فعالية مقنعـة، وينضـاف إلى هذا انكفـاء المجامع علـى أوهام سـلطتها القائمة على «ثوابـت» وجيهـة لا ريب ولكنها ليسـت كافية لتمكيـن المجامع مـن إنفاذها؛ إذ إن السياسـة اللغوية ليسـت بمعزل عن آمِرِ الواقع والعوامل والشـروط التي تمكِّن للغة من السـيرورة والانتشـار وعلى رأسـها العامل الاقتصادي بمعناه الواسع. إن تعريب العلوم وتعليم العلوم بالعربية مثلاً لا يكفي في تحقيق المقولة السائدة وهي أن اللغة الأم هي سـبيل الإبداع –وهي مقولة سـديدة لا ريب– ولكن تعليـم العلوم بالعربية يقتضـي مطالب تتجاوز المجامع؛ إنها مَطالب تتعلق بحاجة الأمة جملة ومشـروعها الحضاري وبناء قاعدة علمية باللغة العربية وما يقتضيه ذلك من تدابير سياسية.

وحقـا أن المجامع: اجتهدت في جوانب متعددة من النشـاط العلمي، كتحقيق التراث، وتعريب العلوم، وتعريب المصطلحات، والترجمة، واستجابة العربية للعلوم الحديثـة، إضافـة إلـى المحاضـرات التنويريـة والتثقيفية التـي تتناول قضايـا العربية المعاصـرة. ولكن فعالياتها تُقَصِّر عن مواكبة إيقاع الحياة المتسـارع ودورة اللغة في سياق التجدد والتحديث.

س: **كيف تقيم جهود تعليم العربية للناطقين بغيرها؟**

ج: مـا تزال جهود تعليم العربيـة للناطقين بغيرها تقصِّر عـن المؤمَّل والمرجو رغـم أن هـذا المجال يمتد إلـى زمن بعيـد، وأحسـب أن العوامل التالية تسـهم في تأخره:

1 – عدم استثمار منجزات اللسانيات التطبيقية ورؤاها النظرية في وضع المناهج وتطوير طرائـق التدريس؛ فإذا نظرت إلى ما ينجز من بحوث في اللسـانيات التقابلية وجدتهـا شـتى متفرقة لـم تنته إلـى حلول مناسـبة لمعالجة مشـكلات تعليـم العربية للناطقين بالإنجليزية أو الفرنسـية أو الماليزية، رغم أن ما أنجز في السياق الأكاديمي والرسـائل الجامعية يصلح للبناء عليه. ثم إن نتائج هذه الدراسـات لم تتشـخص في مناهج دراسية تقوم على تعليم العربية لأغراض خاصة أو لفئات خاصة.

2 – أن كثيـراً مـن مدرسـي العربيـة للناطقيـن بغيرها يفتقـرون إلـى الكفايات اللغويـة والثقافيـة المطلوبة لإنجاز التعليم علـى الوجه المؤمل. بـل لعلك تجد من

«يمتهن» هذا العمل من غير المتخصصين في اللسانيات العربية وأساليب تدريسها للأجانب اتكاءً على أنهم «متحدثون أصليون» بالعربية.

3 – عدم إقامة الفرق بين تعليم العربية لأبنائها وتعليمها للناطقين بغيرها؛ فقد يدرِّس بعضهم كتاباً بني لمتعلمي العربية من أبنائها الأطفال لبالغين من الأجانب! وقد يتبع أحدهم طريقة متبعة في تعليم المفردات لأبنائها...!

4 – عدم الاعتناء بإعداد الكتب والمواد التعليمية إعداداً جيداً ومعجباً يضارع في شكله وإخراجه كتب اللغات الأجنبية.

5 – انصراف المؤسسات الرسمية، غالباً، عن دعم هذه البرامج وتطويرها.

6 – عدم استثمار منجزات اللسانيات الحاسوبية والبرامج التعليمية المطورة لتسريع تعليم العربية وتطويره.

7 – كيف السبيل إلى تحسين جدوى هذا التعليم.

يمكن أن نضيف إلى المشروعات القائمة أبعاداً جديدة، ونستدرك ما فاتها من نقص بالاستفادة من الرؤى اللسانية التالية:

1- استبانة الأهداف:

وذلك بأن نستطلع الأهداف التي ينطوي عليها الدارسون؛ بإعداد استبانة مدروسة، يكون مستصفاها جرداً لأهداف الدارسين. وأما غاية ذلك فتتمثل في ضبط العملية من الأول، فيوضع المنهاج وفقاً لصيغة ائتلافية متوازنة من أهدافهم التي ينشدونها من جانبهم وأهدافنا التي نتمثلها من جانبنا. أما تفصيلات هذه الاستبانة فقد عرضتها في سياق بحث سابق هو «**التسآل عن الهدف**».

2- عيار الكفاية:

أن نطوِّر اختبارات مقننة لقياس الكفاية اللغوية تمكننا من تحديد مستويات الدارسين على بينة، وتصنيفهم على وَفْق ذلك.

3- التحليل التقابلي:

أن نستفيد مستخلصات اللسانيات التقابلية في تحديد وجوه الاتفاق بين العربية ولغات الدارسين، ثم التنبؤ بالصعوبات الخاصة التي ستنشأ من اختلاف العربية

عن لغاتهـم، ثم صرف اهتمام ممدود إلـى تلك الصعوبـات، واعتبارها في المناهج الدراسية.

4- مستحدثات الوسائل:

أن نسـتثمر اسـتثماراً منهجياً مضبوطاً مسـتحدثات الوسـائل في مختبر اللغات والحاسوب خاصة.

5- مشروع الحي العربي:

أن نهيـئ الدارسـين لاكتسـاب العربيـة بالمـران والدربة فـي وسـطها الطبيعي الحـي، بابتداع صورة مصغـرة لدورة اللغة العربيـة في حياة الإنسـان العربي اليومية (في البيت، والعمل، والمدرسـة، والجامعة، والمطعم والحافلة...). وقد يكون هذا الحي مبنـى، يبدأ الدارس بمدخله يلقي التحية ويطَّلع علـى دليل المبنى، وقد ينتقل إلى حديث شـرب القهوة في الصباح، وقراءة الصحيفة يلتمس فيها النشـرة الجوية، مثـلاً، ويسـتمع إلى نشـرة الأخبار. ثـم يتحول إلى نمـوذج لبنك، ونمـوذج لمكتب بريد، ونموذج لمكتب طيران ونموذج لمطبعة ونموذج لمكتبة، يمارس في كل ذلك وغير ذلك مسْـتلزمات حاجته إلى اسـتعمال اللغة في سـياقها. وقـد ينتقل بعد ذلك إلـى حضور ندوة في شـأن عام أو متخصص، ومتابعة مسلسـل ناطـق بالفصحى أو مسرحية أو قصيدة مُغَنَّاة، وكل هذا يتم على نحو مبرمج توزع فيه الأدوار سلفا.

6- عُقْدة الازدواجية:

ولعـل فكـرة الحي العربـي تكون تدبيـراً ناجعـاً في حل هـذه المشـكلة، التي تصيـب الدارس الأجنبي بما يشـبه الانفصام، حيـن يجتهد أن يتعلـم الفصحى على نحو مدروس، لكنه يرى الناس يتواصلون بالعامية!!

7- نموذج فصيح للخطاب العامي:

ويكون من مستلزمات هذا التدبير، على المستوى اللغوي، أن نطور نموذجاً فصيحاً للخطاب العامي يقوم على استثمار قواعد الفصحى المنطوقة. وهو نموذج فصيح ولكنه يتصف بالواقعية والعفوية، ويسـتثمر ما يسـمح به السـياق أو المقام من رُخَص الحذف والاجتزاء، ويمنح التعبير طابعاً طبيعياً غير متكلف، فإن الخطاب الشفوي بالفصحى في

واقع الحياة اليومية، عندنا، ما يزال يجري على رسوم لغة الكتابة، واللغة المكتوبة تشبه أن تكون بنية مغْلقة ويفضي بنا هذا إلى أطروحة مُسْتقلَّة.

8- العربية لأغراض محدَّدة:

أن نميِّز غايات الدارسين واختصاصاتهم؛ لنضع، في هدي ذلك، مناهج تقصد إلى تحقيق تلك الأهداف قصداً، فتكون مناهج باللغة العربية للسياسيين والاقتصاديين والأطباء والمهندسين.

س: **هل يمكن أن تطل لنا إطلالة سريعة على المشهد اللساني العربي في منتهى القرن العشرين ومبتدإ القرن الحادي والعشرين؟**

ج: أسدل القرن العشرون ستاره على مشهد لغوي يمكننا تكثيف صفته بالمقولات الإجمالية التالية:

- قضايا معلقة كقضية الكتابة، والازدواجية، والتيسير، وتعريب العلوم...
- قضايا في المنهج تعكس خلافاً «اتباعياً» بين أتباع المناهج اللسانية الغربية؛ كما تعكس شكوكاً متبادلة بينهم وبين المحافظين من اتباع المنهج التقليدي الذين يقفون عند حدٍّ ما أنجزه الأوائل. وكلٌّ يلوذ بالمنهج الذي ارتضى على أنه غاية المنتهى.
- جهود في تأسيس موقع للنظرية اللسانية العربية «القديمة» في إطار مستحدَثات الأنظار في اللسانيات الغربية.
- تطلعات إلى تأسيس نظرية لسانية عربية تقوم على المشاكلة بين الموضوع (خصوصيّ العربية) والمنهج (كليات النظريات اللسانية) لم تتبلور حتى الآن على نحو متماسك منسجم.
- جهود في حوسبة العربية تنشد استثمار إمكانات الحاسوب والتطبيقات التي تتيحها في تعليم العربية وتعميميها وتأسيس موقع لها في عصر الاتصال. وغاية النهاية من هذه التطبيقات بلوغ الترجمة الآلية وتمكين الإنسان العربي من التخاطب مع الآلة.

س: **كيف تقيم حركة الترجمة العربية ومدى إسهامها في نشر المعرفة؟**

ج: لعل خير ما يمكن أن نصف به الترجمة العربية القول إنها في العصر

الحديث كانت مرآة لحال الأمة في التردد بين النهوض والعِثار، والانفصام بين الفكرة والإنجاز. وكان دورها في رفد اللغة على وفق ذلك. بل إنه يمكننا أن نستعير للعربية والأمة والترجمة وصفاً متعارَفاً لحال المريض حيث يقال إنها مستقرة!»

س: هل ثمة نصائح توجهها للسانيين الشبان؟

ج: ينبغي أن ينطلق هؤلاء الشبان من معرفة جيدة بمنجز التراث اللغوي العربي، وأن يتبصروا الأنظار اللسانية الحديثة لإقامة توازن فكري بين ما هو (خاصّ) العربية وما هو (عامّ) اللسانيات الغربية الحديثة، وألا يقصدوا من ذلك إلى الجزم بتفضيل أحدهما على الآخر. إن الاهتداء بهدي الرؤى اللسانية الحديثة مطلب منهجي خالص لا تنبني الرؤية الكلية إلا به.

ثم إن استيعاب مجمل الأنظار اللسانية الغربية، وهو عمل ليس سهلاً، مطلب منهجي وعملي لهؤلاء الشبان إن أرادوا أن يسهموا، ويسهم العرب، في النظرية اللسانية العامة، وإن أردنا أن ننتقل بجهودنا من «لسانيات العربية» إلى «اللسانيات الكلية».

ولعل ما ورد في كتابنا (اللغة العربية في مرآة الآخر... مثل من صورة العربية في اللسانيات الأمريكية) من تشخيص حال بعض طلبة الدراسات العليا يكون مفيداً هنا؛ ذلك أن كثيراً من هؤلاء الطلبة يتخذون طريقاً توفيقياً يعتمد منهجاً غربياً ومادة عربية في التطبيق يعانون ازدواجاً وانفصاماً؛ فإنهم مثلاً قد يستهويهم منهج تحليل الخطاب، فيحاولون تطبيقه على ظاهرة لغوية عربية كالحوار الجدلي في القرآن أو القصة الشعرية، فينقلون مقولات الغربيين في تحليل الخطاب أو نحو النص نقلاً... ويجعلونه شطر الرسالة. فإذا انتقلوا إلى مادة الدراسة تناولوها بمعزل عن تلك المقولات، فجاءت تحليلاتهم أشتاتاً غير متماسكة في ذاتها ولا مندغمة بمقولاتها! وهذا مثال واحد وحسب، ونظائره كثيرة تشبه أن تكون ظاهرة في الرسائل الجامعية ذات المنحى اللساني. إن هذا المطلب في الاندغام العضوي بين أنظار الغربيين وتطبيقات أبناء العربية ما يزال معلقاً.

س: هلا تفضلتَ بتقديم رؤيتك الخاصة في تشخيص علاقة العربية بالعولمة في نواحيها المختلفة؟

ج: ليس خافياً على أحد أن العولمة اجتاحت أخصّ خصائص الشعوب؛ ثقافتها وهويتها ودينها ولغتها. وليس المجتمع العربي وهويته الثقافية واللغوية في منجى من رياح العولمة وأحسب أن موضوع (العربية والعولمة) لقي عناية في اللسانيات الاجتماعية العربية الحديثة، فأجريت الدراسات وعقدت الندوات والمؤتمرات، قصداً إلى تشخيص تأثيراتها وأخطارها على العربية، ووصولاً إلى إجراءات وتدابير احترازية لحماية العربية وتحصينها. وقد انتهيت في كتابي (اللغة العربية في العصر الحديث....قيم الثبوت وقوى التحول) إلى:

- أن العولمة على المستوى الثقافي تواجه مدافعة عنيدة بالمرجع الديني في الثقافة العربية وإن تغلغلت بإغرائها الاستهلاكي والغرزي في أوساط الناشئة.
- أن العربية على المستوى اللغوي الخالص تواجه تحديات من جهة النقاء، وأنها مستهدفة في محمولاتها، ولكنها ليست مهددة في عمود صورتها على الجملة، إنها –في تشكيلها اللغويّ الخالص بتجلياته ومشكلاته– قد أصبحت «غرضاً» لسهام الدول المتقدمة في ركب العولمة، وذلك في دعواتهم السافرة إلى «تحديثها» من جهة، والتوجيه المبرمج لتمويل تعليمها للآخر، وحوسبة لهجاتها (من الجانب الأمريكي) من جهة أخرى.
- أن العربية على مستوى العلوم والتكنولوجيا تواجه نكوصاً ظاهراً إلا أنْ تحفزه وتتداركه دوافع جدوى بالترجمة الآلية.
- أن كتابة العامية بالحرف اللاتيني في رسائل البريد الإلكتروني وغرف الدردشة تمثل «رِدَّةً» مزدوجة إلى دعوة قديمة دعا بها الغرب كما تمثِّل تمكيناً للعامية من جهة وغربة لرسم العربية (نظام كتابتها) من جهة أخرى.
- أنَّ حوسبة العربية تتقدم باطّراد نحو كسر احتكار اللغة الإنجليزية للإنترنت وتفتح للقارئ العربي والعربية آفاق التواصل والامتداد في الفضاء الكونيّ.

س: **تعد قضية «اللغة العربية والحضارة»؛ قدرة العربية على التعبير عن متطلبات الحضارة الحديثة إحدى قضايا العربية المعاصرة، وهي قضية متجددة وما تزال أسئلتها مطروحة. لعلك تعرض لنا منزلة هذه القضية في الفكر اللساني الحديث، وكيف عالجته؟**

ج: إن قضية الفصحى في عجزها عن تحقيق الإبداع والوفاء بمطالب العلوم والفنون قد دافعها العرب باستحضار الدليل على تجربتهم الماضية في التاريخ، والعمل الحثيث أفراداً ومؤسسات على وضع «معجمات» اصطلاحية في شتى فروع المعرفة، وكانت، وإن بقيت معطلة على الرفوف لم تستثمر كما قدر لها، دليلاً كافياً عندهم على إثبات قدرة العربية. وإذا كانت هذه الشبهة غير واردة أصلاً، وكان العمل في البرهنة على بطلانها من لزوم ما لا يلزم فقد مثلت -في قصدها المباشر بالعمل اللغوي الموجَّه لوضع المعجمات الاصطلاحية- ضرباً من الفعالية اللسانية يمكننا أن ننسبه إلى حقل التخطيط اللغوي كما عرف في اللسانيات الغربية من بعد.

ويتبين أهل العربية ذلك، الآن، على نطاق واسع في ضوء نمو الوعي اللساني، وهو مما نجده مقرراً في سياق اللسانيات الحديثة، وهو سياق غربي محايد؛ إذ هو مما يطوره الغرب لنفسه في إطار علمي لا يصدر عن تحيز أو خصوصية للغة أو ثقافة وخاصة في اللسانيات التوليدية التحويلية. ويكفي أن نورد هنا ما يورده أحد كتب اللسانيات العامة، بالإنجليزية، من أنه ليس من شيء يمكن التعبير عنه في إحدى اللغات ولا يستطاع التعبير عنه في لغة أخرى، ويلاحظ مؤلفو ذاك الكتاب أنه واضح أن لغة ما يمكن أن تحتوي ألفاظاً دوال على معانٍ لا نجدها في لغة أخرى، ولكنه ممكن دائماً أن نضع ألفاظاً جديدة تعبر عما نعني، فأيما شيء نستطيع أن نتخيله أو نتصوره فإنه يمكننا أن نعبر عنه في أي لغة إنسانية.

وقد كنت تناولت هذه المسألة بالتفصيل في بحث «**اللغة العربية والحضارة**»، وقد بينت فيه أن اللغة العربية اجتازت بتفوق مشهود تجربة حضارية فذة حين اتسعت للتعبير عن دعوة الإسلام وما أعقبها من نهضة حضارية شاملة؛ إذ استوعبت علوم الأوائل وأضافت إليها إضافات مشهودة في ميادين العلم والحضارة.

إن النظر إلى هذه المسألة يطرح تساؤلاً عريضاً يربط القدرة اللغوية الذاتية للعربية بالفعالية الحضارية لأهل العربية؛ فقد تفوقت اللغة حين تفوق أهلها وأنجزوا، وتخلفت عندما تخلفوا وتقهقروا!

س: كيف ترى السبيل المناسب لتيسير النحو؟

ج: يمكن أن أستصفي القول في تيسير النحو بأننا إذا استصفينا في متن النحو قواعده المحورية المتواترة الضرورية، ونسقناها في بنية منسجمة نظمية إعرابية صرفية، واتخذنا لتعليمه مواقف وظيفية، وربطنا القواعد بنصوص مشرقة تشفّ عنها شفافية جلية، وعززنا ذلك بالتدريبات القياسية الغنية ومواقف الأداء اليومية الحيوية، بلَغْنا بالناشئة تلك الغاية القصيَّة، وحققنا فيهم أحلامهم العصية.

ولعله يحسن في البدء -في تدريب الطلبة على الإعراب- أن نبدأ باستشراف التركيب الذي نتصدى لإعرابه استشرافاً كلياً ثم نحاول أن نميز عناصره الرئيسة (مؤلفاته المباشرة) محتكمين إلى فهمنا العام وسليقة اللغة فينا، فإذا استقام لنا ذلك مضينا إلى تفصيلات الإعراب وفقاً لمعطيات النحو وقواعده المعروفة.

س: تطرقت إلى موضوع نادر في اللسانيات العربية وهو «صورة العربية عند الآخر». فما الذي دفعك إلى هذا الموضوع؟

ج: كان قصد هذا الكتاب أن يجيب عن السؤال العريض التالي: ما صورة العربية في اللسانيات الأمريكية؟

س: هذا سؤال كبير ينشعب إلى أسئلة فرعية هي:

- ما ملامح «العربية» في «مرآة» علماء اللسانيات في أمريكا؟
- ما موارد العربية في مؤلفاتهم اللسانية الأصول بمناهجها المتعاقبة؟
- ما مقدار «اطلاعهم» على «أنظار» علماء العربية؟
- ما مقدار الانتفاع بأنظارهم هم في مقاربة العربية برؤية «إضافية»؟
- ما موقفهم من العربية من حيث هي ظاهرة لغوية؟
- ما موقفهم من العربية من حيث هي وعاء لمحمول ثقافيّ حضاريّ؟

وهي أسئلة تنطوي على مقاربة ضمنية لاستجلاء رؤية «الآخر» للغتنا التي تعبر عن ثقافتنا وهويتنا، وهي تستبطن أبعاد تناوله للعربية في سياقه الثقافي والعلمي الخالص فيما يشبه أن يكون صدوراً وتمثلاً واعيين لصدور القوم عن مقولات من مثل «صراع الحضارات وحوار الحضارات» ولا سيما حين تقترن مواقفهم بإيديولوجيات متطرفة أو منحازة.

أما منشأ هذا السؤال فإنه يعود إلى عام ستة وسبعين من القرن العشرين، حين

كنت مشاركاً في حلقة الدراسات اللغوية في نيويورك، وهي حلقة لغوية سنوية تتخذ في كل عام موضوعاً خاصاً ويأتيها اللسانيون من أنحاء العالم كله وهم ينطوون على رؤى خاصة بلغاتهم أو اللغات التي كانوا يتقنونها، ومن هذه اللغات اللغة العربية. وأتفق أن يكون عنوان حلقة ذاك العام «الكونيات اللغوية وتصنيف اللغات». فكان أن هيأت لي هذه المشاركة فرصة لالتقاء عدد من اللسانيين المشهورين الذين تناولوا العربية في بعض دراساتهم وأبرزهم: فرغسون صاحب المقال المشهور «الازدواجية»، وسوزمو كونو (اللساني الوظيفي)، وميتشل وغيرهم. لقد هيأت لي هذه اللقاءات فرصة مناقشة القوم في بعض شؤون اللغة العربية وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عنها وعن جهود العرب الأوائل في النظرية اللسانية العربية. وكانت هذه النقاشات مبعثاً له على إظهار ما صَدَرَ عنه اللغويون العرب من رؤى ضَمَّنتها كتابي (**نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**).

وقد تناولت في هذا الكتاب (**اللغة العربية في مرآة الآخر**) كيفية ظهور اللغة العربية في مؤلفات اللسانيين الأمريكيين على اختلاف عصورهم ورؤاهم ومدارسهم واتجاهات الدرس اللساني المختلفة؛ وخاصة أن السائد في اللسانيات العربية من الجانب العربي أنها تقدم لنا صورة العربية في ضوء اللسانيات كما نراها نحن بمرآتهم لا كما يرونها هم. وعسى أن يكون ذلك مدخلاً مناسباً للدراسات اللسانية الثقافية التقابلية التي تتناول صورة اللغة عن «الآخر» بمنظور النقد اللساني المقارن، إن صحَّت العبارة!

الدكتور هادي نهر

س: لقد أشار العالم الأنثروبولوجي كلــود ليفي ستراوس إلى أن اللسانيات بفضــل توجهها العلمي ستصبح جسرا تعبره كل العلوم الإنسانية الأخرى إن هي أرادت أن تحقــق نصيبا من العلم. ولا أحد اليوم يستطيع أن يشكك في تحقق هذه النبوءة، ما الذي يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر بكل هذا الاهتمام؟

ج: ما يجعل اللسانيات تشغل صدارة العلوم الإنسانية وتستأثر باهتمام كبير هو شموليتها وإشـعاعها على كل العلوم الأخرى، كونها صارت علماً يقفو أثر الحيوان الناطـق، ولا يكـون الحيـوان ناطقـاً إلا وهو حيـوان مفكـر. إن اللغة أعظـم ما عند الإنسـان فتحت عوامله المغلقة فأوصلته بنفسـه وبغيره، وجاءت اللسـانيات لتدرس هذه اللغة، وأضحت بمرور الزمن وتعدد المدارس اللسانية ومناهجها عنقوداً تتدلى منه موضوعات ذات أصول تاريخية وفسـلجية واجتماعية وجغرافية معقدة، وستبقى تمـر بمراحل مـن التغير الكبيـر لتؤكد نبوءة سـتراوس في كونها جسـراً تعبره جميع العلوم الإنسانية الأخرى إن أرادت هذه العلوم أن تحقق نصيباً من العلم.

إن علـم اللسـانيات اليـوم لم يعـد مجموعة مـن الوسـائل الإجرائيـة والنظرية والتقنية الخالية من الإحساس وإنما صارت اليوم علماً مستقلاً ومتطوراً تكاد جوانبه تكتمل، وعلى الرغم من تطور اللسـانيات فإن الجميع يعمل اليوم على أن يكتشـف في اللغة المزيد عن الإنسان والحياة، ويكتشف عن اللغة قضايا لم تُكْتَشفْ.

س: في ظل هذا (المعطى) المعطيات، ما هو تقويمكم لحصيلة البحث اللساني في الثقافة العربية بعد مرور أكثر من نصف قرن على تعرف الثقافة العربية على البحث اللساني بمعناه الحديث؟

ج: ما يزال البحث اللسـاني فـي الثقافة العربية المعاصرة فـي مرحلة متواضعة من التكون النسـبي، وعلى الرغم مـن أن ردَّ الفعل ضد تـراث اللغويين والمفكرين الأوروبييـن القدامـى هـو أحد أبـرز المؤثـرات المبكـرة في إيجـاد علم اللسـانيات الحديث في القرن العشرين، فإننا نجد أن اللسانيين العرب المعاصرين لم يستطيعوا

أن يبلغوا شأو القدامى في التراث اللغوي العربي، وفي الوقت نفسه ظل أكثرهم يدور في فلك اللسانيات الأوروبية مستنداً إلى مقولاتها ونظرياتها ومناهجها في نطاق الدرس الأكاديمي، ونظن هذا أمرا طبيعياً منسجماً مع تطور العلوم اللسانية وأبحاثها عند الباحثين العرب؛ إذ قلما يتسنى لأغلب هؤلاء الباحثين الخروج من طوق الدرس الأكاديمي إلى الثقافة العامة والقارئ متوسط الثقافة.

س: هناك أسباب موضوعية ولا شك تفسر هذا الوضع، وتحول دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب ما هي هذه الأسباب؟

ج: لعل من أبرز الأسباب الموضوعية التي حالت دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربية بالشكل المطلوب هو أن الدرس اللساني المعاصر في عالمنا العربي لم يخرج بعد من محيط النخبة إلى حالة التثقف العام؛ إذ لا يزال هذا العلم محصوراً في فئة قليلة من المتخصصين ممن انشغل أكثرهم بالأفكار والطروحات اللسانية التي يخرج بها علينا الأوروبيون. لقد تأثرت استجابات بعضنا للسانيات بالنظريات المتكاثرة ونشأ عند بعضنا تسليم بأن كل ما يقال إنما هو طاقات حاسمة في ميدان العلوم اللغوية لا بد من تجريبها وإجرائها على اللغة العربية من غير أن نتمكن من هضم هذه الطاقات الهائلة بصورة مثلى، ومن غير أن نتبين بعمق ما في تراثنا اللغوي والأدبي والنقدي والبلاغي من جزئيات وكليات يمكن أن تعدَّ إرهاصاً ببعض ما منحه اللسانيون المعاصرون الأوروبيون قوة النظرية.

س: هذا التشخيص يلخص الوضع الحالي للدرس اللساني في ثقافتنا، وهو وضع نعتبره نتيجة طبيعية لملابسات التلقي، كما يفيد وجود عوامل خارجية، يمكن أن نعتبرها من قبيل العوامل المرتبطة بسوسيولوجيا العلم (اللسانيات)، لكن هذا لا ينفي وجود مبادئ داخلية للعلم (للسانيات) لم تتحقق، أعني الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، ومن ذلك (بحسب بحث قمنا به في هذا المجال): غياب كتابة لسانية تمهيدية (تيسيرية) تقدم اللسانيات إلى القارئ المبتدئ بالشكل الصحيح، وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية، ثم اعتبار اللسانيات من العلوم الكمالية...إضافة إلى أسباب أخرى سيأتي الحديث عنها؟

ج: غياب كتابة لسانية تمهيدية وعدم القدرة على مواكبة المستجدات اللسانية،

والنظر إلى اللسانيات بوصفها من العلوم الكمالية... كلها أسباب حاسمة في تردي الوضع الحالي للسانيات في ثقافتنا العربية. ونزيد على ذلك:

1 -افتقارنا إلى المزيد من المعرفة بالتراث اللغوي العربي.

2 - افتقارنا إلى معرفة دقيقة باللغة نفسها واستخداماتها الحيوية: الجمالية و(بلاغة المؤثرات) على حد تعبير ريجاردز فيها.

3 - أننا بحاجة إلى مزيد من المعرفة بالوسائل المعرفية والمنهجية التي تمكن اللغة من تمييز نفسها.

4 - إننا في حاجة إلى معرفة ما إذا كانت اللغات الإنسانية التي تقارب اليوم أربعة آلاف لغة على وجه الأرض قادرة على أن تكشف شريحة الواقع الإنساني بكل خصوصياته، بحيث لا نستطيع أن نُحَجِّم هذا الكمَّ الهائل من اللغات أو ننقصه؟ وهل هذه اللغات جميعها نماذج مختلفة جذرياً بعضها عن بعض في بناء تجربة الواقع الذي يعيشه الناطقون بهذه اللغات؟

5 - وأين موقع اللغة العربية بين هذه اللغات؟

6 - وماذا يعرف اللسانيون الأوروبيون عن اللغة العربية، وعن اللغويين العرب، قدامى ومحدثين؟...وتتكاثر الأسئلة!

س: **واقع البحث اللساني العربي يتعارض مع القسمة العقلية التي تقتضي أن يكون هذا البحث رائداً؛ بالنظر إلى الإرث العربي الزاخر في هذا المجال، وهذا ما يجعل هذه المعادلة جد معقدة، بل وغير مفهومة!**

ج: إنها مفارقة مؤلمة حقاَ! وقسمة ضيزى على أي مستوى؛ فأمة كتب التاريخ الإنساني لعلمائها ولغوييها أنهم أول من وضع أبجدية صوتية للغة العربية، لم تستطع مخابر العصر الحديث الصوتية المذهلة أن تسجل عليها مأخذاً علمياً ملموساً، وأمة قدم لغويوها أول معجم بالمعنى العلمي للمعجم قبل أكثر من اثني عشر قرناً؛ حيث الخليل بن أحمد الفراهيدي وحيث علم أصوات مرموق، وحيث معجم لغوي مرموق، وحيث عروض عربي لم يترك شيئاً لمستزيد؛ أنساقاً ونبراتٍ وقافيةً وروياً وتجانساً صوتياً، وإيقاعاً يعبر بنا إلى الحس، مؤججاً فينا مشاعر متسقة حيناً ومضطرمة حيناً آخر. أقول: إن رجلاً صنع العروض العربي قبل اثني عشر قرناً لهو

أول (بنيوي) عرفته الحضارات الإنسـانية. ومن الخليل إلى ابن جني قمة الدراسات فـي (فقه اللغة)، وحيث الإمـام عبد القاهر الجرجاني حيث نظريـة (النظم)، وحيث علم دلالة عربي مرموق اشـتغل فيه فلاسـفة ومتكلمون وأصوليون ولغويون عرب، وحيث ترجمـة منذ القـرن الأول للهجرة، الثامـن الميلادي على يـد صالح بن عبد الرحمن في العراق وأبي ثابت سـليمان بن سـعد في الشـام، وغيرهمـا كثيرون فيما يذكـر ابن النديم في (الفهرسـت)، وحيث بيـت (الحكمة) في زمن المأمون سـابع الخلفاء الراشدين، والمآثر لا تحصى!

أقـول: إن من المفارقات المؤلمة حقاً في تاريخنا العربي اليوم أن نجد أنفسـنا أصغـر من تراثنـا، فلا نحـن بقينا على الـدرس اللغـوي العربي وحاولنا أن نسـتعيد إشـراقاته، فننظـر إليها أو إلـى بعضها بمعيـة ما حولنا مـن مناهج ووسـائل ومخابر ونظريـات لعلنا نقـف على مـا فيها من بينـات يمكـن أن توظَّفَ في خدمـة البحث اللساني.

س: التنـافس بين المناهج اللسانية لا يمكن أن ينكره أحد، وهو تنـافس لا نجد لـه مثيلا إلا في ثقافتنـا، هل المشكل مشكل منـاهج حقا؟

ج: إن التنافـس بيـن المناهج اللسـانية ليس هو المشـكلة في الثقافـة العربية؛ فاللسـانيات فـي العالـم لـم تتعـدد مذاهـب ونظريـاتٍ ومـدارس إلا لأنهـا تعـدت مناهـج، وتاريخ اللسـانيات يكشـف لنا سلسـلة مـن الجهـود التجريبية وإعـادة نظر دائمـة فـي المواقـف والآراء؛ فقد كانـت هناك مـدارس مسـتقلة لعلماء اللسـانيات كمدرسـة (بلومفيلد 1887-1949م) وهو من أوائل اللسـانيين الأمريكيين، ومدرسـة (شومسـكي) الذي أخضع اللسـانيات للمنطـق الرياضي الفلسـفي، فأحدثت كتاباته ثورة في اللسانيات وعرفت مدرسته بالمدرسة التحويلية التوليدية، وغيرها...

إن تعـدد المناهـج في الدرس اللسـاني أمر طبيعـي، وليس مشـكلة؛ لأنه يترك الميدان مفتوحاً للاختيار والاختبار والتطور. إن المشـكلة تكمن في إمكانية توصيل هذه الأفكار والمناهج بشكل واضح إلى المثقف العربي.

سـ: من مظاهر هذا التنـافس وجود شبه قطيعة بين اللسـانيين، فلا أحد منهم يهتم بمـا يكتبه الآخر، وهذا مـا يجعل أمر اللسـانيات في ثقافتنـا متروكا للاجتهادات

الفردية، التي تقف عند حدود الاتجاهات اللسانية، وفي أحسن الأحوال عند الحدود الجغرافية؟

ج: مـن المفروض والبدهي ألا يكـون التنافس بين الناس طريقـاً إلى القطيعة، وعدم اهتمام الإنسان بالإنسان؛ لأن التنافس مظهر من مظاهر الاختلاف بين الناس، وهـو من سـنن الطبيعـة والخلـق والإرادة الربانية. لكن واقـع الحال في اللسـانيات العربيـة، وفي الثقافـة العربية عموماً هو هـذا التقاطع بين المثقفين عامة واللسـانيين خاصـة، ومثل هذا التنافس قـد حصل بين اللسـانيين الأوروبيين، ولكنـه كان عاملاً إيجابياً لا سلبياً في تكامل علم اللسانيات وبلوغه المرحلة التي هو عليها الآن.

لقـد اختلفوا علـى مناهج ومـدارس وطروحـات، واختلفوا حـول العلاقة بين اللسـانيات والعلوم الأخرى: هل اللسـانيات من العلوم الاجتماعيـة؟ أو الطبيعية أو الإنسانية؟ هل اللسانيات أكثر التصاقاً بالنقد الأدبي أم بعلم الاجتماع أم بعلم النفس أو بالفلسـفة، ما بدا لنا مـن خلاله أنهم غيـر واثقين مما تعنيه اللسـانيات على وجه الدقة.

هكذا اختلفوا وتنافسـوا ولكنهم لم يتقاطعوا؛ فلقد أفضت عملية إعادة فحص أسـس المنطق الرياضي التي تقرن بـ(هلبرت) و(فريج)، وبواكير أعمال (رسل) إلى نشـور المنطق الرمـزي الحديث، وإلى التسـليم بأن هـذا المنطق لا يقـل أهمية عن الرياضيـات نفسـها، إنما هو نظـام وبناء علاقـي ذو معضلات وطاقـات تتصل بفهم اللغة أساسـاً، فعمل (كاسيرر) حول الطبيعة الرمزية للتعبير الإنساني مستعيداً ملامح ذلـك من أعمال (فيكـو) و(كوليرج). وكانت الاسكتشـافات اللغويـة المرتبطة بعلم النفس والرياضة والمنطق والفسلجة العصبية للحياة الذهنية هي الشاخصة أولاً.

وكانت التيارات الفكرية في ميدان الفلسـفة موازية للدرس اللسـاني. وفي عام (1915م) أسسـت مجموعة من طلبة موسكو (جماعة موسكو اللغوية) وبعدها بفترة قصيرة أنشـأ فقهاء اللغة ومؤرخو الأدب (جمعية بطرسبيرغ) لدراسة اللغة الشعرية، وكان هناك تضافر ودّي وثيق بين الشـعراء و مؤرخي اللغة والأدب الروسـي، وكان (ما ياكوفسـكي) حاضراً فـي رؤى (رومـان ياكبسـون)، وكان هناك مدرسـة (براغ) عـام1911م التـي غدت في غضـون فترة قصيرة مركزاً لسـبر أغـوار الأدب في ضوء

معطيات علم اللسانيات. ولا نستطيع أن نغادر لغويين من أمثال (تروبتسكوي) و(مكاروفسكي) و(ياكوبسون) ونحن نتحدث في خلق الفكر اللغوي المعاصر، وفي وضع اللمسات الأولى للمدارس البنيوية وغيرها من المدارس والاتجاهات التي ما انفكت محاولات تقليدها خصوصاً في فرنسا مستمرة استجابة لعبقرية الأدباء ولمتطلبات فقه اللغة، وللسانيات عموماً.

وهكذا كانت (الأسلوبية) بوصفها منهجاً لسانياً ثمرة من ثمرات اللسانيات، وأداة لدفع الحواجز بين اللغة والأدب والنقد، بل أضحت اليوم علماً شاملاً للدلالات المكرسة في جهاز الأثر الأدبي المولود من رحم اللغة.

فأين قادهم التنافس؟ وإلى أين قادنا نحن المثقفين العرب؟

س: يتخذ هذا الصراع مظهرا تلخصه المعادلة: النحو ≠ اللسانيات، التراث اللغوي العربي ≠ اللسانيات؟

ج: ما يقال عن الصراع بين النحو التقليدي واللسانيات والتراث اللغوي العربي أمر مفتعل تنفيه قاعدة التطور الملازمة لأي فكر عربي وإنساني. المسألة ليست مسألة صراع، ولكنها تتمثل بشيء من القطيعة بين النحو التقليدي والمدارس اللسانية الحديثة. وهذه إشكالية لا تخص الفكر والثقافة العربيين؛ فالنحو هو المسيطر اليوم على المدارس والتعليم في مدارس العالم كلها، ولكننا في البلاد العربية نستشعر بقطيعة مع المناهج اللسانية الحديثة، والمفروض أن يستمر النحوي العربي في تطوير مناهجه ليكون متواصلاً مع الحداثة بشرط ألا يتم ذلك على حساب الانقطاع عن الأصول.

س: تواجه اللغة العربية مجموعة من التحديات في سياق دولي عولمي غير مسبوق ينذر بالابتلاء والابتلاع، حيث يتحدث الكل بنهم وهرج عن العولمة واقتصاد المعرفة، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فماذا أعد العرب للغتهم في هذا الصدد؟ وما هي أهم التحديات التي سيواجهونها في نظركم؟ وكيف يمكن مواجهتها؟

ج: ليست العولمة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات وسائل إنذار وابتلاع وابتلاء للغة العربية! بل هي -المفروض- وسائل ثبات وتطور وشيوع إذا أحسن العرب استغلالها وتوظيفها، وإلا فالعربية ستتوارى خلف الإنجليزية والفرنسية.

إن مواجهة هذه التحديات توجب العمل الجادّ المكثَّف لتفعيل اللغة العربية في منح مستخدم الاتصالات الحديثة كلَّ ما يحتاج إليه من برامج ووسائل معلوماتية، وألاَّ يقتصر وجود اللغة العربية في مواقع الإنترنت على إيراد النكتة والطرافة أو الترفيه أو الدعوة الدينية. نريد للغة العربية أن تمد المستخدم بالمعارف التي يحتاج إليها مثلما تمده اللغة الإنجليزية مثلاً بمجرد نقرة خفيفة على الجهاز. والسبيل إلى ذلك يكون من خلال الآتي:

1 - تشكيل لجان من المتخصصين والمتحمسين في الجامعات العربية والمؤسسات الرسمية.

2 - تشكيل جمعيات ومراكز تعنى بتغذية مواقع متخصصة بالمعارف قديمها وحديثها.

3 - أن تبذل الجامعات العربية كل جهودها لتغذية مواقعها بكل ما يشغل طلبتها من برامج ومحاضرات وبحوث وأنشطة، فتكون هذه كلها وسائل لنشر اللغة العربية وتفعيل دورها، وتأصيل مكانتها في عالم الاتصالات والمعلومات الحديث.

س: ما هي متطلبات تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتيا؟

ج: لعل أكثر ما نريد قوله في الإجابة عن هذا السؤال مذكور في إجابتنا عن السؤال السابق. ونزيد الأمر وضوحاً بالقول إن العرب لا يمكنهم تقليص الفجوة الرقمية بين العربية واللغات المتقدمة معلوماتياً إلا إذا امتلكوا وعياً شاملاً بعالم المعلومات المعاصر نفسه، وامتلكوا أيضاً استراتيجية واضحة للعمل، وتوفير المستلزمات العلمية والمادية للبدء فيه، أما إذا بقينا نستند إلى (المراحل) فسيكون حالنا كمن يدخل سباقاً للعدوِ وهو يمشي على عكاز!

س: لماذا لا توجد اتجاهات أو تيارات أو مجموعات علمية تتخذ العربية موضوعا لنظرها في كل أبعادها ومستوياتها اللسانيات؟ ألأن العربية عربيات؟ عربية قديمة تراثية، وعربية مقدسة، وعربية وسطى هي المستعملة الآن في التداول المكتوب صحافة وفنا؟

ج: إن قلة وجود الاتجاهات والتيارات العلمية المعنية باللسانيات لا يُرَدُّ إلى الالتزام بالعربية القديمة أو وجود (عربيات متعددة). إن ثبات اللغة العربية وبقاءها

وسيلة الاتصال في العالم العربي دليل تطورها وقدرتها على الحياة والاستمرارية، زيادة على ما تحمله هذه اللغة من حصانة دينية جعلتها خالدة بأمر الله حيث نزل القرآن الكريم بياناً أخيراً لجميع البشر بالعربية!

أما قلة الاتجاهات البحثية اللسانية فذاك مردود إلى واقع البحث في الثقافة العربية المعاصرة عموماً، وقصور في تطبيق المناهج الحديثة وإيصالها إلى المثقف العربي، هذا المثقف الذي صار نهباً لدور النشر، وشحة المجلات الأصيلة، وغياب دور وزارات الثقافة والإعلام عن أداء مهماتها الرئيسة لانشغالها بالترويج لثقافة السلطة والإملاءات التي تريد بثها وتقديمها للناس!

س: ما هي الإشكالات التي يمكن أن تطرحها العربية بوصفها لغة الإنتاج الإبداعي والتواصل القطاعي المكتوب، لا لغة التداول اليومي؟ وكيف يمكن للغة العربية أن تصبح فاعلة في محيطها؟ وما هي المشاكل التي تعترض سبيل المعالجة الآلية العربية؟

ج: اللغة بأهلها لا بنفسها، فليس للغة بوصفها وسيلة التعبير والتوصيل، ومنبع الفكر والفن والجمال ما تريد قوله، ومشكلات اللغة العربية جزء من مشكلات أهلها وما هم عليه من إبداع ومعارفَ وعلوم.

ولعل أبرز إشكالات اللغة العربية وهي تعيش ثورة المعلومات والعولمة أن يعمل الجميع على (إخضاع الحاسوب للغة العربية) وليس (إخضاع اللغة العربية للحاسوب) كما هو الواقع اليوم. زد على ذلك ضرورة الإفادة مما أنجز في الوطن العربي من برمجيات، وإقامة العلاقات مع المراكز والمؤسسات المعنية في الوطن العربي وخارجه.

س: ما دور المجامع اللغوية في النهوض بالعربية على مستويات التنظير والممارسة؟

ج: المفترض أن يكون للمجامع اللغوية العربية الدور الرئيس في النهوض باللغة العربية على مستويات التنظير والممارسة. وعلى الرغم من الجهود المشكورة التي بذلتها هذه المجامع في مصر والعراق والمغرب والأردن وسوريا، إلا أنها لم تحقق إلا النزر اليسير مما يجب عليها تحقيقه في عالم يشهد نهضة علمية كبرى، ولعل من أبرز المعوقات التي وقفت وتقف حائلاً بين هذه المجامع وما ينبغي عليها

تحقيقه الآتي:

1 – أن كلاً منها يعمل بمعزل عن الأخر.

2 – أنها صارت جزءاً من المؤسسات التابعة للدولة، شأنها شأن أية مؤسسة أو جهة حكومية أخرى، لا تملك من أمرها إلا بقدر ما يعطى إليها.

3 – أن قراراتها لا تصل إلى المؤسسات العلمية، ولا تشاع في الأوساط الجامعية والثقافية والتعليمية والإعلامية.

4 – أنها لم تتفق على منهجية محددة شاملة لوضع المصطلحات العلمية المقابلة للمصطلحات الأجنبية.

5 – أنها لم تفلح إلى اليوم بإيجاد معجم عربي تطوري يضارع معجم أكسفورد على سبيل المثال.

6 – أنها لم تتخذ اليوم قراراً حاسماً وملزماً للدول العربية كلها في البدء بتعريب العلوم الصرفة، مع الاحتفاظ بأهمية اللغات الأجنبية في حركة النهضة العربية المنشودة.

س: نجد اليوم شبه إجماع على ضعف العربية في مؤسسات التعليم في مختلف الأسلاك، وهو وضع ينذر بالكارثة، في ظل معطيات تفرض أن يكون الوضع معكوسا تماما؟ بم تشخصون هذه الظاهرة؟

ج: نعم. اللغة العربية تعيش محنة وضعفا، حتى في أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية، ولذلك أسبابه، منها:

- مشكل الازدواج اللغوي بين العربية السليمة ورطانات ما أنزل الله بها من سلطان تسمى (العاميات) حيناً و(اللهجات المحلية) حيناً آخر. إن هذا المشكل أصاب الأقطار العربية جميعها بجرثومته، فجعل أبناء العروبة يحيون ويشعرون ويتعاملون ويتواصلون بوسيلة يومية سهلة نامية متطورة مطاوعة، ثم يتعلمون ويتدينون ويحكمون بلغة عربية تتعثر بها ألسنتهم إن نطقوا وأقلامهم إن كتبوا!

- مشكل خصوم العربية وهم معروفو الهوية والمسارب.
- مشكل مناهج تعليم العربية نحوها وصرفها و أصواتها، شعرها ونثرها.
- مشكل بعض القواعد النحوية التي أقيمت على لغة افتراضية.

- مشكل الإعلام العربي؛ فأكثره إعلام ملحون، هجين اللغة، محلي اللهجة.
- مشكل القصور في إعداد مدرس اللغة العربية، وواقع التدريس المتدني.
- مشكل أستاذ الجامعة الذي يحاضر بالعامية.
- عـدم الوعي بالعلاقة بين المتغيرات الاجتماعية والنهضوية واللغة وما تقوم به على مستوى الإيقاظ والتوجيه.

س: لاحظ عالم اللسانيات روبنز أن معظم السمات التي تميز التاريخ المعاصر، في الغرب، قد نشأت في عصر النهضة، واستمرت دون انقطاع حتى الوقت الراهن. وأن الكثيــر من تلك السمـــات كان له تأثير مباشر فــي الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات اللغوية فيما بعد. والواقع أن ما لاحظه روبنز بالنسبة إلى عصر النهضة في الغرب يمكن تعديته إلى عصر النهضة العربية وما صاحبه من ردود فعل كان للجانب اللغوي حظـــه الوافر منها. فأسئلة النهضة حاضرة بشكل جلي في الفكر اللساني العربي، حيث يمكن أن نميز بين اتجاهات مختلفة: اتجاه طفري(حداثي)، واتجاه تراثي (تقليـــدي) واتجاه توفيقي، والأكثر من هذا أن هذه الاتجاهات تظهر أحيانا فــي الاتجاه الواحد. هذا ما حكم على الثقافة العربية عموما، واللسانيات خصوصا، باجترار قضايا هي فــي غنى عنها.نتساءل هنا: ما موقع الفكر العربي من الفكر اللساني الحديث؟ ثم ألم يحن الوقت بعد لتقويم هذه الحصيلة، والخروج من هذه الدوامة؟

ج: لعل أهـم ما واجه رجال الإصلاح والقادة السياسـيين لا سـيما في العراق وبلاد الشـام يتمثل في علاقة اللغة بالمتغير الواقعـي، ودورها في توجيه الناس نحو النهوض والتقدم. ومن الظواهر التي يمكن لأي باحث متعمق ملاحظتها أن التاريخ لا يمنح الإنسـان من شـروط التقدم في إطار الظرف العيني إلا بمقدار ما تسهم فيه الأجيال السـابقة لذلك الظـرف، وبمقدار ما تكـون الحلقات الظرفيـة ضيقة يتغلب العامـل الموضوعي على العامـل الذاتي، بل يجرفـه، والعامـل الموضوعي يفترض الموازنـة بين اللغة العربية الفصحـى والعاميات الملحونة والملعونـة، تبعاً لدور كل منها فـي حياة الناطقيـن بها، ماضيهـم وحاضرهم ومسـتقبلهم، حيواتهـم وأديانهم، أدبهـم ومعارفهم، ومسـرحهم وإعلامهم وهويتهـم، ولا نظن أن هنـاك عربياً يمتلك شـيئاً من الـولاء للعروبـة أو الإسـلام أو كليهمـا، أن يغلـب جانب العاميـات على العربيـة السـليمة، فالعامية خطر على الإنسـان العربي: وحدته وتراثـه ودينه وعلومه

ومعارفه ومستقبله.

س: ما دمنا بصدد الحديث عـن بعض المشاكل والتحديات المطروحة، أشير إلى أن اللسانيات في الثقافة العربية بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على بعض القطاعـات الأخرى كما هو الحال بالنسبة إلى اللسانيات في الغرب، بل لم تسهم لا مـن قريب ولا من بعيد في بعض التحديات التي تواجه الأمة، والتي تعتبر في صميـم البحث اللساني: التخطيط اللغوي، التعدد اللغـوي، الأمراض اللغوية...ما هي أسباب هذا التقوقع في نظركم؟ وهل يمكن أن نعتبره مظهرا من مظاهر تخلف اللسانيات في ثقافتنا؟

ج: إن بقاء اللسـانيات حبيسة نفسـها، ولم تنفتح على القطاعات الأخرى وهو جزء من واقع البحث والباحثين في مجتمعاتنـا العربية التي تعاني من عزلة العلماء، ليقصـر عملهـم علـى البحـث الـذي يكـون حبيـس المكاتـب والمكتبـات، وليبقى المجتمع منعزلاً عن كل مظاهر التطور والانفتاح.

إن الكتاب العربي لا يمكنه الخروج من البلاد التي صدر فيها إلا بجواز سـفر دبلوماسـي! فكيف بالمثقـف صاحب الكتاب أن يسـافر وأن يحاضـر و أن يقول ما يريد خارج (مكتبه الرسمي)؟

س: يبدو أن التحديات التي تعترض سبيل اللسانيات العربية كبيرة، لكن ما يعمق من طبيعة الإشكال هو أن اللسانيات في ثقافتنا لم تستطع لحد الآن إيجاد حلول عملية لمشاكلها الخاصة، أشير في هذا السياق إلى بعض الإشكاليات التي ظلـت تؤرق البحـث اللساني العربي منذ زمن بعيد، كتلـك المرتبطة بالمصطلح والتعريب؟

ج: إذا كان التعريـب يعني (عربنة) اللغة العربية فلا خير فيه؛ لأنه سـيبقى حبراً على ورق. إننا بحاجة إلى (عبور) إلى المعرفة، وإلى مشروع علمي وثقافي ومعرفي عربي من إبداع العرب أنفسـهم، مشـروع قادر على أن يدل على نفسـه من بين هذا الكم الهائل من سيل المعرفة والعلوم الجارفين.

إننا بحاجة إلى فهم كيفية تشـكل منتجات ثقافة ما، من معرفة وفنون، ومناهج ومفاهيم وصولاً إلى فهم كيفية التفاعـل بين الثقافات؛ لأن مثل هذا الفهم هو الذي يقـود إلى تأصيـل ثقافتنا الخاصـة تأصيـلاً توطينياً، أعنـي توطين مسـتجدات الفكر

والثقافة عموماً بالبحث لها عن موطن مناسب نقيم معه حواراً داخل ثقافتنا؛ كأنْ نقابل بين معطيات اللسانيات الأوروبية المعاصرة بلسانيات عربية قديمة أو حديثة. أو تأصيل تراثي يسلك طريقاً معاكساً للتأصيل التوطيني إذ ننزع فيه إلى ربط موروثاتنا الثقافية القديمة بما يستجد اليوم، لعلنا نعيد للمكتشفات أو النظريات المعاصرة أصولها المعروفة مسبقاً. أو تأصيل تحيزي يسعى إلى الكشف عن أصول المفاهيم والتيارات والحقول المعرفية الأجنبية في سياقاتها الثقافية أو الحضارية الخاصة، لإثبات تحيزها إلى تلك السياقات.

س: **ماذا تقترحون بهذا الخصوص (من الناحية المنهجية تحديدا)؟**

ج: إذا كان المقصود اقتراح منهج لحل إشكالية التعريب ووضع المصطلحات فيمكن اعتماد المنهج الآتي:

1 – إيثار استعمال اللفظ العربي على اللفظ الأجنبي متى كان ذلك ممكناً.

2 – تفضيل اللفظ العربي الأصيل على المولَّد، والمولد على الحديث، إلا إذا اشتهر الدخيل.

3 – إحياء المصطلحات العربية القديمة، إذا كانت قادرة على حمل المفهوم.

4 – تجنب النحت ما أمكن ذلك.

5 – تجنب تعريب المصطلح الأجنبي إلا إذا كان مدلوله شائعاً بدرجة كبيرة يصعب معها تغييره، أو إذا كان مشتقاً من أسماء الأعلام، أو إذا كان من الأسماء العلمية لبعض العناصر والمركبات الكيماوية، وأسماء المقاييس والوحدات الأجنبية.

6 – النطق بأسماء الأعلام الأجنبية وكتابتها كما ينطق بها في أماكنها.

7 – أما على مستوى طبيعة الاشتقاق والإجراءات الصرفية فالعربية غنية في هذا؛ لأنها لغة اشتقاقية في المقام الأول.

س: **في نظركم ما هي السبل التي ترونها كفيلة بإنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؟ نقصد تحديدا أهم القضايا التي يجب أن ترتكز عليها البحوث اللسانية العربية إن هي أرادت مسايرة الركب، والانتقال من مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة الإنتاج؟**

ج: الانتصار للغة العربية نفسها هو أول خطوة في سبيل إنجاح مشروع الإصلاح اللغوي العربي؛ لأن الانتصار للغة العربية انتصار للهوية وللإرث وللحضارة العربية الإسلامية وللقرآن الكريم الذي ندين له ببقاء العربية عصية على كل عوامل التغريب والعولمة والقتل.

إن اللغة العربية لغة حضارة وتشريع وفلسفة وعلم وأدب وسياسة وبحث وتوجيه، وليست لغة بيان وحسب، والانتصار لها إنما يتأتى من العمل على إيجاد العلم العربي، والفن العربي واللسانيات العربية، ويتأتى كذلك من استخدام المناهج المتعددة في صعيد البحث اللساني والأدبي. فنحن ما زلنا إلى اليوم بعيدين، حتى في أقسام العربية، عن دراسة أساسيات المدارس اللسانية المعاصرة، وعن أساسيات علم الأسلوب والدلالة والنحو المقارن، والصوتيات، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، والجغرافية اللغوية، وغير هذا كثير مما تدور حوله أو تعمل داخله اللسانيات المعاصرة حيث بدأت اليوم بدراسة اللسانيات الحاسوبية والترجمة الآلية، وتطبيقات الذكاء الاصطناعي، واستطاعت أن تطوع الحاسوب لخدمة اللغة الطبيعية وفهمها، ما قاد إلى تطور فرع معرفي جديد هو اللسانيات الحاسوبية، وهو الجامع المشترك لعلمي اللسانيات والحاسوب.

س: هل ترى أن حركة ترجمة اللسانيات إلى العربية كافية لتأسيس معرفة لسانية متقدمة في العربية؟ وما هي أهم مشكلات الترجمة اللسانية العربية؟

في ضوء الانفجار المعرفي الهائل وتطور تقنيات نقل المعلومات والترجمة الآلية والإنترنت نرى أن من مستلزمات النهضة الشاملة أن ترافقها حركة ترجمة واسعة النطاق إلى اللغة العربية لمواجهة النقص الخطير في الكم الهائل من المعارف الذي ينبغي نقله إلى لغتنا لتوظيفه في تنمية المجتمع العربي، والتغلب على العزلة.

واللسانيات العالمية جزء مما يراد له أن يترجم، ولا نعتقد أن ما يترجم من الدرس اللساني كافٍ لتأسيس معرفة لسانية عربية؛ إذ لم يصاحب ذلك تمثل واضح ومعمق لما يترجم، وتيسير تعليم العلوم باللغة العربية، والقيام بوضع كتب في اللسانيات تؤكد أننا نعي ما نترجم، وأننا نقدر على التحليل والاستنباط والإثراء

والموازنة.

ومن غير إطالة نرى أن أبز مشكلات الترجمة عموماً واللسانية خصوصاً هي عدم امتلاكنا نحن العرب سوى النزر اليسير من مكطونات نظرية جمعية للترجمة. ولم يستطع أكثرنا إلى اليوم استغلال ما توفره تكنولوجيا المعلومات الحديثة من إمكانات لتحقيق معدلات عالية في سرعة الترجمة، ونمو حركتها بما في ذلك الصالح والمفيد من أدوات الترجمة الآلية.

س: هل بلغت اللسانيات أن تكون مسهماً فاعلاً في الثقافة العربية؟ وهل استطاعت فعلاً أن تندمج في بنية العلم العربي؟ وكيف السبيل إلى تعزيز مكانة اللسانيات في الثقافة العلمية العربية؟

ج: لم تستطع اللسانيات أن تكون مسهماً فاعلاٌ في الثقافة العربية على الوجه المأمول بالرغم من كثرة ما ينشر، ولا يمكن أن تفعل اللسانيات فعلها في حياتنا الثقافية إلا إذا صارت حالة من حالات التثقف العام، وخرجت من دوائر النخبة المتقاطعة فيما بينها. إن القطيعة التي أضحت ظاهرة بين اللسانيين العرب هي نفسها القطيعة التي تكمن في التبادل الثقافي عامة في البلاد العربية، فما يصدر في المشرق لا يعرفه أهل المغرب، وما يصدر في هذه العاصمة قد لا تدركه عاصمة أخرى، كل ذلك بسبب الواقع السياسي المتخلف، والقطيعة المفروضة بين المثقفين التي تركت آثارها على التواصل الفكري والبحثي بين المثقفين العرب.

س: كيف يمكن استثمار النظريات اللسانية ومستخلصاتها ووجوهها التطبيقية في حل مشكلات العربية: تعليمها لأبنائها وللناطقين بغيرها، والتعدد اللغوي، والضعف اللغوي في العربية، وحوسبة العربية؟

ج: لا ينكر أنه قد أنجزت في بعض الأقطار العربية أعمال إبداعية لمعالجة اللغة العربية في جوانب الأصوات والصرف والتراكيب والدلالة، وبناء المعاجم، لكننا ما نزال بحاجة إلى جهود علمية دؤوبة، منها:

- تأكيد أهمية الدراسات اللسانية الحديثة في العربية.
- البحث والكشف عن البنى العميقة للعربية، وتحديد خصائصها.
- إبراز جهود العلماء العرب واجتهاداتهم وإبداعاتهم في تحليل العربية،

واستخراج قوانينها الأساسية.

- تفعيل دور وسائل الإعلام في إشاعة اللغة العربية السليمة.
- العمل على إيجاد معجمات ميسرة تحتوي على أثر الكلمات شيوعاً في العربية، بعيداً عن المترادفات والمتضادات والمتقابلات.
- الاهتمام بمعلمي اللغة العربية، وإعدادهم إعداداً سليماً.
- إشاعة استعمال الحاسوب بين طلبة رياض الأطفال والمدارس الابتدائية.

س: ما هي السبل التي تراها كفيلة بترقية اللغة العربية وتهيئتها لبناء مجتمع المعرفة العربي المنشود؟

ج: لعل أنجع السبل الكفيلة بترقية العربية مرهون بالانتصار للعربية بوصفها الهوية والتاريخ والمستقبل، وإشاعة استعمالها في المؤسسات الحكومية كلها، وأن يكون القرار السياسي حاضراً وحاسماً في ذلك.

س: كيف ترى الحركة اللسانية في الأردن؟ وما أبرز معالمها واتجاهاتها؟

ج: الحركة اللسانية في الأردن شأنها شأن أي بلد عربي آخر ما زالت في خطواتها الأولى، ولعل أبرز معالمها واتجاهاتها محصورة في ما ينجزه الباحثون الأردنيون من مصنفات نحوية وصرفية وتطبيقية، وما يؤثر عن بعضهم من دراسات صوتية، أما على المستوى المعجمي والدلالي المعاصر فليس بين أيدينا إلا النزر اليسير من هذه الدراسات.

س: ما هو تقويمك للحركة اللسانية في العالم العربي؟ وما هي أهم عقبات البحث اللساني العربي؟

ج: يمكن أن يكون إخواننا العرب من أهل المغرب: تونس والجزائر والمغرب قد قطعوا شوطاً لا بأس به في الدراسات اللسانية. ولكن أبرز المعوقات التي تواجه ما أبدعوه هذه القطيعة بين ما يصدر في بلدانهم وبلدان المشرق العربي، وتشخص عقبات المصطلح اللغوي والنقدي والبلاغي حائلاً دون انتشار ما يبدعون؛ فقد تداخلت مصطلحاتهم وتكاثرت وتقاطعت سواء في محيطهم أو مع ما يستخدم من مصطلحات مشرقية، ولعل من أسباب هذا التقاطع عدم امتلاك العرب لمؤسسة شاملة جامعة للترجمة، فكل يعمل على هواه!

س: كيف ترى مستقبل العربية في خضم العولمة وقواها؟

ج: لا خوف على العربية لا في خضم العولمة ولا في الدعوة إلى (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) على ما خرج به فوكوياما، وإنما الخوف كل الخوف على (العرب) في عالم متحرك جامح عاصف اتخذ العلم هدفاً ومنهجاً في الحياة. إن كل شيء صار منهجاً ونظاماً، فإذا ارتضى العرب العلم منهجاً في الحيات تقدموا وتقدمت لغتهم. إن القضية لم تعد قضية لغات، وإنما قضية أمم كائنة وفاعلة ومنتجة ومبدعة ومؤثرة، وأمم غائبة ومستهلكة وتابعة. وحين تكون الأمة فاعلة تكون لغتها كذلك، وعندما تكون تابعة تكون لغتها تابعة!

من المثير أن تترجم اليابان إلى اللغة اليابانية نصف إنتاج العالم الثقافي، ولم يستطع العرب إلا ترجمة عشرات أو مئات من هذا الإنتاج إلى العربية، وشتان ما بين العربية واليابانية من حيث وصف كل منهما!

س: هل لديك نصائح خاصة للسانيين الشبان؟

ج: كلمة واحدة أقولها للسانيين الشبان: لا تنظروا إلى ما ينتج من اللسانيات المعاصرة بمعزل عن تدبر اللسانيات العربية القديمة؛ حتى لا تنبهروا بالجديد فتحسبونه نهاية المطاف فتسقطوا في مغالطة التاريخ. زاوجوا بين المعرفتين تسلموا من الانبهار والانكسار.

الدكتور حسن خميس الملخ

إذا تجاوزنا أنّ البحث العلميّ يقوم على دراسة الإشكالات العلميّة المتباينة، فسنجد أنه يقوم على تحديد علاقة البحث بالزمن بين أن يكون البحث انطلاقاً من الماضي أو تحليلاً للحاضر أو استشرافاً للمستقبل مع تأطير هذه العلاقة بأبعادها الثقافيّة والفكريّة والعلميّة، ولهذا يصطدم البحث اللسانيّ في الثقافة العربيّة بسؤال الزمن؛ ذلك أنّ الباحثين قد تباينوا في ربط البحث اللسانيّ بالزمن، كما تباينوا في ربط البحث اللسانيّ بأبعاده الثقافيّة والفكريّة والعلميّة، فبدا بحدّ ذاته إشكاليّة بدل أن يكون وسيلة لحلّ الإشكاليات.

اللسانيّات واحتواء الآخر:

الأصل في العلوم أنّها تخفي وراء التخصّص الدقيق التوسّعَ الرأسيَّ للعلم، بمعنى أنّ العلم قد كان جزءاً عاماً من علم أكبر وأضخم وأكثر عمومية، ثم تطوّر إلى أن أصبح علماً مستقلاً له شخصيته المميزة له، والدالة عليه، كأن نتحدث عن تفرّع الفيزياء إلى علوم جديدة مثل فيزياء الحالة وفيزياء الحركة وفيزياء الكمّ ...إلخ لكنّ علم اللسانيات بفروعه المختلفة خرج عن هذا الأصل، فما كاد أن يظهر على أيدي بعض الفلاسفة واللغويين حتى بدأ شيئاً فشيئاً يمتد ويتوسّع ليصبح كما قال ليفي ستراوس جسراً تعبّر عنه كلّ العلوم الإنسانيّة؛ لأنه تحوّل من الانكفاء على دراسة اللغة وأنساقها إلى مدلولات اللغة وأنساقها المعرفيّة، فدخل عبر المحتوى المدلوليّ إلى العلوم الأخرى من غير أن يفقد سماته العلميّة ومتطلباته البحثيّة، مما يعني أنّ الآليات المنهجيّة الكامنة فيه قد احتوت المدلولات العلميّة المختلفة، وصبغتها بصبغة البحث اللسانيّ، فأصبحت العلوم المختلفة لسانيات بمفهوم الآليات المنهجيّة، لكنها بقيت علوماً مستقلة بمفهوم المدلولات المعرفيّة، وهذا يعني التوحّد إلى حدّ كبير بين مفهوم العلميّة المجرّدة، والبحث اللسانيّ؛ لهذا كان أمراً طبيعيّاً أن تقفز المنهجيّة اللسانيّة إلى صدارة العلوم الإنسانيّة؛ لأنها العلم الوحيد في العصر الحديث الذي يتحرّك بخطّين متوازيين تشكل المساحة التي بينهما جسراً للبَيْنِيّة المعرفيّة مع أنّ الخطّ الأول يمثّل الذات أو المنهج أو الآليات

في حين يمثل الخطّ الثاني الآخر والمحتوى والمضمون، وهذا يعني أنّ كلّ مساحة تمثّل بالضرورة اللسانيات والآخر.

ولئن كانت اللغة هي الحجر الأساس في انطلاق الثورة اللسانيّة فإنّ تجاوز الرّواد الأوائل في اللسانيات للأوهام التي رافقت البحث اللغويّ عند الأمم ذات الدراسات اللغويّة المعروفة مثل اليونان والرومان والهنود والصينيين والعرب وغيرهم يعدّ عبوراً إلى دائرة العلم، فقد تجاوزوا مفهوم الخصوصيّة اللغويّة، والتحيّز اللغويّ، والمسلمات غير العلمية من الأساطير الثقافية والفكرية، وانطلقوا من أنّ اللغة ظاهرة بشريّة تتجلّى بأصوات مختلفة، فالانطلاق كان في جوهره مبنياً على ثنائية اللسان والإنسان، لهذا تطوّر بشكل سريع إلى ثنائيات اللسان وعلوم الإنسان، ولا تزال اللسانيات تحمل وعداً بمفاجآت علميّة قد تكون مذهلة نتيجة التفاعل المعرفي بين العلوم المختلفة عبر جسر اللسانيات.

البحث اللسانيّ في الثقافة العربيّة. . . التيه في الجدل:

قد يشي عنوان «البحث اللساني في الثقافة العربية» بالبحث عن الجذور الأولى للبحث اللسانيّ في الثقافة العربيّة، وهو بحث نسعى دائماً إلى تجاوزه لأنّنا نتحدث عن اللسانيات الدوسوسيريّة لا عن الإرهاصات اللسانيّة في دراسة اللغات البشريّة لأننا حينئذٍ سنعدّ مخترع الكتابة أيّاً كان هو اللساني الأول في التاريخ، وبعد ذلك تصبح الجهود اللغويّة اللاحقة عند الأمم كلها طرقاً أدّت في النتيجة إلى تكوّن الصورة الأولى للسانيات الحديثة عند دو سوسير، ومن هذه الطرق الطريقُ التي سلكها علماءُ العربيّة في تقعيد علوم العربيّة في النحو والصرف والمعجم، وعندها سيغدو الحديث عن البحث اللسانيّ ضرباً من المفاخرة بين الأمم في الجهود اللسانيّة، وهذا الحديث يُفقِد اللسانيات أهم سماتها وهي أنها تدرس اللغة ابتداءً لأنها ظاهرة بشريّة تتجاوز الاختلاف في الأصوات وطرائق بناء الكلمات وتركيب الجمل بين اللغات البشرية.

إنّ معادلة توازن البحث اللساني في الثقافة العربيّة مرتبطة بالقرن العشرين بل بالنصف الثاني منه، وهي بهذا الارتباط سهلة التقويم لأنها مختصرة في أقلّ من قرن من الزمان، وإن كانت من التنوع والتعدّد بحيث تضحي صعبة التقويم.

إننا بعـد نصف قرن أو يزيـد من طرح الرؤى اللسـانيّة على المشـتغلين بعلوم العربيّة خاصة والمثقفين في العالم العربـيّ عامة لم نخرج من دائرة الجدل في فهم اللسـانيات بل في طرحها لأنّ جهـود الباحثين فـي تقديم اللسـانيات للعالم العربيّ تاهت في منعطفات خطيرة ثلاثة هي:

1- منعطف الرفض وفلسفة الاتّهام:

ليـس غريباً أن يُقابـل الجديد بالرفض؛ بل لعلّ هذا الأمر من سُـنن البشـر في تقبّل ما هو جديد، لكن من سـنن البشـر أيضـاً أنّ الرفض كالمرض يـزول غالباً مع مرور الوقت بالاقتناع، فما كان غريباً لجدّته أصبح مألوفاً لاقتناع الناس به ولشيوعه بينهـم وظهـور فوائـده، لكن الأمر فـي طرح اللسـانيات فـي العالم العربـي بعمومه دخل في مـأزق تطاول مدة الاقتناع؛ لأن اللسـانيات عندما طرحهـا الباحثون الجُدد منذ خمسـينات القرن العشـرين طرحوها كمولود غير مكتمل النمـو لوجود مرضين عُضاليـن في ذلك الطـرح، أولهما يتمثل بالغربنـة (من التغريـب) الفكريّة في مقابل مجتمع متمسـك إلى حـدّ كبير بموروث فكريّ حضاري مسـلم وعربـيّ، وهي بهذا المـرض كالفكـر المعـادي إذ طُرحت كمحصـول فكـريّ نضج في أوروبـا في ظل مجتمع متعدّد الرؤى والاتجاهات، فاللسـانيون الأوائل هم مـن خريجي الجامعات الفرنسيّة والألمانيّة والبريطانيّة الذين طرحوا اللسانيات من غير قصد على أنها العلم الـذي حرّر الدروس اللغويّة في أوروبا من الأوهام غيـر العلميّة وقادها نحو تجميع مفهوم العلم الشـامل المبرهن، وهي بهذا الطرح تتناسـى أنّ المـوروث اللغويّ في العربيّـة يحظـى بأعلـى درجـات الاحتـرام والتقدير فـي العالـم العربـيّ، ولم يصل الأمر عند عموم دراسـي العـرب حدّ الاقتنـاع بالحاجة إلـى (مسـاعدٍ) جديد يطوّر رؤاهم اللغوية في مسـتوياتهم كافة، فنظر كثير من أبناء الخمسـينات والستينات إلى اللسانيات على أنّها بديل غير مرغوب فيه للنحو والصرف والمعجم في العربيّة، وما يزال أنصارُ هذا التيار موجودين في المجتمع العربي من معلم المدرسـة إلى أسـتاذ الجامعة، بحجة عدم الحاجة مع إضافة صفة اتهام طارحي اللسانيات بالغربنة.

وأمـا ثانيهما فيتمثل في توجّه اللسـانيات العربيّة إلى القـارئ العربي والمثقّف العربي بدل التوجّه أولاً إلى الباحث العربيّ، فالدكتور محمود السـعران عندما ألف

كتابه (علم اللغة) أضاف إلى عنوانه مقولة (مقدمة للقارئ العربيّ) وهذه المقولة خطيرة جداً، لأنّها تدلّ على تجاوز الباحث إلى المثقف، وهذا التجاوز قد يكون يأساً من إقناع الباحث آنذاك بالمقولات اللسانيّة، أو التفافاً عليه بالذهاب إلى المثقف والقارئ، وهو في الحالتين يشير إلى مأزق في الطرح الأول لهذا العلم، مما يعني أن بعض اللسانيين الأوائل لم يحسنوا زرع النباتات اللسانيّة في العالم العربيّ، لأنهم حملوا اللسانيات، ولم يحملوا طريقة زرعها في العالم العربيّ بالحوار المبنيّ على فهم التراث اللغويّ العربيّ أولاً، ثم فهم المعطيات اللسانيّة، من هنا حملت الطروحات اللسانيّة الأولى في العالم العربيّ اتهامات للغة العربيّة في نحوها وصرفها ومعجمها كما يبرز في بعض أعمال الروّاد الأوائل مثل الدكتور عبد الرحمن أيوب، والدكتور أنيس فريحة وغيرهما وقد نستثني اثنين من ذلك الجيل هما الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسّان.

إذن، فبدل أن تمرّ اللسانيات في الثقافة العربيّة من منعطف الرفض بسرعة بقيت فيه مدة طويلة بدليل وجود رافضين لها بين الباحثين في العربيّة نحواً وصرفاً ومعجماً على هدي التراث اللغويّ إيماناً منهم بأنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، وهي مقولة خطيرة حذّر منها الجاحظ في القرن الثالث الهجريّ عندما استشرف أن أخطر ما يهدد العلم أن يؤمن المشتغلون به لأسباب مختلفة بأنه قد اكتمل وصار شيئاً بديعاً صاغه مبدعون.

2- منعطف القبول المطلق وموت الذات:

ثمة فرق جوهريّ في طرح العلوم الجديدة بين أمرين: الطرح المعزول عن الذات بمعنى طرح الجديد وإماتة القديم، والثاني الطرح غير المعزول عن الذات الذي يطرح الجديد من غير أن يلغي القديم بكامله، وقد وقع بعض اللسانيات في العالم العربي في الأمر الأول، فضاعت من طروحاتهم جهود أكثر من اثني عشر قرناً من الدراسات اللغويّة للغة العربيّة في علومها كلها، ولهذا كان من الطبيعي أن تكون ردّةُ الفعل على هذا الطرح رفض الاستماع لأي طرح لسانيّ، الأمر الذي يجعل هذا المنعطف يتحد مع المنعطف السابق ليصبحا معاً قلعة في وجه رياح اللسانيات التي قال بعض أصحابها بضرورة إعادة وصف اللغة العربيّة ألسنياً بعيداً

عـن أي موروث لغوي مهما كان حضوره، ومهما كانـت مزاياه العلميّة مع أننا الأمة التـي تعيش داخل لغتهـا، مما يعنـي أنّ في وجدان كل أبنـاء العالم العربـيّ احتراماً كبيـراً للغة ولجهود اللغويين سـواء أظهر هـذا الاحترام بالفهم أم بقي احتراماً يشـبه إيمان العوامّ والعجائز.

إن مسـاحة الآخـر في هـذا المنعطف أكثر بكثير من مسـاحة أنصـاره، لهذا لـم يسـلم أنصـاره مـن تُهَم الانسـلاخ عـن الحضـارة العربيّـة الإسـلاميّة، بـل رأى فيه الآخر خطـراً يهدد ثابتاً هو أهـم الثوابت في حياة المسـلمين، وهو القـرآن الكريم، فلغـة القرآن محروسـة بقوانيـن العربيّة فـي النحو والصـرف والمعجم، وقـد أثبتت هـذه القوانين عبر قرون الإسـلام كلّها قدرتَهـا على رفد الكلمـة القرآنية في دلالتها واسـتقامتها وموقعها مـن التركيب بالتفسـير المقبول، ويمكن للمتتبـع لحركة تقويم الجهـود اللغويّة في القرن العشـرين أن يلحـظ بوضوح أن معظم مـن وجّهت إليهم تهم معاداة اللغـة العربيّة في الإملاء أو النحو أو الأصوات هم من اللسـانيين لأنهم وقعوا فـي منعطف القبول المطلق بالمقولات اللسـانيّة مع أنّ من طبيعة اللسـانيات أنها علم متغيّر غير ثابـت حتى يمكن وصفها بالعلم المنقوص النواميس، وهي بهذا ضد المطلق الثابت.

إنّ أزمة اللسـانيات في الثقافة العربيّة أزمة منهج في العرض والتطبيق والحوار مع المـوروث العربيّ في علـوم اللغة والأدب، فقبـل أن تتجذر الثقافة اللسـانيّة في المجتمع العربيّ كان بعض رواد اللسـانيات في العالم العربيّ يوجّهون سهام نقدهم إلى النحو العربـيّ، والصرف العربيّ، والمعجم العربي باسـمِ علمِ اللسـانيات، فثار معظمهم على نظرية العامل والعلل والإعلاِل والإبدال والصناعَة المَعجمية التقليديّة، وهذا الأمر يمكن أن نتبينه بوضوح في الأعمال الأولى لـإبراهيم أنيس وتمام حسان ومهـدي المخزومي وعبد الرحمن أيوب وكمال بشـر وأنيس فريحـة، فعبد الرحمن أيوب ابتدأ دراسـاته اللسانية سنة 1957م بكتابه المشـهور (دراسات نقدية في النحو العربيّ) وهو فكر لسـاني خالص لكنه لم يكن مؤسسـاً على دعاية لسانيّة في الثقافة العربيّـة لهذا بقـدر ما كان صـدور هذا الكتاب صدمـة لمعظم المشـتغلين في علوم العربيّـة آنذاك كان وجهـاً غير مرغوب فيه للسـانيات، فالنقد له معاييـره التي تجعله

مقبولاً عند الآخر، لكنّ النقد غير المبنيّ على دراسة الآخر ولو جزئياً بالمعايير يعدّ صدمة ثقافية، ولا سيما أنه وُجِّه إلى جذور النحو العربيّ في ظروف نشأته وعلاقته بالمنطق اليونانيّ وارتكازه على القياس ونظرية العامل.

ويبدو أنّ هذا الكتاب كان ردّة فعل للمفارقة المنهجيّة بين معرفتين مختلفتين تحصّل عليها عبد الرحمن أيوب، الأولى تراثيّة عربيّة، والثانيّة لسانيّة أجنبية، انتهت المفارقة عند حدود هذا الكتاب بانتصار منهجيّة المعرفة اللسانية على منهجيات المعرفة التراثيّة في علوم اللغة.

وبعد المفارقة التي أدت إلى النقد اقترب عبد الرحمن أيوب في أعماله اللاحقة من مفهوم الموافقة في الحوار العلمي بمعنى العودة إلى التوازن بين المعرفتين، والتعريف باللسانيات كما في محاضراته في اللغة التي نشرها سنة 1966م واهتمامه بالأصوات العربيّة واللهجات على أسس لسانيّة صوتيّة.

إن عبد الرحمن أيوب نموذج للطرح الحادّ الذي أدى إلى تأجيل تقبّل الثقافة العربيّة للسانيات إلى الجيل اللاحق في السبعينات من القرن العشرين، لأننا نعدُّ فوز تمام حسان بجائزة المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي في الرباط البدايةَ الحقيقيةَ لتقبل عموم الثقافة العربيّة للسانيات، ولا سيما أن بحثه كان عن القرائن النحوية واطّراح العامل والإعرابين التقديري والمحليّ، أي أنّ نقد نظرية العامل في النحو العربيّ على أسس لسانيّة أصبح رأياً علمياً يحظى باحترام وتقدير بعد أن كان رأياً ثورياً غير مرضيّ عنه عند عبد الرحمن أيوب.

وثمة مفارقة غريبة في هذا الفوز أو هذا التحولّ، ذلك أن اللسانيات (العربيّة) قد زرعت في بيئة مصر والشام، ولكنها أثمرت في بيئة المغرب العربيّ لأنهم عرفوا اللسانيات عبر الثقافة الفرنسيّة، فلم يمروا في مرحلة تشبه الترجمة أو ردّة الفعل.

في السبعينات من القرن العشرين أصبح الحديث اللسانيّ حديثاً مقبولاً عند المتخصصين والمثقفين، لأنّ رواده تجاوزوا النقد وحده إلى الحوار، كما في أعمال عبد الرحمن الحاج صالح، والطور الثاني من أعمال تمام حسّان مثل اللغة العربيّة معناها ومبناها، وتمتدّ هذه المرحلة إلى الثمانينات فتبرز أسماء جديدة مثل عبد القادر الفاسي الفهريّ، ومازن الوعر، وخليل عمايرة، ومحمد يوسف حبلص وعبد

السلام المسديّ وغيرهم، ثم يأتي الجيل الجديد بوعي أكثر انفتاحاً على اللسانيات وفروعها لكن للأسف بوعي منقوص إلى حدّ ما عند كثير منهم للتراث اللغويّ.

إذن، بدأ الطرح اللساني نقداً للنظريّة اللغوية ولا سيما النحو، ثم تحوّل إلى حوار متوازن في السبعينات بين البعد اللساني والبعد التراثيّ، ثم بات بعد ذلك وعياً متقدماً بالنظريات اللسانية من غير توازن مع النظريات التراثيّة الأمر الذي يجعله تيهاً نوع جديد؛ لهذا تصبح النتائج العمليّة في محصلة الأمر قليلة إذا ما قورنت بالجهود الفردية الضخمة على امتداد مساحة الثقافة العربيّة، لأن اللسانيات نفسها قد أصابها كثير من التطوّر والتغيّر حتى أمكننا الحديث عن تطوّر الفكر اللسانيّ في النصف الثاني من القرن العشرين، ولأننا إلى الآن لم نقدّم المشروع اللسانيّ المتكامل إلى حدّ ما حتى مع وجود دراسات لسانيّة رائدة زرع أصحابها رؤاهم اللسانيّة، لكن تلامذتهم لم يكونوا بمستواهم ليعتنوا بالزرع وليتوسعوا، ونقصد أعمال تمام حسان وعبد القادر الفاسي الفهري وعبد الرحمن الحاج صالح، وأكثر ما نخشاه أن ينبهر الجيل الجديد بهذه الأعمال فلا يرى بسبب نورها شيئاً يمكن أن يضاف أو يستدرك أو يعدّل أو يصحّح، فضوء الأستاذ أحياناً يعمي التلميذ.

ولا فائدة الآن من أن نقول إن منهجيات التفاعل اللسانيّ مع الثقافة العربيّة كان الأفضل لها أن تكون وفق كذا وكذا، لأن ما حصل قد حصل، لكن ينبغي الخروج من التيه بالإجابة عن الأسئلة التي تطرحها اللسانيات، والقبول بها شريكاً في تحديث الدرس اللغويّ من غير نسيان المنطلقات المعرفيّة المؤسّسة لعلوم اللغة العربيّة، ولا سيما في علم النحو.

أما علم الصرف والأصوات فللسانيات فيهما أن تجلّي وتعطي أحسن النتائج لأنّ الدراسات الصوتية تجريبيّة؛ لهذا كان حظّ اللسانيات الصوتية أحسن بكثير من اللسانيات النظريّة المجرّدة، كما في أعمال عبد الصبور شاهين، وكمال بشر والطيب البكوش، وسمير استيتية وداود عبده وغيرهم، لأن طرحهم كان هادئاً ومعتمداً النتائج العلميّة في اللسانيات الصوتيّة مثل مسألة الفرق الصوتي الحقيقيّ بين الصوامت والصوائت، وما يستدعيه هذا الفرق الحقيقي في إعادة وصف بعض دروس الصرف والنحو، كالإعراب التقديري والميزان الصرفي والإعلال والإبدال

وأصل الاشتقاق والصوائت الصوتيّة، لكن هذه النتائج الجيدة للسانيات الصوتيّة لم تأخذ حيّزها الحقيقي اللائق بها في الكتب المدرسية المقررة في معظم الدول العربية فبقيت آراء علمية يتداولها مدرسو الجامعات مع طلبتهم في مواد الأصوات والصرف واللسانيات مع أن قيمة هذه المنجزات هي في التوسع بالأخذ بها وتطبيقها، فالإيمان الحقيقي بأن الألف في العربيّة صائت طويل لا يكون مكتمل الدلالة إلا عندما يصبح الطلبة في المدارس التي تسبق مرحلة الجامعات قادرين على أن يقولوا إن الألف في مثل (قال) ليست منقلبة عن الواو، وليست حرفاً بل هي صائت طويل نتج عن اجتماع فتحتين بعد حذف الواو الأصليّة فهي حركة طويلة ووزن الكلمة (قال) ونوع الإعلال إعلال بالحذف، وليس ثمة قلب.

استثمار منجزات اللسانيات في العربيّة: مؤهلات النجاح وأسباب الفشل:

لا نستطيع الحديث عن الأسباب التي حالت دون استثمار منجزات الدرس اللساني في الثقافة العربيّة بمعزل عن توضيح مؤهلات النجاح التي لم تؤتِ ثمارها المبتغاة منها، ذلك أن مؤهلات النجاح نسبيّة، وأسباب الفشل نسبية.

1- مؤهلات النجاح:

كان الاتصال الحقيقي بين علماء العربيّة واللسانيات سريعاً في زمنه، فلم يكد نصف قرن يمضي على ظهور اللسانيات حتى كان بعض اللسانيين العرب يدرسونها في الغرب مثل إبراهيم أنيس وداود عبده وتمام حسان وكمال بشر وغيرهم، وهذا يعني أنّ الغرب سبق العرب بنصف قرن من الجهود اللسانيّة الحقيقيّة، وكان بالإمكان تجسير هذه الهوة بسرعة بهضم اللسانيات العالميّة بل وبالإسهام الحقيقي في تطويرها والمشاركة في المجهود العالمي في الدراسات اللسانيّة، لأن وسائل الاتصال السريع كانت تحمل بشرى بناء علاقة لسانيّة إيجابيّة بين اللسانيات من جهة والثقافة العربيّة من جهة أخرى.

والروّاد الأوائل كانوا على مستوى عالٍ من الإدراك العلمي، مما يسّر لهم فهم المعطيات اللسانيّة غير العربيّة بسرعة وإتقان، فهُمْ بصفتِهم الشخصيّةِ العلميّةِ من مؤهّلات نجاح الخطاب اللساني في الثقافة العربية، وسيرتُهم العلميّة تؤكد أنّ كلّ

واحد منهـم مؤهّل تأهيلاً عاليـاً ليكون في المسـتقبل عالم لسـانيات، لأنّ معظمهم إن لـم يكن كلهم كانـوا مبتعثين مـن جامعاتهم لإكمال دراسـاتهم العليـا، وعادة ما يكون المبتعثون من أوائل الأقسـام، وهذا الابتعاث يشير إلى وعي مبكر إيجابي من المسؤولين عن التعليم العالي آنذاك لأهمية دراسة اللسانيات بفروعها المختلفة.

يضاف إلى هذا أنّ العقليّة العربيّة تهتم بدراسـة علـوم اللغة حتى إن ثاني أكبر شريحة علميّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة هي شريحة علماء اللغة والنحو، وهذا يـدل على اهتمـام بالغ بعلـوم اللغة على مسـتوى الأمة، عـدا أن اللسـانيين الأوائل اسـتثمروا وقتهم بشكل ممتاز فمارسـوا الكتابة اللسـانيّة فور عودتهم إلى جامعاتهم والتحاقهم بالعمـل الأكاديميّ، لهذا فما قد نراه عملاً لسـانياً متميـزاً وغير متميز قد يكون نتاج الجهد العلمي الأول بعد مرحلة الدكتوراه.

ومـع هذه المؤهلات الدافعة للنجاح إلا أنه ثمة أسـباب موضوعية تحول دون استثمار منجزات الدرس اللساني بالشكل المرجو.

2- أسباب عدم النجاح (الفشل النسبي):

يبـدو أن مرجـع ضيـاع الجهـود اللسـانية إلـى حـدّ مـا يعود إلـى أنهـا كانت جهـوداً فردية من أفـراد محدودين معدودين ولـم تكن جهوداً جماعيـة لفرق علميّة أو مؤسسـات بحثيّـة، مع ما شـاب هـذه الجهـود من عـدم التنسـيق بين اللسـانيين ومؤسسـاتهم التي يعملون فيها، فلم تتبنَّ أي مؤسسة مشـروعاً لسانياً على المستوى العربيّ، له حدوده الدنيا من المواصفات العلميّة للمشروع اللسانيّ.

ويبدو أنه قد رافق عدَم التنسيق والفردية تخوّفُ المشتغلين بعلوم العربيّة آنذاك من أن تكون اللسـانيات فكراً لغويـاً مضاداً للفكر اللغوي العربيّ يسـعى إلى تجريد الثقافـة العربيّة من أهـمّ علومها اللغوية وهـو النحو، فتكون البيئـة الثقافية غير مهيأة لتقبل الطرح اللسانيّ، ولا سيما أن هذا الطرح كان الأفضل أن يمرّ بمرحلة التعريف بعلم اللسـانيات بالترجمة أو بالتأليف قبل الانتقال إلى تفعيل المعطيات اللسانية في الثقافة اللغويّة العربيّة.

يضـاف إلـى هـذا أن معظـم الجامعـات العربيّة قـد تأخرت فـي إدخـال مادة اللسـانيات بأسـمائها المختلفة إلـى المقـررات التعليميّـة لمرحلـة البكالوريوس أو

الدراسات العليا حتى إنّ بعض الجامعات العربيّة لم تعتمد مادة اللسانيات في أيّ مرحلة من مراحل التدريس فيها حتى الآن، وهو التوجّه الذي يعكس شيئاً من عدم إدراك أهمية هذا العلم الوافد في تحديث الدراسات اللغويّة؛ ويقلل بالنتيجة من إقبال الطلبة على دراسته في الجامعات الأخرى، الأمر الذي ينعكس سلباً على نسبة المتخصّصين في اللسانيات إلى غيرهم من متخصّصي العلوم اللغويّة في الجامعات العربيّة، وهي نسبة متواضعة لا تتناسب مع الآفاق التي تفتحها اللسانيات.

وقد يضاف إلى هذا وجود شكلين غير طبيعيين من الباحثين اللسانيين: الشكل الأول يتمثل في باحثين حاولوا عوربة اللسانيات وأسلمتها بمعنى محاولة إيجاد صيغة لسانيّة تنطلق من الموروث العربيّ لا من معطيات علم اللسانيات الحديث، فأخذوا من اللسانيات ما وجدوا له مثيلاً في الدراسات العربيّة، وما ناقضه درسوه تحت عنوان «التناقض بين المذاهب الألسنيّة الحديثة» للوصول إلى معادلة (لسانيات حديثة) في مقابلة (نحو واحد)، وهذا الشكل من الباحثين لا يمكن أن يضمّ إلى فئة الباحثين اللسانيين بالمفهوم العلمي العالمي.

أما الشكل الثاني فيتمثل بمجموعة من اللسانيين الذين تخصّصوا في دراساتهم الجامعية بالموروث اللغوي لكنهم قرأوا عن اللسانيات وتثقفوا بها مجاراة لموضة العصر الحديث، وطرحوا أنفسهم بوصفهم لسانيين، وما هم كذلك، لأن معرفتهم اللسانية غير منظمة بل غير مؤسسة على تصوّر صحيح حقيقي للسانيات علماً ومنهجاً. وهذان الشكلان لهما وجود قوي في جامعات المشرق العربي ولا سيما في العراق وسوريا.

إذن، يوجد في العالم العربيّ لسانيّون ولا توجد لسانيات، وتوجد لسانيات ولا يوجد لسانيّون، وهاتان نتيجتان لا تكامل بينهما، فعندما وجد اللسانيون وكثروا غابت الصياغة العلميّة التي تبين للقارئ العربيّ المتخصص والمثقف مفهوم العلم اللساني؛ لأنها تجاوزت هذه النقطة إلى طرح القضايا التفصيليّة، وقد نستثنى من هذا المأزق كتب مازن الوعر التي تلت أطروحته (نحو نظرية لسانيّة عربيّة حديثة) وكتب عبد الرحمن الحاج صالح.

أما وجود اللسانيات بلا لسانيين فيرجع إلى تداخل الطرح اللساني بين التأليف

والترجمة والتقريب والاختيار والحوار وحصر اللسـانيات بمنهج واحد من مناهجها مع أنهـا تتوافر إلى حد كبير على مبادئ داخلية عامة واحدة تسـمح بالتّنوع منذ أيام دو سوسير وبلومفيلد.

فأزمة اللسـانيات أزمـة طرح، ينضاف إلى هـذا أنّ ترجمةَ الكتب اللسـانيّة إلى العربيّة ترجمةٌ ضعيفة بشـكل عام باستثناء ما قام به اللسانيّون المحترفون مثل حمزة بن قبلان المزيني ومحمد فتيح، فأولهما لسـانيّ متميز في نقل الخطاب اللسانيّ ولا سيما (التحويلي) إلى الثقافة العربيّة بلغة علميّة واعية على الثقافتين الغربيّة والعربيّة باتزان وانفتاح، وثانيهما أنطق كتاب (المعرفة اللغويّة) لشومسـكي بلغة عربيّة علميّة محاورة لنقاط الافتراق والاتفاق بين المشـروعين اللغويين اللساني الغربيّ واللغويّ العربيّ.

وقد تثير هذه الترجمات سـؤالاً جوهرياً مؤداه: لمـاذا يتجاوز بعض المتميزين التأليف اللسـاني إلـى الترجمة اللسـانيّة؟! هل الثقافـة العربيّة بعد نصـف قرن ثقافة رافضـة لتداول اللسـانيات بين الباحثين العـرب أم أن الباحثين العرب لم يسـتطيعوا اللحاق بسرعة التغيّرات اللسانيّة في العالم، فاختاروا الترجمة لمسايرة التطوّر الهائل في الدراسات اللسانيّة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكيّة؟!

لسانيات بلا حدود:

إن سـرعة التطور في الدراسات اللسانيّة الغربيّة اسـترعت انتباه المؤرخين إلى التأريـخ لتطورات الدرس اللسـانيّ، لأن اللسـانيات من أسـرع العلوم نمـواً وتطوراً وتشـعباً فـي المناهـج والـرؤى والآفـاق والإنجـازات، ففـي الوقت الـذي نتحدث فيه عن أعمال شومسـكي نـدرك بوضوح المراحل التـي مرت بها النظريّـة التوليدية التحويليّة، ولكل مرحلة نظرياتها وتقنياتها وعلماؤها المختصّون فيها، وكذلك الأمر مع التداولية والوظيفية وصولاً إلى اللسانيات الحاسوبيّة، لكنّ هذا التشعب اللسانيّ لا يولـد صراعاً بين علماء المراحل والتطورات فـي الغرب لأنهم ينطلقون من رؤية موحدة تقريباً لعلميّة علم اللسـانيات، لكن الأمر في الثقافـة العربيّة المعاصرة يتخذ شكلاً سـلبياً من أشـكال الصراع تحت اسـم (اختلاف المناهج اللسـانيّة)، وهو في الحقيقة ناتج من نواتج عدم تجاوز الانبهار بأسـاتذة اللسـانيين العـرب في الغرب؛

لأن بعض اللسانيين العرب يتحدثون عن أساتذتهم في الغرب كما لو كانوا وحدَهم الذين عبروا بحار اللسانيات، وبالتحديد العلميّ تحوّل الأستاذ اللساني الغربيّ إلى حجّة لسانيّة على صحة المعلومات اللسانيّة عند بعض المتخصّصين في العالم العربيّ بدل أن تكون اللسانيات نفسها هي الحجة العلميّة، وهذا المأزق يذكر بالنحاة المتأخرين الذين كانوا يرجّحون رأياً في النحو أو الصرف بناءً على تبني أستاذهم له من غير أن يذكروا أدلة أستاذهم، وهذا يعني تحوّل العلم الواحد إلى شخصيات مختلفة، والشخصيات من طبيعة تعايشها الخلاف والاختلاف، فاللسانيات بلا حدود لكن الأشخاص يغلب أن تكون بينهم الحدود، وهذه الحدود تزول عندما يقرأ الآخر الآخر، لأنّ قراءة الآخر اعتراف بوجوده العلميّ، أما الانكفاء على الذات فيضيق ما اتسع.

وقد يؤدي هذا إلى القول بوجود صراع بين بعض اللسانيين في الجامعة الواحدة إذا كان كل واحد منهم قد تخرج في جامعة تختلف في منجزاتها اللسانيّة عن جامعة الآخر، وقد تصل الأمور حدّ شخصنة العلم اللساني بمقولة أنا اللسانيات وغيري لا، وهذا المأزق يذكّر ببدء مرحلة العقم في تاريخ النحو العربيّ، ففي القرن الرابع حاول أبو علي الفارسي الاستئثار بعلم النحو، فكان يردد «النحو ما نقول لا ما يقوله الزجاجي والرمانيّ والسيرافيّ» وكلهم متعاصرون بل تلامذة لأستاذ واحد، وهو ابن السرّاج.

إنّ مقولة أبي علي الفارسي كانت بداية مرحلة العقم في النحو العربيّ، وهي المقولة نفسها بألفاظ مختلفة التي تسود بعض المؤسسات العلميّة بين اللسانيين، لكن الفارق أن مقولة الفارسي كانت مسبوقة بإنجازات هائلة في تأسيس النحو العربيّ وتطويره، لكنّ اللسانيات في العالم العربيّ لم تحقق وجودها الكامل حتى تصل إلى هذه المرحلة، فهل عقدة الفارسيّ ما تزال تعيش بيننا بعد أكثر من عشرة قرون؟

يحارُ المدقق في أي بحث أو كتاب لأي لساني في العالم العربيّ من ظاهرة إغفال الآخر، فنجد نسقاً غريباً بين اللساني ومراجعه العلميّة، في الوقت الذي نجد فيه إهمالاً لكتابات عربيّة مفيدة ومفيدة جداً أحياناً لذلك البحث أو الكتاب؛ نجد

اختياراً زُمرياً محدداً له خصائصه التي تدلّ على إهمال الآخر. فهل المعاصرة منافرة والمجايلة مفاصلة؟! حتى في هذا العلم الذي يحمل مسؤولية نجاحه أو فشله كلُّ المشتغلين به عن قريب أو عن بعيد؟

قد تكون المشكلةُ مشكلةَ التواصل العلميّ بين القاطنين في هذا العالم العربي الواسع من المحيط إلى الخليج، لكنّ هذه المشكلة تزول بسهولة في ظلّ تقنيات الاتصالات السريعة بأشكالها المختلفة، وعندها قد تبرز مشكلات أخرى مثل أزمة المصطلح، وأزمة فَهْم التراث وأزمة فَهْم اللسانيات، وأظنها هي الأزمات التي يعبّر عنها بسراب الحدود الجغرافية، لأن العلَم بلا حدود واللسانيات علم.

ونعود إلى المعادلة غير المتوازنة بين اللسانيات والنحو، أو بصيغة أخرى اللسانيات والموروث اللغوي العربيّ لنوضّح أنّ اللسانيات علم صديق لكل الدراسات اللغويّة على مختلف لغاتها؛ لأنها علمُ شكلٍ ومنهج وأسلوبٍ وطريقةِ معالجةِ وبحثٍ، وليستْ بالضرورة الحتميّةِ فكراً جديداً، فهي كأيّ أداة حضاريّة يستعملها البشر من غير التفكير بفكر صانعها مثل السيارة أو أي آلة أخرى، وهذا يعني أنّ اللسانيات ليست بديلاً عن النحو العتيد ولا الصرف التليد ولا المعجم المجيد، فهي إن دخلت هذه العلوم أعادت تنسيقها وتحديثها؛ لتخرج بثوب جديد لكنه لا يلغي الأصول الصحيحة، ولننظر إلى الموروث اللغويّ العربيّ على أنّه برجٌ شامخٌ قديم يحتاج إلى كهرباء تضيءُ بداخله، ولونٍ يزهو به، وتغييرِ بعض النوافذ، وتحويرِ بعض المرافقِ والغرف؛ لكي يبقى صامداً قائماً بعمله، وهذا يعني أن اندماج اللسانيات بالعلوم اللغويّة العربيّة سيعيد إنتاجَها من جديد، وهذه الإعادة تحديث لا بدَّ منه عاجلاً أو آجلاً، ولا سيما في علم الأصوات والمعجم والموازين الصرفيّة.

وقد نتأخر بالرضا عن هذا الاندماج، ولكن لا مفرّ منه للمحافظة على بريق العربيّة؛ لأنّ اللغة بوصفها حقيقةً استعماليةً تبقى قائمةً ما دام أهلُها يتحدثون بها ويكتبونَ بها، لكن علومها ليست من قبيل الحقائق بل من قبيل آليات وصف الحقائق، وهذه الآليات قابلة للتغيّر لأسباب مختلفة، وقديماً مارس البصريون والكوفيون الاختلاف في آليات وصف الحقائق وتقنينها من غير تغيير الحقائق فكلمة (زيد) في جملة (يا زيدُ) آخرُها ضمة، هذه هي الحقيقة الاستعمالية الناجزة،

أما آليـات وصفهـا فمختلفة، هي عنـد البصريين ضمـة بناء في محـل نصب، وعند الكوفييـن ضمة رفع فلا بناء ولا نصب، فلماذا جاز لهـم قديماً الاختلاف في آليات وصـف الحقائـق وتقنينها ولا يجـوز للسـانيات الآن أن تنضـاف إلى هـذه الآليات لتقترح رأيها غير الملزم؟

النحـو شـيء واللغة شـيء آخر، والصرف شـيء واللغة شـيء آخـر، لأن اللغة العربيّـة حقيقـة لكن النحـو والصـرف علمان بآليـات وصف هـذه الحقيقـة وتقنينها وتفسـيرها وتعليمهـا، إذا أخذنـا بهـذه الحقيقة فسـنعرف أن اللسـانيات تحمل وعداً صادقاً بإعادة وصف اللغة نحواً وصرفاً وصوتاً ومعجماً لا إعادة اللغة نفسـها، فلغتنا باقيـة ببقاء مركزها اللغوي وهو القـرآن الكريم، فلا خوف عليها مـن منهج يقنّنها أو يفّسرها ما دام لا يلغي وجودها، واللسانيات تقوم على وجود اللغات فكيف تلغيها؟

مـن الغريب أننـا نمارسُ إعادة إنتـاج التراث كثيـراً، ونظن أننـا لا نفعل ذلك، فنحـن نطرح النحَـو بأمثلة معاصـرة ولغة سـهلة مفهومة معاصـرة، ولا نتقيـد تماماً بعبارات سـيبويه وابن السـراج وابن يعيش، في الوقت الـذي لا نخرج فيه قيد أنملة عما أصّلوه في كتبهم من قواعد وصفيّة ومعياريّة.

إنّ أي كتاب جديد في وقته هو إعادة إنتاج في الشـكل والصياغة للعلم نفسه، لكـن اللسـانيات إعـادة إنتاج واسـعة تتجـاوز الصياغة إلـى فحص أسـاليب صياغة المفهوم النحوي والقاعدة النحوية بل وطرائق بناء هذه المفهومات والقواعد، ويبدو أن بعض اللسانيين العرب يعيشون حالة انفصام في الشخصية العلمية عندما يعلمون شـيئاً، لكنهم في أبحاثهم العلمية يكتبون شيئاً آخر مختلفاً عما يعلمونه، ولا موجب لسرد أمثلة كثيرة على هذا الانفصام.

الفجوة اللغوية «الجاذبيّة القاتلة»:

وتخفـي معادلةُ النحـو واللسـانيات معادلةً أخـرى أصعب وأخطـر، يحل فيها مصطلح التـراث محل مصطلح النحو ليظهـر أمامه مفهوم العولمة بدل اللسـانيات، وهذا يعنـي أنّ اللغة العربيّـة يتجاذبها محوران، الأول: الماضـي الموروث، والثاني الحاضر الذي يتشـكّل تحت اسـم العولمة، والانجذاب نحو أيّ منها ينذر بالخطر، فالماضـي المـوروث فـي اللغة يعانـي ضعفاً كبيـراً فـي التنظير على مسـتوى النحو

والمعجم والصوت والتعليم والتعلم والبحث كما أشـار تقرير التنمية الإنسانية لسنة 2003م، وهذا الضعف حقيقة يقرّ بها كلّ المشـتغلين بعلوم العربيّة، لكنهم يختلفون بعد ذلك في وسائل معالجة هذا الضعف.

وهـذا الاختلاف في الحقيقـة جوهر المشـكلة، لأنه ليس اختلافاً في الوسـيلة فحسـب بل هو اختلاف دالّ على ضبابية إدراك الأبعاد التنظيرية الموجّهة للإصلاح اللغـويّ، فمفهوم النظرية اللغويّـة غائب إلى حد كبير عن أذهاننا بسـبب الخلط بين قوانيـن اللغـة ونظرياتها، وبشـكل عام فنحـن نعيش فـي قوانين اللغة، ولا يسـتطيع معظمنا أن يخـرج منها إلى عالم أرحب هـو عالم النظرية المؤسّسـة لهذه القوانين، وإن خـرج إلى هـذه النظرية فإنه يكتفـي بالطرح الجزئي المتـداول في أعمال بعض القدامى مثل الزجاجيّ في كتابه (الإيضاح)، وابن جني في كتابه (الخصائص)، وابن الأنباري في كتابيه (الإغراب) و(اللمع)، والسيوطي بعد ذلك في (الاقتراح).

وقد بات واضحاً أن بعض المعالجـات اللغوية الموروثة هي من قبيل الأوهام غير العلميّة، فالحديث في النحو عن مواقع إعراب أسماء الشرط والاستفهام حديث غير دقيق؛ لأنّ هذه الأسماء أدوات في فصيلة الحروف، وليست أسماء في الحقيقة، ولا مسـوّغ للقول بالإعـراب بالنقص حين تجعـل بعض الأدوات مسـتبدلات، مثل إعراب (من) في عبارة

- مَنْ يقرأ النحوَ يعجبْ به

اسـماً مبنياً فـي محل رفع مبتـدأ، مع أنها حرف لا يسـدّ عن المبتـدأ، لأنها لا تجمـع مواصفـات الاسـم إلا بتقدير الاسـتبدال، وهـذا التقدير غير دقيـق، وليصبح الأمر أوضح ننظر في إعراب (من) في تركيب:

- من غابَ عن المؤتمر؟

إذ يعربهـا النحـاة اسـمَ اسـتفهام مبنيـاً فـي محل رفـع مبتـدأ، وهـذا الإعراب يقـرّ بوجود مبتدأ ضمنـي، لكن هذا الإقـرار غير دقيـق لأن فيه مسـاواة بين الجملة الإنشـائية غير التامة والجملـة الخبرية التامة، فـإذا كان المبتدأ في حكـم الموجود، فعلامَ نستفهم؟

والحديـث في الصرف والأصوات عن تفسـير الإعلال والإبـدال والإدغام فيه

أوهـام تحتـاج إلى إصـلاح، والحديث فـي المعجم عـن حكايات خرافية لأسـباب التسمية فيه أوهام، مثل قول بعض اللغويين إن رجلاً أمسك طائراً جميلاً وحبسه في قفص، وألزمه التغريد فيه، لكن هذا الطائر عصى أمر الرجل وفرّ من قفصه، فسـمي بعد ذلك (عصفوراً) من الكلمتين (عصى وفرّ).

إذن، فالانجذاب إلـى الماضي الموروث بكل ما فيه أمـر قاتل، ويكفي أنه أثر من آثار عقدة الشعور بالكمال.

وأما الحاضر وما فيه من عولمة فلا يقل خطراً عن الانجذاب للماضي، فاللغة العربيّة في ظلّ العولمة تعاني من فجوة هائلة في التعامل مع وسائل المعرفة الحديثة بسـبب تلوين الإنتاج البشـري المعرفي باللغـة الإنجليزيّة حتى إن إسـهام العربيّة لا يكاد يذكـر، وهذه الهيمنة للغة الإنجليزية عولمة تحمل فـي طياتها خطراً كبيراً على اللغات الأخرى، استشـعرته بعض الدول حيـن خافت على كفايتهـا القومية اللغوية مثل فرنسا، فنشأ ما يسمى بـمحور الفرانكفونية؛ لكي يكون درعاً واقياً للغة الفرنسية في مواجهة اللغة الإنجليزية الطاغية على عالم الوسائل الحديثة في التواصل.

والعربيّة الآن بين أمرين: أولهما الانجذاب إلى الوقوع في فخ عولمة اللغات، وقد تكـون الإنجليزية هي الأقرب، وبذلك لا نخسـر حرباً أو معركة بل نخسـر في الحقيقة وجودنا، **فاللغة هوية الأمة بأفكارهـا وعاداتها وتقاليدها وتاريخها**، ولا أظن أننـا يمكن أن نتخلى عنهـا، لأننا من أكثر الأمـم حبّاً للغتها حتـى وصل هذا الحب عند البعض إلى درجة التقديس.

وأمـا الأمر الثاني فإعـادة تحصين اللغـة العربية على مسـتوى النحو والمعجم والصوت لتكون شـريكاً في مجتمع العولمة؛ له شخصيته المميزة له، وهذه الشراكة لها شـروط قد تكون صعبة لكـن لا بد منها، وأهمها تقديم أنمـوذج موحد لخطاب لغوي عربيّ عصري، وهذا الخطاب لا مناص فيه من الإفادة من اللسانيات بفروعها المختلفة؛ لكي نطرح بعد ذلك تنظيراً صحيحاً وتطبيقاً صائباً للنحو والصوت، وهذا الطـرح بحاجة إلى الأخذ بوسـائل غيـر لغوية لكنهـا ضرورية للغة وأهمها حوسـبة اللغة العربيّة حوسـبة حقيقيّة تتجاوز مجرد حوسبة الطباعة إلى حوسبة قوانين اللغة، والأخذ بمعطيات اللسـانيات الحاسـوبية بالمعالجة الآلية للغة، فاللغة العربيّة لغتنا،

فإذا لم نقم نحن بعبء حوسبتها فمن يقوم به إذن؟

ولا يغيب عن الذهن أنّ النموذج الموحد يتجاوز قضايا تعددية اللهجات في العالم العربيّ، وازدواجيتها، ومستويات الفصاحة أو الصواب، لأن وجود اللهجات حقيقة مرافقة لمعظم اللغات، ولا خوف منها على اللغة الموحدة، ما دامت لهجات محدودة التداول أو الانتشار، لأن محدوديتها لا تجعل منها خصماً للغة العربيّة الموحّدة.

ويبدو أن المعالجة الآلية ستفرض حتمية تأسيس الفِرَقِ العلميّةِ، فالحوسبة لا يقوم بها لساني أو نحوي أو حاسوبي وحدَه بل هي نتاج تضافر جهود فريق علمي يجمع عالم الحاسوب بعالم النحو وعالم الصرف وعالم الصوت وعالم المعجم وعالم الاجتماع وعالم الإعلام و...إلخ، لأنّ الفريق العلمي هو القادر على النهوض بهذا المشروع، ولعل غياب هذا الفريق هو السبب في فشل كثير من المعالجات الآلية للغة بسبب نقص مختصّ في الحاسوب أو اللغة أو الاجتماع، وكل المشكلات الفنية يمكن تجاوزها من خلال تحاور هذا الفريق العلمي.

وقد يطرح بعض الباحثين المجامع اللغويّة بوصفها نواة للفِرَق العلميّة التي تسعى لتطوير إدراك الناطقين بالعربيّة للغتهم وتحديث هذا الإدراك بالأبعاد الحديثة في اللسانيات، لكن المجامع العربيّة اللغويّة تعاني من ضعف في التمويل المالي، وفي الاتفاق على رؤية شبه موحدة للغة العربيّة، فهي إلى الآن لم تتفق بشكل عملي على قوانين كتابة الهمزة في العربية، وهذه المجامع تشبه إلى حد كبير مجالس الحكماء المعروفة عند اليونانيين، فهي مجامع لكبار السنّ من العلماء، وهؤلاء في معظمهم فقدوا حماستهم للمشروع اللغويّ بسبب الزمن، كما أنّ هذه المجامع في معظمها تفتقد إلى سياسة استشرافية وخطط إستراتيجية لعملها في المستقبل، لأنّ مشاريعها تقوم على أشخاص ترتبط بهم، فإن هم انشغلوا أو فارقوا الحياة ماتت مشروعاتهم، وما حديث المعجم التاريخي والمعجم الكبير ببعيد عن ذاكرتنا.

وقد تكون المجامع اللغوية مقيدة بتعليمات وقوانين تحدّ من حركتها كثيراً بل تجعلها عاجزة عن القيام بعملها، مما يعني أن أزمة المجامع اللغويّة لا يمكن الخروج منها على المستوى المحلي أو الوطني؛ إذ هي بحاجة إلى تفعيل ربطها

بمؤسسة واحدة قويّة على مستوى العالم العربيّ شرط أن تقوم تلك المؤسسة بتوحيد المنطلقات التأسيسية لهذه المجامع ثم توزيع العمل عليها وتنسيقه، لا أن يعمل كل مجمع كما يشاء، فما دامت اللغة للجميع، فالمجامع للجميع، وطبيعة عملها يجب أن تتنافى مع وجود أجندة خاصة بها إلا على صعيد التكامل في التنسيق وتوزيع المهام، وعلى أية حال فالحديث عن المجامع حديث ذو شجون.

إذن، فلا مفرّ من الوصول إلى حالة توازن بين الماضي الموروث والعولمة الحاضرة.

الفكر اللسانيّ العربيّ والفكر اللسانيّ الحديث: تلاقٍ أم طلاق؟

شهد القرن العشرون إعادة إنتاج جوانب كثيرة من الفكر اللسانيّ اللغوي العربيّ بفعل أسئلة عصر النهضة الحديث، وهذه الإعادة في الحقيقة كانت دليلاً دامغاً على أنّ الفكر اللسانيّ العربيّ لا يتجاوز عمره القرون الأربعة الأولى من الهجرة، لأن زمن الإبداع بعد ذلك قد تجمد باستثناءات قليلة هنا وهناك، فالنحو بطبيعته نشاط عقليّ وإن كان يقوم في أساسه على الدليل النقلي المتمثل بالسماع، ولهذا كان إعمال العقل في القرون الأولى سبباً في تشييد صرح ضخم لعلم النحو بسرعة مذهلة بمقاييس ذلك الزمان، لكن الحضارة العربيّة الإسلامية بشكل عام وإلى حدّ ما تحولت بعد ذلك من المنهج العقليّ غير المفارق للمنهج النقلي إلى المنهج النقلي البحت، فتجمدت العلوم ذات الطبيعة العقليّة كالنحو، وأصبح التأليف فيه إعادة تشكيل للمادة النحوية على شكل مختصرات أو شروح أو ألفيات شعريّة أو حواشٍ أو تعليقات أو نكت من غير النظر في طبيعته العقليّة لتجديده أو لتأكيد نظرياته بوسائل جديدة، أو أدلة جديدة.

وعندما جاء عصر النهضة متزامناً تقريباً مع بزوغ الفكر اللسانيّ الحديث برزت أسئلة حوار الآخر، فهل ثمة توافق بين الفكر اللسانيّ العربيّ والفكر اللساني الحديث أم هل ثمة اختلاف؟ وبصورة أدقّ من يدور حول الآخر وما المسافة العلميّة بينهما؟

وكانت الإجابات سبباً في توسيع الهوّة، فهناك من ذهب إلى أنّ الفكر اللسانيّ العربيّ فكر كامل غير مفتقر إلى الفكر اللسانيّ الحديث، فراح يعيد مقولات القياس

والعوامل والعلل، ويدلل على نجاحها بالعامل الزمني، فالفكر الذي يصمد ما يقرب من اثني عشر قرناً فكرٌ لسانيّ متطور ناجح، ولهذا شهدنا كتباً نحويّة في عصر النهضة لا تختلف عن المادة النحويّة المشكّلة في القرون السابقة، كأن الزمان ما تغيّر وإن تبدّل الأشخاص، وشهدنا داخل هذا الاتجاه من يدّعي الحداثة والتطور بدليل دخول أمثلة جديدة، فحلّ (خالد وسعيد وباسم ورباب) محل (زيد وعمرو وعبد الله وفاطمة)، وحلت جملة (قطفت القطن) محل جملة (أكلتُ التمر)، وهذا الاستبدال في الحقيقة استبدال شكلي لم يضف إلى جوهر الفكر اللساني العربيّ شيئاً وإن ساعد إلى حدّ ما على تحسين طرائق تدريس النحو العربي.

وراح فريق ثان يناقش نظريات النحو والصرف، ويهاجم منها ما يشاء بدواعي الخرافة وعدم العلميّة وتعقيد النحو والصرف، وعدم الإقناع بل وعدم المناسبة لعصر النهضة الحديث مثل إبراهيم مصطفى الذي انتفضَ على نظرية العامل، والدكتور المرحوم شوقي ضيف الذي وجد ضالته في آراء ابن مضاء عندما أعاد الحياة إلى كتابه (الردّ على النحاة) وحقّقه في منتصف القرن العشرين، لكنّ هذا الاتجاه يعاني عدم ثبات في الرؤية المنهجيّة للفكر اللسانيّ، فعلى سبيل المثال نجد الأستاذ الكبير عباس حسن في كتابه الرائع (اللغة والنحو بين القديم والحديث) يتحدث عن أدواء الفكر اللساني العربي الموروث في القياس والاستشهاد والتعليل والعامل والأوهام النحويّة، لكنّه في موسوعته المعروفة باسم (النحو الوافي) يعود إلى بوتقة الفكر اللغوي النحوي الذي انتقده، ويتّحد في شخصيته مع شخصية الرضيّ الأسترابادي شارح الكافية والشافية في القرن السابع الهجري، فلا يكاد يختلف عنه، والمأزق الكبير عند هذا الفريق يتمثل في أن الهدم لا يقابله البناء اللسانيّ، فإذا أثبتَ باحثٌ ما أن نظرية العامل لم يعد لها سلطان على النحو، فإن هذا الإثبات لا يعدّ إضافة علميّة ما لم يقدّم البديل العلميّ القادر على تفسير انتظام الظاهرة اللغويّة.

وراح فريق ثالث يطرح الفكر اللسانيّ الحديث بسبب إطلالته عليه في أوروبا وأمريكا مثل روّاد الحركة اللسانية العربية: إبراهيم أنيس وتمام حسان وعبد الرحمن أيوب وكمال بشر وغيرهم، لكنّ هذا الطرح كان آنذاك أقرب ما يكون إلى محاكمة غير عادلة للفكر اللسانيّ العربيّ، فهو يطرح مناهج الدراسة اللغويّة الحديثة، وما

تفضـي إليه من منجـزات حديثة فـي اللغـة والنحو والأصـوات، من غيـر أن يكون هذا الطـرح حواراً مـع التراث، أي أننـا كنا -وربما إلـى حد ما ما نـزال- نمثل في مطارحاتنا الفكرية اللسـانيّة وجهة النظر الواحدة التي تغيّب وجهات النظر الأخرى، وهـذا يعنـي أن الفكر اللسـانيّ العربيّ لم يدخل فـي حوار علمي حقيقـي مع الفكر اللسـاني الحديث ليحدد موقعه منه، وقد نسـتثني من هذا الحكم القاسي إلى حدٍّ ما أعمال الدكتور عبد السلام المسدي والدكتور عبد الرحمن الحاج صالح.

ولعل هذا التشـخيص يفرض علينا إعادة تقويم هذه الاتجاهات بإعادة دراسـة تلك الأعمال بموضوعية علميّة لا تهرب من الماضي لكنها لا ترهن نفسها للحاضر الحديـث في الفكر اللسـانيّ العالمي، لأننا بحاجة ماسـة جداً إلـى وقفة مع الإنجاز الحديـث لكـي يتعـدل مسـار البحث اللسـانيّ الحديـث، وعندهـا فقط نسـتطيع أن نتكلم عن موقع الفكر اللسـانيّ العربيّ من الفكر اللسانيّ الحديث؛ لأننا سنكون قد اطلعنـا على الفكريـن الاثنين، وعرفنا صـور أزمة البحث اللغـويّ الحديث المتمثلة فـي الخلط بين النظرية والتطبيـق، والخلط بين حدود اللفـظ والمعنى، والخلط بين الأصالـة والمعاصرة، والخلط بين الثابـت والمتغير، ومعرفة النظريـة اللغويّة العربيّة بتنقيتهـا من الشـوائب التي علقت بها عبر القرون بسـبب الممارسـات غيـر الدقيقة للنحاة المتأخرين سـواء في الجانب النظري، وهو المهـم، أو في الجانب التطبيقي، وهو النتيجة الطبيعية لسلامة التصور النظري للغة وعلومها المختلفة.

ولكـي نخـرج من هـذه الأزمة التـي يتناسـى بعض الدارسـين وجودهـا ينبغي أن نأخـذ بمقتضيات التخطيـط اللغوي السـليم، وأن نقبل بتعدد وجهـات النظر في الوسـائل لا في المنطلقات، وهذا يعني ضرورة الوصول إلـى فكرة المجمع العربي الموحّـد للغة العربيّـة بحيث تصبح سـائر المجامـع اللغويّة فروعاً تنفيذيـة له، لكي يتولـى هـذا المجمعُ الموحـد التخطيطَ لتحديـث الفكر اللسـانيّ العربـيّ، ولكي لا تنعكـس الأوضاع السياسـية والاقتصاديـة على اللغـة الموحّدة التي تجمـع بيننا من مختلف الأصول والمنابت، فالمشـكلة اللغويّة ظِلٌّ للمشكلة السياسية، ولا تحلّ إلا بالتنسيق المنطلق من أنّ اللغة ملك لجميع الناطقين بها، وليست ملكاً لدولة واحدة من الدولة الناطقة بها.

وفـي ظل غيـاب المجمـع الموحد تغيـب الرؤيةُ الموحـدة للسـانيات وتتكرر المحـاولات الفردية، وتضيع الجهـود، وتهدر الطاقات العلميّـة المتميزة حتى تصل إلى حدّ التعصب الأعمى لجهد شخص ما ليس لشيء إلا لأنه من أبناء بلده، وكفى بهذا دليلاً على تخلف اللسانيات في ثقافتنا، فهي لم تصنع لنفسها الهوية المميزة لها حتى الآن، ولم تتوسع إلى خارج الحدود اللغوية إلا قليلاً في ميادين علم الاجتماع وعلم النفس مع أنها توسـعت فـي أوروبا وأمريـكا حتى صارت مكوناً أساسـياً من مكونات كثير من علوم العصر الحديث.

وأحسـب أنّ قـراءة الآخر: الفكـر العربـي والفكر اللسـاني الحديـث، والفكر اللسـاني الحديـث والفكر العربـي، هي الكفيلـة بدخـول الباحث العربـيّ إلى عالم الإنتاج اللسـانيّ ليصبح العـرب والناطقـون بالعربيّة مسـهمين حقيقيين فـي الإنتاج اللسـاني العالميّ طرحـاً وتطويراً، لأننـا نحمل بيـن ظهرانيينا فكراً لسـانياً يمكن أن نطوره، أو نطوّر جوانب منه لكي يكون طرحاً لسـانياً حديثاً على المستوى العالمي، فعلى سبيل المثال يرى شومسـكي أنه لا تكون عوامل إلا المقولات المعجميّة، أي فصيلة الأفعال والأسـماء في حين يقدم الفكر العربـّي إضافة جيدة إلى هذه المقولة حيـن يرى أن العوامـل يمكن أن تكون مـن الحروف المختصة، فالدلالـة المعجميّة لكلمـة (يقول) تفسِّـر تحكّمهـا العاملـي بالفاعل والمفعـول، لكنها لا تفسـر تحكم الحرف (لم) بها نفسها عند الجزم، وإن كان الحرف ليس مقولة معجميّة.

كما أحسـب أن قـراءة الآخـر تعنـي البحث عـن مواصفـات جديـدة للباحث اللسـانيّ تتجـاوز المعرفـة بفرع من اللسـانيات إلـى ضـرورة معرفة الفكر اللسـانيّ الموروث مقروناً باللسـانيات الحديثـة ومنفتحاً على ثقافات العصـر ولغاته، فقديما قال الخليل: إنك لن تعرف النحو حتى تعرف ما لا تحتاج إليه من النحو.

البحث اللسانيّ في الأردن:

يبـدأ الحديث عـن البحث اللسـانيّ فـي الأردن مع تأسـيس الجامعـة الأردنيّة سـنة 1962م؛ ذلك أنها ضمت في هيئة تدريسـها الأولى شخصية علميّة ناقدة للنحو العربـيّ في صـوره المتأخرة بعد القـرن الخامس الهجـريّ، وهي شـخصية الدكتور المرحـوم شـوقي ضيف الـذي كان قدره أن يـدرس مـادة المـدارس النحوية ليقف

بطلبته آنذاك على اتجاهات الدرس النحويّ القديم، ثم ليزرع في ذهن طلبته، ومنهم الدكتور محمود حسني مغالسة أنّ في النحو رؤى نظريةً تغيب عن التأريخ العام للنحو، وهي رؤى ابن مضاء القرطبي في كتابه المعروف (الردّ على النحاة)، لكن هذا الأثر في لفت أنظار الطلبة إلى غير المألوف لم يترسخ إلا بعد تعيين الدكتور نهاد الموسى في الجامعة الأردنية ليمارس بدوره تشكيل الدرس اللغويّ والنحويّ في الأردن بلون يجمع بين الموروث القديم والمناهج الحديثة.

ثم بدأت اللسانيات تظهر بوضوح بعد تأسيس جامعة اليرموك في السبعينات من القرن العشرين، إذ ضمت نخبة من الباحثين اللسانيين مثل المرحوم الدكتور خليل عمايرة، والدكتور سمير استيتيه والدكتور فوزي الشايب وغيرهم، وفي الجامعات الأخرى كان هناك الدكتور جعفر عبابنة في الجامعة الأردنية ثم جاء بعده الدكتور وليد سيف والدكتور إسماعيل عمايرة، ثم ازداد عدد اللسانيين بتوسع الجامعات فبرزت أسماء كثيرة مثل الدكتور يحيى عبابنة في جامعة مؤتة والدكتور عبد الكريم مجاهد والدكتور عبد الحميد السيد في الجامعة الهاشمية وغيرهم.

إنّ ميزة الدراسات اللسانية في الأردن أنها دراسات ثنائية الوجه يجمع الباحثون فيها بين المعرفة المتميزة بالموروث اللغوي والمقارنة مع فرع من فروع اللسانيات أو منهج من مناهجها، وهذه الثنائية لا تكاد تفارق أيَّ متخصّصٍ بالدراسات اللغويّة في الأردن، ولا سيما الجيل الجديد، ولهذا قد يظن بعض الزملاء خارج الأردن أنّ ثمة تناقضاً في الإنتاج العلمي لدى بعض الباحثين الأردنيين بمعنى التأرجح بين القديم والحديث، ولكن التأرجح في الحقيقة حالة اتزان وتوازن بين الماضي الموروث والحاضر المستحدث، تحقق شرط التواصل مع التراث والانفتاح على المعطيات الحديثة، وهذه الدراسات في نظري هي الكفيلة بتطوير الدراسات اللغوية والنحويّة من منظور لسانيّ لا يهمل التراث، لأن تجاوز التراث أمر مستحيل لكنّ تطوير معطياته بأنظار لسانيّة أمر ممكن.

ويبدو أن البحث اللساني في الأردن يمزج بين التنظير والتطبيق بمعنى نفور عدد كبير من اللسانيين من الاكتفاء بالتنظير أو الحديث في المنهجيات والنظريات، وهي ميزة إيجابية تتفق وروح الدراسات اللغويّة الموروثة التي تجمع إلى التنظيرِ

التطبيق في كتاب واحد بل في مسألة واحدة أحياناً، لكن الدراسات اللسانيّة تعتمد إلى حد كبير على المقولات المترجمة أو المكتوبة باللغة الإنجليزية من غير تواصل تامّ ومستمرّ مع الباحثين اللسانيين في الغرب، فوسيلة التواصل العلمي في الغالب هي الكتب الإنجليزية أو المترجمة، وهذا يجعل البحث اللسانيّ مرهوناً بفهم لغة الخطاب والتعبير عنه بمصطلح مناسب، لأن الفهم ينطلق من معلومات قبليّة قد تؤدي إلى فهم خاصّ لا عام للمادة اللسانيّة الأجنبيّة، ولأن المصطلح غير مستقر إلى حدّ في الدراسات اللسانيّة العربيّة، فنصبح أمام أفهام وأنظار ومصطلحات لشيء علمي واحد ومنجز علمي غير متعدد.

والدراسات اللسانية في الأردن من التنوع بحيث لا نستطيع أن نسلكها في اتجاه لساني واحد وإن كان الاتجاه التوليدي التحويلي آخذ في النمو والاتساع ولا سيما في أبعاده النحويّة، والصوتيّة، والحاسوبيّة، ويبقى أنّ البحث اللساني في الأردن مؤسس على فهم عميق للتراث يسبق أي اشتغال أو تعلق بمعطيات اللسانيات الحديثة.

حديث الذات:

لم يدر في خلد أحد من أترابي قبل المرحلة الجامعية أن أصبح لسانياً أو نحوياً أو لغوياً، ذلك أن علم الرياضيات استهواني صغيراً وكبيراً، إذ وجدت فيه التفكير المنظم المبرهن الممنهج، ولكنني كنت أنظر إلى علم النحو على أنه ميدان من ميادين الرياضيات التطبيقية، لذلك درست النحو واللسانيات منطلقاً من فهم معقول أو قليل للرياضيات، ثم وجدت بعد ذلك أنّ أقرب العلوم إلى النحو علم الرياضيات، وليس ببعيد عن هذا حديث القدماء عن علاقة النحو بالمنطق؛ لذلك أعدت محاورة بعض القضايا النظرية في النحو العربيّ وفق الرؤى الرياضيّة مع الاستعانة بطبيعة الحال باللسانيات التي أصبحت في حالة تصالُح مع الرياضيات، وتكفي حالة نعوم شومسكي مثالاً ودليلاً عند الغربيين، وحالةَ مصطفى حركات مثالاً ودليلاً عند الباحثين العرب.

وقد درست النحو العربيّ وفق نظريات التباديل والتوافيق والاحتمالات والتنبؤ والخط المستقيم ونظريات المجموعات الرياضية، فوجدته علماً مبنياً على

منهجيات عامة مستمدة من ثلاثة مصادر، هي الشرع الإسلامي في أصوله الفقهيّة، وفلسفة التفكير العلميّ عند القدماء وأعني بها معطيات علم المنطق والحساب أي الرياضيات إلى حدّ كبير، والمصدر الثالث هو نظرية الشكل أو الصورة، وهذه المصادر الثلاثة جعلت النحو العربي علماً مستجمعاً لمواصفات العلم الحقيقي.

ففي كتاب (نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين) تبين لي أن النظام التفسيري للنحو والصرف في العربيّة جاء صدى للتفكير في شكل الكلمة (نظرية الشكل)، وعلاقاتها الموقعية بما قبلها وبما بعدها (نظرية الخط المستقيم) والحتمية في العلامة الإعرابية (نظرية التعميم) مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية للسياق اللغويّ في حالات الحذف والتقديم والتأخير، فتمّ بناء أنموذج نظري مجرّد للنحو والصرف يعيد تفسير المعطيات الناجزة من كلام العرب بمجموعة القواعد والتعليلات والأقيسة، فثمة نحو ضمني مثالي ونحو ناجز عملي، يمثّلُ الأول نتائج الأخذ بالأنظار العلميّة، في حين يمثل الثاني نتائج تفسير التباين بين القاعدة والاستعمال.

وفي كتاب (التفكير العلمي في النحو العربي) حاولت أن أقرأ الأفكار النظريّة في مقولات السماع والقياس والتعليل أو التفسير على ضوء المنهج العلمي الحديث مستعيناً بالرياضيات والتاريخ واللسانيات؛ لأبين أن النحو العربي مشروع علمي من أول خطواته، وهذا المشروع لم يكتمل لأنه للأسف تحول إلى عادات معرفية، فتوقف أو كاد، ولهذا نظرت إلى خاتمة الكتاب على أنها البداية للمشروع القادم وهو تقويم التفكير العلمي في النحو العربيّ، وهذا التقويم ينطلق من معطيات الدراسات الحديثة في نظريات اللغة، لهذا قد يكون مخالفاً في نتائجه عند تمامه عما هو متداول مألوف من الأفكار النحوية، ولعل أغرب ما رأيته أنه لا فرق في القدرات الدماغيّة بين سيبويه وابن هشام وبلومفيلد وشومسكي، فلابِسُ العمامةِ ولابُس البذلة عندما يعملان على دراسة أنظمة اللغات لا بد أن يلتقيا أو يتكاملا، وما الاختلاف بينهما إلا اختلاف في منجزات الزمان، فلو كان ابن هشام حياً بيننا لكان لسانياً يفخر بمعرفة اللسانيات الحديثة ويفيد منها في دراساته كافة؟

وإلى هذا الوقت أبحث عن رؤية واحدة للنحو العربيّ فلا أجدها لهذا كتبت

كتاب (رؤى لسـانيّة في نظريـة النحو العربـي)، وهو جزء من أبحاثـي التي حاولت فيها اسـتنطاق الآفـاق العلمية في النحو العربـيّ؛ لأنني على يقين مـن أنها في نهاية الأمـر رؤيـة واحـدة تبدو على شـكل بلـورة متعـددة الوجـوه، مما يعني أن مسـعى البحـث يتوجه إلى اسـتجماع هذه الوجـوه للإجابة عن السـؤال المـؤرق: ما نظرية النحو العربي؟ لعلي أجيب عن هذا السؤال لاحقاً إن يسّر الله وأعان.